الطبعة الثانية
٢٠٠٦

طبع بإذن من سيادة الاسقف باسيليوس منصور
اسقف طرطوس وصافيتا

البار سيرافيم ساروف

إهداء

إلى سيّد إنطاكية وسائر المشرق البطريرك أغناطيوس الرابع هزيم وكل الذين يخدمون الكنيسة الإنطاكية بقلب طاهر وضمير نقي في صحارى العالم وزحمة المناسك.

كلمة شكر واجبة

يشكل هذا الكتاب تجربة خاصة من تجارب الأباء القديسين في الحياة الروحية. نصُّه مؤثِّر، يثير الحماس لعمل الفضيلة والعبادة.

فشخصيَّة القديس سيرافيم المتواضعة، الوديعة والمشتاقة دائماً إلى المساكن السماويَّة خير مثال وقدوة لكلِّ راغبٍ في اعتناق الحياة الروحيَّة في أبهى حللها أي كونها علاقة عائليَّة تمتد بين الله والإنسان وكذلك بين الإنسان والإنسان في أبعاد وجوده الشخصاني.

كان القديس سيرافيم شخصاً فرحاً في حياته مع الله. وقد نقل هذا الفرح إلى من عاشره وسمعه. وأقواله المتوارثة منذ مائتي عام تقريباً تحمل فرحاً لا يوصف. ولما قرأته للمرَّة الأولى رأيت أنّه ليس من الحسن أن تبقى لغتنا العربيَّة خارج بركة هذا القديس العظيم وخارج نعمة أقواله. ولكن لولا أتعاب الآخرين لما استطعتُ حتى الآن إخراجه إلى لغة الضاد ولهذا نوجه الشكر للأب الياس وهبة خادم كنيسة السيدة العذراء في طرطوس والسيِّد ريان حوش وكلاهما تعب في الطباعة والإخراج. ونتوجه بالشكر لأستاذي اللغة العربيَّة إيناس عرنوق وجورج يعقوب. ولكل من ساهم في إخراجه وساعد في العمل به وخاصة الأستاذ طلال خوري الذي تبرَّع بطبعه لراحة نفس والده المربي الأستاذ فريد شاكر الخوري والذي كان له غيرة وحماس في خدمته الكنسية وخدمة مجتمعه في مناطق الكفرون وغيرها.

الأسقف باسيليوس منصور

مقدمة الطبعة العربية

إن الأنبياء والرسل والشهداء والأبرار وجميع الذين تدرَّجوا في سلم القداسة هم بشر مثلنا. تأملوا الكلمة الإلهية فآمنوا وكرَّسوا حياتهم لله وفتحوا قلوبهم لتكون له مسكناً، فأحبوه أكثر من جميع المخلوقات وانعكس حبهم على كل الخليقة، فسكب فيهم روحه وأعلن لهم أسرار ملكوته.

نشكر الله على مواهبه العظمى الذي أعطانا في كلّ العصور رجالاً عظماء تجنَّدوا له ووضعوا كلَّ إمكاناتهم في خدمة كنيسته متسلحين بالإيمان والصلاة والصوم، وتحملوا الجهادات الروحية ودخلوا في بوتقة الصراعات مع الشرير، فتغلبوا على أهوائهم، وصارت حياتهم أنقى من الذهب فملأهم الروح القدس. وبهذه الروح تخلّوا عن الأهل والأصدقاء وعن الأموال والممتلكات وعاشوا متكلين على رحمة ربهم، فأدخلهم إلى قلبه وغرقوا في بحر حبه وحنانه، ونطقوا بعظائمه، وأعلنوا ما في قلب الله من حنان ورحمة، وقالوا الحقّ ولم يهابوا الملوك والحكام و العذابات. كان همهم الوحيد أن يرضوا الله ويعلنوا مجده في حياتهم وكلماتهم.

ومنهم القديس سيرافيم ساروفسكي، وهو قديس معاصر، عاش حياة صلاة وصوم وتوبة وتأمل بعظائم الله، فتحلّى بالتواضع والوداعة والصبر، وعاش كملاك في العالم وتأله. نال موهبة صنع العجائب، ومعرفة ما في قلوب الناس الذين يزورونه من آلام وعذاب، وكانوا يطلبون نصائحه فكانت كلماته جذابة مليئة بروح التواضع تؤثر في نفوس السامعين، فتنير الذهن بنور روحاني وتقود إلى التوبة والقداسة، وكانت البلسم الشافي للنفوس والمعزية للقلوب. وجذب كثيرين بحياته وكلماته إلى الإيمان وحب الصلاة. وعلمنا أن غاية المسيحية هي اقتناء الروح القدس الذي يثمر فينا «المحبة والفرح والسلام وطول الأناة واللطف والصلاح والإيمان والوداعة والعفاف». أحب الصمت وحياة

العزلة وتمتع برؤى روحية وعاشر بالروح الملائكة والقديسين. كان مغموراً بالنور والفرح، يستقبل زواره ببهجة ويحييهم بكلمة: يا فرحي، المسيح قام! ويأتي إليه المتعبون وثقيلو الأحمال فيوجههم بكلماته النارية الملتهبة بالحب والإيمان فينصرفون من حضرته في سلام وفرح.

إن سيادة أخينا الأسقف باسيليوس منصور بدافع حبه للقديس سيرافيم ورغبته أن يوجد في كنيسة إنطاكية أناس يعيشون القداسة، حياة الإنجيل، فيزعزعون الشر ويقلعونه من النفوس، ويهزّون الضمائر ويغيّرون القلوب، نقل إلى اللغة العربية هذا الكتاب ليَضعَهُ بين أيدي الذين يتوقون أن يضيء عليهم نور وجه الرب، لعلَّ حياة قديسنا هذا تروي شيئاً من عطشهم إلى حياة روحية تلتهب بالحب وتتلألأ بالفرح والنور الإلهي الذي يهبه أبو الأنوار للذين يطلبونه.

يتساءل البعض هل نحن في أيام التكنولوجيا الحديثة وتحديات العصر نحتاج إلى أمثال هذا القديس أم نحتاج إلى وعاظ مفوَّهين ورجال متفوّقين بالعلم والمعرفة؟

إن عالمنا قد ملَّ من القراءة والسماع ويريد أن يرى وجه يسوع القائم من بين الأموات في وجوه بشرية. يرغب أن يرى أناساً يعيشون الإنجيل ويسعون بالنور السماوي وينطقون بالروح القدس، والكلمات تخرج من أفواههم ناراً ملتهبة، تحرق الشر في قلوب السامعين، وتقيمهم من قبر خطاياهم بنعمة المسيح القائم، وتعطيهم أن يصرخوا أمام كلّ إنسان: يا فرحي، المسيح قام!

الداعي
مطران اللاذقية وتوابعها
يوحنا

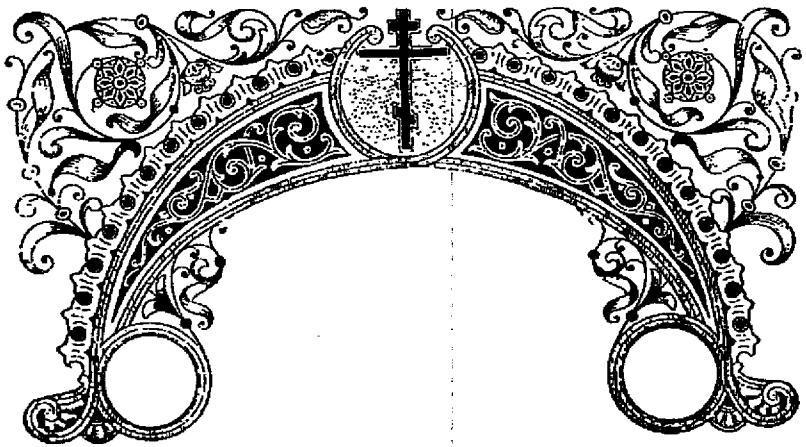

مقدمة الطبعة الأولى باللغة اليونانيَّة

بنشرنا لهذا الكتاب نكون قد حققنا وعداً مقدساً ووفينا نذراً قطعناه منذ سنوات عديدة للقديس سيرافيم ساروف حامي الجالية الروسية وبيت العجزة الروسي في أثينا وهو المعبد الوحيد الذي كرِّس على اسمه في اليونان حتى ذلك الوقت وقد تمَّ تشييده سنة ١٩٦٢م.

أما تحقيق رغبتنا وواجبنا فقد عجَّل به تمويل الطبعة من محسن مجهول تذكاراً «ليوحنا – وأبوستوليس – ووالدَيْهما وأخوتهما». نحو هذا

المحسن التقي ومن هذا الموقع نوجه شكرنا وندعو «ليعطيه الرب بحسب قلبه» وبحسب تقواه ورفعة محبته الغنية لهذا القدّيس.

لقد استعملنا في عملنا هذا كل مرجع روسي موثوق استطعنا أن نجده. وأكثر مراجعنا هي كتب ومقالات من الجرائد اليومية والمجلات الروسية التي نشرت مباشرة بعد إدخاله في لائحة قديسي الكنيسة الروسية الأرثوذكسية سنة ١٩٠٣م. فالتحديدات الزمنية المضارعة (اليوم، الآن) الموجودة في الكتاب، تعود إلى ذلك العصر. كما وردت في النصوص.

والعناصر التي جمعنا، تفرد بعض طيات (من حياة وتعليم وعجائب وموت وإعلان قداسة البار). من الممكن أن تكون مجهولة حتى الآن بالنسبة للقراء بشكل عام. وهذه العناصر عامة تعطي إطالة وضخامة في العمل لا يمكننا تجنبها.

وبسبب ضخامة المادة ساعدتنا في الترجمة بشكلٍ كبير الراهبة المتقنة للغة الروسية سيرافيميا بابا ستيرغيو من دير جميع القديسين في سبيتسس. إننا نشكرها بحرارة على تعبها التقوي ونصلي إلى الله أن يعطيها بوفرةٍ نعمته المقدسة بشفاعاته.

كل ما كتب ويكتب حول البار سيرافيم، الذي هو فخر الكنيسة الروسية والكنيسة الأرثوذكسية في كل المسكونة، لا يكفينا لإكرامه كالواجب «لقد عاش كملاك في العالم» وبحسب ناظم تسابيح خدمته اليوناني (أفعم روسيا بالعجائب واستحق أن يرى المستقبلات بوضوح وتقدّم نحو معاينة العالم اللاهيولي) والآن بينما يدخل القرن الثاني على وفاته (بالروح القدس). «من روسيا إلى كل المسكونة تضيء شعاعات أنوار حياته السرية». إن إيمانه الوطيد ورجاءه بالله – وتقواه العميقة واحترامه العميق للسيدة العذراء و قديسينا – وحبه بلا حدود للإنسان ولكل مخلوقات الله – وعلو تواضعه ووداعته – وبحر صبره وطول أناته – وكل الفضائل الإنجيلية التي اكتسبها بالصوم والصلاة وبالدم والعرق

« رغبة بالطبيعة الخالدة» قد حوَّلتْ القديس سيرافيم من إنسانٍ ترابي إلى ملاك أرضي وجعلته وعاء للروح القدس مختاراً وللنعمة الإلهية قارورة طيب جزيلة الثمن. لقد تطهرّ، تقدس ، تأله ، أصبح شريكاً للطبيعة الإلهية. واستحق الهبات الإلهية وقوى عجائبية ومواهب تقديس غزيرة إلى درجة لا تصدَّق. هكذا: نجد في شخص القديس سيرافيم أيقونة الله مسؤولة وكاملة ومقنعة.

لنمجد الله لأنه في الشتاء الروحي القاسي الذي يعاني منه وطننا بقدر ما يعاني منه وطن البار، لم يحرمنا على الأقل من تعزية العيش ومرافقة قديسيه أولئك الذين توفوا عن العالم وعاشوا للمسيح مرشدين إيانا على الطريق الوحيد للحياة.

لنصلِّ إذاً لكي يوجهنا مثله المنير، وتثبتنا صلواته في هذا الطريق الذي بحسب تعليمه، له هدف واحد ونهاية واحدة: وهو امتلاك الروح القدس.

أورويوس ١٩ تموز ١٩٨٧
الأرشمندريت تيموثاوس
رئيس دير المعزي.
تذكار نقل رفاة أبينا البار

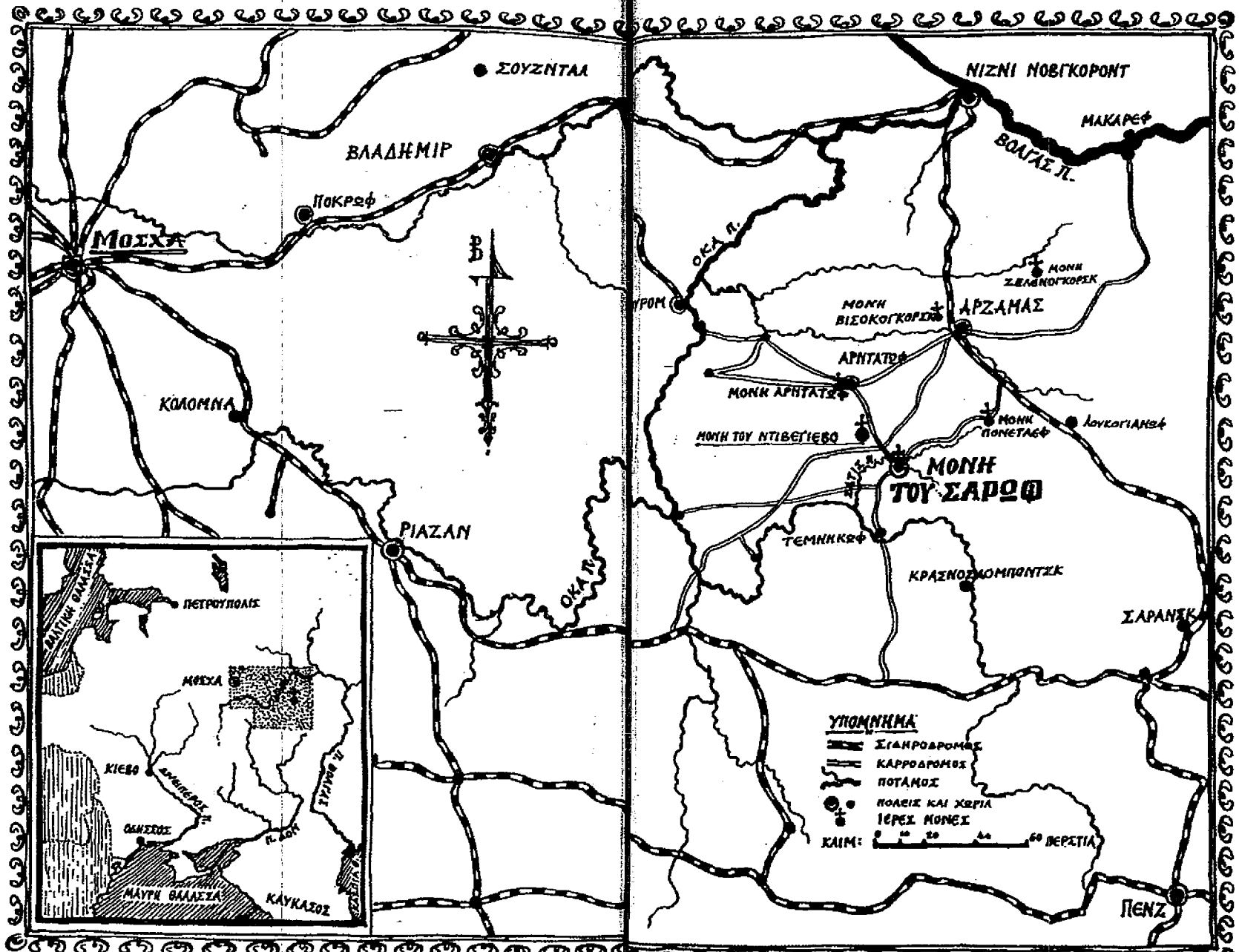
ΣΟΥΖΝΤΑΛ
ΒΛΑΔΗΜΙΡ
ΠΟΚΡΩΦ
ΜΟΣΧΑ
ΚΟΛΟΜΝΑ
ΡΙΑΖΑΝ
ΟΚΑ Π.
ΠΕΤΡΟΥΠΟΛΙΣ
ΒΑΛΤΙΚΗ ΘΑΛΑΣΣΑ
ΜΟΣΧΑ
ΚΙΕΒΟ
ΔΝΙΕΠΕΡΟΣ Π.
ΟΔΗΣΣΟΣ
Π. ΔΟΝ
ΜΑΥΡΗ ΘΑΛΑΣΣΑ
ΚΑΥΚΑΣΟΣ
ΝΙΖΝΙ ΝΟΒΓΚΟΡΟΝΤ
ΜΑΚΑΡΕΦ
ΒΟΛΓΑΣ Π.
ΟΚΑ Π.
ΥΡΟΜ
ΜΟΝΗ ΖΕΛΗΝΟΓΚΟΡΣΚ
ΜΟΝΗ ΒΙΣΟΚΟΓΚΟΡΣΚ
ΑΡΖΑΜΑΣ
ΑΡΗΤΑΤΟΦ
ΜΟΝΗ ΑΡΗΤΑΤΟΦ
ΜΟΝΗ ΤΟΥ ΝΤΙΒΕΓΙΕΒΟ
ΜΟΝΗ ΠΟΝΕΤΑΕΦ
ΛΟΥΚΟΥΙΑΝΟΦ
ΜΟΝΗ ΤΟΥ ΣΑΡΩΦ
ΤΕΜΝΙΚΟΦ
ΚΡΑΣΝΟΣΟΜΟΠΟΝΤΣΚ
ΣΑΡΑΝΣΚ
ΠΕΝΖ
ΥΠΟΜΝΗΜΑ
ΣΙΔΗΡΟΔΡΟΜΟΣ
ΚΑΡΡΟΔΡΟΜΟΣ
ΠΟΤΑΜΟΣ
ΠΟΛΕΙΣ ΚΑΙ ΧΩΡΙΑ
ΙΕΡΕΣ ΜΟΝΕΣ
ΚΛΙΜ: 0 10 20 40 60 ΒΕΡΣΤΙΑ

«الكاهن المتوحد سيرافيم»

القديس سيرافيم ساروف

مجمع الكنيسة الروسيه المقدس

قرار [*١] في ٢٩/ كانون الثاني /١٩٠٣

باسم الآب والابن والروح القدس

في ٢ كانون الثاني ١٨٣٣م، قبل سبعين عاماً، رقد بسلام المغبوط الستارتس المتوحد سيرافيم في برية ساروف. لقد جذب إليه خلال حياته بنسكه القاسي ومحياه المنير جمعاً من المسيحيين الذين أحبّوه بشكل لا يوصف وآمنوا بما لا يقبل الشك بقدرة صلواته العجائبية فأكرموه قديساً. وبعد رقاده المغبوط[*٢]، وحتى اليوم، يزداد، باستمرار وهج قداسته

[*١] مجلة المجمع المقدس «الحوليات الكنسية» ١ شباط ١٩٠٣، العدد ٥٠.

[*٢] هذه هي الصفحة الأولى لقرار المجمع المقدس المنشورة في مجلة »الحوليّات الكنسيّة«.

1 Февраля ═══ ГОДЪ ШЕСТНАДЦАТЫЙ ═══ 1903 года.

ЦЕРКОВНЫЯ ВѢДОМОСТИ,

ИЗДАВАЕМЫЯ

ПРИ СВЯТѢЙШЕМЪ ПРАВИТЕЛЬСТВУЮЩЕМЪ СУНОДѢ.

№ 5 | ЕЖЕНЕДѢЛЬНОЕ ИЗДАНІЕ СЪ ПРИБАВЛЕНІЯМИ. | № 5

Дѣяніе Святѣйшаго Сvнода

29 января 1903 года.

Во имя Отца и Сына и Святаго Духа.

Семьдесятъ лѣтъ тому назадъ, во 2-й день января 1833 года, въ Саровской пустыни мирно отошелъ ко Господу блаженный старецъ іеромонахъ Серафимъ. Своею высокою истинно - христіанскою подвижническою жизнію онъ еще у современниковъ своихъ стяжалъ общую къ себѣ любовь и вѣру въ дѣйственную силу предъ Богомъ его святыхъ молитвъ, а послѣ его блаженной кончины память о немъ, утверждаемая все новыми и новыми знаменіями милости Божіей, являемыми по вѣрѣ въ его молитвенное предстательство предъ Богомъ за притекающихъ къ нему, широко распространяется въ православномъ русскомъ народѣ и съ глубокимъ благоговѣніемъ имъ чтится. Вся жизнь его представляетъ высоко поучительные образцы истинно-христіанскаго подвижничества, пламенной вѣры въ Бога и самоотверженной любви къ ближнимъ. Еще юношею онъ оставляетъ родительскій домъ въ г. Курскѣ и, никому невѣдомый, приходитъ въ Саровскую обитель. Здѣсь онъ начинаетъ жизнь свою съ первыхъ степеней послушанія и смиренно проходитъ ихъ, отъ всѣхъ пріобрѣтая любовь къ себѣ и уваженіе за свою кротость и смиреніе. Восемь лѣтъ проходитъ предварительный искусъ въ готовности его вступить на путь иноческой жизни и, 13 августа 1786 года, принимаетъ иноческое по-

Ἡ πρώτη σελίδα τῆς δημοσιευθείσης στά «ἐκκλησιαστικά χρονικά» πράξεως τῆς Ἱερᾶς Συνόδου.

بالعجائب المتزايدة التي تحصل لكل الذين يطلبون معونته وصلواته بإيمان لا يتزعزع. لذا انتشر صيته بين الشعب الروسي الذي يكرّمه بتقوى وورع.

تبدو حياته كلّها وكأنّها مثال نسك رائع، إيمان حارّ وتضحية ومحبة نحو القريب. ترك بيت أبيه في كورسك وهــو فتى، ليترهبَ في دير ساروف ، غير معروف من أحد.

في الدير ارتقى بكل اتضاع درجات الطاعة، واستطاع أن يحوز على احترام ومحبة الإخوة كلهم بسبب وداعته. واستمرت تجربته ثمانية أعوام، في انتظار صيرورته راهباً. في ١٣ آب ١٧٨٦م لبس الأسكيم الرهباني وأخذ اسم سيرافيم. وبعد شهرين صار شماساً. لقد ارتقى الأب سيرافيم الحياة الروحية من قوة إلى قــوة محصّناً بتواضعه.

وكشماس، كان يقضي النهار كله في الدير يخدم الصلوات ويحافظ بكل دقة على القوانين الديريّة ويتمم واجباته. ولكنه خلال الليل كان يبتعد إلى قلايته المنفردة في الغابة حيث يمضي ساعات الليل مصلياً، وفي الصباح الباكر يعود إلى الديــر.

في ٢ أيلول سنة ١٧٩٣م شرطِن كاهناً، مما جعله يلَجُ الجهاد الروحي بحماس ومحبه أشد. ولم يعد يرضيه ثقلُ حياةِ الشركة المتعب بالنسبة للآخرين، أي الصلاة المشتركة، الصوم، الطاعة وعدم القنيه. لقد كــان العطش ينمو فيه طلباً لنسك أرفع.

ترك الأب سيرافيم الديــر ببركة رئيسه وانسحب إلى داخل غابة ساروف الكثيفة حيث مكث خمس عشرة سنةً عاشـهـا عيشة توحّد مطلق بصوم شديد وصلاة دائمة وتأمل في الكلمة الإلهية، وأتعابِ جسديه.

قلّد العموديين القدماءَ مدّة ألف يوم وألف ليلة. فقد كان يصعد على صخره ويقف رافعاً يديه إلى السماء مردداً صلاة " يا الله ارحمني أنا الخاطئ ".

وبعد أن أنهى فترة حياة الانفراد عاد إلى دير ساروف حيث أغلق

على نفسهِ مدة خمسة عشر عاماً. في السنوات الخمس الأولى فرض على ذاته قانون الصمت وبواسطة الصلاة الدائمة استنار بكامله من النعمة الإلهية واستحق أن يعيش اختطافات روحيه ويعاينَ رؤى إلهية.

بعد انقطاعه خرج ناضجاً في الحياةِ الروحية وشيخاً في السن مكرِّساً ذاته لخدمة القريب. الغني والفقير، المشهور والبسيط. كان الناس يجتمعون بالآلاف كل يوم حول الشيخ المتعبد. يبوحون بأسرار قلوبهم أمامه ، مؤتمنينه على آلامهم ومتقبلين بشكر كل كلمة منه.

كان الستارتس يقبلهم بفرح ومحبه، ويدعوهم، أبي وأمي، يا فرحي ويباركهم ويعلمهم ويرشدهم. كان يعرِّف الكثيرين من المؤمنين ويشفي المرضى. وبينما يقدم للبعض منهم الصليب المعلق على صدره لتقبيله (الذي أعطته له أمه كبركة). كان يطلب من البعض الآخر أن يسجدوا ويقبلوا الأيقونة المقدسة الموجودة على الطاولة في قلايته. ويوزع البروتي للكثيرين على سبيل البركة. أو ماءً مقدساً أوخبزاً يابساً أو يمسحُ جباهَ آخرينَ بالزيت من القنديل ويحتضن بعضهم الآخر ويقبِّلهم قائلاً: «المسيح قام».

كان الفرح الروحي يملأ الستارتس إلى درجة أنه لم يحزن مرّة ولم يغضبْ. وقد حاول أن ينقل هذا الفرح إلى الآخرين. كان مزيناً بالوداعة وعدم الشر والتواضع العميق وعدم القنية أكثر من كل الفضائل الأخرى.

لقد أنهى حياته على الأرض بقلبٍ نقي مملوء بالمحبة. ورقد بالرب بهدوء وبسلام، بينما كان ساجداً أمام أيقونة العذراء «فرح كل المحزونين» ويداه مصلبتان على الصدر والرأس منحن.

بعد رقاده المغبوط أخذ صيت حياته النسكية السامي ينتشر. ولم يعرف الاضمحلال بل كان يزداد باستمرارٍ في صفوف الشعب الروسي. والروس الأرثوذكس يكرمون الستارتس المغبوط من أعماق قلوبهم كعبد حقيقي لله ويؤمنون أنه حتى بعد رحيله من العالم لم يتوقف عن الشفاعة لأجل الذين يدعونه.

فالرب العجيب في قديسيه سرَّ أن يصنع بواسطة الأب سيرافيم الكثير من العلامات والشفاءات.

والمجمع المقدس الذي يشارك الشعب الروسي إيمانه بقداسة المطوب الذكر الأب سيرافيم قام بعدة أعمال لإعلان قداسة البار رسمياً.

هكذا بعد جهد عامين جمع أسقف تامبوف من كل البلاد ٩٤ عجيبة للآب سيرافيم وسلمها سنة ١٨٩٥م للمجمع المقدس.

وقد حفظت في أرشيف دير ساروف مئات الرسائل من المؤمنين الذين أحسن إليهم من الستارتس عجائبياً، فأعطيت الأوامر لرئيس الدير أن يحصي أهم شهادات العجائب. وبعد ذلك أن يسجل بكلِّ دقة أية عجيبة جديده تعلن للدير.

جمع المجمع المقدس كل الإثباتات الخاصة بذلك ولكنه تأخر عن أخذ القرار النهائي بسبب ضيق الوقت إلى يوم ١٩ تموز١٩٠٢م يوم ذكرى ميلاد الأب سيرافيم. في تلك الأثناء ذكّر معالي قيصر روسيا المجمع المقدس أن يضع في حسبانه أن القديس لم يمنح فقط المقدرة على صنع العجائب ولكنه استحق هبة الصلاة الحارة، وأنه زيادة على ذلك كان يتمتع بمحبة وإكرام كل الشعب الروسي. وعبر عن رغبته بأن تكمّل عاجلاً إجراءات إعلانه بشكل رسمي قديساً.

بالحقيقة قام المجمع المقدس بتمحيص هذه القضية الهامة بكل مهارة. فحصَ بكلِّ حرص العجائب الكثيرة العدد التي أجراها الستارتس سيرافيم بصلواته وتحقق أنه لا يوجد أي شك في صحتها. وتظهر هذه العجائب قدرة الله التي بشفاعات الأب سيرافيم فعلت في المرضى الذين التجؤوا إليهِ بإيمانٍ وصلواتٍ.

بعد ذلك أوكلَ المجمع المقدس إلى مطران موسكو فلاديمير مهمة التأكد من موقعِ القبرِ ومن وجودِ رفات الأب سيرافيم لتكون مادةً للإكرام من قبل المؤمنين الذين يطلبون شفاعاته.

في ١١/ كانون الثاني/سنة ١٩٠٣م. قام بالتدقيق حول وجود

قبر ورفات الأب سيرافيم كل من مطران موسكو فلاديمير وأسقف تامبوف ديمتريوس وأسقف نيزينكورود نزاريوس. وأرشمندريت سوزدال سيرافيم والنائب الملكي في مكتب موسكو المجمعي مع أربعة أشخاص رسميين أيضاً وفي النهاية حرَّروا نصاً خاصاً وقعوه بأيديهم.

بعد ذلك رفع المجمع المقدس المتأكد تماماً من قداسة الأب سيرافيم مجداً «للرب العجيب في قديسيه» الذي يتعطف دائماً على الحكومة الروسية. وارتضى الآن في عهد القيصر نيقولاوس الكسندروفيتش أن يظهر بإعلان رسمي قديساً وبطلاً جديداً في الإيمان.

ثم رفع المجمع المقدس إلى القائد الأوحد نيقولاوس تقريراً يحتوي على القرارات التالية:

١- إن الأب سيرافيم الكلي التقوى الذي استراح في برية ساروف ينضم إلى لائحة القديسين الذين مجدتهم النعمة الإلهية، وستوضع رفاته في صندوق خاص أعده لهذا الغرض القيصر العظيم لكي يأتي المؤمنون إليه ويسجدوا ويقدموا الإكرام الواجب نحو القديس بصلواتهم.

٢- سيوضع للبار سيرافيم خدمه خاصة ولكن إلى أن تجهز هذه الخدمه سيقام له من يوم إعلانه رسمياً، قديساً، خدمة الأبرار العامة.بينما سيعيّدون يوم تذكاره في ذكرى وفاته «٢ كانون الثاني» وفي ذكرى نقل رفاته المقدسة.

٣- سيعلن المجمع المقدس هذا كله للشعب المسيحي.

مع هذا التقرير رفع المجمع المقدس إلى القيصر نصاً عن التدقيق في القبر وفي رفات القديس المكرمة، وعرضاً مختصراً لعجائبه. وفي ٢٦ كانون الثاني من نفس العام تكرّم القيصر نيقولاوس نفسه بتدوين هذه الملاحظة بيده على تقرير المجمع المقدس. «لقد قرأتها بفرح عميق وشعور صادق بالتقوى ».

لما رأى المجمع المقدس عبارة القائد الأوحد هذه على التقرير قرر أن يوكل إلى مطران مدينة بطرسبرغ ولادونكاس انطونيوس أن يقيم في

١٩ تموز من العام نفسه أول صلاة احتفاليه لإكرام البار سيرافيم ساروف العجائبي مرفقة بنقل رفاته المقدسة يعاونه في الخدمه أساقفة تامبوف ونيزينكورود.

وأخيراً عمم المجمع المقدس منشوراً على الشعب وشجّعه أن يرفع الجميع معاً مجداً وشكراً للرب «الذي هكذا ارتضى» وشجع أيضاً أن يقبل ظهور المحامي العجائبي الجديد كبركة سماوية جديدة، حلّت في أيام الإمبراطور نيقولاوس الذي يتعب بلا ملل في خدمة الشعب الأرثوذكسي الروسي ويحتضن بعنايته الملكية ومحبته كل رعاياه بلا تمييز بين رتبة أو مكانة اجتماعية.

الفصل الأول

سنوات شبابه

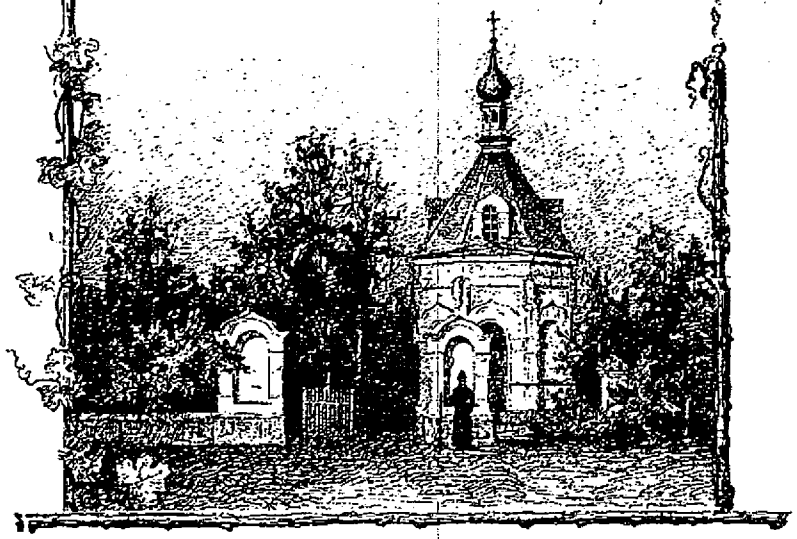

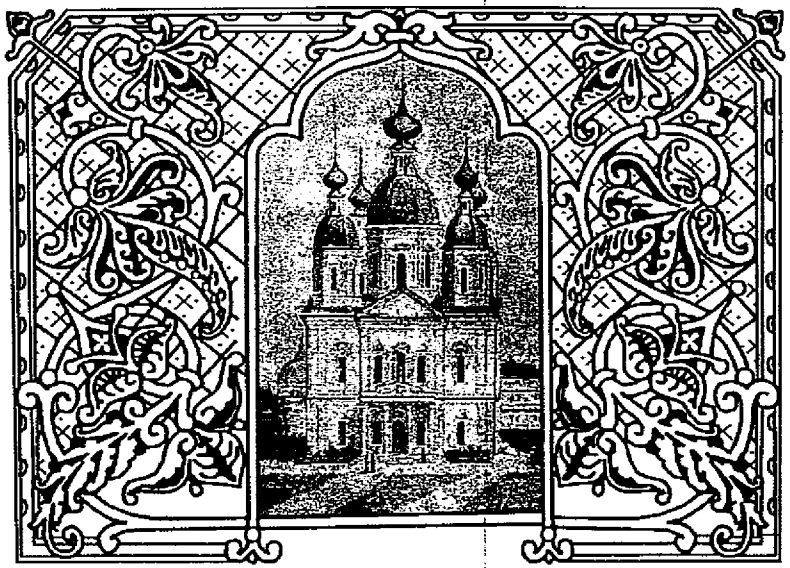

والداه التقيَّان

عاش البار سيرافيم في صحراء ساروف أكثر من خمسين سنة وقد نفع الكثيرين في حياته بالكلمة والمثال والصلاة، وبعد رقاده أيضاً لم تتوقف حياته المقدسة التي انتشرت من فم إلى فم، ولن تتوقف عن إفادة كل مسيحي حسن النية.

ولد في كورسك حيث يقع بيت والده في شارع سيرغي بالقرب من كنيسة القديس سرجيوس وهي من معالم المدينة الهامة، ولكن بسبب المخطط الذي وضعته كاترين الثانية لبناء المدينة انتقل البار وسكن قريباً «من أبواب موسكو» الحالية حيث كان أخوه الأكبر الكسيوس ساكناً.

كان والداه ايسيذوروس وأغاثي موسنين تاجرين موسِرَيْن. فوالده يملك معملاً لمواد البناء بالقرب من كورسك وفي الوقت نفسه كان يتعهَّد بناء كنائس وبيوت من حجر. وكان معتبراً من الشرفاء ويسرّه أن يبني

الكنائس.

وبينما كان قد بدأ ببناء كنيسة على اسم القديس سرجيوس راندونيز العجائبي من تبرعات المؤمنين، توفي فجأة تاركاً لامرأته الاهتمام بإكمال الكنيسة. (وقد اعتبرت الكنيسة كاتدرائية سنة ١٨٣٣م)

أما أغاثي فكانت معروفة بتقواها وأعمالها الصالحة كمساعدة الفقراء وخاصة الأيتام طيلة حياة زوجها وبعد مماته، وقد طلب منها مرّة أن تجهز عروساً فقيرة فاستجابت للطلب بالرغم من الكلفة الباهظة التي كانت ستتحمّلها.

استمرت أغاثي ببناء كنيسة القديس سرجيوس لعدة سنوات، مشرفةً بنفسها على سير العمل كما طلب منها زوجها ايسيذورس. وكانت هذه رغبتها أيضاً. اكتمل بناء الكنيسة سنة ١٧٧٨م وكان بناؤها جيداً حتى أنه لم يصب بأذى حتى يومنا هذا. أما الذهب الذي استعمل لتغطية جدران الكنيسة لم يحتج لتجديد قط، بل لا يزال محتفظاً ببريقه. وقد زيّن المعبد من الخارج والداخل بمنحوتات جميلة. وصنع الايقونسطاس من خشب محفور مغطياً كل الجهة الشرقية حتى الحنية. ويقال إن بناءه احتاج لعشر سنوات. وهكذا بفضل مثل هذه الأعمال استحقت عائلة موسنين إكراماً كبيراً.

في هذه العائلة ولد الأب سيرافيم سنة ١٧٥٩م في ليل الثامن عشر نحو التاسع عشر من تموز ودعي بروخورس إكراماً للقديس بروخورس. أحد شمامسة الكنيسة الأولى السبعة وكان عنده أخ أكبر يدعى الكسيوس. ورث بروخورس فضائل والديه وخاصة تقواهم. لم يكن عمره قد تجاوز السنوات الثلاث عندما فقد والده، وهكذا أصبحت أمه مربيته الوحيدة. لقد علّمت أغاثي صغيرها كثيراً من مثلها. فورّثته مشاعرها ،مثل محبة الفقراء ومحبة جمال الكنائس والصلاة الحارة.ومنذ سنوات بروخورس الأولى، نلاحظ بكل وضوح تدخل العناية الإلهية في حياته .مرّةً أخذته أمه معها وهو ابن سبع سنوات إلى جرسية كنيسة القديس سرجيوس

العالية جداً والتي كانت تبنى آنئذ، وفجأة غاب عن نظرها، وسقط من ذلك العلو المخيف فهبطت الأم مرتعبة راكضة وهي متأكدة أنها ستجد ابنها قد مات. ولكن فرحها كان لا يوصف عندما رأته يقف على قدميه سليما معافى بلا أذى وشكرت الله بدموع لحمايته العجائبية.

امتلك بروخورس فضائل كثيرة، وتميز بوداعته وتواضعه وقوة ذاكرته وحساسيته ولم ينقصه شيء في الجسديات. كان قوي البنية. بدأ تعلم الحروف المقدسة بحماس في الثامنة من عمره. وفجأة مرض مرضاً شديداً دون أي أمل بشفائه، وفي أخطر مراحل مرضه شاهد الكليَّة القداسة والدة الإله التي وعدته أنها ستزوره وتشفيه. وبالفعل صادف في أحد الأيام أن زياحاً كان يمر بالقرب من بيت موسنين وكانت أيقونة عجائبية لوالدة الإله تتقدم الزياح. فجأة هطل المطر بغزارة. فتوقف الزياح وأدخلت الأيقونة إلى حديقة بيت بروخورس إلى أن تعبر العاصفة. وللحال أسرعت أغاثي وأنزلت الولد المريض وعبرت به من تحت الأيقونة. من ذلك اليوم أخذت صحته بالتحسن، حتى استقامت كلياً. وعاود الدراسة من جديد، فتعلم الكتابة، ودرس السواعي والمزامير، وأكثر منها العهد الجديد وكتباً روحية أخرى متنوعة.

دعوته الرهبانية

اضطرَّ بروخورس أن يعمل مع أخيه الأكبر الذي كان مالكاً لمتجر خاص في كورسك. وقد صرح البار سيرافيم بعد التحاقه بدير ساروف وهو يتحدث إلى N. A.M «أنني انتمي إلى عائلة تجار في كورسك وقبل أن آتي إلى الدير كنا نتاجر بتلك المواد، التي تعطي ربحاً كبيراً ».

لقد كانت هذه المواد أشياءً ضرورية للحياة الزراعية مثل السيور والقطران والسياط والأقواس والأحذية الزراعية والحديد وغيرها. ولكن التجارة والمرابح الجزيلة لم تجذب قلبه الذي كان رابضاً حيث كان كنزه، أي في الأشياء الروحية التي تساعده على خلاص النفس.

اعتاد أن يذهب إلى الكنيسة كل يوم. لم يكن عمله يسمح له بحضور

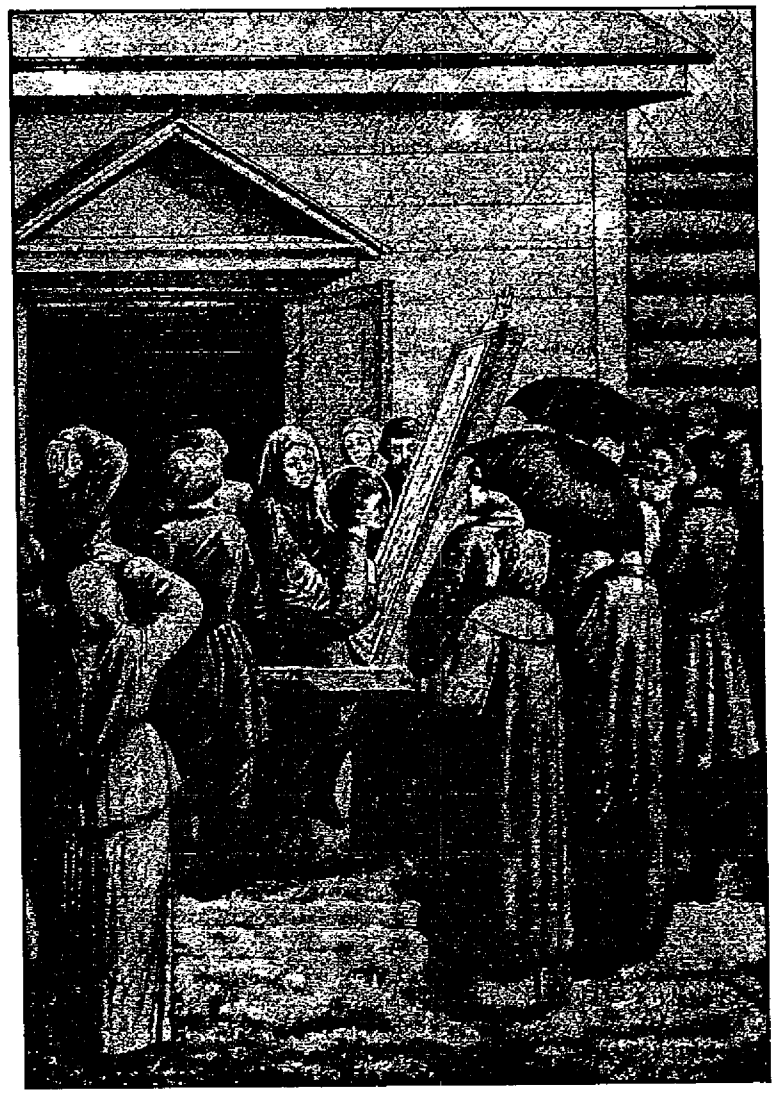

شفاء بروخوروس العجائبي

القداس الإلهي والغروب دائماً. لهذا كان يستيقظ باكراً ليصلي صلاة نصف الليل وبعد ذلك يسرع إلى الكنيسة ليتابع صلاة السحرية. وأحبَّ أن يدرس الكتب التعليمية في الأعياد والآحاد. وأحياناً كان يجمع رفاقه لسماع القراءة. وأكثر ما كان يسره، الوحدة والتأمل والمحادثة المفيدة للنفس مع أشخاص روحانيين.

في ذلك الوقت عاش في كورسك أحد المتبالهين بالله من سكان البلدة المحترمين من الجميع. للأسف لقد نسي اسمه، وكان قد اتخذ هذا النوع من الجهاد الصعب لخلاص نفسه منذ حداثته. لم يتأخر بروخورس عن التعرف إليه والالتصاق به من كل نفسه. وأحب الناسك الفتى وأخذ يدفعه بمثالية نحو الفضيلة واليقظة الداخلية.

أما أغاثي التي كانت تراقبه، فقد كانت فرحة وموافقة له في أعماقها، ولكنها كانت قلقة على تطور مستقبله، ونوع الحياة أو العمل الذي سيختاره ابنها. هكذا مرّت السنون. أخذ بعدها بروخورس يتحدث عن الحياة الرهبانية. ويعترف لأمه حذراً بخصوص رغبته هذه ويسألها دائما السؤال التالي «هل ألتحق بالدير؟». أما هي فلم تكن تبدي اعتراضاً قط بل كانت تشجعه. وهكذا نمت رغبته بالحياة الرهبانية. وأخذت الأحاديث تزداد مع المعارف والأصدقاء الذين وافقه الكثيرون منهم، وأراد أبناء بعض التجار تقليده واللحاق به.

نضج قرار بروخورس لما بلغ السابعة عشرة من عمره وكانت أمه قد قررت تركه يحقق رغبته إذ أرادت أن يخدم ابنها الله. وعلى كل حال فهي لن تعيش وحدها فابنها الكبير الكسيوس يعيش قريباً منها.

في لافرا الكهوف

انشغل بروخورس لوقت طويل بالتساؤل بأي دير سيعيش ؟. في النهاية قرر الذهاب إلى بريّة ساروف حيث كانت الحياة الرهبانية هناك قد حازت على إعجابه فالكثيرون من الأخوة هناك ومن بينهم الرئيس باخوميوس كانوا من كورسك.

الستاريس الناسك ذوسيثيوس يبارك الولد بروخوروس

لكنه قبل أن يذهب إلى ساروف فكّر بالذهاب أولاً إلى لافرا الكهوف في كييف ليعاين جهادات الرهبان، ويسترشد بأبٍ روحي خبير ويأخذ البركة لكي يتشجع في قراره. وهدف أيضاً أن يسجد لرفات القديسين انطونيوس وثيوذوسيوس الأبوين الأولين للحياة الرهبانية الروسية ورفات كل القديسين الذين تنيّحوا هناك.

تحرك من وطنه إلى كييف مع خمسة من التجار، عاهدوه على اتباع مثاله. وفيما بعد صاروا جميعاً رهباناً ماعدا الكسيوس سيمونيفتش ميلينين. لأن هذا الأخير بعد موت والديه المفاجيء اضطر أن يتحمل عبء حماية ورعاية أخوته الثمانية.

في كييف، سجد برخوروس بدموع للرفات المقدسة وخاصة رفات القديسين انطونيوس وثيوذوسيوس وتضرع إليهما بحرارة أن يباركا سعيه. ثم توجه إلى أحد الحبساء المدعو ذوسيثيوس، الذي كان يقطن في دير كيتايفسكي بالقرب من لافرا الكهوف. فتقدم الشاب وركع أمامه وقبل قدميه وكشف له عن كل طيات قلبه. لقد ميَّز الستارتس ذوسيثيوس بفراسته في شخص بروخورس مجاهداً قوياً وبما أنه كان موهوباً بنعمة النبوءة، قال له بعد أن باركه:

تعال ياولد الله. اذهب إلى دير ساروف. فهو المكان الذي حدد لخلاصك. بمعونة الله هناك ستنهي رحلتك الأرضية وليقد الروح القدس، كنز الصالحات، حياتك إلى المذبح. فالأب باخوميوس هناك يعيش حياةً إلهية مقتفياً أثار أبوينا القديسَين انطونيوس وثيوذوسيوس.

ثبَّت قول الستارتس في قلب بروخورس القرار بالعيش في ساروف ولم يستطع أيّ مانع أن يعيقه أو أية تجربة أن تزَعزِعهُ، ثم استعد للاعتراف المقدس، وتناول الأسرار الطاهرة. وبعد أن سجد ثانيه للرفات في لافرا الكهوف، عاد إلى أمه في كورسك.

بقي في بيته لبضعة شهور فقط. ولربما عمل في المتجر. لكنه لم ينشغل بالتجارة بل انشغل بالكتب المفيدة للروح لأجل منفعة نفسه

بركة والدته

ومساعدة الذين يأتون ليسألوه أو ليتحدثوا معه عن الأماكن المقدسة أو ليسمعوا قراءة روحيّه ما.

خلال هذه المدة ألغى تسجيل اسمه من بلدية كورسك وودع أقرباءه وأصدقاءه وأخيراً أزفت ساعة وداع أمه. كان الوداع مؤثراً. جلسا كلاهما لوقت قصير معاً، بحسب العادات الروسية، ثم نهض الشاب، فصلى وركع أمام أمه طالباً بركتها. فأعطته أغاثي أيقونة المخلص والعذراء ليقبلها وباركته بصليب نحاسي احتفظ به برخورس كبركة ولبسه بشكل ظاهر على صدره طيلة حياته، لكي يذكّره بنذوره الرهبانية.

وأما الأرملة أغاثي فقد زودته بدموع مرّة. كان ذهنها يضغط عليها لكي تبقيه بجوارها.

قالت له: من الأفضل لو كنت قد دفنتني أولاً ثم تلتحق بالدير.

ولكنها كانت مترددة في إبطال هدف كهذا، فمن الممكن أن ينقلب الشاب عن تحقيق هدفه فتتحمل هي المسؤوليّة، بهذا الفكر هدأت نفسها المضطربة. ولم يبكِ الولد أقل من أمه، لكن الألم والانفعال الطبيعي في كل هذا الفراق لم يزعزع قراره. لقد كان ذهنه تماماً حيث دعاه الله. فرسم بروخورس علامة الصليب بتعبير صادق وتأمل عميق متطلعاً إلى الكنيسة ومغادراً وطنه وبيته الأبوي كإبراهيم. رافقه في رحلته هذه اثنان من أصدقائه.

الفصل الثاني

الراهب المبتدئ

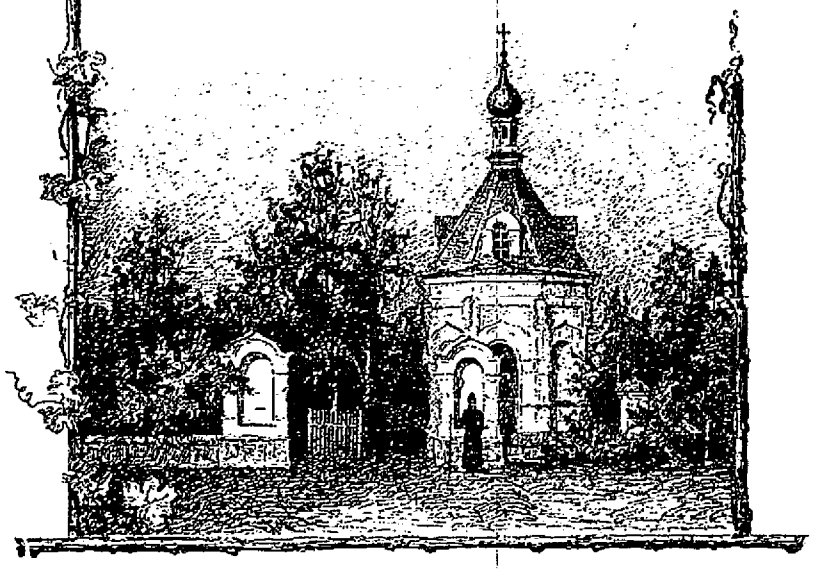

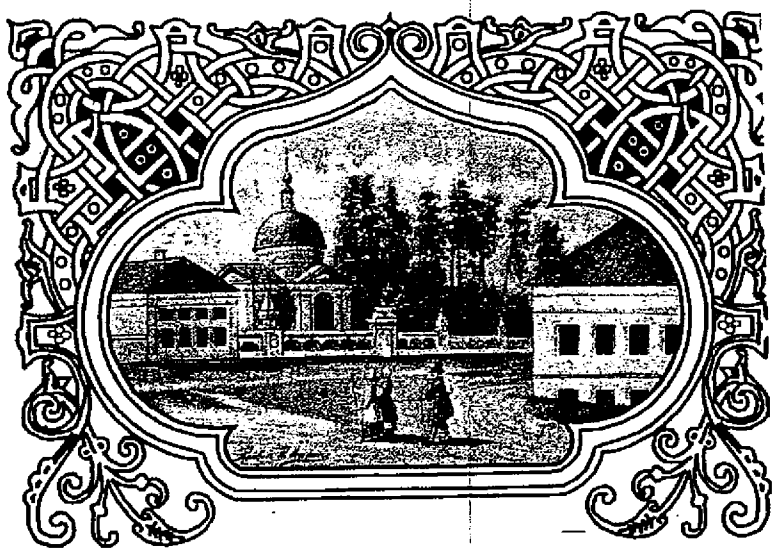

في دير ساروف

تأسس دير شركة ساروف عام ١٧٠٦م من الراهب المتوحد لابس الأسكيم الكبير يوحنا المولود في أرزاماس قرية نوفي_اوساد. كان معروفاً بجهاده الروحي وبتجاربه الكثيرة أيضاً. وفي أيام الستارتس أفرام ١٧٥٨–١٧٧٧م أظهر الدير كمالاً في البناء الروحي والبناء الحجري.

وصل برخوروس إلى الدير في ٢٠ تشرين الثاني ١٧٧٨م يوم تقدمة دخول والدة الإله إلى الهيكل في فترة إقامة السهرانية، فتمتع بعظمة العبادة الإلهيّة والترتيل المتناغم.

لقد ابتهجت نفسه عندما رأى أنَّ كلَّ الرهبان مأخوذون بالصلاة من الرئيس حتّى أصغر مبتدئ، وشكر الرب أيضاً لأنه أرشده إلى هذا المكان لأجل خلاصه.

كان الستارتس باخوميوس رئيساً للدير، وقد سيم هناك راهباً. كان متواضعاً، وديعاً، صوّاماً ومجاهداً في الصلاة ومثالاً في الدير. وكان الناس يدعونه قديساً. تحدَّر من عائله تجارية من كورسك، وتعرف منذ الصغر إلى والدي بروخوروس. قَبِلَ رئيس الدير الشابَّ بمحبَّة. لقد ميَّزَ في داخله دعوة رهبانية صادقة. وجعله بين المبتدئين وسلَّمه لإرشاد الستارتس أيوسيف الذي كان برتبة إيكونوموس. وأخذ بروخورس يخدم الستارتس بكل رغبه في قلايته ويطبق بكل دقه القوانين الرهبانية.

المتوحد باخوميوس

المتوحد أفرام

المتوحد يوحنا

أما تصرفه الحسن، فقد جعله محبوباً من الجميع وخاصة عند الرئيس باخوميوس والمتوحد أيوسيف. بعد ذلك عهدوا إليه ببعض الأعمال العامة. في البدء خدم في المخبز كصانع للقربان ثم تسلم العمل في المنشرة. ولفترة طويلة خدم مع بعض الرهبان كموقظ، أي أنه كان يجول على قلالي الأخوة ويقرع أبوابهم بقوة منبهاً إياهم بأن أوان الصلاة قد حان وقائلاً في الوقت نفسه صلاة الرب يسوع المسيح. ثم أوكلوا إليه مهمة الخدمة في الكنيسة. لقد خدم بروخورس في كل مكان برغبة وقوّة وحماس.

وبالواقع إن العمل اليدوي وبلا أي شك هو أفضل تدريب للراهب المبتدئ لأنه يريحه من تجارب كثيره، ولكنه لا يخلصه منها تماماً، لأنه

لاغنى عن الحرب الداخلية للنمو الروحي الداخلي للمجاهد. لقد صبر بروخورس على تجارب كثيرة، كالحزن، والإجهاد والضجر. كانت التجارب تهاجمه حتى الإرهاق. ولكنه تغلب عليها بالصبر والخدمه. ولنرَ ما تبقى من الوسائل التي كان يجابهها بها.

البرنامج اليومي

حتى سيامته راهباً تبع البرنامج التالي:

أولاً– وقبل كل شيء كان يشترك في الصلوات ويقلد رئيس الدير بالذهاب إلى الكنيسة مبكراً قدر الإمكان ويقف في مكان خفي طيلة خدمة الصلاة مهما طالت ساعاتها. ولم يغادر الكنيسة مرة قبل صلاة الحل. كان يقف دائما في مكان محدد. ولكي يصون نفسه من التشتّت والشرود كان يبقي نظره مثبتاً على الأرض طيلة الصلاة وبانتباه مركز ووقفة خشوع ويرافق القراءات والتراتيل بصلواته الداخلية الخاصة.

وبعد الصلاة، كان المبتدئ الشاب، يقوم بخدمته متجنباً المفاجآت الباطلة. ومع مرور الزمن أخذ يعجب بالتفرد في قلايته، حيث يستسلم للصلوات والدرس. كان يدرس كتباً روحية وأخرى نافعة للنفس. هذه الكتب هي، الكتاب المقدس وخاصة العهد الجديد، ورسائل الرسل القديسين والمزامير والكتابات الآبائيه، ككتاب القديس باسيليوس، ستة أيام الخليقة، وأقوال القديس مكاريوس، والسلم للبار يوحنا، والفيلوكاليا، وحياة القديسين من سنكسار القديس ديمتريوس روستوف.

ويتلو المزامير جالساً على أساس أنه مسموح به. بينما يدرس الإنجيل والرسائل في وقفة صلاة .وكان يسمي هذا العمل سهراً وانتباهاً. لم يكن قصده من هذه المطالعة قضاء الوقت ولا ليرضي محبته للعلم بل ليجد في هذه الكتب الجواب على تساؤلات الحياة وكان يعكس ما يطالعه على حياته الخاصة وعلى الإنسان عامة. وبنور كلمة الله ومساعدة حياة النسك بتواضعه وتسليمه لمشيئة الله، اجتهد وكوَّن فكرته النهائية عن

الحياة الرهبانية وبشكل عام عن الحياة المسيحية.

وفي أوقات الاستراحة من الجهادات الروحية كان بروخورس يستسلم للعمل اليدوي فينهمك في أعمال صناعة الخشب وكبعض الرهبان الآخرين كان يصنع صلباناً من خشب السرو ومن هذه الصلبان كانوا يقدّمون بركة لزوار الدير. لقد عمل بحماس ونجاح حتى أنه في برنامج التبدلات اليومية للصلاة الدائمة وَرَدَ اسمه وَحْدَهُ من بين رفاقه في صناعة الخشب /بروخورس النجار/ .

إلى جانب عمله اليدوي كان يساعد الأخوة في نقل الأخشاب عبر النهر ويجهِّز الحطب للموقدة ولكنه يبقى متمسكاً بصلاة الرب يسوع في قلبه وعقله «أيّها الرب يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطئ ». خلال العمل اليدوي في قلايته أو أثناء مساعدته للاخوة في الخدمات العامَّة. كان يعوِّض بعمله اليدوي هذا عن الجهادات الرهبانية، لأن التعب الجسدي بحسب الآباء، بالنسبة للمبتدئ، أفضل من انشغالاته الروحية.

أما بخصوص طعامه وتصرفه على المائدة واستراحته الليليَّة سيقول الستارتس فيما بعد ما يلي: «عندما تجلس إلى المائدة فلا تلاحظ ماذا أو ما هي الكمية التي يتناولها كل واحد، بل انتبه أن تغذي نفسك بالقراءة. وفي نصف النهار تناول ما فيه الكفاية على وجبة الغداء وعند المساء امسك وفي يومي الأربعاء والجمعة كلْ مرة واحدة إن استطعت وعليك أن تنام في الليل أربع ساعات في جميع الأحوال، من الساعة العاشرة حتى الثانية بعد منتصف الليل. وإذا شعرت بضعف يمكنك أن تكمل نومك عند الظهر. (لقد حافظ على هذه العادة طيلة حياته). وهذا سيساعدك في تهدئة عقلك، وأنا أحافظ على هذه العاده منذ سنوات شبابي.

وأتضرع إلى الرب أن يهبني الراحة في ساعات الليل. وإذا حافظت أنت عليَ هذا الخط، لن يصيبك وهن أبداً بل ستكون دائماً صحيحاً ومسروراً».

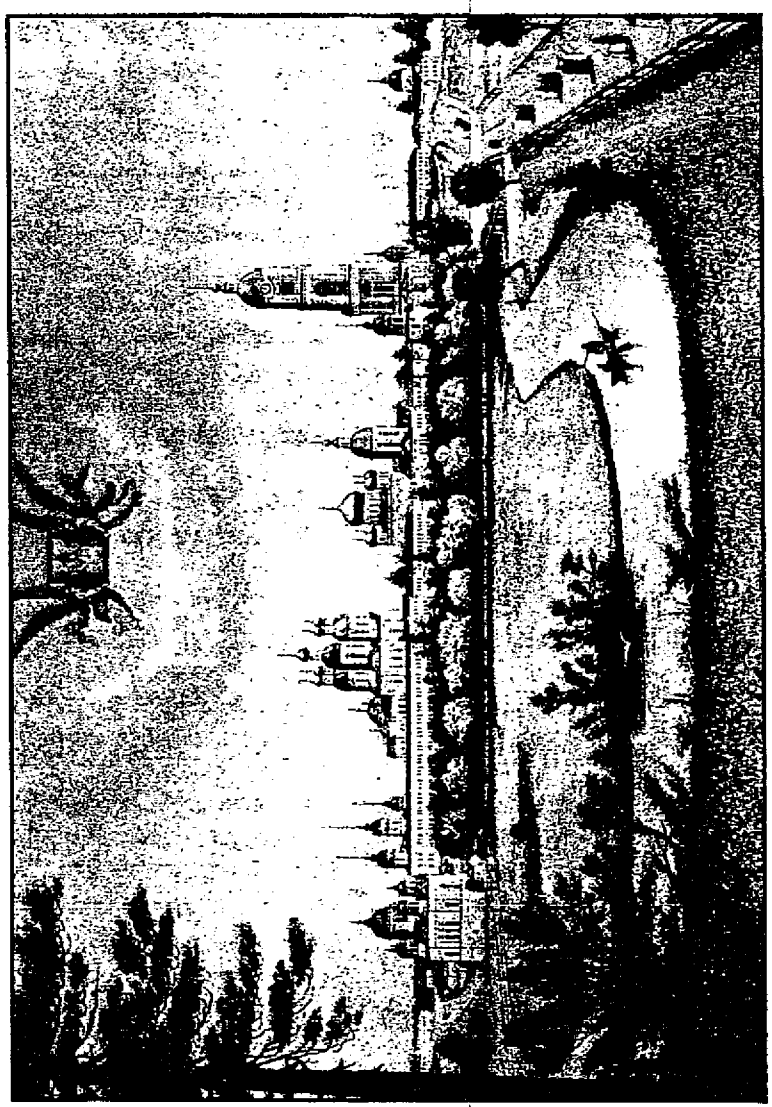

«الواجهة الغربية لدير ساروف»

ومع مرور الزمن بدأ القديس يشكو من آلام شديدة في رأسه بسبب الوقوف الطويل والراحه القليلة، لكنه سرعان ما تعافى لما زاد من ساعات راحته. هذه الحادثة جعلته يعيد النظر في رأيه الشخصي. ففيما يخص وقت الراحة أخذ ينصح الضعفاء بنوم ست ساعات. بينما الأقوياء في الصحة والنفس كان ينصحهم بخمس ساعات.

مردداً تعليم آباء البريه بأنه يجب علينا أن لا نقتل الجسد بل الشهوات.

جهادات روحية

لم ترضِ الجهادات في الطاعة و الصلاة والتأمل والتعب التي كان يتممها في الدير نفسَ المجاهد الشاب لأنها كانت تتوق إلى البريّة. وبرية ساروف تحيط بالدير وتمتد لفرستيات كثيرة (الفرستيه = ١٠٦٧ متر) مغطاة بغابات كثيفة. كان بعض الآباء يقلدون النساك القدماء مؤسسي الأديار فيغادرون إلى البريّة خفية عن الناس ويتكرسون بكل حرص لأعمالهم الروحية. وببركة الأب باخوميوس تركزوا في مواضع مختلفة غير بعيدين عن بعضهم بعضاً، كل منهم مع تلميذه. من هؤلاء نائب رئيس الدير نزاريوس والمتوحد ذوروثيوس والراهب لابس الأسكيم الكبير مكاريوس. ولما رأى بروخورس هذه الأمثلة اشتاقت نفسه لجهاد أكبر. إذ كان يميل إلى التوحد، فأخذ البركة من الأب أيوسيف لكي يذهب في الساعات الحرة إلى الغابة. وهناك في مكان خفي نصب له كوخاً حيث كان يستسلم للصلاة في وحدةٍ مطلقة.

كان الستارتس يردِّد في إرشاداته: «إذا لم تستطع دائماً أن توجَد في خلوة وصمت، لأنك تعيش في الدير، يجب عليك أن تكرس وقتك الحر القليل للهدوء والصمت والرب سيعطيك رحماته الغنية لأجل هذه المحاولة البسيطة».

هذا القانون الذي سيقدمه البار لاحقاً لرهبان آخرين، طبقه في هذه الفترة، وحيداً في كوخه في البرية وكانت الطبيعة الخلابة والوحدة التامة مع الصلاة ترفعانه إلى الله ويتحد معه بشكل أعمق شاعراً بوجوده في كل مكان. وقد روى أحد الرهبان الذين عاشوا مع القديس بعد عدة سنين أن الأب سيرافيم كان يطبّق القانون الذي أعطاه الملاك للقديس باخوميوس مؤسس أديار الشركة: «التسبيح المثلث التقديس» – أبانا الذي في السموات – يارب ارحم "١٢ مرة" – المجد للأب – هلموا لنسجد ونركع للمسيح ملكنا وإلهنا "ثلاث مرات" – ارحمني يا الله (المزمور الخمسون) – أومن بإله واحد – أيها الرب يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطئ "١٠٠ مرة" – بواجب الاستيهال وبعد ذلك صلاة الحل. وهذه تؤلف تضرعاً. ومن الواجب أن يتلى إثنا عشر تضرعاً في النهار واثنا عشر تضرعاً في الليل وذلك خلال الساعات الأربع والعشرين».

تعلَّم بروخورس هذا القانون من أبيه الروحي أيوسيف وطبقه منذ دخوله إلى الدير. ولكن هنا في كوخه في حضن الطبيعة كان يترك ذاته لنسك أكبر وجهاد صلاتي أعمق. ويرافق الصلاة بالصوم والانقطاع عن الطعام، فلم يكن يأكل يومي الأربعاء والجمعة وفي الأيام الباقية كان يتناول طعامه مرة واحدة. فمن لا يفرح برؤيته نسكاً بهذا المقدار من راهبٍ مبتدئ لا سيّما صغير في السن. لقد كنَّ الجميع لهذا المجاهد غير العادي المحبة والاحترام.

لم يكن بروخورس هو المجاهد الوحيد بين المبتدئين. بل وجد آخرون أيضاً، من بين هؤلاء باسيليوس ابن العشرين سنة. أصله من مدينة تيمنيكوف، من والدين بسيطين. جاء إلى الدير عام ١٧٨٧م وهناك سلم نفسه للرئيس باخوميوس ومنذ بداية حياته الرهبانية تنكرَّ لكلِّ مشيئةٍ له. فأدهشَ الرئيس بطاعته. فأحاطه هذا الأخير بحنانٍ خاص. أخذ باسيليوس اسم نيفن لما سيم رئيساً لدير ساروف. وجاهد آخرون مثل باسيليوس ضد ذواتهم سرياً ولكنهم كانوا يخفون فضيلتهم لكي

يتجنبوا مجد الناس. وأما آباءُ الدير الكبار فكانوا يتابعون بروخورس. فجهاداته مستمرَّة ومدهشة بحيث لم يكن باستطاعته أن يخفيها.

لم يحبّه الأب باخوميوس والأب أيوسيف كابن فقط بل منحاه الثقة أيضاً ودائماً كانا يقدمانه كنموذج للرهبان المتكاسلين. كان يقول فيما بعد «أن الأبوين باخوميوس وأيوسيف، أناس بررة، قد أحباني كنفسيهما ولم يخفيا عني شيئا وكانا يهتمان بكل شيء مفيد لي».

ظهور العذراء

في عام ١٧٨٠م أصاب بروخورس مرض ثقيل، فتورم جسده مما اضطره أن يبقى طريحاً على سرير قاس، ولم يكن ثمةَ طبيب. ولهذا لم يشخّص المرض، فاعتقدوا اعتماداً على الظواهر الخارجية أنه مصاب بمرض الاستسقاء. دام مرضه ثلاث سنوات، بقي منها ستة أشهر ملقى بلا حركة، يبلل فراشه بدموعه ويصلي باستمرار ومسلماً ذاته بالجسد والروح لإرادة الله، فلم يتفوَّه بأي تذمّر على الإطلاق.

في هذه الفترة عبَّر الجميع لبروخورس عن عظيم محبتهم واحترامهم الشديد له ومشاركتهم إيّاه الألم. لكن مرشده أيوسيف ورئيس الدير باخوميوس أبديا اهتماماً متميزاً نحوه. هذا الاهتمام من رئيس الدير وشيوخ الرهبان بالمبتدئ الشاب، أصبح مدعاة لاهتمام أعمّ من الاخوة الكبار نحو المبتدئين. وفيما بعد سيعبِّر بروخورس بالكلام والعمل عن شكره للرئيس.

وفي تطورات مرضه الأخيرة، خاف الجميع على حياته.

فقال له رئيس الدير: «يا أخي بروخورس أقترح أن نستدعي طبيباً أو نقوم لك بعملية الفصد».

فأجاب المريض: «يا أبتِ لقد سلمت نفسي لطبيب الأجساد والنفوس الحقيقي لسيدنا يسوع المسيح ولأمه الكلية الطهر. فإذا كانت محبتكم موافقة فأعطوني أنا الفقير الدواء الأبدي أي الأسرار المقدسة».

«ظهور العذراء

فاستجاب مرشده الروحي أيوسيف لطلبه وأقام لأجل شفائه سهرانية دامت الليل كلّه. وفي القداس الإلهي تضرع الجميع بحرارة لأجل المريض الذي تناول الأسرار المقدسة في قلايته بعد أن اعترف. في تلك اللحظة ظهرت أمامه الكلية القداسة في نور لا يدرك مع الرسولين بطرس ويوحنا وأدارت وجهها نحو يوحنا وأشارت بإصبعها نحو بروخورس وقالت: هذا من جيلنا، ثم وضعت يدها اليمنى على رأسه وحالاً بدأ السائل الذي تجمع في جسده يخرج من ثقب تشكل في الجهة اليمنى، وبعد فترة وجيزة شفي تماماً.

بقي من آثار الحادثة، في الجهة اليمنى نتوء، مكان الثقب الذي خرج منه السائل.

وقد تعجب الأخوة من شفائه السريع بعد الصلاة الجماعية وتناوله الأسرار الإلهية. لأنهم لم يعلموا شيئاً عن زيارة العذراء. على كل حال انتفع بروخورس كثيراً من مرضه. لقد قوى المرض في داخله المحبة والإيمان بالله وكذلك ارتباطه بالأخوة وامتنانه لهم.

في ذلك الوقت بدأ بناء مشفى للأخوة المرضى والشيوخ بالقرب من مكان وجود كوخ بروخورس وإلى جانبه كنيسة من طابقين ،الطابق الأوّل على اسم القديسين زوسيما وسفاتيوس، والطابق الثاني على اسم تجلي ربنا يسوع المسيح. ولكي تتوفر النفقات طلبوا من بروخورس أن يجمع التبرعات لهذا الغرض في مناطق مختلفة. فقام المبتدئ لأجل الطاعة محرّكاً بدافع الشكر لشفائه وتعاطفه مع المرضى باستلام مهمة جمع التبرعات الصعبة فذهب إلى المدن القريبة ومرّ بوطنه كورسك حيث أخبر بوفاة والدته فبكى كثيراً على قبرها وصلى بحرارة لأجل راحة نفسها، كما أخذ من أخيه الكسيوس مبلغاً كبيراً من المال لبناء الكنيسة.

وعندما انتهت رسالته وعاد إلى الدير. بدأ العمل بحماس في بناء كنيسة المشفى على اسم القديسين زوسيما وسفاتيوس وبسبب مهارته في الأعمال الخشبية قام بمفرده بتصنيع المائدة المقدسة من خشب

السرو. قدست المائدة في ١٧ آب ١٧٨٦م ولا تزال قائمة حتى اليوم في مكانها. كان الأب سيرافيم وحتى نهاية حياته يتناول الأسرار المقدسة في هذه الكنيسة. وقد أنجز هذا العمل تذكاراً لشفائه الذي حدث بالضبط في ذلك المكان.

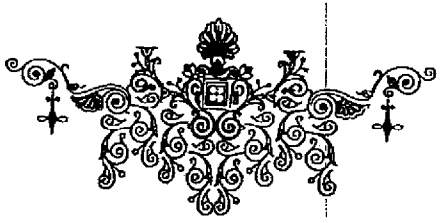

الفصل الثالث

سيرافيم في دير الشركة

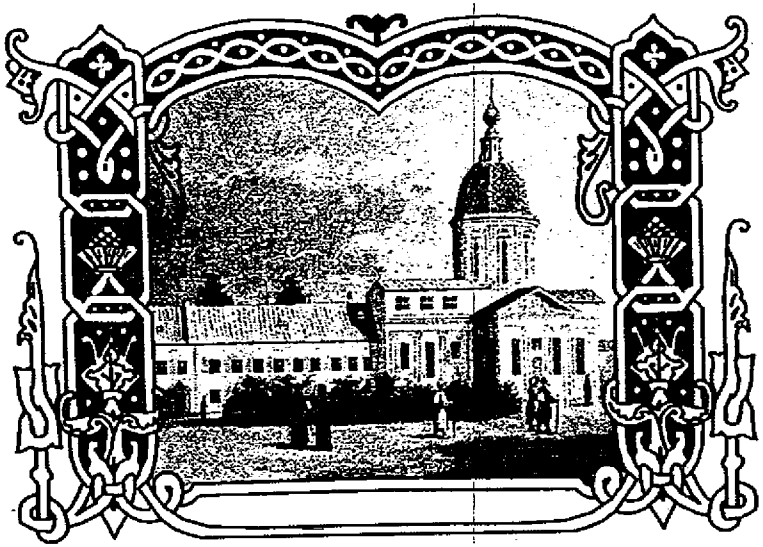

سيامته راهباً

دامت تجربة المبتدئ بروخورس قبل دخوله الرهبنة، ثماني سنوات. هذه التجربة الاستعدادية هي قانون لابدّ منه لكل من يتقدَّم لكي يتكرس لله. بعد هذه السنوات أصبح أكثر نضجاً إذ كان قد أكمل الخامسة والعشرين سنة. كان طويل القامة (١٧٦سم). ولشكله الخارجي جمال مميّز، على الرَّغم من أصوامه الإنقطاعية الشديدة، ووجهه موشحاً ببياضٍ نوراني وأنفه مستقيماً ومدبباً وعيونه زرقاء ونافذة وحاجباه عريضين كثيفين. وكان شعره أشقر كثيفاً وشواربه طويلة وثخينة تستند على لحية كثة. كان منظره مهيباً وذا قوة جسدية عظيمة. ومن ناحية القوى العقلية كان قويَ الذاكرةِ، مبدعَ الخيالِ كما وهب نعمة النطق الجذاب.

«سيامته الرهبانية»

في فترة تجربته كرّس بروخورس كل إمكاناته للرب وأعلن مستحقاً لإعطاء نذوره الرهبانية. لقد نقته التجارب الجسدية والروحية القاسية التي سمح الرب بأن يعبر بها وثبتته في التقوى. في فترة ابتدائه أبدى حماساً ليس فقط للنسك الشديد بل وللحياة التوحديّة التي كان قد بدأها فعلاً. وإذ اقتنع رئيس الدير بنقاء دعوته قام بتوجيه رسالة إلى السلطات الكنسية لكي يلبس الأسكيم الرهباني.

في ١٣ آب ١٧٨٦م سامه رئيس الدير باخوميوس راهباً ، وكان عرّاباه الشيخ أيوسيف والأب أشعياء. ودعي سيرافيم أي المشتعل (الحارق). ربما لأنّ معارفه كانوا يصفونه بالشعلة أو لأنه تميّز بوضوح بحرارته القوية وحماسه لله. فقد ورد في لائحة الرهبان أنه ارتدى ثوب الرهبنة في دير غوروخوفسكي نيقولايفسكي حيث كان مسجلاً لوقت طويل. ولكنه لم يعش إطلاقاً في هذا الدير.

فالاسم الجديد الذي أخذه الراهب سيرافيم كان يذكره بنقاء الملائكة وخدمتهم السريعة أمام الله كاللهيب. مما ألهب نفسه لكي يخدم الرب بحماس أكبر. وتابع برنامجه المعهود من غير أن يشعر أنه يقوم بعمل مميز، بينما كان الآخرون يرونه يتكرس لتوحدٍ أعظم ويلج في أسرار نفسه ويجاهد بشكل منظم لتحقيق عهوده وواجباته الأخرى.

شرطونيته شماساً

في السنة نفسها ، في شهر تشرين الأول ١٧٨٦م شرطن شماساً على يد فكتور أسقف مدينة فلاديمير. ولا يزال الخطاب الذي ألقاه في سيامته محفوظاً في أرشيف الدير. فالآن قد أضيفت إلى مهام الأب سيرا فيم مهام الشموسية أيضاً. كان قلبه مشتعلاً بمحبةٍ مضاعفةٍ لله وتكرّس كلياً لهذه الخدمة الملائكية الجديدة محافظاً على جسده وروحه نقيين. اشترك في جميع خدم القداس الإلهي مدة ست سنوات وعشرة أشهرٍ بلا انقطاع. وفي

أيام الآحاد والأعياد كان يصلي واقفاً طوال الليل بلا حركة إلى نهاية القداس الإلهي. وبعد القداس يبقى في الكنيسة وقتاً طويلاً ليرتب الأدوات المقدسة ويهتم بنظافة المذبح. والله الذي يرى حماسه الحار ورغبته في الجهاد كان يزوده بالقوة كي لا يشعر بالتعب ولا بالحاجة إلى ساعات طويلة من الراحة. كان يشعر بالصحة والقوة وينسى دائماً الطعام والشراب. ويحزن في وقت الراحة إذ لا يستطيع الإنسان أن يمجد الله كالملائكة بلا انقطاع.

أما الارشمندريت باخوميوس فقد شكل رباطاً جديداً مع الشماس الجديد فلم يكن يقدس من دونه.إذ قال الأب سيرافيم: «نادراً ما كان يقدس من دوني أنا الفقير سيرافيم».

فإذا رغب الرئيس أن يغادر الدير لأعمال شتى أو ليقدس كان يأخذه معه دائماً. مرّة ذهب الشيخان باخوميوس وأشعياء لجنازة سولوفوتسوف أحد المحسنين إلى ديرهم في قرية ليميت.

وفي طريقهم مرّوا بقرية ديفاييفو. فزاروا الأم الكسندرة واسمها قبل الرهبنة أغاثي سيميونوفا ميلكونوف، التي بنت دير ديفاييفو فوجدوها مريضة فأقاموا لها صلاة مسحة الزيت وكانت المريضة تشعر بقرب أجلها. استدارت نحو الشيخين وقالت: «من فضلكم لا تتركوا يتيماتي».

فعزاها رئيس الدير باخوميوس وقال لها لا تهتمي. بنعمة الله، لقد أخذت كل الزاد الأخير وفيما يخص يتيماتك لن أتركهنَّ طالما أنا حي وبعدي هاهو الأب سيرافيم الذي لن يتركهنَّ !

ثم أجابت المريضة يا أبتِ أنا غير وجلة بسبب من نفسي وبمعونة الله أنا راحلة إلى الأبدية على الرجاء. ولكن هؤلاء اليتيمات سيجرَّبن بعد موتي بحزن لا يطاق، لأنهنَّ قد سلمنَ أنفسهنَّ لي أنا الوضيعة. لهذا أتوسل إليك أن لا تتركهنَّ. احتملهنَّ بكلمة الرب في ضعفهنَّ لأنهن ضعيفات. هل أدركت كم سيكلفهنَّ وداعي إلى الأبد !

عند ذلك أخرجت كيسين الأول مليء بالذهب والثاني بالفضة وأعطتهما للرئيس وقالت له: « خذ حصة اليتامى وبحسب تمييزك استعملها لأجل منفعتهنّ، فهنَّ حتى الآن لسنَ بمكانة تؤهلهنَّ لاستعمالها بشكل صحيح.»

وبعد أن عاد الآباء من ليميت وجدوا الرئيسة (الأم) قد فارقت الحياة. وبالجهد لحقوا بجنازتها. ثم فرشت مائدة لم يشترك بها الأب سيرا فيم بل تابع سيره ماشياً وهو صائم حتى ساروف الذي يبعد عن ديفاييفو اثني عشر فرستية. لقد تميَّز بصومه الإنقطاعي ليس ضمن الدير فقط، بل حتى خارج مساكن الرهبان، ووصل إلى هذا الحد من الصوم الإنقطاعي والصلاة والشفافية بإنكار الذات الطويل الأمد والجهاد غير المنقطع. كان قد بدأ هذا العمل الروحي منذ حداثته وأرسى القواعد التي قادته إلى حالته المتقدِّمة الحاضرة هذه. وفي المستقبل انبرى لجهادات أكبر. ولم يتناسَ الأب سيرافيم الماضي الذي حفظ ذكرى والدة الإله والعناية الإلهية حيّة فيه. والآن قد أتحد قلبه مع الله إلى حد أن التجارب أصبحت لا تشغله عن هذه اليقظة الشديدة.

ظهور السيد

أمام هذه الجهادات الجديدة والصعبة التي كانت أمامه شددت العناية الإلهية حماسه برؤى روحية. وقد جعله نقاء قلبه وصومه واتصاله الدائم مع الله مستحقاً أن يعاينها ويتمتع بها. ورد في مجلّة «مايّاك» سنة ١٨٤٤م العدد ٣٢ أن البار سيرافيم وهو شماس كان يعاين من وقت لأخر في الصلوات الملائكة القديسين يصلون ويخدمون مع الرهبان. كانوا يشبهون شباباً مستنيرين ويرتدون ثياباً بيضاء ومطرزة بالذهب أما ترتيلهم فلم يكن يشبه أي ترتيل أرضي. هذه الرؤى كانت تملأ نفسه بعزاء إلهي.

كان يقول: «كان قلبي يصبح كشمعة ذائبة» ولكنني لم أذكر شيئاً من هذا السرور. كلّ ما أذكره من تلك الحادثة المبهجة أنني دخلت الكنيسة وخرجت منها.

وفي المجلة نفسها ذكر واضح لرؤية عجائبية أخرى.

قال الأب لكاتب الحادثة التالية: «سأقص عليك يا فرحي رؤية مخيفة مرسلة لي من السماء أنا الوضيع. ولكن عِدْني أنكَ لن تفضي بها لأحد قبلَ موتي».

قال له المتحدث إليه: أعدك وركع أمامه بخشوع. فقال الأب سيرافيم: كنت أخدم مرة في يوم الخميس العظيم مع رئيس الدير باخوميوس والأب أيوسيف. كانت الخدمة الإلهية قد ابتدأت الساعة الثانية بعد الظهر مع الغروب، وبعد الدخول الصغير في القداس الإلهي قلت أنا الوضيع إلى جانب المذبح الإعلان: «يا رب خلص المؤمنين. واستجب لنا». ثم خرجت إلى الباب الملوكي، ولما رفعت الزنار متوجهاً نحو المؤمنين أكملت «وإلى دهر الداهرين». في تلك اللحظة لمع أمامي نور كشعاع الشمس، ولما وجهت نظري إلى الجهة التي منها جاء الضوء رأيت ربنا يسوع المسيح بمجدٍ على شكل ابن الإنسان في ضوء لا يوصف ولمعانه أشدَّ من لمعان الشمس و الطغمات الملائكية محيطة به كما تحيط النحلات بملكاتها. الملائكة – رؤساء الملائكة – السيرافيم والشيروبيم. وقد دخل من الباب الغربي ماشياً في الهواء ووقف مقابل العرش ورفع يديه مباركاً المقدَّسين والمصلِّين ثم دخل من المكان الذي أيقونته إلى جانب باب الهيكل. فأخذ قلبي يرقص من السرور المقدس ومن محبة لذيذة نحو الرب ثم أكمل كاتب الحدث:

«تغير وجه القديس بهذه الحادثة. ولم يستطع أن يتحرك من مكانه ولا أن ينطق بكلمة. لاحظ الكثيرون حالته من دون أن يدركوا السبب الحقيقي. فاقترب منه مباشرة شماسان و أمسكاه من تحت إبطيه وقاداه إلى داخل الهيكل المقدس حيث استمر واقفاً هناك ساعتين بلا حركة. كان

«ظهور السيد»

وجهه فقط يتبدل من لحظة إلى أخرى، تارة يغطى باصفرار ومرّة كانت تعلوه حمرة وتارة يصبح أبيضَ كالثلج. مرّ وقت طويل قبل أن يتكلم. كانت زيارة الرب العجائبية له قد استحوذت عليه وسرّ بتعزيته المبهجة». مما يستحق الذكر أنّ الرؤية حدثت وقت دخول الكهنة والخدام إلى الهيكل الذي يرمز لدخولهم إلى السماء نفسها إذ في ذلك الوقت يقول الكاهن بصوت هادئ: «اجعل يارب دخولنا مقترناً بدخول ملائكة قديسين يخدمون معنا ويمجدون صلاحك». وبعد الدخول يرتل التسبيح المثلث التقديس «قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت ارحمنا». تدل هذه الرؤيا على أن القوات الملائكية يصلون معنا بشكل لا يرى فليكن بعلم كل مؤمن أنه يصلّي بين الملائكة كما لو كان موجوداً في السماء.

هذه التعزيات الإلهية شدّدت الأب سيرافيم في جهادهِ وقوّت في داخلهِ الرغبة في عيش الحياة الإلهية. كان من الممكن أن يكون لتلك الرؤية نتائج سيئة على نفسه لو تفكّرَ في داخلهِ بكبرياء، أي أنه قد صار قديساً ووصل إلى الكمال. لكن الشماس الشاب عندما قص الحدث على مرشديه الفاضلين باخوميوس و إيوسيف اللذين كانا يخدمان في تلك الخدمة السرية نصحاه كروحيين خبراء أن لا يتكبر بل ليحفظ نفسه بالتواضع. وحافظا على القصة في قلبيهما.

شرطونيته كاهناً

وإذ كان البار محصناً بالتواضع، تقدم باطّراد في الحياة الروحية. ففيما مضى كانت جهاداته الروحية سريّة أما الآن فقد أصبحت علانية. في فترة الابتداء كان يتردد إلى كوخه المخبأ في الغابة ليتعمق في الصلاة. ولكنهم الآن قد بنوا في ذلك المكان قلاية رهبانية.

لم يعد بإمكانه أن يعيش عيشة متوحدٍ بسبب واجباته كشماس وكذلك مهامه الأخرى في الدير. ومن الممكن أنه لم يكن قد وصل إلى المستوى المطلوب ليعيش متوحداً. لهذا كان يقضي نهاره في الدير، وعند

المساء يذهب إلى قلايته الهادئة حيث يقضي الليل بالصلاة. فحسده بعض الأخوة الضعفاء روحياً. ولكنه كان محبوباً من الجميع. لأنه كان دائماً صادقاً في وعوده تجاه الدير.

في ١٩ تموز ١٧٩٣م اكمل الأب سيرافيم الرابعة والثلاثين من عمره. وإذ رأى متقدمو الرهبان أن الشماس سيرا فيم قد تميز عن الجميع بالفضيلة قرروا أن يسيموه كاهناً .كان دير ساروف في ذلك الوقت قد نقل من إدارة فلاديمير ووضع تحت إشراف أبرشية تامبوف بأمر جديد صدر عن الدولة.

في ٢ أيلول سنة ١٧٩٣م أرسلوه إلى تامبوف حيث شرطنه أسقفها ثيوفيلس كاهناً. وبعد شرطونيته ازداد حماسه في الجهادات الروحية. كان يخدم كل يوم لفترة طويلة ويتناول الأسرار المقدسة بمحبة وإيمان حار. في تلك الفترة تكرر وقوع المجاعة في المناطق المحيطة بساروف. أما الدير فقد كان مكتفياً من الأطعمةِ ويوزع منها على كلّ من له حاجة. مرّةً استمر الجوع لفترة طويلة، أطعم الدير خلالها آلافاً من الناس لأشهرٍ عديدة. ولما جاء الوقت الذي فقد فيه الطحين والثمار والحيوانات كلّها. اجتمع الأخوة بسبب تهديد المجاعة في الكنيسة وأقام رئيس الدير تضرعاً وابتهالاً إلى العذراء طوال الليل. أما الكاهن سيرافيم –الذي كانت له ثقة عظيمة برئيس الدير– فقد ذهب إلى مخزن القمح ووجد باندهاش كل القفف مليئة بالخبز والأطعمة. لم تنفد هذه الأطعمة طيلة فترة الجوع. ومهما أعطوا منها كانت القفف تمتلئ من جديد.

ومن أهم الصفات التي تميَّز بها البار سيرافيم الرحمة، التي تقوَّت بهذه الأحداث. وكذلك أمله بعناية الله وحماية والدة الإله.

هكذا بعد سنوات عديدة من الجهاد في الدير وأتعاب كثيرة لتنقية نفسه وصل البار إلى درجات متقدمة من سلم الكمال الروحي. وأصبحت روحه ملتهبة شوقاً للبرية حيث كانت بانتظاره جهادات أصعب.

الفصل الرابع

متوحداً

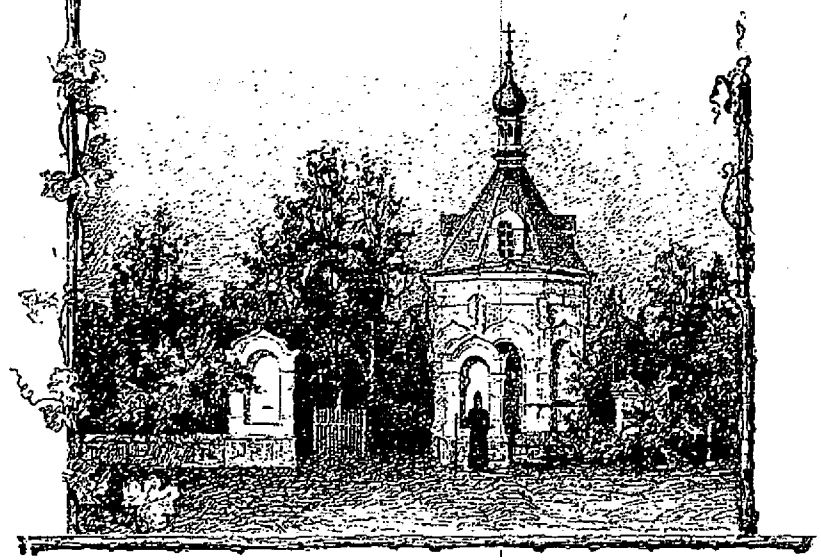

شوق الهدوء

أخذ البار بركة في فترة الابتداء لينسحب إلى البرية ويتكرَّس لجهاد روحي أسمى. والآن بعد أن صار شماساً، أصبح عنده قلاية في الغابة، حيث كان يقضي الليل بالصلاة. لقد ابتغى بهذه الطريقة أن يميتَ الأفكار الشريرة. ورغب الآن ككاهن متوحد بالسكن الدائم في البرية، لأنه كان مدعوّاً من العلى لهذه الحياة. لقد ساعدته حياة الشركة على معرفة ذاته. أي أنه عرف مباشرة ضعفاته، وتقوّى في مجابهتها. وإذ أصبح جاهزاً لحياة الهدوء طلب اتحاداً أكثر صميميّة مع المسيح. يعلّم القديس يوحنا كاسيانوس، الذي عاش في المناسك، المتوحِّدين ما يلي: «يجب أن يكون عقلك فوقَ كل الأرضيات وبقدر ما يسمح الضعف البشري عليك أن تصبح واحداً مع المسيح.

بالحقيقة كان الأب سيرافيم قد وصل إلى هذا الحد».

كل راهب حقيقي يرغب بعيش سر الحياة الخفية يخفي رغبته بعذر حسن. هذا ما حدث مع الأب سيرافيم الذي مرض بسبب الوقوف الطويل في الكنيسة وفي السهرانيات المتواصلة في قلايته. لقد تورمت رجلاه وامتلأت جراحاً ولم يستطيع على الإطلاق القيام بالخدمة الإلهية. وبسبب مرضه لم يعد يقوى على القيام بأي نوع من الأعمال. ولكن بدلاً من أن يرميه هذا المرض في غرفة من غرف المشفى دفعه وبشكلٍ أقوى لاختيار حياة الوحدة.

ذهب إلى الرئيس باخوميوس ليطلب صلاته. هذه كانت البركة الأخيرة التي أخذها منه، لأن الأخير كان قد شارف على نهايته وهو في السبعين من عمره. ففي ذلك الوقت اشتد عليه المرض وتعاظمَ. مما جعله يتأهب للموت. لقد خدمه البار بتطوع ذاتي كل هذه المدّة راداً للأب باخوميوس الجميل عن الخدمات التي قدمها له أثناء مرضه. ولاحظ الأب سيرافيم على وجه الرئيس إضافة للألم حزناً.

سأله: لماذا أنت حزين هكذا أيّها الأب القديس؟

أجاب ذاك: إنني حزين بسبب الأخوات في دير ديفاييفو ومن سيتعهدهنَّ بعدي. أجاب الأب سيرافيم: سأستلمهن أنا وسأعتني بهن بالضبط كما كنت تفعل أنت، قال ذلك لكي يهدئ من روعه. لقد أفرح الجواب الرئيس. ثم قبّله للمرة الأخيرة ورقد بسرعة الرقاد الحق سنة ١٧٩٤م.

بكى الأب سيرافيم بشدة لفقده. لأن الأب باخوميوس كان قد قبله في الدير وقاده في كل مراحل حياته الرهبانية حتى وصل إلى نضوج سكان البراري. كانت صلواته لأجل أبيه الروحي ترتفع إلى الله كاللهيب. وما عزاه في حُزنه لفراقه أن رئاسة الدير قد عهدت إلى الستارتس أشعياء، الذي كان يحبه ويحترمه بالمقدار ذاته.

في ٢٠ تشرين الثاني ١٧٩٤ م انتقل الأب سيرافيم نهائياً إلى

منسكه، ببركة رئيس الدير الجديد.

ولأجل قانونية إقامته هناك تزود بالكتاب التالي مسطَّراً من رئيس الدير أشعياء. وهو محفوظ في أرشيف الدير حتى اليوم:

«إن حامل هذا الكتاب الأب سيرافيم المتوحد من دير ساروف أعطي الإذن بالمكوث في البرية على نفقتنا. وبعد أن أقام سنوات عديدة مجرِّباً في الدير، يرسل إلى البرية بهدف الحصول على الهدوء الروحي والنفسي. ولأجل محبة الله أعطي له قانون بحسب أوامر الآباء القديسين. ومن الآن لا يتعرض له أحد في مسكنه الهادئ. أصادق عليه أنا، الرئيس أشعياء، ٢٠ تشرين الثاني ١٧٩٤ م. ولأجل التأكيد أختمه».

بركة لأجل بناء منسك للتوحد والانقطاع

تبعد القلايه التي جاهد فيها الأب سيرافيم عن الدير مسافة خمسة فيرستيات وتقع على تلٍ عالٍ مليء بالأشجار ضمن الغابة على ضفة نهر ساروفكا. كانت عبارة عن غرفة بسيطة بموقده يؤدي إليها ممرّ وأضيف إليها مخرج آخر. زرع حول قلايته قطعة صغيره من الأرض بالخضار وسيَّجها، وبعد ذلك وضع خلية نحل كانت تؤمن له عسلاً طيباً جداً.

إلى جانب هذا التل توجد تلال أخرى. وعلى بعد مسافة فرسخين إلى جهة الدير توزعت عدة تلال بنيت عليها مناسك رهبانية عاش فيها رهبان آخرون من ساروف. الرئيس السابق لدير ساروف نزاريوس والمتوحد ذوروثيوس ولابس الأسكيم الكبير مرقص. هذا المشهد يذكِّر بجبل أثوس، بتلاله وغاباته المنتشرة وأدياره وقلاليه المنفردة.

لقد سمى سيرافيم التل بجبل أثوس لأنه بالضبط ينتهي من إحدى جهاته عند السهل بشكل فجائي. وسمى بعض أماكن الغابة الأخرى، حيث كان ينسحب لجهاده الروحي، بأسماء من الأماكن المقدسة.

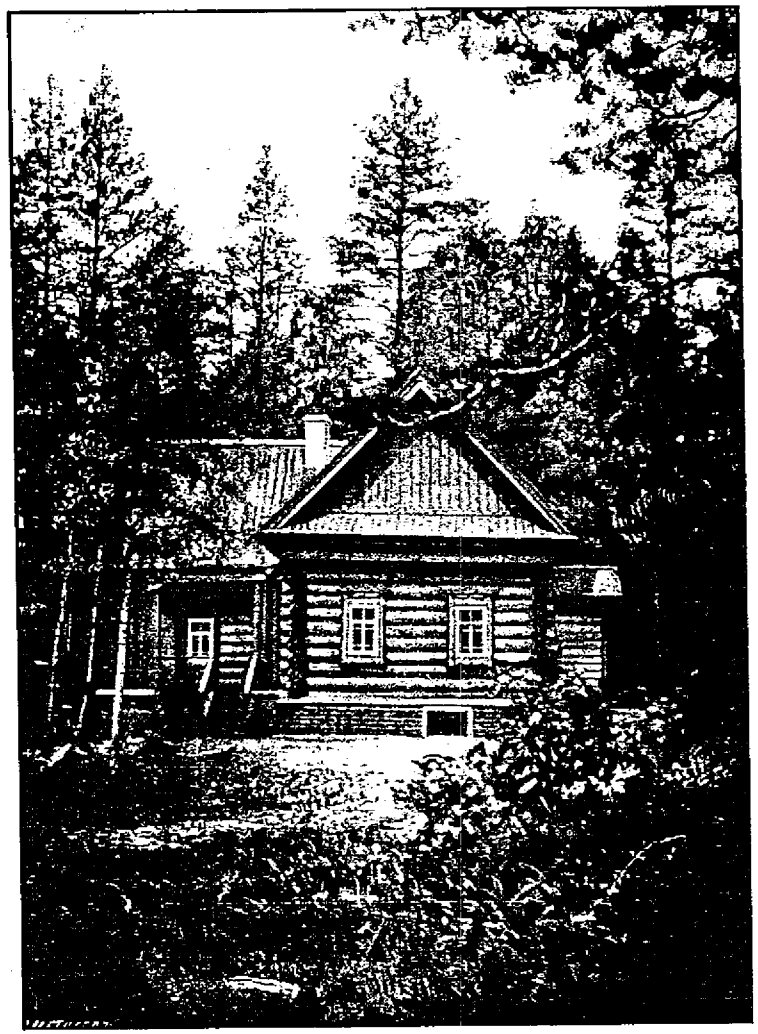

«قلاية البار في البرية البعيدة»

أورشليم، الناصرة، بيت لحم، الأردن، ثابور، جبل الأرز، الجلجلة، وجبل الزيتون. لقد أطلق عليها هذه الأسماء لكي يعيش حياة الرب على الأرض بحيوية أكبر. وقرر أن يقلّدَ المسيح ويعظ به لكل الزوار. وبالحقيقة بدأ الكثيرون يترددون على منسكه، من بينهم النساء أيضاً، أما هو فكان يعتبر الزيارات النسائية غير لائقة بحياته المتشددة.

لقد خشيَ هذه الزيارات النسائية لأنه من الممكن أن تعثر وتحرف بعض الأخوة، وبالرغم من ذلك تردَّد في إبعادهنَّ لأنه من الممكن أن لا يكون هذا محبباً لله. ولكن بما أن جبل أثوس ممنوع على النساء فقد قرر أن يفرض ذلك على موضعه هو، فصلى إلى الله ولأمه الكلية القداسة لكي يستجيبا طلبته ويظهرا له إذا ما كانت رغبته قد صارت مقبولة وأن يظهرا ذلك بعلامة بوضعهما سياجاً من الأشجار في الطريق المؤدية إلى القلاية. بالفعل استجاب الله لطلبته ،كما يرد في هذه القصة المدوَّنة في أخبار البار.

«لما حل عيد الميلاد، كانت الصلاة في كنيسة الينبوع الحي قد قطعت مراحلَ عندما دخل الأب سيرافيم إلى الدير، ثم إلى الكنيسة، وتناول الأسرار وبعد ذلك انسحب إلى قلايته في الدير وبعد أن تناول الطعام رحل مسروراً ليقضيَ ليله في البرية».

في العيد التالي أي العيد الجامع لوالدة الإله يوم ٢٦ كانون الأول توجه نحو الدير ليلاً. وعند وصوله إلى نهاية تلته عند السهل وجد أن الطريق مغلقة بنباتات الشيح الكبيرة. بهذه الطريقة العجائبيه أجابه الرب على سؤاله، لأنه في اليوم الماضي لما عبر من نفس المكان لم يجد فيه أيَّ شيء ولكن كل شيء مستطاع عند الله. وأول شيء فَكَّرَ به أن يشكر. فركع على ركبتيه وشكر الله لاستجابته لطلبته وفهم أن الله لا يرغب بمجيء النساء إلى تلته. ثم أبعد الأغصان وتابع طريقه لكي يلحق بالقداس الإلهي.

كان الرئيس أشعياء هو المقدَّس في ذلك الوقت. فتابع الأب سيرافيم

القداس الإلهي واقفاً في الهيكل المقدس وكانت التقدمات المباركة قد احضرت إلى المائدة المقدسة والتسبيح الشاروبيمي قد انتهى. وفي الوقت الذي كان الرئيس أشعياء يستعدّ فيه لقراءة صلاة التقدمة اقترب منه الأب سيرافيم بكل وقار وقال له:

يا أبتِ، أيّها الشيخ الرئيس أعطني بركتك حتى لا تأتي النساء إلى التل الذي أسكن فيه. هل هذا وقت لمثل هذه الأشياء ؟ أجابه ذاك بشيء من الانزعاج.

نعم يا أبتِ، أعطني بركتك. قالها الستارتس بإصرار.

وكيف يمكنني أن أراقب من على بعد خمسة فيرستيات فلا تأتي النساء ؟

أعطوا بركتكم فقط يا أبتِ ولن تأتي واحدة.

عندئذ أخذ الرئيس إحدى أيقونات العذراء الملقبة «مغبوط البطن الذي حملك». وأعطاها له قائلاً: ليكن مباركاً أن لا تأتي النساء إلى جبلك ولكن عليك أن تهتم أنت بذلك.

فقبّل الأب سيرافيم الأيقونة وانسحب إلى مكانه بهدوء. وفي الوقت المحدد لمناولة الاكليريكيين تقدم معهم وتناول الأسرار الإلهية وعند الغروب شكر الرئيس على بركته ورحل إلى البرية. ولما وصل إلى المكان الذي حدثت فيه العجيبة جاء بأخشاب وأغلق الطريق الترابي بشكل أفضل. وهكذا صار من غير الممكن أن يعْبَرَ ليس من النساء فقط بل ومن الآخرين أيضاً.

حفظت هذه الرواية العجائبية بعدة أشكال. فبعض الذين عرفوا الستارتس عن قرب، يقولون أن حديثه مع رئيس الدير أشعياء صار في الأسبوع الخامس من الصوم الكبير وعلى وجه التحديد في سبت المديح الذي لا يجلس فيه. ويقولون أيضاً أن الستارتس بعد أسبوع واحد فوجئ بأغصان الشيح مرميّة في طريق القدوم كما لو أنّ شخصاً ما قد قطعها قصداً وسدّ بها المدخل.

تعب الجهاد

لبس الأب سيرافيم في البريّة اللباس ذاته في الصيف والشتاء، وذلك لكي يروِّض جسده. كان يرتدي قميصاً أبيض من الكتان وقبّعَة رهبانية وقفازات من جلد. ويلفُّ رجليه بجلدٍ على شكل جوارب ملتصقة بربط عند بطة قدميه. وعلى صدره لبس صليب أمه بشكل ظاهر. وتتدلى من على كتفيه حقيبة فيها الإنجيل المقدس. كان للمادتين الأخيرتين معنى رمزي. فالصليب يرمز لصليبه هو الذي كان عليه أن يحمله ناكراً العالم، بينما رمز الإنجيل للنير الصالح، وحِمْلِ المسيح الهيّن.

يا ترى ما نوع الجهادات التي كان الأب سيرافيم يتفرغ لها في كوخه ضمن الغابة؟

هذا ما يعرفه الله وحده. إنه سرّ مخفي عميقاً في قلب الناسك. نحن هنا نصف فقط ما شاهده معاصروه من خلال سياج منسكه. إنه لشيء معروف أنه كان يتقدم من جهادات ثقيلة إلى جهادات أثقل، حتى وصل إلى التوحد الكامل.

في هذه الفترة ، كان يتكرس للأتعاب الجسدية، للدرس والصلاة. وفي الشتاء يهيئ وحده الأخشاب للمدفأة، التي كان يجلبها ويدفئ بها قلايته.

وفي الصيف يحرث الحقل. ولكي يحسّن الأرض للزراعة، كان يذهب إلى أماكن المستنقعات ويأتي بطحالب ليسمِّدَ بها الخضار المزروعة. واعتاد أن يذهب إلى تلك الأماكن شبه عارٍ من وسطه وإلى الأعلى فكانت الحشرات تلسعه بشدة وتدمي جسده ، وينتفخ، ويزرقّ في بعض الأمكنة. أما هو فعلى مثال النساك القدماء كان يصبر لأجل محبة المسيح.

إضافة إلى جلبه الطحالب كان يبذر، ويسقي، ويقلع الحشائش ويجمع بعض الخضار لأجل حاجاته. بهذا العمل الجسدي كان يريح رجليه الموجوعتين.

في أوقاتِ عملهِ كان ينتقل إلى حالةٍ من السرور التي كانت تعبرّ عن

ذاتها بالترتيل. إذ بواسطة ذاكرته القوية وانتباهه الشديد حفظ الكثير من النشائد الكنسية عن ظهر قلب وبهذه التراتيل كان يكسر رتابة الوحدة أيضاً. وفي أيام الآحاد والأعياد يحضر في ذهنه الحوادث المقدسة ويرتل الترنيمات التي توافقها.

يشهد بعض ممن جاوروه أن الستارتس سيرافيم كان يعشق التراتيل التي تتحدث عن الحياة الرهبانية مثل «إن العشق الإلهي يملأ النساك الذين صاروا خارج العالم». هذا النشيد الرائع يمدح حياة الهدوء ويدعو نفس الناسك لترقيات إلهيَّة. والنشيد الآخر الذي أحبه كانَ القطعةَ العقائدية للحن الأول: «كل المجد العالمي». وكان يرتلها إكراماً لوالدة الإله حامية منسكه وكذلك «لقد صنعت الكلَّ بكلمتك وبروحك الصالح يا رب». اللحن الأول يوم الأحد مساءً. وكذلك الترنيمة «في البدء أنت الذي أسست الأرض يا رب والسموات هي عمل يديك». مزامير «١٠١: ٢٦».

سمو المعاينة

انشغالاته هذه بالرغم من بساطتها كانت ترتقي بروح الأب سيرافيم إلى اللاهوت الأخلاقي والعقائدي. فقد اعتاد أن يعطي معنى لكل شيء يعمله. مميزاً صلة عمله الأسراري بحياته الروحية ومتعلماً من ذلك. ولهذا كانت الظاهرة التالية تتكرر كثيراً. فعندما كان يعمل في الحقل أو في المنحل، أو في الغابة وفي ظنه أنه لا يرى من أحد، كان يتوقف فجأة وتسقط الأدوات من يديه وكانت حالته عبارة عن تركيز وعقله يستسلم للتأمل بالله. في تلك الساعات لم يكن باستطاعة أحد أن يقطع عليه خلوته بل كانوا يختبئون بكل هدوء ويراقبونه باحترام.

خصص وقتاً كبيراً للمعاينة العقلية. ولكي يساعده ذهنه بهذا العمل كان يطالع كثيراً. أما زاده الطبيعي فكان الكتاب المقدس وخاصة العهد الجديد الذي كان يحمله معه دائماً. ويدرس أيضاً الكتب الليتورجية وكثيراً من النصوص الآبائية. حتى استنار ذهنه إلى درجة كبيرة وصار

في طريقه إلى المنسك

باستطاعته أن يفسر بدقة الأقوال الإلهية.

كان قانونه اليومي عبارة عن الدرس والتأمل في بعض المقاطع من الرسائل والإنجيل ولكي يعيش هذه القراءات بإحساس أكبر كان يذهب ويقرؤها في الأماكن المطابقة لها في الغابة والتي أعطاها اسماءً من الأماكن المقدسة وهكذا عندما يكون في حقل بيت لحم يستحضر في ذهنه الطفل الإلهي في المذود ويرتل مقلداً الملائكة، ترنيمة «المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرّة».

وعلى ضفة نهر ساروفكا التي تشبه نهر الأردن كان يقرأ عن يوحنا المعمدان وعن عظته حول التوبة ومعمودية الرب. ويقرأ العظة على الجبل على التلة إلى جانب نهر ساروفكا. وعلى مرتفع آخر (جبل التجلي) كان يفكر عقلياً مع الرسل بمجد الرب المتجلي. وإذا توغل في الغابة الكثيفة كان يتذكّر الرب الذي طلب ماءً، وبسبب تأثره بآلامه المقدسة كان يصلي بحزن لأجل خلاصه.

وبالقرب من إحدى ضفاف ساروفكا التي تشبه شواطئ بحيرة طبريا كان يقرأ المقطع المناسب لظهور الرب للتلاميذ بعد القيامة، وحديثهم والصيد العجائبي. وعلى جبل الزيتون كان يرى عقلياً صعود الرب المجيد إلى السماوات وجلوسه على العرش من عن يمين الآب. وهكذا ساعدت الطبيعة المجاهد المتحمس في كماله الروحي. على كل حال هذا هو أحد أعمالها بأن تقود الإنسان إلى الله.

في هذه الفترة، إلى جانب الكتاب المقدس درس بشكل خاص كتابات الآباء النساك. يوحنا السلمي، البار برصنوفيوس، أفرام واسحق السوريين وكتباً أخرى. كان البار يعطي للقراءة الكتابية الآبائية أهمية خاصة. ويدعوها زاد النفس. وقد نظم أفكاره حول هذا الموضوع بنص عنونه. «بماذا يجب أن نزود النفس». في البرية درس الكتاب المقدس بكل

انتباه ولم يعد يبحث فيه فقط عن الحقيقة بل عن حرارة الروح أيضاً. كانت عيناه تمتلئان بالدموع تخشعاً بينما نفسه تشعر بسلام الروح القدس. هذه هي مكافأة الله له على أتعابه.

كان يقول: «إن درس الكلمة الإلهية مفيد جداً في الهدوء ويجب درس الكتاب المقدس كله بانتباه. والله يكافئ على ذلك بنعمة الفهم».

شكلت الصلاة عمله الأهم. كان يحمل معه دائماً المزامير وكتباً ليتورجيَّة أخرى ليقيم منها الصلوات اليومية وذلك بحسب نظام النساك الأوائل. ففي نصف الليل يقيم قانون القديس باخوميوس ويقرأ صلوات الإيوثينات، والسحر والساعة الأولى وحوالي الساعة الثامنة يقرأ صلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والتيبيكا. وعند العصر يقرأ الغروب وصلاة النوم الصغرى وإذا أسدل الليل ستاره يقوم بقانونه الرهباني ويتلو صلوات ما قبل النوم. ويصنع ألف سجدة زيادة على ذلك. لقد كان نومه قليلاً. وعلى أساس تيبيكون القديس باخوميوس عمل تيبيكوناً للصلوات، خاصاً به معروفاً بالتسمية «القانون في القلاية».

لقد اعتاد البار أن يقيم صلواته هذه في الأماكن المقدسة، وأن يتلو الساعات الثالثة والسادسة والتاسعة والتيبيكا في مكان الجلجلة لأنه بهذه يرد ذكر آلام الرب. هنا كان يرى بعين الإيمان كيف سمّر الرب على الصليب وكيف تألم وكيف مات ودفن.

عرف البار من خلال خبراته الشخصية كل العوائق التي يواجهها الشخص خلال تقدمه في الصلاة. وعندما كان يتحدث إلى آخرين كان يدلهم كيف يمكنهم أن يتخطوها. لقد عبر كل أشكال ومراحل الصلوات ولم يصل فقط إلى العقلية بل إلى حالة المعاينة. في هذه المرحلة الأخيرة يؤهَّلُ الإنسان أن يرى رؤى وإعلانات كما حدث لرئيس الشمامسة استيفانوس والقديس غريغوريوس بالاماس وآخرين.

قال: «عندما يتحد العقل مع القلب في ساعة الصلاة ولا يتشتتان، عند ذلك يلتهب القلب بالحرارة الروحية. ويستنير بنور المسيح، ويطفح بالفرح والسلام طيلة حياة الإنسان ووجوده على الأرض».

الإمســـاك في الطعام

قضى البار حياته في البرية بصوم شديد. ففي أغلب الأحيان كان يأكل الخبز البائت اليابس الذي كان يحضره معه أيام الآحاد لكل أيام الأسبوع. وبحسب بعض الروايات كان يطعم قسماً من الخبز للحيوانات وطيور البريّة التي كانت تحبه وتأنس إليه في المكان الذي كان يصلي فيه.

ويتناول الخضار من حقله. لقد أعدّ هذا البستان من الخضار حتى لا يثقل على الدير، ولأنه ابتغى أن يأكل من تعب يديه، كما فعل القديس بولس. بعد ذلك أصبح صومه أشدّ قساوة فلم يعد يأكل خبزاً على الإطلاق إذ أخذ بركة من رئيس الدير أشعياء أن لا يأكل خبزاً قط بل أن يتناول الخضار فقط: بطاطا، كرّاث وإحدى الحشائش المدعوة SNIT . وفي الأسبوع الأول من الصوم الأربعيني لم يكن يأكل شيئاً حتى يتناول الأسرار المقدّسة يوم السبت الأول.

بعد ذلك تقدم في الصوم إلى درجة لاتصدق. فقد عاش سنتين ونصف من غير أن يأكل شيئاً من الدير مما كان يثير التساؤل لدى الرهبان، بماذا كان يقتات في الشتاء؟ أما هو فقد أخفى جهاده بكل عناية. صرّح في ٢٠ أيار قبل رقاده بوقت قصير لشخص جديرٍ بالثقة.

هل تعرف الـ SNIT ، كنت أجمع هذه العشبة وأقطّعها وأضعها في قدرٍ مع قليل من الماء وكنت أضعها على المدفأة. فكان يصبح طعاماً لذيذاً جداً.

ما هو الـ SNIT ؟ سأله محدثه، ألعله شيء رمزي ؟.

من أين أنت فلا تعرف الـ SNIT. كنت آكل هذه العشبة، وأجهزها بنفسي.

وأين كنت تجدها في الشتاء ؟

في الشتاء كنت أتناولها جافةً. إن الأخوة في الدير كانوا يتعجبون بماذا كنت أتغذى في الشتاء ولكنني لم أقل لأحد. فقط قلته لك أنت.

كم يوماً كنت تأكل من الـSNIT خلال فترة ألف اليوم ؟.

أجابه الشيخ إجابة دقيقة ولكن المتحدث إليه نسي الجواب.

كان يأتي إلى الدير أيام الآحاد والأعياد ويتابع صلاة الغروب في كنيسة المشفى والسحر والقداس الإلهي. ويتناول الأسرار المقدسة. وبعد ذلك يذهب إلى قلايته في الدير حتى غروب اليوم التالي. خلال هذه الفترة— كان يستقبل الأخوة الذين يزورونه لأجل حاجاتهم الروحية، وعند صلاة الغروب يأخذ معه خبز الأسبوع وينطلق إلى البريّة.

اعتاد أن يقضي الأسبوع الأول من الصوم الأربعيني في الدير. خلال هذه الأيام كان يتجهز ويعترف ويتناول. فقد كان الرئيس أشعياء مرشده الروحي منذ زمن طويل.

كلّ الآباء الآخرين الذين عاشوا في البريّة كان لكلٍّ واحد منهم تلميذ، أما الستارتس سيرافيم فقد عاش في وحدة تامّة. وبالرغم من أن بعض الأخوة جربوا العيش معه، لم يستطع أحد منهم أن يتابع برنامجه القاسي أو أن يقلده في جهاداته مما كان يجبره على العودة إلى الدير. كان الكثيرون من الاخوة يذهبون إليه ليسترشدوا برأيه . وكان البار بحسب تمييزه يظهر فقط لأولئك الذين كانت عندهم حاجه حقيقية.

فإذا ما صادف الأب سيرافيم، خارج قلايته، شخصاً ما في الغابة. كان يصنع له بتواضع إنحناءه احتراماً ويبتعد. كان يردد: «لم يندم أحد على الصمت أبداً». وكان اللقاء الفجائي معه في البريّة يولّد عند الزائر انطباعاً رائعاً، إذ يعلّمُ بمظهره بقدر ما يعلّمُ بقوله.

زوار الناسك

من بين زواره الأكثر تردداً على منسكه كان الراهب مرقص لابس الأسكيم الكبير والشماس ألكسندروس وكلاهما من المتوحدين في ساروف. الأول كان يزوره مرتين في الشهر أما الثاني فمرة واحدة. وكان الأب سيرافيم يقيم معهما بكل رغبة أحاديث روحيه. أمّا هما فكانا يحفظان في قلبيهما كلّ ما يقوله لهما بخصوص الصلاة العقلية، وعن قوتها وأهميتها. وأما هو فلم يجمع هذه المعرفة من الكتب، بل من خبرته الشخصية.

في كثير من الأحيان وجد الأبوان مرقص و ألكسندروس الستارتس غارقاً في التأمل بالله. ولكي لا يقاطعاه، كانا ينتظران إلى أن ينتهي. وفي بعض الأحيان كانا ينتظران ساعة من غير أن ينتهي. فيعودان مستفيدَين من مثله الحي ويتابعان بحماس مضاعف جهاداتهما الروحية.

في هذه الفترة تميز من زوار الأب سيرافيم، الشماس تيمن من أبرشية نيزيغورسك. كان إنساناً مثقفاً متخرجاً من معهد نيزينكورد للاهوت. ترتبت مداركه العقلية بالعلم من دون أن تضعف تقواه وطبيعته النسكيه. لكن الأحوال أجبرته على الزواج. ثم شرطن شماساً وحرره الرب سريعاً من روابط الزواج إذ نقل امرأته من الحياة.

بعد أن أصبح الشماس حراً أخذ يتردد باستمرار على ساروف. ولما عاين الأبوان سيرافيم و مرقص حماسه الصادق قررا بكل رغبة أن يرشداه. كانت أقوالهما تسقط على أرض صالحه. فسيم الأب تيمن راهباً وخدم مدبراً في مركز الأسقفيه. كما رغب أسقف نيزينكورد أن يشرطنه كاهناً ولكنه رفض لأنه كان يشتهي من كل قلبه أن يعيش في البرية متوحداً لله وحده.

شغل الأب تيمن منصب رئيس دير المدينة لسنوات عديدة لأن الأسقف عيّنه في هذه المكانة. ذهب الأسقف مرّةً إلى الدير لخدمة القداس

الإلهي وقال ليس صحيحاً أن يرأس الدير شماس، فشرطنه كاهناً بالرغم من تمنعه. بعدها رحل الأب تيمن إلى أبرشية كوستروم، ونسك في دير كريفوزيرسك. ولكن المجمع المقدس أخرجه من الدير فأعطاه الرئيس البركة أن يعيش في البرية الداخلية حيث عاش وحده مدة عشرين عاماً وهناك كان يتزوّد طعامه من قلاية قريبة تابعة للدير.

قال الأب تيمن: «بسبب خطاياي الكبيرة سمح الرب أن يأتوا بي من البريّة إلى القلاية التابعة للدير (أمطوش) لكي أعيش هناك وأبني ديراً. أما أنا فلم أشأ أن أغادر البرية لأي سبب وعارضت الربّ. ولهذا عاقبني إذ ضربني داء السكتة (النقطة) وسقطت كالميت. فوجدني بعض عمال الدير الذين كانوا يجلبون لي الطعام مهشماً فاقدَ الذاكرة والنطق. فأنهضوني وذهبوا بي إلى الأمطوش فشفاني الربّ بسرعة وبطريقة عجائبية. فشكرته وتوقفت عن معاكسة إرادته وببركته أسست بسرعة ديراً ». يدعى هذا الدير «برية نادييف ويتبع لأبرشية كوستروم».

هجمات الشيطان

كان لجهاد القديس سيرافيم نتيجة وحماس. فالشيطان لم يحتمل شيئاً مثل هذا. لذلك تسلح ضده بتجارب متنوعة. وتحرك عليه بخبث، وبحيل صَنَعَ للقديس تهاويل متنوعة. روى أحد المتوحدين الأتقياء من برية ساروف ما يلي: «بينما كان الستارتس يصلي، سمع فجأة خارج قلايته همهمة. وللحال اندفع جمهور كثير وكسّروا بابه وأخرجوا الموجودات ثم رموا أمامَه جزع شجرة عظيماً. احتيج فيما بعد لثمانية أشخاص لكي يرفعوه ويخرجوه من القلاية». وفي كثير من الأحيان كان يبدو له في ساعة الصلاة أن قلايته تتهدم من جهاتها الأربع وتهجم عليه حيوانات هائجة من جميع الجهات وخاصة في الليل. ومرّة ظهر أمامه تابوت مفتوح ونهض من داخله ميت. لم تثنِ الأب سيرافيم عن عزمه مثل هذه الأشياء، ولهذا عمد الشيطان، بسماح من الربّ طبعاً، أن يقوم ضده

بهجمات أشرس. فكان يرفعه عالياً في الهواء ويضرب به الأرض. ولولا حراسة ملاكه لتكسَّرت عظامه. أما القديس فلم يكن يرتعب حتى ولا من هذا بالرغم من أنه في ساعة التجربة كان يرى بعيونه الروحية الأرواح الشريرة. سأله أحد العلمانيين بكل بساطة يا أبتِ هل رأيتم الأرواح الشريرة ؟ إنها فظيعة، أجابه الأب مبتسماً. فكما أن الخاطئ لا يستطيع أن يواجه نور الملاك هكذا هو مريع أن تواجه الشياطين لأنها مكروهة (نتنة). كان يجابه كل هذه التجارب بالصلاة وعلامة الصليب. بعد ذلك عاش مدّةً طويلة بسلامٍ، شاكراً الربّ على هذا السلام والهدوء.

الألف يوم

كانت السلطات الكنسية، التي عرفت الأب سيرافيم، تتوقع منه نفعاً كبيراً إذا ما سلمته رئاسة أحد الأديار. سنة ١٧٩٦م شغر مكان الأرشمندريت في مدينة ألاتير، ففكروا بنقل البار إلى هناك، لقد منح دير ساروف الكثير من الرؤساء لأديارٍ عديدة، لكن الستارتس طلب من الرئيس أشعياء أن يرفض التعيين. وبما أنَّ الرئيس مع الأخوة الآخرين أيضاً لم يريدوا أن يرحل من ديرهم هذا المرشد الحكيم والمجاهد في الصلاة، أرسلوا بديلاً عنه الأب إبراهيم. ومرّةً أخرى عينوه رئيساً لدير المخلص في كراسنوسلب، فلم يقبل فأرسل مكانه المتوحد إيرونيموس. بسبب هذا التواضع كان الشيطان يهاجمه بحرب شديدة، ويحرك ضده حرباً من الأفكار تلقي به في الضيق، فكان البار بدوره يصعِّد جهاده، فيأخذ البركة ويطلب المساعدة العلوية ليدخل جهاداً صلاتياً أصعبَ. في الغابة الكثيفة. وفي منتصف الطريق بين قلايته والدير، وجدت صخرة من الغرانيت غير معهودة في ذلك المكان. فتذكر جهاد القديسين العموديين القاسي فرغِبَ أن يشترك هو أيضاً بهذا النوع من النسك وقرر أن يصعد على الصخرة ليلاً وذلك كي لايراه أحد وهناك كان يصلي، واقفاً تارةً وأخرى راكعاً ويداه مرفوعتان على مثال القديس باخوميوس مردداً

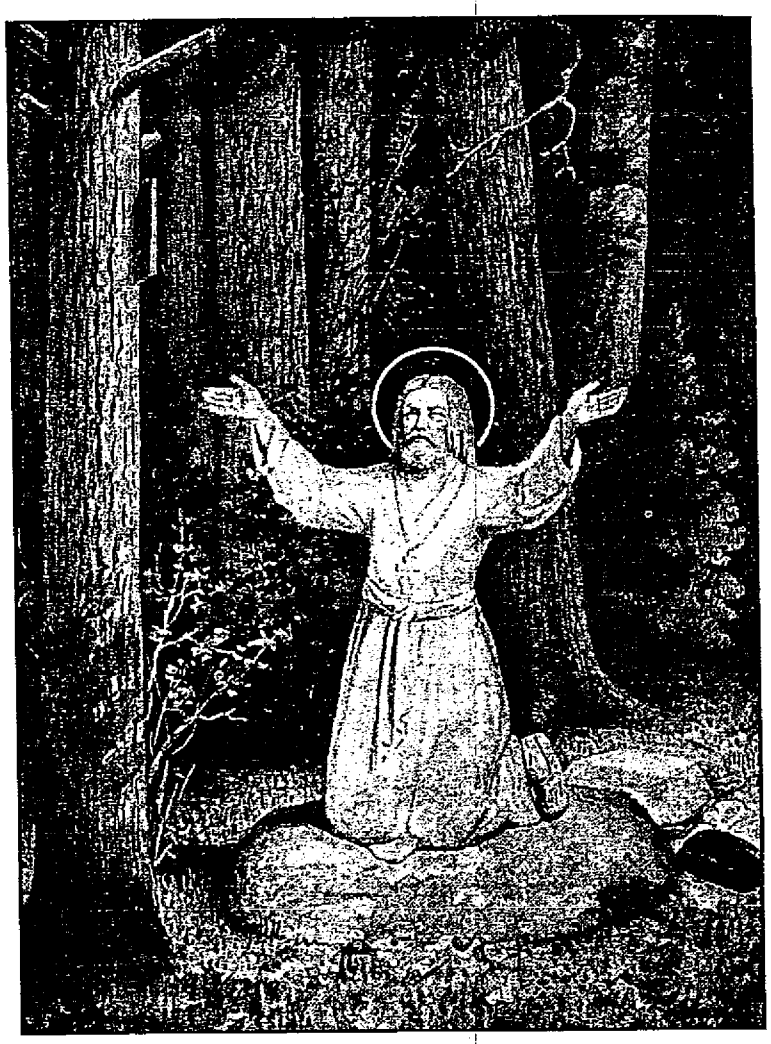

الصلاة على الصخرة

صرخة العشار «يا الله اغفر لي أنا الخاطئ» وبما أنه أراد أن يصلي في النهار أيضاً بذات الطريقة، وضع في قلايته صخرة أخرى، أخذ يصلي عليها من الصباح حتى المساء. كان ينزل عنها فقط عندما تخونه قواه ليرتاح أو ليأكل شيئاً ما. استمر في هذا الجهاد مدة ألف يوم. اعتاد أن يقول: «يجب أن نسخِّر كلَّ إمكانيةٍ لأجل نفوسنا، أما بالنسبة لجسدنا فعلينا أن نشدِّده فقط بقدر ما يحتاج ليتجاوب مع محاولتنا هذه. فإذا أضعفنا جسدنا بإرادتنا إلى درجة نضعف معها الروح، فيكون ذلك من عدم التمييز حتى ولو صار لأجل اكتساب الفضيلة». بسبب الوقوف فوق الصخرة ضعفت قواه وبدأت رجلاه تؤلمانه ولم تتوقفا عن إزعاجه حتى وفاته. لقد فهم أن متابعة هذا الجهاد سيؤدي إلى تحطيم روحه، ولهذا توقف عن الصلاة بهذه الطريقة. قام بهذا الجهاد بسريَّة تامة بحيث أنه لم يكن بإمكان أي شخص أن يتخيّله. ويرد في إحدى مخطوطات الدير أن الأب نيفن أعلم أسقف تامبوف أن وقوف الأب سيرافيم لمدة ألف يوم فوق الصخرة كان شيئاً لا يعرفه أحد. وقد كشف الأب سيرافيم هذا الحدث لبعض الأخوة قبل رقاده بعدة أيام بهدف نفع النساك الآخرين.

س – قال لـه أحدهم: إنَّ الجهاد فوق الصخرة، يفوق الإمكانات البشريَّة؟

ج –أجاب الستارتس: إن البار سمعان العامودي وقف فوق العمود سبعة وأربعين عاماً. فهل بالإمكان مقارنة محاولتي هذه بجهاد ذاك ؟

س – في محاولتك هذه يجب أن تكون العناية الإلهية قد ساعدتك بشكل محسوس.

ج – بكل تأكيد. بغير هذا لما كانت قواي تكفي. كنت أشعر في داخلي أنّ هذه العطية الإلهية المنحدرة من العلى من عند أبي الأنوار كانت تعزيني وتشددني. ثم بقي صامتاً لفترةٍ قصيرة وأكمل بعدها: عندما يوجد في القلب خشوع، فالله عندئذٍ معنا.

بهذه الكلمات الأخيرة ودون إرادته كشف عما كان يميِّز صلاته. كانت صلاته تتم بخشوع، لقد اقترب البار من الله كثيراً حتى أنه كان يشعر داخلياً بحضوره، مما كان يقويه. لا تزال الحجارة حيث جاهد موجودة إلى اليوم. وطريق القدوم التي كانت تقود إلى منسكه أصبحت طريقاً عريضة تتسع لعربات الحجاج. وأخذ الكثيرون منهم قطعاً من الصخرة. وتملك بعض العائلات التقية حتى الآن قطعاً منها، وعليها رَسْمُ القديس وهو راكع يصلّي

اللصوص الثلاثة

كان الشيطان بهجماته يهدف إلى إبعاد البار عن البرية. وفي ١٢ أيلول ١٨٠٤ م هاجمه من جديد. بينما كان في الغابة يقطع الخشب، اقترب منه ثلاثة قرويين. وقالوا له: نريد أن تعطينا مالاً من الأموال التي يأتيك بها الزوّار. أجابهم الستارتس أنا لا آخذ شيئاً من أحد. فلم يصدقوا كلامه وهجم عليه أحدهم من الوراء لكي يلقيه أرضاً وبدلاً من أن يرمي البار سقط هو نفسه. لقد فاجأتهم حركته الخفيفة، ولكنهم لم يتراجعوا. وإذ كان للأب سيرافيم قوة غير اعتيادية ومعه المعول كان بإمكانه أن يدافع عن نفسه بشكل إيجابي. لقد مرّت هذه الفكرة من رأسه للحظة وفجأة تذكر قول الرب «كل من يأخذ بالسيف ،بالسيف يؤخذ» (متى ٢٦: ٥٢). فترك معوله على الأرض وصلّب يديه على صدره وقال بكل تواضع: افعلوا ما يحلو لكم. بالرغم من براءته، قرَّر لأجل محبة المسيح أن يصبر على كل شيء، فالتقط أحد القرويين المعول وضرب بعقبه الأب سيرافيم على رأسه، كانت الضربة قوية إلى درجة خرج فيها الدم من فمه وأذنيه. وسقط على الأرض فاقد الإحساس. فجرَّه المجرمون إلى قلايته وفي الطريق كانوا يرفسونه بشكل همجي ويضربونه بأيديهم وبالمعول والعصا. فكّروا للحظةٍ أن يرموه في النهر ولكنه إذ بدا كمائت ربطوا يديه ورجليه بحبل وتركوه في مدخل القلاية. ودخلوا هم إلى الداخل لكي يسطوا على الكنز

الذي لا يوصف، كما كانوا يظنون. لقد بدؤوا البحث بسرعةٍ فهدموا المدفأة ونزعوا أخشاب الأرض وتركوا القلاية الفقيرة مقلوبة رأساً على عقب. الشيء الوحيد الذي وجدوه كان أيقونة وبعض البطاطا. عندئذٍ تحركت ضمائرهم وبدأت تبكتهم على جريمتهم التي صنعوها في الضحية البريئة. لقد ارتعبوا ورحلوا مسرعين!! في ذلك الوقت استفاق الستارتس من الضربات المميتة واستطاع أن يتحزر من القيد. وشكر الرب الذي أهّله أن يتألم لأجله وتضرع إليه أن يسامح فاعلي الشر. لقد قضى ليلته بألم ووجع. وعند الصباح تحرك نحو الدير وحده بصعوبة شديدة. فوصل في ساعة القداس الإلهي. كان منظره يدعو للشفقة. ولحيته وشعره مشعّثين وملطخين بالوحل ومرويين بالدم والوجه متورماً واليدان، وكذلك كثير من الأسنان مكسّرة. كان الدم ينزف من فمه وأذنيه بينما كانت ثيابه متقبِّضَةً مليئة بالدماء الجافة وملتصقة بالجراح..سأله الرهبان مرتعبين ماذا حدث لك؟ فقال: أعلموا رئيس الدير والأب الروحي دون أن يضيف كلمة. عندما حضر أولئك قصّ عليهم الحادثة بكل التفاصيل. أجبرته حالته التعسة على البقاء في الدير. أما الشيطان الذي حرك المجرمين فقد عيَّدَ. إذ وثق بأنه الآن قد طرده من منسكه في البرية إلى الأبد.كانت الأيام الثمانية الأولى ثقيلة لم يذق خلالها لا ماءً ولا طعاماً، حتى ولم يأته النوم بسبب الألم الذي لا يحتمل. كان الجميع واثقين من أنه سيموت. وفي اليوم الثامن أرسل رئيس الدير أشعياء بعضاً من الرهبان لاستدعاء الطبيب من أرزا ماس. ففحصه ثلاثة أطباء، وجدوا أن الرأس وجوانبه مكسرة والصدر موطوء بالأقدام والجسد كلّه مليء بالجراح المميتة. وتعجبوا من بقائه حياً بعد كل هذه العذابات. قالوا لرئيس الدير: يجب أن نجري له عملية الفصد. ولكنه خشي من ذلك لأن البار كان قد خسر دماءً كثيرة. أمّا الأطباء فشددوا على لزوم إجراء العملية المذكورة مع بعض العمليات الأخرى. وبينما كان الأب سيرافيم يتابع بكل امتنان اهتمام الأطباء، نام نوماً قصيراً هادئاً ومريحاً، رأى

أثناءه رؤية عجائبية. فقد اقتربت منه والدة الإله الفائقة القداسة وهي مرتدية حلة أرجوانية ملكية ومجللة بالنور ووقفت من الجهة اليمنى للسرير والرسولان بطرس ويوحنا يسيران خلفها. فالتفتت إلى الأطباء ودلت بإصبعها على البار قائلة: لماذا تتعبون؟ بعد ذلك التفتت إلى الستارتس وأكملت: إن هذا من جيلنا. انتهى الحلم، ولم يفهم أحد شيئاً. وعندما دخل رئيس الدير كان المريض قد استيقظ. فأشار عليه الستارتس أشعياء بمحبة وألم أن يقبل المساعدة الطبية أما هو فرفض.لا أرغب بالمساعدة البشرية، سأترك حياتي بيدي الله ووالدة الإله الفائقة القداسة، عند أطباء النفس والجسد الحقيقيين والموثوقين. وهكذا تركوه بسلام متعجبين من إيمانه وصبره. أما هو فشعر بعد تلك الزيارة بسلام سماوي استمر أربعَ ساعات. ثم شعر بارتياح من الألم وبدأت قواه تعود. نهض بعدها من السرير وتمشى في القلاية قليلاً. عند المساء أكل بعض الخبز والخضار المكبوسة. وفي الساعة التاسعة، من اليوم ذاته بدأ جهاده الروحي. في وقت مضى، بينما كان الأب سيرافيم يقطع الأخشاب من الغابة أصيب بضربةٍ قاسية، صار يعرج منها. وازدادت هذه العلة بسبب الحادث الجديد الذي استدعى من الآن وصاعداً الاعتماد على معوله أو على عصا ما أثناء المشي. مكث في الدير خمسة أشهر. ولما شعر أنه قد قوي ذهب إلى الرئيس وقال له:اسمح لي أن أذهب إلى البرية. فقال له: إنني أخشى أن أتركك، لربما تعرضت لاعتداء آخر.

أنا لا أخاف مثل هذه الاعتداءات إطلاقاً. إنني مستعد كالشهداء القديسين أن أصبر على أيَّة تجربة حتى الموت إنني أخشى فقط من لصوص النفس. خضع رئيس الدير أمام إصراره وأعطاه البركة. وهكذا انطلق من جديد إلى البرية. لقد انتصر على قوة الشيطان الذي سيتعرض لضربة أدهى لم يتوقعها أبداً. أي تسامح البار. فقد عرفَ اللصوص الذين كانوا عبيداً للإقطاعي تاتيسيف من قرية كريمينوك. فسامحهم الستارتس سيرافيم وتوسل إلى الرئيس أشعياء وللإقطاعي تاتيسيف أن لا يعاقباهم.

هجوم اللصوص الثلاث

وإلا سيرحل عن ساروف إلى جهة غير معروفة إلى مكان مقدس آخر. وترك أمر العقوبة بيدي الله. بالحقيقة عاقبتهم عدالة الله، فاحترقت بيوتهم وجاؤوا بأنفسهم إليه زارفين دموع الندم طالبين منه المغفرة وتضرعاته المقدسة.

المرشد المستنير

لقد استعمل الأب سيرافيم خبرته الغنية التي اكتسبها في البريَّة لكي ينفع نفوساً أخرى. مرة أعطى رئيس الدير البركة لراهب لكي يبدأ حياة التوحد. وطلب من البار أن يقبل رسالة الراهب ويعلِّمه. فقبله الستارتس بكل سرور وأعطاه بركة لكي يبني له منسكاً على مسافة ليست بعيدة عن منسكه.

س – قال الراهب: يا أبتِ كلمني، أعطني إرشادات للحياة التوحدية.

ج – أجاب الأب سيرافيم ،أنا لا أعرف شيئاً.لقد تكلم هكذا بسبب التواضع العميق. ومن جهة ثانية من تمييزه الكبير وخبرته في هذا الموضوع. بشكل عام، لم يكن يشجع الرهبان على الإقامة في البرية وكان ينبههم أيضاً على أن الذي يعيش في البرية عليه أن يكون كالمسمَّر فوق الصليب. وقال أن الرهبان في الدير يحاربون الشياطين كمن يلعب مع الحمام، بينما في البرية كمن يواجه الذئاب أو النمور. ولهذا بالرغم من ميله إلى حياة البرّية لم يعطِ لأي كان البركة ليسكن فيها وحيداً، بل مع شخص أو شخصين من الاخوة، متفقين روحياً. وكان يردد دائماً هذا المقطع من الكتاب المقدس: «اثنان خير من واحد لأن لهما أجرة صالحة لأتعابهما. لأنه إن وقعا يسند الواحد رفيقه. وويل للوحيد وليس له ثان ليقيمه» / جا ٤: ٩–١٠ /. وأيضاً كان يردد هذا القول الكتابي: «الأخ المساعد من أخيه يكون كمدينة عالية ومحصنة ويتقوّى كملك ثابت». تأثر أحد زوار الدير من ترتيب الصلوات وقرر أن يصبح راهباً وبينما كان عائداً إلى بيته جبن أمام الحياة العالمية وتزوج وأصبح لديه ولدان. ولكن ضميره لم يتوقف عن تذكيره بقراره للحياة الرهبانية. فذهب ثانية إلى

ساروف وركع أمام الآباء داخل الكنيسة وبعد الصلاة طلب أن يحكم في خطيئته وأن يرشدوه ويعطوه بركة لكي يبقى في الدير. فأشار عليه أحد الآباء أن يتوجه إلى الستارتس سيرافيم. ولما وصل إلى قلايته في البرية رآه خارجاً وبيده فأس لقطع الحطب. فناداه يا أبتِ، ثم سقط على قدميه وقال له: أعطني نصيحة ما وصلٌ لأجلي إلى الربّ لكي يقبلني في الحياة الرهبانية المشتهاة.

س – سأله البار. بعد تعهدك الذي ستقطعه هل ستحافظ على كل القوانين الرهبانية؟

وإذ نسي ذاك في ذلك الوقت المرأة والأولاد، أقسم وقال:

ج – نعم سأحافظ بكل أمانة على القوانين الرهبانية حتى الموت وإلا فإنني أقبل أيَّة عقوبة تفرض علي.إذا كان الأمر هكذا. إذاً اذهب في طريق السلام، أجابه الستارتس بعد أن رأى أنه سيحافظ على عهوده. وأخيراً بارك الغريب وتركه يرحل. فماتت امرأته بعد وقت قليل وتبعها ولداها. فأصبح بدون رباط عالمي فذهب إلى دير ساروف حيث سيم راهباً وتوفي كراهب جقيقي..

موت رئيس الدير أشيعاء

كان رهبان ساروف يقدّرون البار سيرافيم كثيراً ويحترمونه، وأحبه رئيس الدير أشعياء بشكلٍ خاص وكان يرغب في الحديث معه. ولما كان في صحة جيدة كان يتردد إليه في البرية. وفي سنة ١٨٠٦م ضعفت قواه فاستقال من رئاسة الدير. عندئذ اقترح كل الأخوة أن يأخذ مكانه الستارتس سيرافيم فرفض الأخير العرض كمتواضع وعاشق لحياة النسك والهدوء، فأسندت الرئاسة للأب نيفن الذي شغل حتى ذلك الوقت منصب المدبِّر.

عاش الأب أشعياء بعد ذلك سنةً واحدة، لم تكن صحته خلالها تسمح له بقطع مسافة ستة فرستيات حتى منسك البار. ولم يرضَ

بالحرمان من تعزية التحدث إليه. فكان الأخوة يأخذونه إلى هناك بالعربة وذلك كي لا يدعوا الأب سيرافيم إلى الدير وينتزعوه من هدوئه. توفي الأب أشعياء في ٤ كانون الأول سنة ١٨٠٧م تاركاً لدى الكل أفضل الذكريات.

الأب أشعياء

الأب نيفن

لقد أحزن موته قلب البار الطيب، إذ فقد أباه الروحي ومحدثه الجيِّد. فالآن يعيش حالة الموت الذي لا مفرّ منه، وبطلانية الحياة الحاضرة وحكم الرب الرهيب. وبموت الأب أشعياء فقد أفضل آبائه ومرشديه. ومنذ وقت طويل تنيَّحت رفات الشيخ أيوسيف الذي قاده في طريق الآباء. وروح الرئيس باخوميوس كانت موجودة في السموات أيضاً. ففي كل حياته سيصلّي لأجل راحة آبائه الثلاثة المغبوطين، وعندما سيعبر المقبرة سيركع أمام قبورهم متضرعاً لأجل راحة نفوسهم..بعد مرور عدة أعوام تحدَّث مع رئيسة دير أرداتوف أفذ وكيا، وأعطاها النصيحة التالية::«في كل مرّة تأتينَ لزيارتي عليكِ أن تعبري المقبرة وهناك اصنعي ثلاث سجدات طالبة من الله أن ينيِّح عبيده، أشعياء، باخوميوس، أيوسيف ومرقص وكل الأخوة الآخرين وبعد ذلك لتسجدي قائلة: اغفروا لي أيّها الآباء القديسون وصلّوا لأجلي». وبالطريقة نفسها كان يشجع آخرين أن يصلّوا لأجل آبائهم الروحيين والذين كان يدعوهم أعمدة نارية تمتد من

الأرض حتى السماء، وذلك بسبب صلاتهم الحارة. لقد أفرح الأب سيرافيم اختيار الأب نيفن رئيساً جديداً، لأنه كان يحترمه كإنسان ذي مواهب نادرة. وأعطى موت الرئيس أشعياء طابعاً جديداً لحياته التي أصبحت أرقى وأكثر روحانية ونسكاً..

الصمت

إن الصمت هو الشكل النسكي الجديد الذي قرّر أن يتحمله الستارتس. كان يقول: «علينا أولاً أن نزيّن أنفسنا بالصمت». فالقديس أمبروسيوس أسقف ميلان اعترف أن الكثيرين يخلصون بالصمت، أما بكثرة الكلام فلا أحد. كذلك أكد أحد الآباء أن الصمت هو سر الدهر الآتي بينما الكلام هو وسيلة هذا العالم. اتخذ لذاته مثالاً في جهاد الصمت هذا أبوين ناسكين قديمين هما أرسانيوس الكبير ويوحنا الناسك. فإذا ما قدم زوار إلى قلايته كان يمتنع عن الظهور. وإذا صادفه شخص ما في الغابة بغير توقع، كان البار يسقط على وجهه على الأرض ولا يرفع عينيه إلى أن يرحل..هكذا استطاع الحفاظ على الصمت ثلاث سنوات. وفي الفترة الأخيرة منها انقطع عن الذهاب إلى الدير أيام الآحاد والأعياد. فكان أحد الأخوة يأتيه بطعامه كل يوم أحد وخاصة أيام الشتاء، التي لم يكن باستطاعته خلالها أن يزرع الخضار.وكانت هذه الخدمة متعبة جداً في الشتاء ،على وجه الخصوص، إذ لم يكن ثمّةَ طريق إلى المنسك. والراهب الذي كان يجلب المؤونة الأسبوعية كان يغوص في الثلج حتى ركبتيه وهو سائر وسط العاصفة الثلجية. وعندما يصل إلى الرواق المؤدي إلى القلاية كان يقول الصلاة: «بصلوات آبائنا القديسين» فيجيبه القديس في داخله آمين، ويفتح الباب ويداه مصلّبتان على صدره ووجهه مطرق نحو الأرض، ولم يكن يبارك الأخ ولا يرمقه بنظرة. فيصنع له الراهب مطانية حتى الأرض قائلاً الصلاة المعتادة. ويترك الطعام في قفة صغيرة على طاولة في الرواق.عند ذلك يضع الأب سيرافيم بدوره إما قطعة صغيرة من الخبز أو قليلاً من الخضار وبذلك كان يفهمه ماذا يريد أن يحضر له في الأحد التالي خبزاً أو خضاراً. ثم يقول الأخ الصلاة من

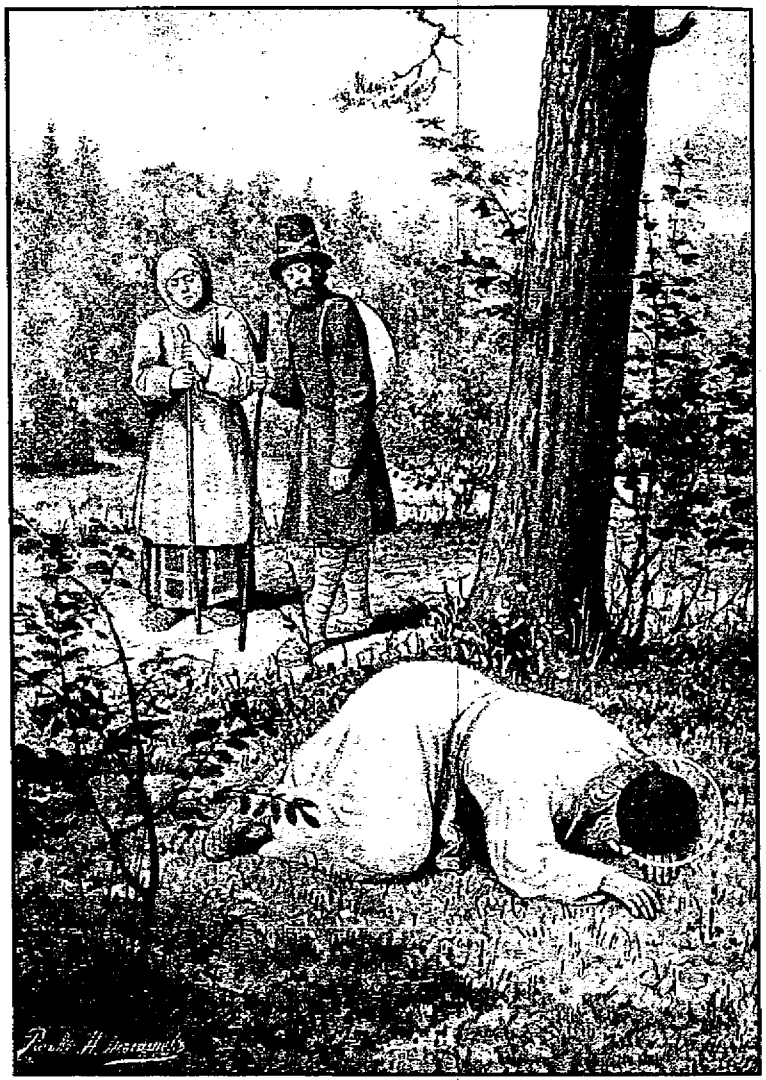

«إذا التقى بأحد فجأة في الغابة»

جديد وينحني أمامه طالباً صلاته ويغادر إلى الدير دون أن يسمع منه أيَّةَ كلمة. كل هذه المحاولات كانت تخصّ الصمت الخارجي، ولكن جوهرَ جهاده كان موجوداً في هدوء الذهن وإبعاد كل فكر. وبذلك كان يتكرس للرب أكثر. لقد أعطى جهاد الصمت هذا، كما عاشه القديس، ثماراً كثيرة. قال البار «عندما نمارس الصمت، قاصداً بذلك صمت العقل، عندئذٍ لا يستطيع العدو أن يفعل الشر في أعماق قلب الإنسان. فالصمت يلد في نفس المجاهد ثمار الروح القدس، فالصمت والتوحد يلدان الخشوع والدعة وهذه الأخيرة تشبهُ ماء سلوام الذي يجري بهدوء ودون ضجيج». «ماء سلوام الذي ينحدر بهدوء» /أشعياء٨: ٦/.

فإذا ارتبط الصمت بالجهادات الروحية الأخرى، الصلاة، المطالعة، النسك، يقود الإنسان إلى الكمال. فقلاية الراهب بحسب قول الأباء هي أتون بابل حيث وجد الفتية الثلاثة الله. والصمت يقرِّبُ الإنسان من الله ويجعل منه ملاكاً أرضياً. اجلس في قلايتك وحيداً، بصمتٍ وحذر، وحاول بكل الطرق أن تقود ذهنك نحو الله، وهو مستعد أن يحولك من إنسان إلى ملاك. لأنه يقول: «على من أترأف؟ أليس على المتواضع والهادئ والذي يرهب أقوالي».

ثمر الصمت هو سلام النفس فالصمت يعلم الهدوء والصلاة الدائمة بينما الصوم يحفظ الفكر من التشتت. ومن حصل على هذه المواهب تنتظره حالة صمت دائمة.

هذه كانت غاية الأب سيرافيم ولهذا تكرس لجهاد الصمت. لقد أحزن ابتعاده عن الدير اخوة كثيرين أما صمته فقد حرمهم من إرشاداته.

سأله البعض: لماذا تنعزل أيها الأب بما أنك إذا سكنت في الدير تستطيع أن تنفع بكلامك ومثالك من دون أن تتأذى.

فأجاب بأقوال من الآباء:

يقول القديس اسحق السوري: «أحبب بطالة الصمت أفضل من إبحارك جائعاً في العالم». و«عظيم من يتكلم حول الله ولكن الأعظم منه

من يتنقى بالله». كما يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي.

لكن البارّ قرر أن لا يبقى عند درجة الصمت بعد أن اقترب بها كثيراً من درجة الكمال، فتقدم إلى نوعٍ نسكي أعظم وأرقى وهي حياة الحبساء. وجاءته الحجة من الحدث التالي.

لقد سبب له الوقوف الذي مارسه أثناء الصلاة فوق الصخرة الوجع في قدميه ولم يتمكن بذلك من الذهاب إلى الدير لكي يتناول الأسرار الإلهية.

لذلك دعا الرئيس نيفن الآباء الشيوخ في الدير لمناقشة موضوع مناولة الأب سيرافيم وانتهوا إلى القرار التالي: أن يقترحوا عليه المجيء إلى الدير أيام الآحاد والأعياد الكبيرة ليتناول، وإذا كانت قدماه لا تساعدانه فليأتِ ليقيم نهائياً في الدير.

في يوم الأحد أخبره الأخ الذي جاءه بالطعام عن قرار المجمع الديري، ولكن البار تركه يرحل دون أن يقول كلمه واحدة، فأعطى الرئيس أمراً للراهب أن يعيد الشيء نفسه في الأحد التالي. ولما سمع الأب سيرافيم القرار للمرة الثانية انطلق مع الأخ إلى الدير للإقامة هناك.

الفصل الخامس

العـودة إلى الدير

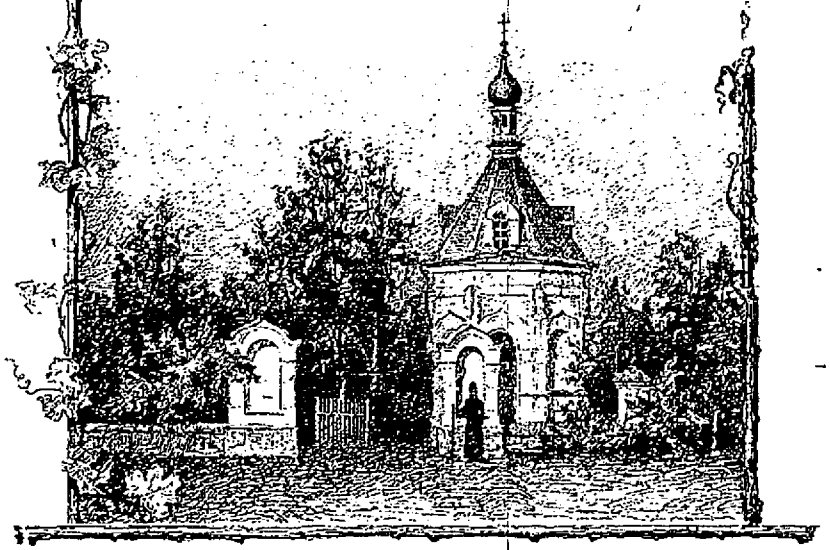

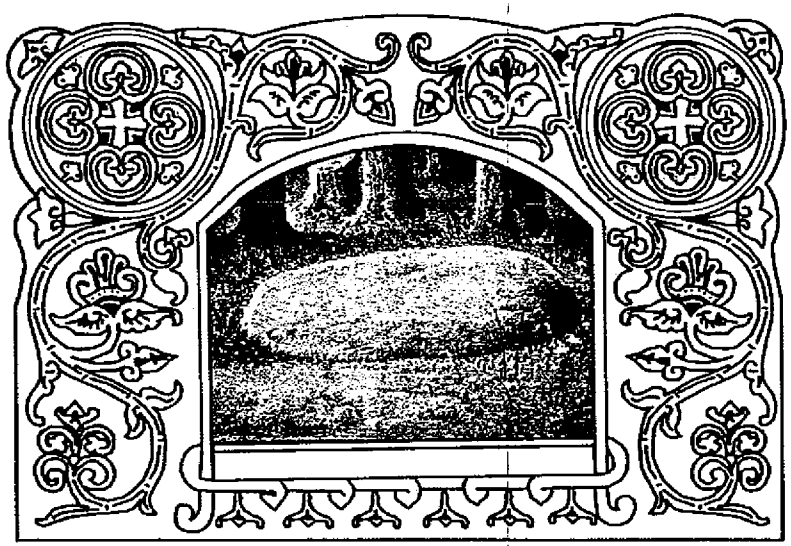

حياة الانقطاع

في ربيع ١٨١٠م وتحديداً في ٨ أيار وبعد خمسة عشر عاماً من الإقامة في البريه عبر البار بوابة الدير متجهاً إلى المشفى من غير أن يتوجه مطلقاً إلى قلايته. ولما قرع الجرس داعياً لصلاة الاغريني، جاء إلى كنيسة رقاد السيدة، فتعجب الرهبان. وللحال صار معروفاً أنه قرر السكنى في الدير.

وفي اليوم التالي، عيد القديس نيقولاوس، ذهب إلى صلاة القداس الإلهي الباكر في كنيسة المشفى وتناول. وبعدها توجه إلى الرئيس وأخذ بركته وعاد إلى قلايته القديمة، ولم يعد يخرج منها أبداً، ولا يقبل أحداً، ولم يتفوه مع أحد بأية كلمة، لأنه كان قد بدأ جهاداً جديداً أصعب وهو جهاد الانقطاع. لقد حضَّره لهذا الجهاد الصمت، الذي مارسه سابقاً.

ولكي يقطع إرادته لم يرغب بامتلاك أي شيء داخل القلاية حتى الضروريات. فقد كانت عنده أيقونة أشعل أمامها قنديلاً، وجزع شجرة للجلوس، ولم يستعمل مدفأة.

في ذلك الوقت كان يحمل داخل ثيابه صليباً مربوطاً بالحبل وطوله ٢٢ سم. ويقول بعض كاتبي سيرة حياته: إنه عمل هذا لأجل الجهاد، أما هو فأكدَ أنّه لم يفعل ذلك لأجل هذا الهدف. ولم يلبس بحياته ثياباً من شعر، ولم ينصح آخرين بلبسها. قال: «إذا أحزننا شخص ما بالقول أو بالعمل، وتحملنا الشتم كما يطلب الإنجيل، فهذه هي سلاسلنا وثيابنا التي من شعر. هذه السلاسل الروحية أرفع من الحديدية التي يلبسها أناس اليوم.

إنه لمؤكد بالحقيقة أن الكثيرين من القديسين قد لبسوا السلاسل، ولكنهم كانوا كاملين، حكماء، صنعوا كل شيء محبة بالله ولكي يميتوا وثبات الجسد. ومن أمثال هؤلاء، القديسين الروس، القديس ثيودوسيوس الذي من دير الكهوف، وثيوذوسيوس توتيمسكي والمغبوط باسيليوس وآخرين.

أما نحن فلا نزال صغاراً. فالآلام تجأر في داخلنا وتواجه إرادة الله بجرأة. فماذا تنفعنا السلاسل إذا أكلنا وشربنا ونمنا حتى الإرهاق؟ إننا لا نستطيع أن نحتمل أصغر الأحزان التي يسببها لنا الأخ. ومن الكلمة الأولى التي سيقولها، نقع في الغضب المطلق واليأس المطلق. والإزعاج الذي يسببه لنا نظنه شتيمة فنرحل مع فكرنا إلى دير آخر ونحنق وعدم تمييز. وعلامة على ذلك أننا نحسد الأخوة الذين يتحلّون بالثقة والرحمة على المبتدئ.

كم هو ضحل أو غير موجود فينا أساس الحياة الرهبانية ! وكل ذلك لأننا نفكر بها وننتبه لها قليلاً. فهل يمكننا إذاً ونحن نعيش في هذه التعاسة أن نلبس سلاسل؟ أي أن نتجرأ على جهاد يليق بالحكماء والكاملين».

كان لباسه ذاته كما كان في البريه. والماء مشروبه الوحيد، ولطعامه استعمل الخضار والخبز اليابس المصنوع من الشوفان. كان الأب بولس يأتيه بطعامه ومائه، إذ أنه كان ساكناً في القلاية المجاورة لقلايته. كان يقترب من الباب ويقول الصلاة. فيفتح الحبيس الباب وقد غطى وجهه بقطعة قماش لكي لا يظهر. فيأخذ طعامه راكعاً كما لو كان من يد الله ذاته، ثم يغلق الباب وبعد أن يتقوى بالطعام المادي يخرج مغطى ويضع الصحن أمام الباب.

كان يلقي على وجهه غطاءً لكي يقلد النساك القدماء الذين كانوا يخفون مظهرهم «كي لا يروا البطلان». وفي بعض الأحيان يعيد الصحن كما أتوه به، فكان يصوم صوماً كاملاً.

كان جهاد صلاته عظيماً ومتنوعاً، فكما تصرف في البرية، هكذا عَمِلَ في الدير بالنسبة لقانونه الشخصي، وكل الصلوات اليومية، إضافة إلى القداس الإلهي. وإضافة إلى ذلك، جاهد في الصلاة العقلية قائلا بقلبه على التناوب: «أيها الرب يسوع المسيح ارحمني». وتارةً «أيتها الفائق قدسها والدة الإله خلصينا». مرةً أخِذَ وهو يصلّي بمعاينة طويلة، فوقف أمام الأيقونة من دون أن ينبثَ بكلمة ومن دون أن يركع. فقد كان يعاين الربَ بالعقل والقلب. فإلى كم من العمق كانت تمتد صلاة هذا الحبيس؟

كان يقرأ خلال الأسبوع كل أسفار العهد الجديد. في يوم الاثنين الإنجيل بحسب متى، والثلاثاء الإنجيل بحسب مرقص، والأربعاء الإنجيل بحسب لوقا، والخميس بحسب يوحنا، وفي الأيام الباقية أعمال الرسل ورسائل الرسل.

سُمع مرات عديدة، في الممر وهو يشرح الإنجيل بصوت عال. وانشغل بأعمال الرسل فترة طويلة. أما هو فكان يفسر لنفسه، وكان الكثيرون يقتربون ليسمعوا تعليمه المليء عذوبة وتعزية.

مرّة كان معه كتاب، وكان قد أخذ كلياً في سر الروح القدس، فلم

يعد يتحرك ولا يحرك ورقة بل ثبَّتَ نظره إلى شيء ما يطالع فيه.

وخلال المدة التي بقي فيها منقطعاً اعتاد أن يتناول الأسرار المقدسة في قلايته. ولكي يحافظ على انقطاعه إلى درجة تامة أخذ البركة من الرئيس نيفن لكي يأخذوا له المناولة الإلهية في كل عيد وفي كل أحد من كنيسة المشفى.

كان الأب سيرافيم رئيس دير ساروف الذي خلف الأب نيفن قد عمل مدة عامين (١٨٢٦ – ١٨٢٧م) مدبراً في كنيسة المشفى. وبعد القداس الإلهي اليومي كان يأتي إلى الحبيس بالبروتي، مرّة يعطيها له بنفسه، وفي مرات أخرى عندما لم يكن الأب سيرافيم يظهر كان يتركها في سلّة صغيرة معلّقة على الباب لأجل هذا الهدف.

ولكي لا ينسى البار ساعة الموت، ولكي يعيش سرّه مبكراً، طلب أن يصنعوا له نعشاً، فصنعوه له من خشب البلوط وكذلك غطاءه، ووضعوه في مدخل قلايته حيث اعتاد أن يصلّي دائماً متجهزاً لساعة خروجه. وقد طلب من الرهبان أن يضعوه فيه عندما يموت. مرة استيقظ الراهب يوحنا تيخونوف، الذي كان يقوم بعمل الموقظ، قبل ساعته المعتادة بكثير، وذهب إلى المقبرة، فرأى شخصاً يمشي بسرعة نحو قلاية البار. فازداد فضوله جداً ورسم علامة الصليب وهو يصلّي. شاهد الأب سيرافيم وقد أحضر حزمة من الحطب إلى قلايته وهو يقول همساً صلاة الرب يسوع. فتقدم منه فرحاً ووقع على قدميه وقبّلهما وطلب بركته فباركه الستارتس وقال له: «حافظ على ذاتك بالصمت وانتبه لنفسك».

واعتاد رؤوساء كهنة تامبوف أن يذهبوا إلى الدير في شهر آب في عيد رقاد السيدة العذراء. وقد طلب الأسقف ثيوناس في إحدى زياراته أن يزور الأب سيرافيم في قلايته. ولكن ذاك بقي ثابتاً في قراراته، وخائفاً من العجب العالمي، فلم يقطع حبسه ولا صمته، ولم يفتح الباب. عندئذٍ عرض الرئيس نيفن أن يخلعوا الباب. فعارض الأسقف قائلاً: إن مثل هذا يشكل خطأ فظيعاً. وترك الستارتس وغادر الدير بسلام.

تشبَّه الأب سيرافيم بالقديس أرسانيوس الكبير، الذي على حسب ما يروى في بستان الرهبان أنه جاوب رئيس أساقفة الإسكندرية ثيوفيلس، الذي طلب زيارته كالتالي:«إذا ما قبلتك سأقبل الآخرين أيضاً».

التخفيف من شدة الانقطاع

دام الانقطاع الكامل خمس سنوات، بعدها خفف الستارتس من شدته، وصار باستطاعة كل واحد أن يزوره. ولم يكن حضور الآخرين يلهيه عن القيام باهتماماته الروحية، ولكنه لم يكن يجيب على أسئلتهم لأنه عاهد الله أن يحافظ على الصمت.

بعد ذلك بوقت قصير جاء إلى الستارتس حاكم تامبوف ألكسندروس بيزوبرازوف مع امرأته لأخذ بركته. يبدو من هذا أن صمت الحبيس المطلق قد انتهى في خريف عام ١٨١٥م فاستقبلهما وفتح لهما الباب وباركهما.

من ذلك الحين بدأ أخوة كثيرون من الدير بالمجيء إلى منسكه لكي يتحدثوا معه. كان الراهب غفرائيل يزوره باستمرار. ففي السنتين الأوليَين من مجيئه إلى الدير لم يحظَ بلقائه، ولكنه من المرَّة الأولى ،التي التقاه فيها شعر بانجذاب قوي نحوه واتخذه مرشداً له لمدة خمس سنوات. كان يذهب إليه مضطرباً ويعود من عنده بسلام. وأحبه البار كثيراً لأنه كان مستقيماً ويملك قلباً نقياً. ولا يخفي عنه الصعاب والتجارب التي يجابهها ككل راهب جديد. ولما توفي الستارتس كان الأب غفرائيل يتذكر وصاياه بحزن عميق، ولكي يتعزى حمل صورته معه بشكل دائم.

الانخطاف إلى السموات

لم يبقَ تكرُس الأب سيرافيم للربّ هكذا بدون مكافأة، فقد صرَّح هو أنه قد استحق أن يرتقي إلى المساكن السماوية كما حدث مع الرسول بولس والقديس اندراوس المتباله بالمسيح والبار برَصنوفيوس وآخرين.

في يوم من الأيام، قص أحد الأخوة على المبتدئ يوحنا تيخونوف حَدَثَ انخطاف الأب سيرافيم الى السموات من دون أن يستطيع نقلها إليه بشكل مرضٍ. وفي ذات اليوم ،في السادسة مساءً اقترب المبتدئ يوحنا من الستارتس بعَجَلَةٍ لكي يستخبر منه عن أسرار السماء. فاستقبله كأب حنون، وأغلق وراءه الباب بمزلاج، ثم جلس مقابله. وبينما كان المبتدئ يستعد لإبداء رغبته أغلق له فمه بيده وبدأ يعلمه ببساطة متميزة عن الأنبياء والرسل والأبرار والشهداء.

كانوا كلهم أناساً تحت الآلام مثلنا، ولكنهم إذ طبقوا بكل دقة ومن كل نفوسهم وصايا الله امتلكوا الكمال والخلاص. إن لذّات هذا العالم، ظِل إذا ما قورنت بالعذوبة التي يتمتع بها الأبرار في السموات. ونستطيع نحن أيضاً أن نتمتع بعذوبة التكلم مع الرب إذا ما مَرَّنّا أنفسنا بسهرانيات لا تنقطع وصلاة وتأمل للربّ دائمين. ولهذا أنا الوضيع سيرافيم، أطالع كلَّ أسبوع كلّ أسفار العهد الجديد وأقرأ يومياً المقطع اليومي، من الإنجيل والرسائل الخاص بالقديس. وبهذه الطريقة لا تسرّ النفس فقط ولكن الجسد يبتهج أيضاً ويتشدد. هذا ولأنني أتكلم مع الرب وأحفظ في ذاكرتي حياته وآلامه، أمجدّ مخلصنا ليلاً ونهاراً على الرحمات التي يوزعها على كل الناس وعليَّ أنا غير المستحق. يا فرحي لتمتلك نفساً سلامية وعند ذلك سَتخلصُ بالقربِ منكَ آلاف النفوس.

وأعاد البار العبارة الأخيرة مرّتين، بعدها رفع صوته وأكمل بفرح لا يوصف: سأحدثك عن الوضيع سيرافيم: مرّة شعرت بسرور من قول المخلِّص: «في بيت أبي منازل كثيرة». واشتهيت أن أرى هذه المساكن السماوية. واستجاب الرب لرغبتي وأهلني أن أعيش انخطافاً إلى ذلك المكان. لا أعلم إن كنت قد نقلت إلى هناك بالجسد أم خارج الجسد، الله يعرف إنه شيء لا يوصف.

على كل حال من المستحيل أن أصف باللغة البشرية الفرح والعذوبة التي تذوقتها.

بعد هذه الكلمات صمت وامتدَّ جسده إلى الأمام، وانحنى رأسه إلى الأسفل، وعيناه مطبقتان، وكفه اليمنى على صدره وهي مفتوحة، وبدأ وجهه يتغير شيئاً فشيئاً واستنار بنور مدهش ليس باستطاعة أي كان أن يواجهه. لقد جعله الفرح والدَّهش السماويان البادیان على مظهرهِ يشبه الملائكة. يبدو أنه كان يعيش سر الصمت ويرى بدهشة ويسمع شيئاً بخشوع. والشيء الذي لم يستطع أن يعبِّر عنه بالكلام من زيارته للمساكن السماوية، أظهره بالنور اللامع على وجهه وبصمته السرّي.

استمر الصمت نصف ساعة، أخذ بعدها الستارتس نَفَساً، وبدأ يتكلم من جديد متأثراً وفرحاً أيضاً.

آه يا عزيزي يوحنا لو كنت تعرف مقدار الفرح والغبطة اللتين تنتظران نفس الإنسان البار في السموات، لكنت قررت أن تصبر في هذه الحياة بسرور على كل حزن واضطهاد وافتراء لأجل ذلك، ولو كانت قلالينا هذه مليئة بالديدان وحتى لو رعت الديدان أجسادنا طيلة حياتنا، علينا أن نقبل ذلك بكل رغبتنا، فقط وفقط كي لا نحرم الفرح الذي أعده الله للذين يحبونه «هناك لا يوجد ألم وحزن وتنهد، بل فرح وغبطة لا تحدّان. وهناك سيتلألأ الصديقون كالشمس. فإذا كان القديس بولس أول الرسل لم يستطع وصف هذا الفرح السماوي، فأيُّ لسانٍ يَستَطيع أن يصف روعة المسكن العلوي حيث تقطن نفوس الصديقين».

هنا توقف البار عن الكلام، وبعد أن صمت قليلاً أخذ يتكلم عن عقوبات الخطأة الأبدية.

إنه لشيء مريع أن يقرأ أحد إنجيل الدينونة وأقوال الربّ بخصوص الخطأة الذين لم يتوبوا:«ويرسل أولئك إلى الجحيم الأبدي» (متى ٢٤: ٤٦) «حيث دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأ» (مرقص ٩: ٤٦).«هناك يكون البكاء وصريف الأسنان» (متى ٨: ١٢) فإذا كانت الشياطين نفسها تخاف وترتعب من هذه العذابات، فكم هو الرعب الذي سيعاني منه الخطأة »وإذا كان البار بالجهدِ يَخلص فأين سيظهر الخاطئ» (١ بط ٤: ١٨) كل

الذين أسكتوا صوتَ الضمير في داخلهم، وانجرفوا «بحسب شهوات قلوبهم ينتظرهم الجحيم حيث لن تكون رحمة». وكل الذين لا يصنعون الرحمة هنا سيسمعون القول الإنجيلي «يا بني تذكر أنك تمتعت بخيراتك في حياتك» (لو ١٦: ٢٥) في هذه الحياة يستطيع المذنب أن يهرب من العقوبة بمساعدة النفس أو إعانة أصدقائه وأما هناك فلا. إن فم الله كسيف قاطع سينطق بقرارين لا يرتجعان «تعالوا»، «اذهبوا».

هنا أيضاً تغير وجه الستارتس. فلم يعد يشع ببريق المساكن السماوية. لقد بدا عليه الآن كيف كان يشعر بضعف طبيعته ودعا نفسه أول الخطأة. وبعد ذلك أعطى للمبتدئ يوحنا بركته الأبوية لينصرف.

نصائح للرهبان

كان ينصح الرهبان الذين كانوا يزورونه بأن يحافظوا على القانون الرهباني، وأن يتابعوا بلا انقطاع الصلوات المقدسة، وأن يذهبوا إلى الكنيسة سريعاً وبحالة تأهب، وأن يغلقوا عيونهم، ويفتحوها فقط عندما يسيطر عليهم النوم وعدم الانتباه، وأن يثبتوها إلى أيقونة ما أو شمعه مضيئة.

كان يقول: «علينا أن ننظر إلى حياتنا كشمعه مشتعلة. والشمعة هي إيماننا والفتيلة هي الرجاء، بينما الشعلة هي المحبة التي تجمعنا معاً. عندما تكون الشمعة من صنف رديء تعطي رائحة كريهة، يحدث الشيء نفسه للخاطئ. فعندما نثبت نظرنا إلى شمعه مشتعلة سنتذكر بدء واستمرارية ونهاية حياتنا. فكما يذوب الشمع هكذا تتناقص حياتنا في كل لحظه ونقترب من النهاية». هذه الفكرة ستقلل من التشتت في الكنيسة، وتزيد من الحرارة في الصلاة، والمحافظة على الوصايا الإلهية حتى تشبه حياتنا شمعة مضيئة من شمع نقي.

حاول الستارتس أن يشعل فيهم الحماس للصلاة العقلية الدائمة وكان ينصحهم أن لا يتوانوا في الخدمة، بل أن يعملوا بنشاط، وأن لا يأكلوا قبل الساعة المحددة، وأن يذهبوا دائماً إلى المائدة حتى ولو لم

يرغبوا بالطعام لئلا يتعثر الأخوة من غيابهم، وأن يجلسوا إلى المائدة بورع وخوف الله، وأن يأكلوا بشكرٍ كل ما يقدَّم، وأن لا يخرجوا خارج بوابة الدير بدون سبب هام.

وأن يسيروا بجدية ولا يتركوا الحياة الرهبانية. وأن يتحفَّظوا من مشيئتهم لأن عواقبها لا تقدر وسيِّئة، وأن يتحمّلوا كل تجربه بصبر لأجل خلاص أنفسهم، وأن يحافظوا على السلام الداخلي «لأن الله يخيِّم فقط في مساكن السلام ويصير موضعه في حالة سلام». (مز ٧٥: ٥).

نصائح للعلمانيين

بعد أن فتح الستارتس سيرافيم قلايته للرهبان ، أضطرَّ بعد فترة قصيرة أن يقبل العلمانيين أيضاً وذلك بعد رجاءٍ خاص من قبل البعض منهم. فحياته الآن قد أخذت طابعاً تعليمياً، ومن الآن وصاعداً لن يصلي لأجل المسيحيين فقط بل سيعلِّمهم ويرشدهم.

وإذ صار يقبل الجميع بفرح، كان يعطي لكل واحد بركته ونصيحة مختصرة بحسب حاجته الروحية. كان باب قلايته مفتوحاً من انتهاء القداس الإلهي الأوَّل حتى الساعة الثامنة مساءً. واعتاد أن يلبس فوق ردائه منتية قصيرة. وبعد المناولة كان يلبس البطرشيل والأكمام – رموز كهنوته – ويقبل بفرح خاص زوَّارَه الذين يبدون توبة حقيقية وحماساً نحو الحياة المسيحية، وبعد الحديث معهم يأمرهم بإحناء الرأس ويضع عليهم البطرشيل ويطلب منهم أن يقرؤوا معه صلاة التوبة التالية: «أخطأت يا رب بالنفس والجسد، بالعمل والقول، بالفكر والذهن، وبكل حواسي، بالنظر والسمع، بالذوق واللمس والشم، بإرادة وبلا إرادة». وبعد ذلك يقرأ عليهم صلاة المغفرة.

وعند الكلمات النهائية كان يبارك رأس المؤمن حسب الطقس الكهنوتي. وكل الذين يأخذون الغفران كانوا يشعرون براحة الضمير وبسعادة روحية. كان الستارتس يمسح جباههم على شكل صليب بالزيت

من قنديل مضاءٍ أمام الأيقونة. فإذا كانت الساعة مبكرة أعطى للمؤمن ليشرب ماءً مقدساً من بئره ويعطيه أيضاً قطعة خبز مباركة وبعد ذلك يقبِّل المؤمن ويقول له في أي وقت كان «المسيح قام»، وفي النهاية يطلب منه أن يسجد أمام أيقونة العذراء أو للصليب المعلق على صدره، وفي بعض الأحيان يرسل المؤمنين إلى الكنيسة لكي يصلّوا أمام أيقونة الرقاد أو أيقونة الينبوع المحيي.

فإذا كان الزائر لا يحتاج لتعليم خاص عند ذلك يعطيه الوصايا المسيحية المعتادة، وبشكل خاص كان ينصح المؤمنين بأن يكون الله في ذاكرتهم، وأن يدعوا الاسم الإلهي بلا انقطاع مرددين صلاة الرب يسوع: «أيها الرب يسوع المسيح يا ابن الله ارحمني أنا الخاطئ».

كان يقول: بهذه توجد كل الصلاة وتمرين الذهن. فأينما كنت وأي عمل كنت تقوم به يجب عليك أن تتلفظ باسم الله بلا انقطاع بشفتيك وقلبك. وهكذا ستجد راحة، وستصل إلى نقاء النفس والجسد، وسيحلّ في داخلك الروح القدس، نبع كل الصالحات الذي سيقودك إلى القداسة.

ردَّ الأب سيرافيم باستمرار الوصية التالية: «عيشوا بحكمة. فالعذراء التي تحافظ على عذريتها لأجل محبة المسيح، لها مكان بين الملائكة وتصبح عروس المسيح. والمسيح عروسها يقودها في ممرات السماء .وكل نفس يمكنها أن تكون عذراء. ولكن عندما تبقى في الخطيئة تشبه أرملة متقاعسة، لكنها حية، ميتة».

اعترف كثيرون للأب سيرافيم أنهم يصلّون قليلاً أو لا يصلّون بحجة جهلهم القراءة أو أنّه لا وقت لديهم. لمثل هؤلاء حدد الستارتس نموذج الصلاة هذا:

«حالما تستيقظون قفوا أمام الأيقونات المقدسة وقولوا ثلاث مرات أبانا الذي ... وثلاث مرّات افرحي يا والدة الإله العذراء ... ومرّة، أومن»، وفي وقت عملكم، وأينما كنتم تعملون قولوا بصوت منخفض «صلاةً أيها الرب يسوع المسيح، يا ابن الله، ارحمني أنا الخاطئ ». وإذا كنتم تعملون

مع آخرين بقربكم، ردِّدوا بذهنكم فقط «يا رب ارحم» وهذه الصلاة تردد حتى الغداء.

بعد الطعام صلوا بصوت منخفض ما يلي: «أيتها الفائق قدسها والدة الإله خلصيني أنا الخاطئ» ولتستمروا بهذه الصلاة حتى المساء. وإذا كان شخص ما وحده ليقل: «أيّها الرب يسوع المسيح يا ابن الله بشفاعات والدة الإله خلصني أنا الخاطئ». وفي النهاية قبل أن تناموا فلتعيدوا الصلاة الصباحية أي ثلاث مرات أبانا الذي وثلاث مرات افرحي يا والدة الإله العذراء. ومرة أومن بإله ... وبعد ذلك ارسموا علامة الصليب على وجوهكم واستسلموا للنوم».

اكمل الأب سيرافيم:

«إذا تبعتم قانون الصلاة الصغير هذا، تستطيعون أن تصِلوا إلى درجات عالية من الكمال المسيحي. فهذه الصلوات الثلاث تشكل أساس الحياة المسيحية. الصلاة الأولى أعطاها لنا السيد نفسه وهي نموذج كل الصلوات. والصلاة الثانية أتى بها الملاك من السماء للسلام على أم الرب. بينما الصلاة الثالثة تحوي باختصار كل عقائد الإيمان الخلاصية».

وإذا لم يستطع شخص ما أن يقوم بهذا القانون الصغير ساعة العمل يستطيع أن يتمّه وهو في الطريق أو في الفراش أيضاً، واستشهد على ذلك بالنص الكتابي «كل من يدعو اسم الرب يخلص». (رو ١٠: ١٣) ومن يستطيع تخصيص وقت أكثر من المطلوب لإتمام القانون، وهو يعرف القراءة، فليزد صلوات وقراءات أخرى. على سبيل المثال مقاطع من الإنجيل أو الرسائل، قوانين، مزامير، المديح الذي لا يجلس فيه، وغيرها وعندما يقرؤها ليشكر الله بتواضع جزيل، لأنه وجد الوقت ليقدِّم لله هذه الذبيحة. وإذا اتبع المسيحي مثل هذه المسيرة يمكنه أن يمتلك الفضيلة شيئاً فشيئاً.

مواهب خارقة

كانت نصائح البار هذه تترافق في كثير من الأحيان بمظاهر مواهبيَّة مدهشة.

مرة دخل إلى قلايته قروي منفوش الشعر وقبعته في يده. قال يائساً: لقد سرقوا حصاني ولا اعرف كيف أطعم عائلتي ويقولون أنك تضرب المندل.

اسكت، قال له الأب سيرافيم وهو ممسك به من رأسه، عندما تقترب من القريه الفلانيه عرّج على الجهة اليمنى واعبر أربعة بيوت وافتح باباً صغيراً. وهناك ستجد حصانك، حلّه وارحل بهدوء.

وبعد ذلك أخبر القروي أن الحصان قد وجد.

حدثنا الراهب بولس: أنه وصل مرّة راهب شاب إلى الدير وفي يديه لجام أحصنة، وهو يبكي لسرقة أحصنته، فأرسله الأب سيرافيم إلى السوق حيث وجدها هناك.

كان نيقولاوس كيربيلوفيتش موليابيف يحتل مكانة المسؤول عن الكنيسة في قرية أليزاريف من أبرشية أرداروف. وحدث أنه خسر مكانته، وبسرعة عيّن في مرتبة مشابهة في قرية تسيريفاتوف من الأبرشية نفسها. هذا في عام ١٨٢٢م مرض مرضاً ثقيلاً وإذ كان يعرف محبة زوجته للستارتس أرسلها لكي تطلب بركته وأن تسأل إذا ما كان سيتعافى.

ولما وصلت الزوجة إلى ساروف علمت أن الأب سيرافيم لا يقابل أحداً. فشقّت صفوف المجتمعين هناك المنتظرة إياه ووصلت إلى باب قلايته. فجأة فتح الستارتس الباب ودعاها من غير أن ينتبه للآخرين.

يا ابنتي أغرينيا، تعالي إلى هنا بسرعة.

ولما اقتربت منه، سبقها بإعلان كل ما كانت ستقوله له وبعد أن أعطاها ماءً مقدساً، وخبزاً مباركاً ونبيذاً أحمر وقليلاً من السكر قال لها:

خذيها بسرعة إلى زوجك.

بعد ذلك وضع يده على كتفها، وأعطاها أن تقبّل صليبه الحديدي الكبير وأكمل قائلاً:

انتبهي يا ابنتي، في البدء كان هذا الصليب ثقيلاً عليّ، ولكنني الآن أحمله بكل فرح، فاذهبي بسرعة ولتذكري حِملي. اعذريني.

بهذه الأقوال باركها ودخل قلايته من غير أن يقبل أيَّ شخص آخر، ولما وصلت إلى البيت وجدت رجلها في الرمق الأخير وقد شلَّ لسانه. فتذكرت صليب الأب سيرافيم وفهمت أنه قد عنى الحزن. ولما أعطت المحتضر النبيذ الأحمر والخبز المقدس والماء المقدس حلَّ لسانه وقال:

سامحني يا أبتِ سيرافيم فهذه هي المرّة الأخيرة التي آخذ فيها بركتك. بعد ذلك بارك أبناءه وتبادل قبلة المغفرة مع امرأته وأكمل:

عظيمة هي أعمال الأب سيرافيم. وبعد أن تمدَّد رحل بسلام إلى السماء.

في الفترة نفسها تعرف على الستارتس أحد الملاكين من قرية نوتس التي تبعد ستة فرستيات عن قرية أرداتوف، واسم المالك ميخائيل ماندوروف وباسمه يرتبط تأسيس دير سيرافيم – ديفاييفو. هذا، لما كان جندياً في ليفلانديا مرض وباطلاً حاول الأطباء تشخيصَ مرضه، وأخيراً أعلنوا عن عجزهم، فترك الجندية وعاد إلى أملاكه في قرية نوتس التي تبعد أربعين فرستية عن ساروف.

في ذلك الوقت كان صيت الأب سيرافيم كشافٍ قد انتشرَ في كل الأمكنة القريبة من ساروف. فقرر ماندوروف أيضاً أن يطلب منه أن يشفيه. فذهب إلى الدير سنة ١٨٢٣م محمولاً على أيدي رجاله.

وحالما شاهده الأب سيرافيم سأله ثلاث مرات:

هل تؤمن بكل ثبات بالله؟ وعلى كل سؤال أجابه نعم.

أومن بشكل قاطع. فأخذ البار زيتاً من القنديل الذي أمام أيقونة العذراء، المسماة «فرح كل المحزونين» ودهن كل أعضائه المريضة وللحال سقطت كل القشور الموجودة على جسده. وإذ شفي ماندوروف نهض وحده وخرج من قلاية الستارتس، ومنذ ذلك الوقت أخذ يزوره باستمرار وتوطدت بينهما علاقة حميمة.

في ١٤ أيلول سنة ١٨٢٤م استحقت الأميرة آنا كولوندساكوف أن تزور البار سيرافيم وتأخذ بركته بهدف أن تسأله عن أخيها الذي غاب أربعَ سنوات في خدمةٍ عسكرية ولم يصلهم عنه أيُّ خبرٍ. فأخبرها الأب العالم بالغيب قبل أن تفصح هي عن هدف الزيارة وقال لها: لا يتسلط عليك الحزن. فالحزن موجود في كل مكان ولتذكري أخاك بين الراقدين.

بالحقيقة بعد ثلاث أشهر وصلتهم أخبار من القطعة التي كان يخدم فيها أنه لا يوجد على قيد الحياة.

وفي سنة ١٨٢٥م زارت السيدة N. N للمرة الأولى دير ساروف مع أختها وكانت تشتهي أن تأخذ بركة الستارتس سيرافيم. وبعد الصلاة الصباحية قابلته أختها. كانت مبتهجة من استقباله المبهج ولكن N. N لم تره لأنها لم تذهب إلى الكنيسة بسبب وجع رأسها الشديد.

بعد الطعام توجهتا معا إلى قلايته. وفي طريقهما إليه استطاع أحد خدام أختها أن يسلمها قارورتين من الزيت والخمر، أرادت أن تقدمهما كهديه للستارتس فلما رأتهما السيدة N. N. حزنت لأنها لم تهتم بإحضار شيء كهدية ولكنها فرحت جداً عندما أعطتها أختها إحدى القارورتين.

ولما وصلتا إلى قلاية البار وواجهتا وجهه، لم تستطيعا أن تحولا نظرهما عنه إذ كان ينم عن براءة وتواضع وقداسه ! فاستقبلهما كأبٍ وأعطاهما قطعة قربانٍ ونبيذاً أحمر، وطلب إليهما أن تقبّلا صليبه، فقدمت أختها القنينة المليئة بالخمر فقبله بفرح وباركها. بعد ذلك قدّمت

هي بدورها أيضا الزيت. فأخذه الستارتس فرحاً، ولكنه قال لها.

عندما تبغين يا سيدتي أن تحضري شيئاً فأحضِري شيئاً منك.

ولما شعر بقوة الاضطراب الذي حدث لها من كلماته أكمل:

أعني إذا كنت تعيشين في قرية، فبكل تأكيد سيوجد عندكم مناحل. فيمكنك إذاً أن تعطي لشخص ما أن يصنع لكِ من شمعِهِ شمعَة، فيكون ذلك منك. وكلمَّهما كثيراً عن طريق خلاص المسيحي وانطبعت في قلبَيهما كلّ كلمة من كلماته.

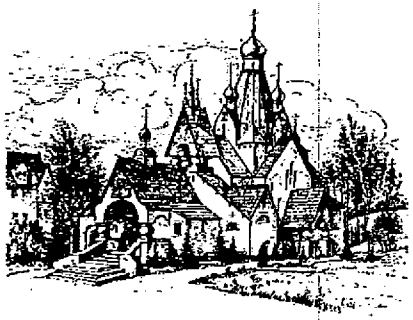

الفصل السادس

في البرية القريبة

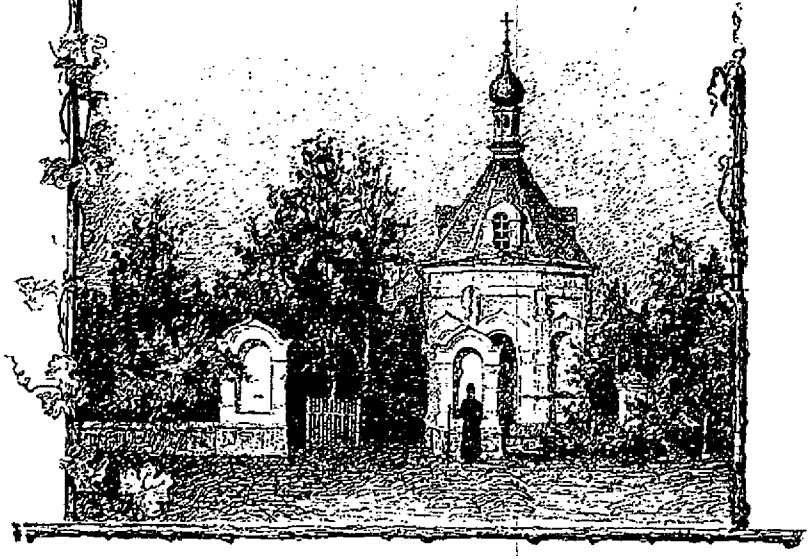

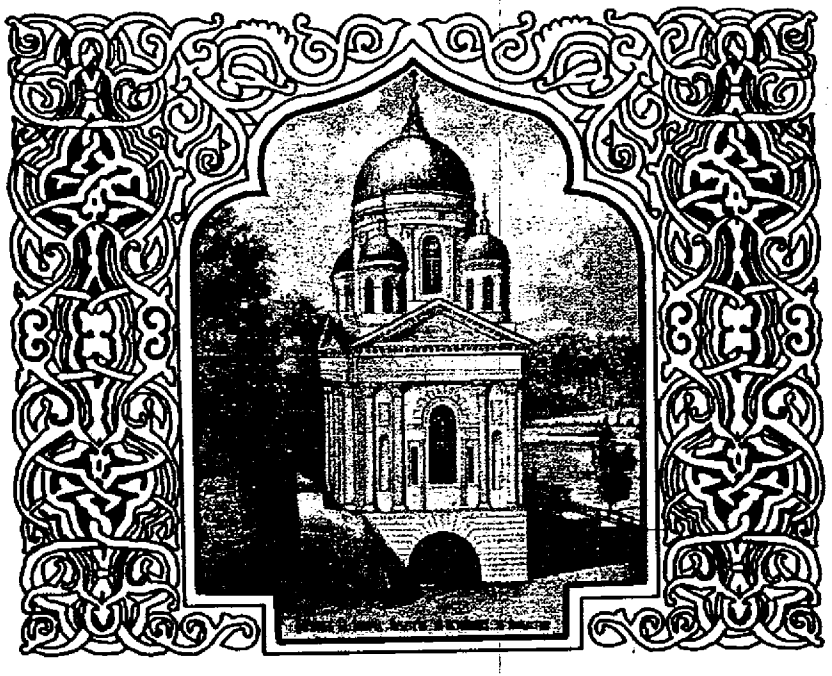

وضع نهاية لحياة العزلة

بالرّغم من قبول الأب سيرافيم للجميع في قلايته إلا انه لم يخرج منها مطلقاً. وبالرّغم من أنه قطع الصمت إلا انه لم يترك حياة العزلة وبعد مرور خمس عشرة سنة، فكّر إذا ما كانت إرادة الله تقضي بأن ينهي حياة العزلة أولاً، فخطط أن لا يترك الدير بل أن ينتقل إلى البريّة وهناك يجاهد لأجل خلاصه وخلاص الآخرين.

على بعد فرستيتين من الدير توجد بئر فيها ماء، غير معروف متى انفجرت. على كل حال، عندما ذهب الأب سيرافيم إلى الدير كانت موجودة وسنة ١٨٢٥م كانت مغطاة بالأخشاب والتراب. والماء يجري من أنبوب. وإلى جانب البئر على عمود صغير علّقت أيقونه القديس يوحنا اللاهوتي

ولهذا سميت البئر «بئر اللاهوتي».

وفي فترة سكن الستارتس في البريّة البعيدة، كان يرد إلى البئر باستمرار لأن المكان أعجبه وهناك كان يستسلم للأتعاب الجسدية. وعلى بعد أربعةِ فرستيات من بئر اللاهوتي سكن أحد الرهبان من دير ساروف في قلايةٍ على الجبل، اسمه ذوروثيوس وقد رقد بالرب منتصف أيلول سنة ١٨٢٥م.

بدأ الأب سيرافيم يخسر قواه بسبب جهاده الطويل. فمن زمن الوقوف على الصخرة كانت رجلاه تؤلمانه بشكل دائم كما كان يشعر زيادة على ذلك بوجع أليم في رأسه. فلكي يعيد صحته نصحه الأطباء بالحركة والهواء النقي، وإذ كان يشعر هو بالحاجة المطلقة إلى ذلك بدأ بالخروج من قلايته.

أوّل خروج قام به، حدث في ربيع ١٨٢٥م. زمن الصوم الكبير، فترة الجهادات المتميزة بالنسبة لرهبان ساروف. ففي أحد الأيام صباحاً بينما كان الراهب فيلارتيوس قد نهض باكراً جداً. وبعد أن عمل قانونه خرج من قلايته إلى الحقل. فجأة وجد شخصاً في هدوء الليل ينقل شيئاً ثقيلاً فقال الراهب الصلاةَ همساً: ثم نادى من هناك ؟

الفقير سيرافيم، الفقير سيرافيم، اصمت يا فرحي! عند ذلك ركض الأب فيلاريتوس وأخذ بركته. كان الأب سيرافيم يحمل بين يديه صخرة كبيرة كان قد أحضرها من الجبل حيث توجد كنيسة دير القديس يوحنا المعمدان. تبعه الأب ورأى أنه وضعها بالقرب من كنيسة رقاد السيدة العذراء. عَلِمَ الأب أشعياء المدبر بما حدث ووضح الرمز بعد موت الأب سيرافيم لمّا وضعت رفاته في المكان الذي وضعت فيه الصخرة.

هذا الحدث هو العلامة الأولى من الستارتس على موته، وإشارة على أنه من الحياة الانقطاعيه متوجّه إلى القبر.

منذ ذلك الوقت بدأ الصلاة والطلب إلى الله أن يأذن له بإعلان بإيقاف الحياة الانقطاعيه. لم يكن الأب سيرافيم يفعل شيئاً دون البركة

العلوية وفي ٢٥ تشرين الثاني ١٨٢٥م. يوم تذكار القديسين كليمنضس الروماني وبطرس الإسكندري ظهرت له العذراء في الحلم مصحوبة بقديسي اليوم، وسمحت له أن يقطع حياته الانقطاعيه وأن يزور البرية.

في اليوم ذاته ذهب الستارتس إلى الرئيس الأب نيفون وأخذ بركته لكي يذهب خلال النهار إلى قلاية الأب ذوروثيوس بحجة أن قدميه تؤلمانه ورأسه كذلك. جاءت أولى زياراته إلى البرية كالتالي:

في ٩ كانون الأول ١٨٢٥م جاءت إلى الدير أختان من دير ديفاييفو، الأخت باراسكيفي ستيفانوفا، وماريا سيميونوفا، واجتمعتا بالأب سيرافيم. وفي اليوم التالي في وقت صلاة السحرية تحرك البار مع الأختين ومع قرع جرس القداس الإلهي وصلوا إلى بئر اللاهوتي. كان الأب سيرافيم قد أحضر معه شمعاً وزيتاً وسكراً. وفي الطريق قال لهما: إنه لم يأتِ إلى هذا الموضع من الوقت الذي انقطع فيه داخل قلايته، ولما وصلوا إلى البئر لاحظ حدوث بعض التغييرات في المكان. وبعد ذلك انطلقوا إلى منسكه القديم، وهناك وقف أمام المصلوب وأوقف عن يمينه مريم وعن يساره باراسكيفي وأعطى لكلٍّ واحدة منهما شمعه مضاءة لتمسكها.

صلّى لمدة ساعة وبعدها قبّل المصلوب وطلب إلى الراهبتين أن يقبّلاه أيضاً، ثم أطفؤوا الشمعات وخرجوا من القلايه واشتغلوا باقي اليوم بتنظيف مخزنٍ موجودٍ بقرب البئر وعند المساء عادوا إلى الدير.

في خروجه هذا إلى البرية البعيدة من المحتمل أن يكون قد صلى لأجل دير ديفاييفو، وأن يكون قد تلقى الوحي الأوّل لبناء دير المطحنة، لأنه بعد قليل سينشط بجمع المعدات اللازمة.

السكن في البرية

في صيف سنة ١٨٢٦م. وبناءً على رغبة البار رممت بئر اللاهوتي، ورفعت عنها كل الخرائب والأخشاب التي كانت تغطيها، ووضع لها غطاء جديد ومزراباً لتدفق الماء. بدأ البار سيرافيم بالعمل حول البئر بذاته. فجلب الحجارة من

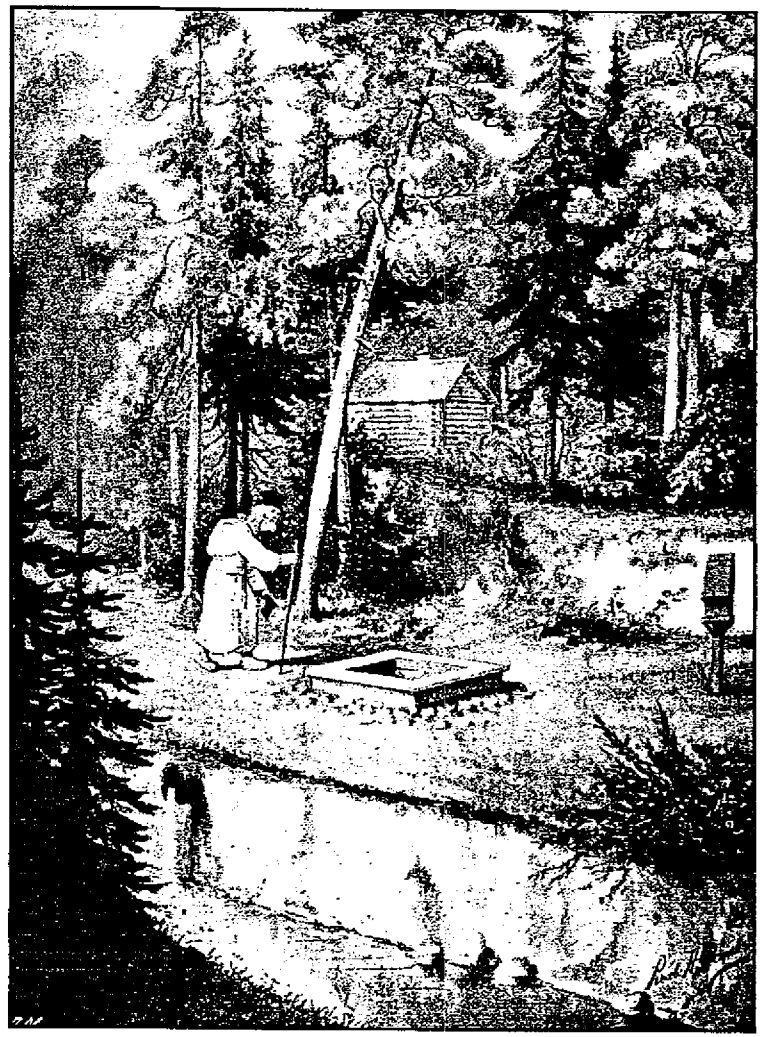

البئر في البرية القريبة

جرف ساروفكا. وزرع الكرّاث وسمّدها ببقايا الأعشاب الطحلبية وزرع بطاطا وبصلاً.

كان يصعد عند الظهيرة إلى قلاية الأب ذوروثيوس ليرتاح بعد تعب الصباح الشاق، ولهذا جهزوا له كوخاً خشبياً في طرف التل بالقرب من البئر. بلغ علو الكوخ ثلاثة أذرع وطوله ثلاثة أذرع وعرضه ذراعان. وكان السطح مستوياً وبابه أدنى من الأرض. لم يكن له باب آخر أو نافذة. كان البار يدخل إلى كوخه زحفاً حيث يستريح هرباً من حرّ النهار.

وبعد أن تجهزت القلاية أخذ الأب سيرافيم يقضي يومه في البريّة ويعود عند المساء إلى الدير. كان يلبس رداءه القديم الأبيض المصنوع من الكتان، ويعتمر قلنسوته البالية القديمة، ويمسك بيده القَدّوم وعلى كتفه جراب مليء بالحجارة وكيس آخر يضع فيه الإنجيل.

سأله بعضهم لماذا تفعل هذا ؟

أنا أزعج ذلك الذي يزعجني. أجاب بهذا مستعملاً تعابير القديس أفرام السوري.

دعي المكان الذي نسك فيه الأب سيرافيم برية الأب سيرافيم القريبة بينما سميت البئر بئر الأب سيرافيم.

سنة ١٨٢٧م، بنوا له قلاية جديدة على الجبل، ولها باب ولكن بلا نوافذ. وفيها مدفأة وممرّ مغطى بطبقه خشبية. منذ ذلك الوقت أخذ جهاده يتوزع في مكانين بين الدير والبريه القريبة.

كان يقضي أيام الآحاد والأعياد في الدير، ويتناول الأسرار المقدسة في كنيسة المشفى أثناء القداس الأول. وفي الأيام العادية كان يقضي معظم وقته تقريباً في البريه القريبة، ينطلق إلى هناك في الساعة الثانيه ليلاً أو الرابعة ويعود إلى الدير عند المساء في السابعة أو الثامنة.

ازداد عدد زائريه كثيراً. كان الكثيرون ينتظرونه في الدير لأخذ بركته وليسمعوا تعليمه، بينما كان الآخرون يتبعونه إلى البريّة. وبسبب

مرضه لم يكن باستطاعته أن يلبي رغبات كل زائريه، ولهذا في بداية سكنه في البرية القريبة، كان يتناول الأسرار المقدسة في قلايته مما سبب المعثرة لبعضهم.

كانوا يقولون كيف يمكنه أن يذهب مسافة فرسخين إلى البرية بينما يتناول الأسرار المقدسة في قلايته؟

كان البار يفعل هذا للتهرب من زواره الكثيزي العدد لأنه لم يكن يملك القوة لاستقبالهم. ولكي لا يتعثر الضعفاء جاء أمر من أسقف تامبوف أن يتناول في الكنيسة. أطاع الأب سيرافيم بكل تواضع الأمر الأسقفي، وصرّح أنه إذا كانت هناك حاجة سيذهب راكعاً. لقد جاء الأمر الأسقفي تدبيراً من الله لكي يلبي الستارتس حاجات المؤمنين. بعد ذهابه الأول إلى الكنيسة ازداد عدد زائريه بشكل كبير. فالآن لن يرتاح لا في البرية ولا في الدير ولا في الطريق. قال رئيس الدير نيفن، الذي أحب الأب سيرافيم كثيراً:

«عندما كان الأب سيرافيم عائشاً في البرية البعيدة سيّج طريق القدوم بالأغصان لكي لا يذهب الزوار إلى هناك، أما الآن فيقبلهم جميعاً حتى منتصف الليل، فلا أستطيع أن اغلق باب الدير».

كانت عودته إلى قلايته بعد كل قداس إلهي مؤثّرة. كان يلبس منتيته و البطرشيل والأكمام بنفس الطريقة التي اعتاد أن يخرج فيها قديماً من الكنيسة بعد إقامة القداس الالهي. كان سيره بطيئاً، بسبب الحشد الذي يحيط به. إذ كان كل واحد يحاول أن يقابله.

لم يكن البار في هذا الوقت يكلم أحداً ولا يبارك أحداً وكأنه لم يكن يشعر بأحد أمامه. بل يبقى ذهنه مركزاً في داخله ونظره مثبتاً على الأرض. في هذه اللحظات كان مشدوداً إلى معاينة المواهب الغنية التي وهبها الله للناس بسر المناولة. ومن شدّة الاحترام لم يكن أحد يتجرّأ على لمسه. ولدى وصوله إلى قلايته كان يقبّل الجميع ويباركهم ويقدم النصائح لكلّ الذين يطلبونها.

إنه لمنظر مؤثّر أن ترى في البريَّة هذا الشيخ المنحني الظهر ذا الشعر الأبيض. وهو يعتمر قبعته القديمة ويلبس الرداء الكتاني الأبيض والسترة على كتفيه وهو يستند على معوله أو على عصا المعول. تارة يسقي الكرّاث وأخرى يقطع الحطب ملقياً على نفسه جلداً ممزقاً وكأنه كان يرغب أن يقلد أولئك الذين «هاموا على وجوههم في جلود ماعز ومشتتين في البراري». / عب ١١: ٣٧/

قوة التعليم

امتلك الأب سيرافيم ذهناً نيراً، وذاكرة قوية وقلباً مفتوحاً للجميع، وإرادة صلبة وعزيمة لا تلين. لكن الشيء الذي ميَّزه. هو طلاوة الحديث، فأقواله قوية جداً تؤثر في السامع. كل ما يقوله كان مليئاً بروح التواضع ويلهب القلب ويزيل عن العيون غشاءً ما وينير الذهن بنور روحاني ويقود إلى التوبة والتحول الأكيد. كانت أقواله تدخل القلب والإرادة وتملأ السامع بالسلام والهدوء.

كان البار يسند أفعاله وأقواله على العهد الجديد، وعلى أقوال الآباء وأمثاله من حياة القديسين، لهذا كانت لها قوّة خاصة ونتائج فعاله. وبسبب نقاوة روحه أعطيت له موهبة معرفة المستقبل. كان يعطي للبعض النصيحة المناسبة، قبل أن يسمع مشاكلهم. وبالرغم من أنه أطلع البعض على مواهبه إلا أنه حافظ على بعض القواعد التي جمعت في تعاليمه «حول حفظ عيشتكم الشخصية».

قال: «يجب أن لا تفتح قلبك للآخر بلا ضرورة. لربما تجد بين الآلاف شخصاً واحداً يستطيع أن يحافظ على سرّك. فعندما لا نحافظ نحن عليه في داخلنا. كيف يمكننا أن نأمل أن يحافظ الآخرون عليه؟».

ويجب أن نتكلم مع الإنسان غير الروحاني حول الأشياء المادية أما مع الروحاني، فيجب أن نتكلم حول السماويات.

فالذين امتلؤوا من الحكمه الروحيّة، يقيّمون الإنسان بحسب الكتاب

المقدس، ويراقبون إذا ما كانت أقواله بحسب إرادة الله ومنها يأخذون النتائج.

عندما ترافق علمانيين فلا تتكلم حول الروحانيات، وخاصة عندما لا يمتلكون الرغبة للسماع. ففي هذه الحالة عليك أن تطبق أقوال القديس ديونيسيوس الاريوباغيتي: «احفظ كنزك بتعقلٍ وتقوى من العالم غير المقدّس تماماً كما حصلت عليه. فليس صحيحاً، كما قال الرب أن ترمي دررك العقلية أمام الخنازير. ولهذا حاول بكل وسيله أن تحافظ على كنز موهبتك في داخلك، وإلا ستخسره ولن تجده. ولكن عندما تطلبه الحاجة أو الموهبة اكشفه بالعمل، عندئذٍ عليك أن تعمل بتواضع لمجد الله».

وكان يكّنُ محبة واحتراماً خاصين لرؤساء الكهنة القديسين الذين جاهدوا من أجل الإيمان المستقيم، كبابا روما اكليمنضس ويوحنا الذهبي الفم والقديس باسيليوس الكبير واثناسيوس الإسكندري وكيرلس الاورشليمي وابيفانيوس القبرصي وامبروسيوس المديولاني وآخرين غيرهم. كان يدعو كل هؤلاء أعمدة الكنيسة ويستعمل حياتهم وجهاداتهم كمثال على الإيمان الذي لا يتزعزع.

علّم المسيحيين أن يبقوا ثابتين في العقيدة المسيحية، وكمثل على ذلك كان يذكر دور القديس مرقص الأفسسي محامي الإيمان الأرثوذكسي في مجمع فلورنسا.

كان يتحدث دائما عن جوهر العقيدة الأرثوذكسية والحاجة للدفاع عنها ضد الهراطقه ويشدد على أنها وحدها تحوي حقيقة الإيمان بالمسيح كاملة ونقية. ويسرّ بإيراد أسماء رؤساء الكهنة الروس القديسين. بطرس، الكسيوس، يوناس، وديمتريوس روستوف، و استيفانوس من بيرمسك وآخرين غيرهم ويعرض حياتهم كقانون في طريق الخلاص.

عرف وحفظ بشكل جيد سِيَرَ القديسين، كما هي مدونة في كتب سيرهم وكذلك تعاليم الكثيرين من آباء الكنيسة، فقد كان يورد من ذاكرته قطعاً كاملةمنها. وينصح المؤمنين أن يقلدوا حياتهم ويطبقوا

تعاليمهم.

الشيء الذي ميّز أقواله وتصرفه، على وجه الخصوص، المحبة والتواضع . فأي شخص كان يزوره، الفقير ذو الثياب الرثّة، أو الغنيّ ذو الثياب الفاخرة، ومهما بلغت حاجته وفي أي حالة روحية كان، كان البار يصافحه بمحبة ويسجد أمامه حتى الأرض ويعطيه بركته. ويقبّل يَدَ أناسٍ حتى من غير الأكليريكيين.

لم يعنّف أحداً بأقوال قاسية صعبة. ولم يشأ أن يحمّل أياً كان حملاً ثقيلاً بالرغم من أنه حمل صليب المسيح بكل الآلام والمصاعب. تميّز إرشاده الروحي بالهدوء والتواضع والمحبه. وبالنصيحة حاول أن ينهضَ صوتَ الضمير. كان يدل المؤمن دائماً على طريق الخلاص بطريقة لا يشعر بها أن البار كانَ يتكلم عنه.

فمجاهد الصمت القديم، يقدم الآن تعليماً عملياً، قولاً قوياً وفعّالاً. ويتدفق من شفتيه ماء محيٍ لكل إنسان ومن أي مرتبة كان.

القيصر ألكسندروس الأول

كان البتارتس سيرافيم يتصرف نحو الشخصيات الرسمية بالإكرام الواجب دالاً على الأوسمة التي يحملونها على صدورهم. ويقول لهم: يجب أن تذكّرهم هذه بواجبهم حتى التضحية بكل شيء ولو بحياتهم إذا دعت الحاجة لمصلحة الكنيسة والوطن.

ويشد انتباههم أكثر إلى الكنيسة الأرثوذكسية، التي كانت تصدم بشكل خطير من قبل التيارات الفكرية الهدّامة.

ففي سنة ١٨٢٥م التقى القيصرَ الكسندر الأول مع الأب سيرافيم. من المعتقد أنه اشترك في مقتل أبيه بولس الأول. وبسبب الاضطراب الذي سببه له هذا الحادث زار الأب سيرافيم في قلايته. وبعد محادثةٍ دامت ساعات رحل القيصر إلى ضفاف بحر البلطيق. ويقول بعضهم انه قد توفي هناك، وآخرون يقولون أنه عاش كناسك في الغابة وصار معروفاً في

المنطقة تحت اسم فيوندور (ثيوذورس كوزميتس) ومما يؤكد الاحتمال الثاني أنهم وجدوا في كوخه الخشبي بعضاً من أشيائه وممتلكاته الشخصية تحوي على توقيع الإمبراطور ألكسندروس. والشيء الثاني الأكيد أنه عندما فتح الشيوعيون صناديق رفات القياصرة في كاتدرائية القديسين بطرس و بولس في بطرسبرغ لم يجدوا في صندوقه شيئاً وهكذا يبقى احتمال رهبنته سراً. ومن بين الرجالات الذين زاروا الأب سيرافيم ومروا بقلايته لأخذ البركة، الأمير الكبير ميخائيل بافلوفتش.

قائد الجيش المستقيل

خلال السنوات العشر الأخيرة من حياة البار سيرافيم، سارع عدد لا يحصى من المؤمنين لينالوا دعاءه. ففي كل يوم كان يمر بقلايته ألفان وزيادة من الناس. ولم يكن الأب يتضجر من استقبالهم. بل يجد الوقت ليكلّمهم جميعاً ويتحدث مع كل شخص باختصار حول حاجته، وكثيراً ما كشف لهم عن أفكارهم الخفية.

لقد جرّب الجميع محبته الأبوية. وفي بعض الأحيان كانت عيون أناس قساةِ القلوب تمتلئ بالدموع. وهذا ما حدث مع قائد الجيش المستقيل . ا الذي زار دير ساروف مدفوعاً بالفضول. وبعد أن رأى أبنية الدير قرر العودة من دون أن يأخذ شيئاً لفائدة نفسه. وبالمصادفة التقى بالإقطاعي الكسيوس نيوفيتوفيتش بروكندين فنصحه الأخير أن يزورا البار سيرافيم معاً. في البدء رفض القائد بكبرياء، لكنه رضخ أخيراً لإصرار الإقطاعي. وحالما دخلا إلى قلايته سارع الستارتس واقترب من القائد وسجد له. فهذا العمل المتواضع ذلّل كبرياءَ القائد. وبقيا يتحدّثان فيما بينهما نصف ساعة وهو مرتدٍ أوسمته. ففهم بروكندين أنه لا مكان له وخرج إلى دار القلاية. بعد قليل سمِعَ بكاءً من الداخل. فقد كان القائد يبكي كولدٍ صغير.

عندما فتح الباب خرج البار وهو يمسك القائد من يده وكان القائد

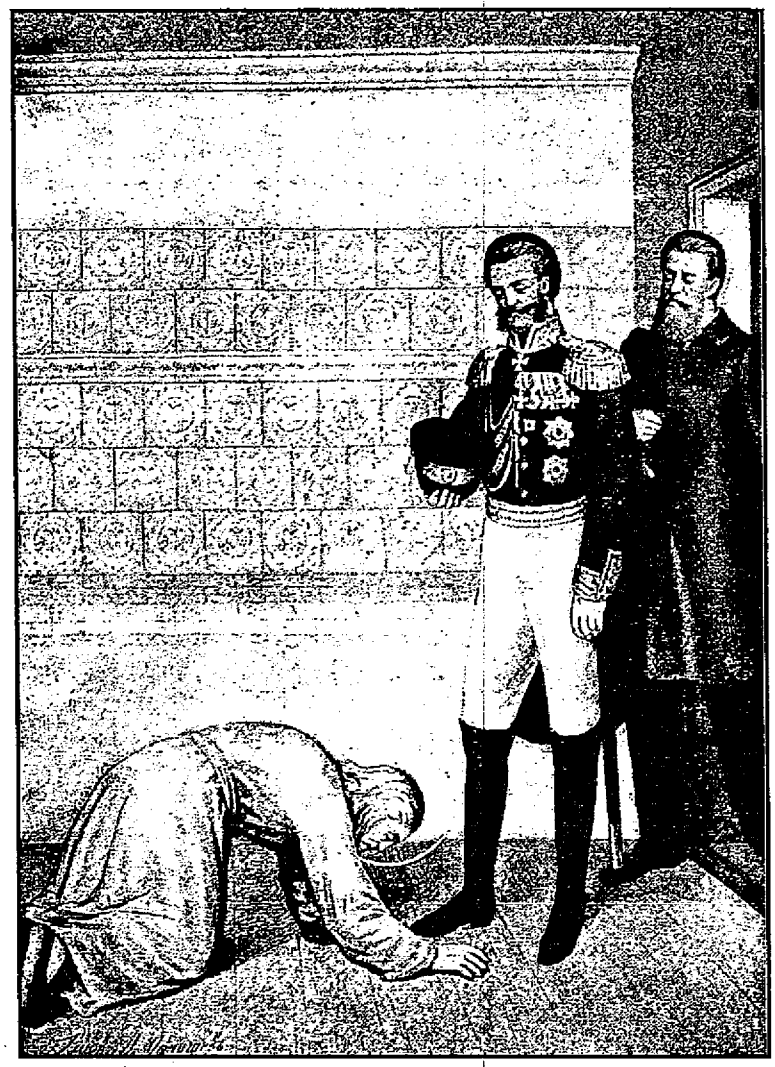

«السجدة لقائد الجيش»

مستمراً في البكاء ووجهه بين يديه. ويقول الراوي أنه نسي أوسمته وقبعته داخل القلاية. لأنه بينما كان يتحدث مع الأب سيرافيم كانت الأوسمة تتساقط عنه فجمعها البار ووضعها في القبعة العسكريَّة. لقد حدث هذا لأنه قال للقائد «لقد حصلت عليها من غير أن تستحقها».

فيما بعد قال القائد: «لقد زرت أوروبا كلها وتعرفت على أناس كثيرين، ولكنني لم أرَ تواضعاً كهذا. ولم أتصور مطلقاً أن يكون الستارتس مالكاً لموهبة قراءة الخفايا لهذه الدرجة حتى أنه أظهر لي أشد تفاصيل حياتي سرّية».

عندما كان البار يلاحظ أناساً ذوي استعداد حسن، كان يحاول أن يشدّهم إلى طريق الفضيلة بكل وسيلةٍ وبكل قواهم. وكان مسالماً مع كل الذين لا يحبونه ويتصرف معهم بتواضع ومحبه.

لم يفتخر مرّة، ولم يظهرْ أيَّ نجاحٍ من نجاحاته على أنَّه منه. كان يبارك الله دائماً ويقول: «لا لنا لالنا يارب ولكن لاسمك أعط مجداً» /مز ١١٣: ٩/. ولما كان المؤمنون يطبقون نصائحه لم يكن يفرح على أنَّ ذلك كان بسببه.

كان يقول: «علينا أن نبعد عن أنفسنا كل فرح أرضي على حسب قول الرّب»، «لا تفرحوا بهذا لأن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالأحرى لأن أسماءكم قد أحصيت في السموات» / لوقا ١٠: ٢٠ /.

شفاء ألكسندره

استمرَّ الأب سيرافيم بشفاء الأمراض الجسدية. ففي ١١ حزيران ١٨٢٧م. شفى الكسندره ليبندين. كان عمرها عشرين عاماً ولديها ولدان. في ٦ نيسان وهو يوم عيد من الأعياد المحلية بعد أن عادت إلى منزلها بعد القداس الإلهي تناولت الطعام وخرجت للتنزه مع زوجها.

فجأة أصابتها دوخه وفقدت توازنها. وبصعوبة استطاع زوجها إيصالها إلى رواق بيتهم. فسقطت هناك أرضاً وضربها التشنج والتقيؤ ثم

توقف نطقها تماماً ولما استيقظت بعد نصف ساعة بدأت بالصرير على أسنانها و تمزيق كل ما تجده ثم نامت.ترددت عليها النوبات ذاتها يومياً ولمدة ستة أشهر، كانت حالتها خلالها متفاوتة في القوة والألم.

في البدء حاول طبيب العائلة أثناسيوس باكوفليف أن يعالجها ولكن دون فائدة. ثم أخذ في معالجتها أحد الأطباء الغرباء العاملين في معامل حديد أيليف وفوزنيسينسك ولكن دون أية فائده. وحاول طبيب ذو سمعة شهيرة يعمل في معامل صب الحديد في bix أن يعالجها. هذا الطبيب الذائع الصيت فحصها بشكل جيد وحسب قدرته وأخيراً قال:

لن يستطيع أحد من الناس أن يشفيك فاستسلمي لإرادة الله واطلبي مساعدته.

فيئست المريضة من هذه الأقوال. ولكنها رأت حلماً في ليل ١١ حزيران ١٨٢٧م. حضرت إليها فيهِ امرأة لا تعرفها متقدمة في العمر وعيناها غائرتان وقالت لها: «لماذا تتألمين وتبحثين عن طبيب؟»

خافت المريضة وبدأت ترسم علامة الصليب على نفسها وتصليّ.

«ليقم الله وليتبدد جميع أعدائه».

لاتخشي مني – قالت لها المرأة فأنا إنسان مثلك أنتمي لمملكة الأموات انهضي من سريرك واذهبي بسرعة إلى دير ساروف إلى الأب سيرافيم فهو ينتظرك غداً لكي يشفيك.

أنا الكسندره أول رئيسة لدير ديفاييفو.

عند الصباح جهز أقرباؤها الأحصنة وتحركوا جميعاً إلى ساروف. لم تستطع الكسندره احتمال السرعة لأنها كانت تفقد وعيها وتصيبها تشنجات عصبيَّة. وصلوا إلى الدير بعد صلاة القداس الثانية في ساعةِ طعام الرهبان.

كان الأب سيرافيم موجوداً في قلايته ولم يكن يستقبل أحداً. ولكنه حالما اقتربت المريضة وتلت الصلاة. «بصلوات آبائنا القديسين» ، خرج من قلايته وأخذها من يدها وقادها إلى الداخل. وهناك لبس بطرشيله وصلّى بهدوء إلى الرب ووالدة الإله ثم أعطاها البروتي وماء مقدساً وثلاث قطع من السكر.

قال لها: كلي كل يوم قطعةَ سكرٍ واشربي ماءً مقدساً ولتذهبي إلى ديفاييفو إلى قبر أمة الله الكسندره. اصنعي هناك من السجدات ما تستطعين وخذي معك قليلاً من التراب. فألكسندره تتعذب بسبب مرضك وترغب بشفائك. وعندما تشعرين بالوعكة صلي الصلاة التالية « أيها الأب سيرافيم اذكرني بصلواتك وتوسل لأجلي أنا الخاطئة لكي لا يوقعني عدو الله في هذا المرض ثانية».

في تلك اللحظة شعرت المرأة أن الضعف يفارقها. ومن ذلك الوقت صارت سليمة وأنجبت أربعة أولاد وخمس بنات. في إحدى الرسائل ينهي زوجها كلامه قائلاً: «إننا نحفظ اسم الأب سيرافيم في قلوبنا ونذكره في كل ذكرانيه مع الأسماء الخاصة بنا».

كان الأيتام ومن لاملجأ لهم يلجئون إليه فيهتم بهم. وكان يرسل الكثيرات من الأرامل والعذارى إلى دير ديفاييفو، وهناك تستقبلهن الرئيسة للإقامة الدائمة ليجاهدن لأجل خلاص نفوسهن.

وقد التف أشخاص مكرسون لله حوله ، كالنحلات حول الملكة، من بين هؤلاء راهبات دير ديفاييفو اللواتي كانت لهنَّ دالة أكبر عنده ،لأن الرئيسة الأولى، عند ساعة رقادها أوكلت العناية بالدير إلى الأب باخوميوس، وهذا بدوره أوكل المهمة إلى الأب سيرافيم الذي صار عليه الآن أن يلعب دوراً فعالاً في حياة هذا الدير.

الفصل السابع

دير ديفاييفوا

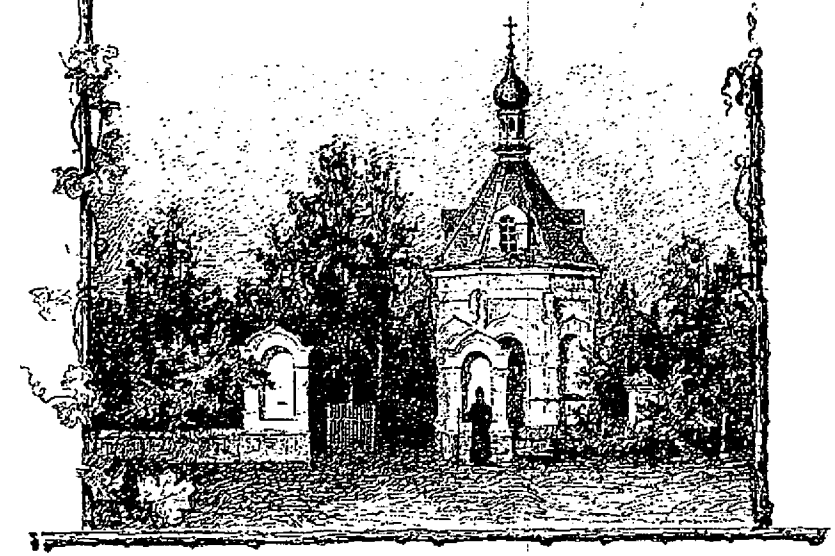

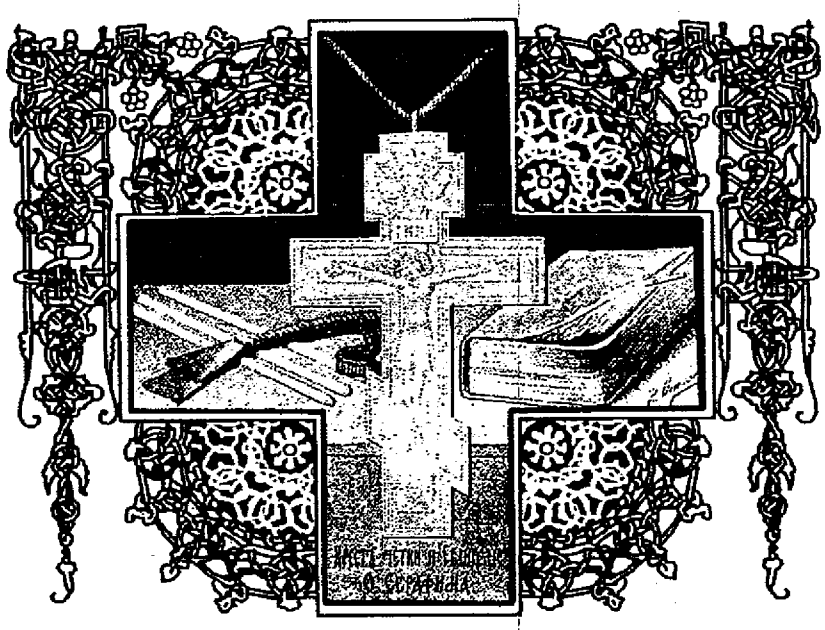

تأسيس الدير

لقد أرست أسس الدير السيدة أغاثي ميلكونوف أرملة القائد ومالك منطقة فلاديميرسك من محافظة بيريفياسلافسك سنة ١٧٨٠م. لقد ترملت وهي شابة فقررت أن تتكرس لله. فانطلقت مع ابنتها التي لم تتجاوز ثلاث سنوات، وزارت العديد من الأماكن المقدسة. ولبست الثوب الرهباني في دير فلوروفسكي في كييف، والأسكيم الكبير وأخذت اسم الكسندرة.

ولما كانت مسافرة من كييف إلى دير ساروف توقفت لترتاح في قرية ديفاييفو، التي تبعد اثنيَ عشرَ فرسخاً عن الدير. جلست هناك ببساطة على مسطبة بالقرب من كنيسة القديس نيقولاوس الخشبية،

ونامت لدقائق قليلة فرأت في نومها العذراء التي أعطتها الأمر بالسكن هناك، وأن تبني كنيسة إكراماً لأيقونة قازان العجائبية.

وحالما استيقظت تفحصت المكان جيداً ورحلت إلى دير ساروف. دخل هذا الدير كثيراً في فكرها، حتى أنها رغبت بالسكن والجهاد فيه، فيما لو كان مخصصاً للراهبات. ولما عادت إلى ديفاييفو تعرفت إلى الأب باسيليوس ديرتيف، الذي التحق فيما بعد بدير ساروف، وترهب هناك باسم برلعام ورقد فيه أيضاً.

أقامت الكسندرة في منطقة ديفاييفو اوسينوفكا، حيث أعطاها أحد إقطاعيي المنطقة بيتاً صغيراً وقطعة أرض. ولما بلغت ابنتها التاسعة من عمرها توفيت. وهكذا بعد أن تحررت الأم من كل رباط دنيوي، أقامت بالقرب من الأب باسيليوس. وشيدت في حديقة بيته كوخاً رهبانياً نسَكت فيه حوالي العشرين سنة. بقي جهادها غير معروف. نعرف أنها خلال تلك الفترة كانت تدرس إنجيل اليوم وانجيل القديس المعيد له، وذلك بسماح من آباء دير ساروف. وكرّست وقتاً طويلاً لدراسة سنكسارات وأعمال النساك: يوحنا السلمي وافرام السوري وآخرين.

لم تغب صلاة يسوع عن شفتيها، وكان التواضع ميّزتها. كانت تقوم في بيت الأب باسيليوس بكل الأعمال البيتية بإرادتها، ناسية غناها واسمها وأصلها. وكانت أيضا تساعد القرويين كذوي العائلات الكثيرة العدد. وإذا بقي زرع أحد القرويين بلا حصاد لفترة طويلة، كانت تذهب وتحصد الزرع وتأتي به حزماً إلى الدرّاسة. وأيضاً كانت تخيط بنفسها جهاز العرائس الفقيرات.

في الآحاد والأعياد، بعد القداس الإلهي، كانت تجتمع مع القرويات وتعظهن. وفي سنة ١٧٧٥م بدأت ببناء كنيسة حجرية على نفقتها الخاصة على اسم سيدة قازان. وإلى جانب الكنيسة كنيستان صغيرتان على اسم القديس نيقولاوس وأول الشهداء استيفانوس.

أكمِلَتْ الكنيسة خلال خمس سنوات، وخططت لتأسيس دير إلى

جانبها، واستشارت آباءها الروحيين في دير ساروف، باخوميوس وأشعياء. وأخذت الإذن من السلطات المختصة في منطقة فلاديميرسك، وطلبت من عائلة زنتانوف قطعة أرض إلى جانب الكنيسة مساحتها ١٣٠٠م٢، بنت فيها مسكناً، ودعت للإقامة معها العذارى: افدوكيا مرتينوف، ويولياني غريغوريف، وكذلك الأرامل أناستاسيا كيريلوفا وتقلا كوندراتيف.

في هذا المسكن عاشت الراهبة الكسندره حتى آخر حياتها، بحسب روح وقوانين دير ساروف. كانت ترشد الأخوات بتواضع وتوفر الحاجات الضرورية لإعالتهن من أتعابهن، ومن مساعدات الرئيس باخوميوس. هذه هي بداية دير ديفاييفو التي يرتبط به بقوة اسم برية ساروف واسم الأب سيرافيم.

وعندما رقدت الراهبة الكسندره تسلمت الرئاسة الأخت اناسطاسيا كيريلوفا. في تلك الفترة التحقت بالدير حوالي العشرون فتاة من القرى المحيطة به.و كانت اناسطاسيا تقودهن بحسب ترتيب الرئيسة الأولى. ولكي تؤمنَّ قوتهنَّ، عملنَ بغزل الخيوط وخياطة الثياب ونسج الجوارب لرهبان ساروف.

بعد موت اناسطاسيّا تسلمت الرئاسة كسينيا ميخايلوفا التي كانت زوجة لرئيس عمال مصنع أسلحة تولسك واسمه بروكوبيوس كوتسوبولوف. كانت راهبة تعيش حياة روحيَّة قاسية. سماها رئيس دير ساروف نيفن نقار الخشب الروحي. في أيامها وصلَ عدد الراهبات إلى الأربعين، وذلك حوالي عام ١٨٢٦م. وفي السنوات الخمس الأخيرة كانت بعض الراهبات قد التحقن بالدير بإرشاد الأب سيرافيم.

ولما كان الأبوان باخوميوس وأشعياء يخرجان من الدير للقيام ببعض الأعمال، كانا يمرّان دائماً من ديفاييفو لمساعدة الراهبات ليس مالياً فقط ولكن بقولهما وأخلاقهما أيضاً. وكانا يشجعانهنَّ على الجهاد الروحي في الحياة التي انتقينها. وبعد وفاتهما أخذ الأب سيرافيم على

عاتقه أمر الاهتمام بالدير، كما وعد. وفي السنوات الأخيرة من حياته أبدى اهتماماً أكبر وأكثر فعالية.

دير الطاحونة

بدأت أخوات الدير يزرن البار منذ سنة ١٨٢٥م لأخذ البركة. ثم تبعتهن الرئيسة العامة كسينيا. وكان يزوره أيضاً الأب باسيليوس كاهن ديفاييو الذي كان الستارتس يحبه ويحترمه.

ومرة قال له الأب باسيليوس: أتوسل إليكم أيها الأب أن لا تتركوا دير النساء.

فأجابه كيف من الممكن أن أتركه بعد أن توسَلَتْ إليَّ بذلك الرئيسة الكسندره سيميونوفا؟ لقد كانت امرأة عظيمة وقديسة. لقد فاقت خدمتها كل اعترافٍ. دموعها لا تنقطع وصلاتها نقية، ومحبتها للجميع لا مصلحة فيها. ثيابها بسيطة ومرقعة كثيراً، وتشد وسَطها بحزام فيه قطعة حديدية. ولكنها كانت محترمة، إلى درجة أن سيدات الطبقة الارستقراطية كنَّ يحترمنها. فكيف يمكنني أن أهمل طلبها؟ فأنا الوحيد الذي بقي من الآباء الذين عهدت إليهم إرشادَ ديرها. ولكنني يا أبت أطلب أنا أيضاً بدوري أن لا تتركهن أنت على قدر استطاعتك.

في تلك السنة تدخل البار بشكل فعال في حياة الدير. فقسمه إلى قسمين، بعدَ أن أخذ السماح بذلك من السيّد وأمّ الإله كما أكد هو. لقد قسم الدير للأسباب التالية. فقد ازداد كثيراً عدد الأخوات ولم يكن ثمة مكان لتوسيع الدير. والسبب الثاني هو التيبكون، إذ أن الأخوات كن يطبقن نظام دير ساروف. لكن البار رأى أن تطبيقه صعب على النساء، فطلب من الرئيسة تغييره ولكنها رفضت. والسبب الثالث، لم يوافق الأب سيرافيم أن تعيش النسوة اللواتي تبعن الحياة الزوجيَّة مع العذارى في المكان نفسه.

فالمرأة التي قضت بعض السنوات الزوجية السعيدة قد تتحدث حولها مع العذارى، فينتزع سلامهن الضروري جداً للحفاظ على العهود

الرهبانية. ومن الممكن أن تكون إحداهن قد مرت بفترة زواج تعسة، فتتكلم عن تعاستها الزوجية وتلقي بالتالي ظلاً أسود على رباط الزواج المشترَع من الله ذاته.

وبالنسبة للبار، المرأة المتزوجة تمتلك صلابة في شخصيتها، بحيث أنه يصبح من الصعب عليها أن تتغيَّر. ومن الممكن أن ينتقل هذا العناد إلى العذارى عن طريق التأثير المتبادل. وبالتالي يرفضْنَ التخلي عن إرادتهنَّ.

كان الأب سيرافيم يقول: من الأسهل أن تنشغل في الدير بإرشاد سبع راهبات عذارى، من انشغالك بإرشاد راهبة أرملة واحدة ووحيدة.

لهذه الأسباب إذن، أراد أن يفصل العذارى عن الأرامل، بالرغم من أنه بقيت قيادتهن في القسمين واحدة. واتخذ كمثال على ذلك دير والدة الإله في سوزدال من القرن الثاني عشر، الذي كانت العذارى تقمنَ فيه منفصلات عن الأرامل، وكان من الممنوع أن يتحدثن سوية.

كتب مؤرخ حياة القديسة فروسين،« أنه لا يوجد في أي مكان من روسيا العظمى ديرٌ يتبع نظام دير سوزدال. فقد أراح هذا النظام الراهبات من التعب. ولم يكن من الممكن أن نجد راهبات مثلهنَّ بهذا التقدم في العمل والصوم. كنَّ قدوة في التجرد، لكلِّ اللواتي يبغين الترهّب».

ترك البار سيرافيم دير ديفاييفو القديم على نظامه الأول، وصلى بحرارة للرب ولوالدة الإله الفائقة القداسة لكي يرشداه إلى مكان يتسع لبناء ديرٍ جديد. فسمعت الملكة السماوية صلاته، ودلته على مكان مساحته عشرون دونماً بالقرب من الدير القديم.

في تلك الفترة كان ميخائيل ماندوروف قد شفي مَن مرضه وقوي إيمانه فتوجَّه ثانية لزيارة دير ساروف. فباركه البار وأرشده. وفي ساعة استعداده للرحيل أعطاه عصا سنديان مشذبة.

قال له: وأنت عائد إلى بيتك توقف في ديفاييفو. واقترب من كنيسة عذراء قازان، وعند النافذة الوسطى من نوافذ الهيكل ارمِ نظرك نحو

الشرق وستجد الحد. امش إلى هناك حتى السهل الموجود عند نهايته، تقدمْ في الحقل وضعْ هذه العصا في وسطه.

في السنة الثانية جاء ماندوروف ثانية إلى ساروف، فأعطاه الستارتس أربعَ عصي لكي يضعها في الحقل نفسه، بحيث تصبح العصا الأولى في الوسط. عمل ميخائيل ما أمره به من غير أن يفهمه. بعد ذلك صار من الواضح أن البار أراد بناء طاحونة قبل أن يدمج الأخوية بشكل تام، وأن يقيم الدير الجديد حول الطاحونة.

كانت ملكية المكان المحدد من قبل البار تعود إلى ورثة باتاسيف. وبتدبير من الله ذهبت فيرا اندريفنا من الورثة لزيارة ساروف بقصد مقابلة البار. فطلب منها الأرض، فقدمتها تلك بكل رضى، ووعدت أن تطالب بها عندما تتم عملية قسمه الإرث.

في ٩ كانون الأول ١٨٢٥م عيد الحبل بوالدة الإله بعد أن صلى الأب سيرافيم مع الأخوات باراسكيفي وماريا في البريه البعيدة قرَّر أن يتكرس للعمل. فقام حتى نهاية تلك السنة وطيلة السنة التالية تقريباً بتحضير الأخشاب والأعمدة الضرورية للطاحونة. لقد أراد أن يبني طاحونة كالموجودة في دير أليكسييف.

وأعطاه الرئيس نيفن الإذن باستعمال أخشاب غابة ساروف، وساعدته أخوات دير ديفاييفو بتهيئة الأخشاب. وكان الستارتس قد جهز مدفأة في قلايته، في البرية البعيدة، ليستدفئ أثناء الراحة بعد تعب النهار.

في ٩ كانون الأول ١٨٢٦م. وبعد مضي عام على بدء العمل، بدأت أحصنة ساروف تنقل للمرة الأولى أعمدة وعوارض إلى مكان بناء الدير الجديد. وأخذت الأخوات بركة لنقل الأخشاب بالعربة من ساروف لإقامة الطاحونة.

أما السيد A.N. بروكندين المالك الأقرب من ذلك المكان، الذي كان يثق بالبار ويحترمه جداً، فقد قام بتأمين معلم ماهر مع اثنيْ عشر عامل

خشب، وهكذا بنيت الطاحونة بسرعة. لقد باشروا ببنائها في ربيع سنة ١٨٢٧م. وفي ٧ تموز يوم تقدمة عيد عذراء قازان بدأت بالعمل.

الحياة في الدير الجديد

لقد أنجز هذا العمل في منطقة لم تكن ملكيتها القانونية قد انتقلت من أصحابها الأصليين، ولهذا كان الستارتس يثير همة العمال قائلاً: إن ملكة السماوات نفسها قد وهبت هذا المكان للدير. وكان بعض حراس أراضي باتاسيف يتشاجرون مع العمال ويضايقونهم. أما أولئك فقد صبروا على التجربة واستمروا في عملهم مطيعين الأب سيرافيم.

بعد الانتهاء من بناء الطاحونة استقدم الستارتس من دير ديفاييفو سبع أخوات للسكن هناك، أسماؤهنَّ بارسكيفي – أيفذ وكيا– بارسكيفي ستيفانوفا – وداريا وآنا وداريا ايفانوفا وكسينيا ايلينيتسنا. وعين بارسكيفي ستيفانوفا مسؤولة عنهنَّ. وعين لهنَّ أباً روحياً وهو الأب باسيليوس ساندوفسكي كاهن ديفاييفو الجديد قائلاً: هذه إرادة الله والكلية الطهر، ورغبته هو.

كانت الأخوات السبع الأوائل من اللواتي أرسلهنَّ البار نفسه إلى أخويَّة الكسندرة ميلكونوف. ولما لم يكن لهنَّ قلالي للسكن كنَّ يعملن في الطاحونة ويسكنَّ فيها. وفي أواخر تشرين الأول بنى قلاية واحدة حيث سكنَّ جميعهنَّ معاً. ثمَّ بنى لهنَّ بسرعة مخزناً للحبوب بمقابل القلاية. وبعد ذلك أعطى البركة لبناء قلالي أخرى للأخوات اللواتي سيأتينَ فيما بعد. كانت الأبنية مقسومة إلى جناحين والطاحونة موجودة في الوسط.

استمرَّت أخوات الدير الجديد بتناول طعامهنَّ على مائدة الدير القديم لمدة سنة كاملة، الشيء الذي كان يزعجهنَّ. وأخيراً أعطاهنَّ الستارتس البركة ليصنعْنَ وحدهنَّ الخبز والمشروب. وفي بعض الاحيان كان البار يشاركهنَّ المائدة.

في أحد الأيام عند الظهر، وبعد الانتهاء من العمل في الغابة، كان

يأكل مع الأخت باراسكيفي ايفانوفا خبزاً يابساً وماءً.

قال لها: أيتها الأخت، إننا نعيش حياة سعيدة إذ نأكل الخبز الجوهري. أما أنا، عندما كنت حبيساً فقد كنت آكل الأعشاب. كنت أغلي في الماء عشب السنيت وكنت آكله، هذا هو طعام البريَّة وأنتنَّ تناولنَ منه.

منذ ذلك الوقت وبعد إذن الأب سيرافيم بدأنَ باستعمال الـ SNIT في الدير. كنَّ يغلينه بماء وملح. ولما كنَّ يزرنه لم يكن يتركهنَّ يرحلنَ دون أن يحمِّل لهنَّ دابة من السكر والأطعمة.

ولما أسس الدير الجديد، ذهبت الأخوات ببركته إلى مصنع السيد ايليفسكي، كبير عائلة باتاسيف، بغية الحصول على ملكية الأرض حيث كانت الطاحونة. مرَّت ثلاث سنوات من دون أن يحتجنَ شيئاً. أما كبير العائلة فلم يكن قد كلَّم المالكين حول هذا الموضوع. وفي النهاية عندما عرضه عليهم تذكرت السيدة يوستنيكوف وعدها الشفهي وقالت:

نعم لقد طلب مني الأب سيرافيم مساحة في ديفاييفو ووعدته أن أعطيه إياها فعندما نقوم بقسمة الإرث سآخذ أنا تلك الحصة.

ثم أعطت السيدة يوستنيكوف وعداً خطياً بذلك للأخوات.

عندما سمع البار بما حدث، فرح جداً، ولم يستطع التعبير عن فرحه بالكلمات، فأرسل للأخوات مع ماندوروف، الذي صادف وجوده هناك، وعاءً مليئاً بالعسل، وهؤلاء بدورهنَّ، بعد تحديد قطعة الأرض، بمراقبة المرسل من مكتب المسؤول، أكلنَ العسل بخبز طازج مع الرئيسة كسينيا والأب باسيليوس. ثم وجهت الأخت آلينا ماندوروف رسالة امتنان صادقة إلى السيدة يوستنيكوف بالنيابة عن الأخوات والأب سيرافيم. وأرسل لها الأب سيرافيم كعكاً كدليل على البركة. هذه المجريات حدثت سنة ١٨٣٠م.

كانت الأخت ماريا ايفانوفا قد استلمت مسؤولية الخدمة في المائدة. وفي أحد الأيام في الصباح الباكر، قبل استيقاظ الأخوات الأخريات ذهبت إلى المخزن، وفجأة رأت خلف البناء شمعة مضاءة

مغروسة في الأرض. فعادت إلى الدير خائفة، فأيقظت الأخوات وأسرعنَ جميعاً مرتعبات إلى المكان حيث كانت اللهبة السريّة. وعندما وصلنَ إلى المكان لم يجدنَ شيئاً. فمن الممكن أن يكون رؤية.

عند الفجر وجدن أن الأرض في ذلك المكان كانت محفورة. بعد الحادث أمرهنَّ الأب سيرافيم أن يحفرن خندقاً عرضه ثلاثة أذرع حول المكان الذي وجدن فيه الرؤية. استمر العمل ثلاث سنوات. وأصبح الدير محصناً بالخندق من الخارج، ومن الداخل بستار ترابي زرعت الأخوات فوقه ديساً «عنب إفرنجي» بعد أخذ بركة الأب سيرافيم.

بسبب قساوة الحياة في الدير تذمرت بعض الأخوات، وابتغينَ الرحيل إلى مكان آخر. فأرادت إحداهنَّ وهي المدعوة كسينا ايليتسنا أن تأخذ بركة البار قبل أن ترحل. وقبل أن تعرض رغبتها كلّمها الأب سيرافيم بحنان أبوي لمدة ثماني ساعات، ارتاحت بعدها من اضطرابها وأقامت في الدير طيلة حياتها.

وأرادت راهبة أخرى أن تغادر الدير إلى العالم، دون أن تعلمه . ولكنه أرسل في طلبها. فجاءته الأخت مضطربة. بدأ بسرد قصة حياته ضمن الدير وكان يردد باستمرار التعبير التالي: يا أختي، لم أخرجْ من الدير إطلاقاً حتى ولا بالذهن !

لقد وصل هذا القول إلى قلبها فشفى ضعف نفسها. ولما انتهيا من الحديث كانت قد هدأت، وشعرت وكأنها قد تخلصت من عضوٍ مريض.

اللقاء مع الدبة

عندما دخلت الراهبة مطرونة بليستسيِّفا إلى دير ديفاييفو استلمت ببركة الستارتس مهمة تجهيز الطعام للأخوات. ولكنها بسبب مرض ألم بها، وبسبب الأفكار المحاربة إيّاها شعرت باضطراب وملل إلى درجة قررت معها أن تغادر الدير خفية، إذ أن خدمتها قد بدت لها صعبة ولا تحتمل. لقد عرف الأب سيرافيم بدون أي شك بتجربتها، لأنه أرسل وراءها

اللقاء مع الدبة

ودعاها إليه فجأة.

وفي اليوم الثالث من صوم الرسل انطلقت إلى دير ساروف بعد المائدة. بكت طوال الطريق ووصلت إلى قلايته فقرعت الباب وتلت الصلاة. فأجابها من الداخل: آمين. واستقبلها كأب حنون وأمسكها من يديها وأدخلها إلى الداخل.

قال لها: يا فرحي لقد انتظرتك اليوم كلَّه.

أجابته والدمع ينهمر من عينيها: يا أبتِ أنت تعرف خدمتي. فقد كان مستحيلاً أن آتي أبكر من هذا الوقت. فحالما جهّزت الطعام أتيت وبكيت مسافة الطريق كلّها.

فمسح دموعها بيديه وقال لها: تعالي يا أختي فالعذراء والدة الإله ستعزيك.

بالفعل حالما قبّلت الأيقونة شعرت بفرح أعاد إليها الحياة تماماً.

قال لها: إذاً أيَّتها الأخت اذهبي إلى بيت الضيافة الآن، وغداً تعالي إلى البرية البعيدة.

يا أبتِ إنني أخشى المجيء وحدي إلى البريَّة البعيدة.

تعالي أنتِ إلى منسكي ورددي مسافةَ الطريق بصوت مرتفع «يارب ارحم». لا تذهبي إلى صلاة السحرية، وحالما تنهضين اعملي خمسين سجدة ثم انطلقي.

فصنعت كما طلب منها. وفي الطريق كانت تردد بصوت مرتفع «يارب ارحم». وليس أنها لم تخف إطلاقاً بل شعرت بصلاة البار بفرح كبير. و لما اقتربت من البريّة البعيدة، فجأة شاهدته جالساً فوق قطعة من جذع شجرة بالقرب من قلايته و إلى جانبه تقف دبة كبيرة جداً ولشدة الخوف كاد أن يغمى عليها.

إنني أموت يا أبتِ. صرخت بكل قوة امتلكتها وسقطت على الأرض. سمع البار الصوت فضرب الدبة وأشار لها بيديه. ففهمت حالاً وانطلقت إلى الغابة.

لا تخافي ولا ترتعبي. قال لها وهو يقترب من مكانها.

إنني أموت. إنني أموت. استمرت تلك بالصراخ مرتجفة من خوفها.

لا أيتها الأخت لن تموتي الآن، سيتأخر موتك. كان عليك أن تفرحي بما رأيتِ.

ثم قادها إلى المكان الذي كان جالساً فيه سابقاً، وبعد أن صلّيا، طلب منها أن تجلس. ولكن الدبة ظهرت فجأة من الغابة واقتربت منه وتمددت أمام قدميه. فبدأت الراهبة ترتجف من جديد لشدة خوفها، ولكنها لما رأته يتصرف مع الدبة بلا خوف كما لو كانت خروفاً وديعاً، ويخرج أيضاً من ثيابه خبزاً ويطعمها بيديه، بدأت تستعيد وعيها شيئاً فشيئاً. ولكنها اندهشت أكثر من وجه الستارتس العظيم. فقد كان مستنيراً و فرحاً كوجه ملاك. وعندما هدأت الأخت تماماً، أعطاها كل الخبز المتبقي معه

قال لها: وأنت الآن أيضاً أطعمي الدبة.

أخاف يا أبتِ. ستأكل يدي أيضاً.

لا يا أختي ثقي بي لن تأكل يدك. فأخذت الخبز وأطعمت الدبة فشعرت بسعادة عظيمة حتى أنها تمنت لو كان معها قطعة خبز أخرى لكي تطعمها. لقد كان الوحش الضاري هادئاً بسبب صلواته.

قال لها: تذكري يا أختي أن الأسد كان يخدم القديس جراسيموس الأردني، وكذلك دبة تخدم الفقير سيرافيم. حتى الحيوانات المفترسة تطيعنا ولكنك تفقدين شجاعتك. لماذا نفقد شجاعتنا ؟ لو كان عندي الآن مقصّ لقصَصْت شعرها. يا أبتِ إذا رأتها الأخوات سيمتنَ من فزعهنَّ. فقال: لا لن يرينها.

وإذا قتلنها ؟ قالت بحزن.

لا لن يقتلنها. لن يراها ثانية أحد غيرك.

فكرت أن تقص على الأخوات الأخريات هذه العجيبة، فأبطل البار خطتها قائلاً:

لا أيتها الأخت لن تحدّثي أحداً عن العجيبة قبل مرور إحدى عشرة سنة على وفاتي. وبعد ذلك سيكشف الله لكِ لمن ستقصين الحدث.

ولما اكتملت السنوات الإحدى عشرة، صدف أن زارت الستارتسا مطرونة القروي افثيموس فاسيليفتش المعروف بمحبته للبار وثقته به، فوجدته يرسم. وكان قد امتهن الرسم بعد أخذه بركة الأب سيرافيم. وصادف أنه في تلك الساعة كان يرسم البار سيرافيم.

هنا قالت له الراهبة: إنه لمن اللائق أن يَرسمَ شخص ما، الستارتس مع الدبَّة.

فسألها افثيميوس كيف تفكرتِ بشيء كهذا؟ عند ذلك قصت الراهبة الحدث العجائبي للمرة الأولى.

—

دعوات رهبانية

وبينما كان البار يشدد من أزر الأخوات ذوات النفوس الضعيفة، كان يزيد في عدد راهبات الدير الجديد. فبعد بناء الطاحونة بسنة واحدة بدأ بإرسال عذارى كثيرات إلى هناك. أما الأرامل فكان يرسلهن إلى الدير القديم.

طلبت السيدة Z.M.E.H من البار سيرافيم أن يدخلها الدير في ديفاييفو لكي تخلّص نفسها. وكان زوجها العامل في مصانع زولوتوفتس، لا يزال على قيد الحياة.

قال لها: لا يا سيدتي لم يحن الوقت بعد، ستعيشين أولاً مع زوجك وعندما يموت، ستعملين كصانعة قربان في الكنائس لمدة عشر سنوات لأجل خير نفسك.

يا أبت لا نعرف من سيرقد أولاً. أجابت تلك.

سيموت زوجك بعد ثلاث سنوات

بالفعل توفي بعد ثلاث سنوات تاركاً لزوجته ديناً كبيراً فسددته زوجته. عملت بعد ذلك صانعة قربان في كنيستين. واقترحت ثانية على الأب سيرافيم أن تصبح راهبة.

أجابها ذاك لا يزال عليك أن تعيشي في العالم.

ولكنني مجبرة على العيش مع الشباب.

أجابها إن الرب رحيم ، ثم ربتَّ لها على كتفها وقال: إنَّ الشباب سيحاولون إزعاجك ولكنك لن تخطئي حتى ولا بالفكر.

بالفعل فقد عملت صانعة قربانٍ لمدة عشر سنوات وقامت بعملها بنشاط ولما انتهت المدة ذهبت إلى دير ديفاييفو.

وانتمت بعض الفتيات إلى الدير بسبب الشفاء الذي حصلنَ عليه بصلوات البار. كانت الفتاة B.K من قرية بوكيبلوف يتيمة، وعمرها إحدى عشرة سنة، وفي ساعة عرسٍ أخيها سقطت فجأة وبدون سبب أمام باب الحديقة فاقدة شعورها. فرقت لحالها إحدى جاراتها وأخذتها إلى بيتها. شعرت المريضة بألم داخلي حاد. وفقدت صوتها وبدت كأنها ميتة. استمرت النوبات لمدة سنتين. وفي يوم عيد الفصح جاؤوا بها إلى الأب سيرافيم. ولما بارك الأب سيرافيم الآخرين اقتربت من بين الجمهور، فأخذها من يدها وأدخلها إلى قلايته ووضع يديه على رأسها ودهنها بالزيت من القنديل فشفيت. وأخيراً، لما أصبحت في السابعة عشرة دخلت إلى دير ديفاييفو.

أما السيدة N.E لم تكن تستطيع أن تحرِّك بحرية لا يديها ولا رجليها مدة عامين. وأخيراً جاؤوا بها إليه لكي يشفيها. في ذلك الوقت كان يحصد القمح مع براسكيفي ايفانوفا وايريني فاسيلييفنا، فلما رأى المريضة التي جاءوا بها بجهد كبير أومأ إليها من بعيد أن تسرع في المجيء إليه وتقترب منه بقدر ما تستطيع من السرعة. ولما اقتربت منه أعطاها منجلاً وطلب منها أن تجمع حشائش، فشعرت تلك بقوة في يديها ورجليها وبدأت بالعمل صحيحةً ومعافاة.

هل جاءت هذه المريضة حقاً لكي تعمل معنا ؟ تفكَّرت الأخوات بألم اذ أنهنَّ لم يدركنَ أنَّها شفيت. ولكن الستارتس فهم فكرهنَّ وقال لهنَّ:

ستأخذنها فيما بعد إلى دير ديفاييفو، وستغزل وتنسج لكنَّ. بعد ذلك أعطاها طعاماً لأجل تعبها وأرسلها إلى البيت.

الراهبة آناسطاسيا بروتاسوفا

أرشد الأب سيرافيم بعض الفتيات وقادهن إلى الدير بواسطة موهبة النبوءة التي تحلى بها. بين تلك الفتيات كانت الأخت اناستاسيا بروتاسوفا. التي زارت الدير للمرة الأولى منذ الصغر بصحبة والديها وصحبة الرئيسة كسينيا ميخايلوفنا. وصلوا إلى قلايته قبل وصول الناس. فتح لهم الأب سيرافيم مباشرة، وكان مرتدياً ثوبه الأبيض، ووجهه مستنيراً بشكل عجيب.

قال لهم من فضلكم قبلّوا أيقونة والدة الإله، الموجودة على الطاولة.

فصنعوا له مطانية صغيرة وأخذوا بركته وقبلّوا الصليب المعلق في عنقه. ثم قال: الرب الموجود في كل مكان والمالئ الكل لن يترككم دون رحمته فقد كتب النبي «لم أرَ صديقاً متروكاً ولا نسله يطلب خبزا». (مز ٣٧: ٢٥)

بعد ذلك أعطاهم بركة من القربان وخمراً. ووضع في منديل الأم بعض الخبز اليابس ثم باركهم مرّة ثانية وقال لهم: «اذهبوا بسلام ».

ثم ذهبت اناستاسيا بروتاسوفا لزيارته مرّة ثانية وعمرها سبع سنوات برفقة أمها ورئيسة دير ديفاييفو أيريني بروكوبيفنا. بعد أن باركهنَّ قال لهنَّ أن يقبّلنَ أيقونة العذراء ولما لم تستطع الصغيرة الوصول إلى الأيقونة رفعها الستارتس بذاته، ثم أخذ يدها ووضعها في يد الرئيسة إيريني وأخذ يتكلم إلى أمها عن النبي صموئيل وعن الأجداد القديسين.

سألها. هل تفهمين يا سيدتي؟.

أجابت الأم. لا أستطيع أن أفهم. وأخيراً باركهن وأطلقهنَّ ليرحلن. بقيت الأم طوال الليل مضطربة باكية لا تستطيع النوم وظنت أن القديس كان يتكلم بخصوص موت الفتاة. وعند الصباح اتجهت من جديد إلى قلايته، ولم ترضَ بالرحيل من غير أن تستفهم منه. وحالما فتح القديس الباب وضع يده على فم الأم وقال:

لا لم اقصد ما تفكرين به أيتها الأم. فلا تنزعجي.

ثم أعطاها أن تقبل الصليب الذي كان يحمله فهدأت تماماً.

وقبل أن تصبح اناستاسيا في الثانية عشره من عمرها ذهبت لزيارة الأب سيرافيم.

لقد كبرتِ. أشار البار إلى البنت متوجهاً بكلامه نحو الأم.

إنها تقترب من الثانية عشرة يا أبتِ.

إذاً إنه الوقت الذي يجب أن تعطيها للعريس.

قالت الأم: بنبرة منزعجة، لم تزل صغيرة.

أيتها الأم اطلبي سيدة محترمة وتضرعي إليها ان تأخذها لابنها وتلك ستأخذها. ابتسمت الأم وأيقنت أنه كان يتكلم عن عريس مستقبلي للفتاة.

أكمل البار: عليك في عيد ميلادها الثاني عشر أن تجدي لها لباساً أبيض وحذاءً أحمر. انهضي في نصف الليل وصلي وأيقظي زوجك معك، وأما هي فلا توقظوها وعند ما تكبر وتتقدم روحياً، ستصبح شجاعة في الجهاد.

وعند ما أصبحت الفتاة في سن السادسة عشرة تكلم القديس بكل صراحة مع والديها.

إن رأيه هو أن تذهب إلى دير ديفاييفو، إلى ديري، إلى يتيماتي.

بعد عامين كان يرسل إليها من الدير الأخت أنا بيتروفنا لتقول لها في كل زيارة: هناك تنتظرك الراحة يا بنتي، وليس طريقك بالعيش مع أهلك. لقد اختارتك العذراء منذ أن كنت ابنة سبع سنوات ووالداك يحتفظان بك بالقرب منهما.

مرة قالت له آسفة يا أبتِ، هل أنفصل عن أختي ؟. سنأتي بها أيضاً إلى هنا، هكذا كانت إجابته.

عند ذلك أخذت تحزن لأجل والديها، لأنهما إذا غادرتا البيت معاً سيضايق خروجهما الوالدين أكثر ولما ذهبت إليه ثانية من جملة الأشياء، قال لها:

أفكر أنه من الأفضل أن نترك أختك مع والديك. دعيها معهما لكي يتعزيا بها. أعطيها هذه القربانة وقولي لها لقد أرسلها الوضيع سيرافيم.

في إحدى زياراتها إلى ساروف جلبت اناستاسيا معها أخاها واسمه إيفان وكان عمره ثلاث سنوات. أمسك الأب سيرافيم الولد من يديه وسألها: هل عندكم حديقة ؟

نعم عندنا.

خذيه دائماً إلى الحديقة وهناك علِّميه أن يقول: «يارب ارحم، يارب ارحم» وعندما يكبر سيكون هذا الولد كنزنا المشتهى وأطعميه أنت بيديك.

ومرّة سمح لها أن تذهب إلى البئر لتغتسل وقال لها: «إنّ في البئر مياه شافية من الأمراض» وأشار إلى دير ديفاييفو قائلاً:

هذا المكان اختارته لنا ملكة السموات بذاتها ولا يمكن لأحد أن يأخذه منكنّ وسأبني لكنّ هنا قلاية لكي ترتحْنَ عندما تأتينَ لجمع الأعشاب، وسيتوفر عندكن الخبز والبطاطا بغزارة. وستساعدكن والدة الإله في كل شيء، وأنا الفقير سيرافيم، سأصلي راكعاً لأجلكن ولوالديكن وأقاربكن. بعد ذلك بشهور طلب بشكل نهائي من أهل آناستاسيا أن يتركوها لتغادر بأسرع وقت للالتحاق بالدير.

أجابت الأم باكية: الآن يا أبتِ سنتركها تذهب إلى الدير واضعين أملنا عليكم ولكن عندما تغيبون من الممكن أن يتشتتن.

كلا يا سيدتي أجابها القديس. قبلي كان الأبوان باخوميوس وأشعياء يعتنيان بهنّ، والآن أنا أهتم بهنّ وبعدي ستعتني بهنّ الملكة السماوية.

ولما اقترب موعد التحاق أناستاسيا بالدير قص عليها الأب أشياء كثيرة منها حياة البارة مكرينة وأضاف قائلاً:

انظري يا أختي ؟ لقد ذهبت هي أيضاً إلى الدير، وكانت تنصح أخاها باسيليوس. لقد صار باسيليوس عمود الكنيسة. ولكن!

كتلميذ وبكل فخر كان يتحدث إلى أخته وأما تلك فبحكمتها قادته إلى التواضع.

القانون الرهباني الجديد

اتَّبَعَتِ الراهبات اللواتي أتين إلى الدير حياةً قاسية بتعبٍ جسديٍ وجهادٍ روحي. وأما في الأعمال التي تفوق طاقة النساء كان يساعدهن رجل مسن.

كان القانون الرهباني في الدير القديم يطبق بناءً على الأصول المتبَّعةِ في ساروف. أما في الدير الجديد فقد وضع الأب سيرافيم قانوناً يومياً من رؤيته الخاصة حسب الترتيب التالي:

بصلوات آبائنا القديسين أيها الرب يسوع المسيح إلهنا ارحمنا وخلصنا آمين. ثم أيها الملك السماوي.. قدوس الله (ثلاثاً).. المجد للآب.. أيها الثالوث القدوس.. يا رب ارحم (ثلاثاً).. المجد للآب والابن.. ارحمني يا الله.. أومن بإله واحد.. ثم قراءة ١٢ مزموراً، تبدأ في كل مرة بالمزمور « الرب نوري ومخلصي الرب عاضد حياتي».

وفي فترة الصوم الأربعيني حدد لهن أن يتلون كتاب القديس إفرام السوري. وفي الجمعة العظيمة أن يدرسنَ آلام المسيح من مختلف الكتب، بعد ذلك تتبع صلاة أيها الرب يسوع المسيح إلهنا ارحمنا... أيتها الفائق قدسها خلصينا نحن الخطأة، مكررة كالسابقة مئة مرّة ثم بواجب الاستيهلال. أبانا الذي (ثلاث مرات). افرحي يا والدة الإله العذراء الممتلئة نعمة (ثلاث).. أومن بإله واحد.. وأيّها الرب يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطئة (مرتين).. وأيّها الرب يسوع المسيح يا ابن الله بشفاعات الدائمة البتولية مريم والدة الإله ارحمنا نحن الخطأة. ثم ١٢ مطانية مرفقة بالصلاة أيها الرب يسوع المسيح إلهنا ارحمنا. و١٢ مطانية مرفقة بالصلاة يا سيدتي الكلية القداسة والدة الإله خلصينا نحن الخطأة، وبعد ذلك لأجل المحسنين إلى الدير المسيحيين الأرثوذكسيين.

كانت راهبات دير ديفاييفو يطعن كل وصاياه ودون بركته ما كنَّ ليفعلن شيئاً وإذا أرادت إحداهنَّ أن تتغيب عن الدير لفترة معينة كانت حين مغادرتها للدير، وبعد عودتها إليه مباشرة، تذهب إلى البار لنوال بركته.

الراهبة افدوكيا

كان للراهبة إفدوكيا أخت متزوجة في قرية ألماسوف، مرضت مرّة وطلبت من أختها الراهبة أن تزورها. فذهبت عند ذلك الراهبة إلى الأم الرئيسة كسينيا لتأخذ بركتها لكن الرئيسة أرسلتها إلى البار. فتوجهت الراهبة إليه، لكنها في الطريق خشيت أن لا يعطيها بركته ولهذا قررت الذهاب مباشرة إلى أختها. ولكي تهدئ ضميرها الذي كان يعذبها، سقطت بوجهها على الأرض، وبالفكر قبّلَتْ يد الأب سيرافيم ورجليه وسجدت لصليبه النحاسي وتخيلت أنه بذلك أعطاها بركته وبعض الخبزات اليابسات لأجل الطريق وانطلقت بهدوء إلى بيت أختها.

بقيت عندها فترة كافية، وعندما تعافت المريضة عادت الراهبة إفدوكيا إلى الدير ولكنها كانت مضطربة البال لأنها ذهبت بدون بركة القديس، وفور دخولها باب الدير التقت بالأخت كاترين إيفورفنا التي قالت لها:

في فترة غيابك ذهبت مرتين إلى الأب سيرافيم وفي المرتين كان يتكلم عنكِ. في المرة الأولى قال: قَبْلَكِ كانت هنا إفدوكيا وطلبت الذهاب إلى قرية ألماسوف إلى أختها المريضة، لقد صنعت لي مطانية حتى الأرض، وقبّلت يديّ ورجليّ، وسجدت لصليبي النحاسي. لقد أعطيتها البركة وكذلك بعض الخبزات اليابسات للطريق. في المرة الثانية سألني ماذا حدث لإفدوكيا ألم تعد من ألماسوف؟ لقد جاءت إلي في اليوم الفلاني والساعة الفلانية وأعطيتها بركة لتذهب «هكذا تكلم البار سيرافيم مكرراً ما قاله في المرة الأولى».

ولدى سماع الراهبة إفدوكيا هذا بدأت تبكي من شدّة الشعور بالذنب والتهذيب الذي أبداه نحوها الأب سيرافيم بواسطة موهبته النبوية.

الكنيسة الحجرية

حتى سنة ١٨٢٩م. كانت الراهبات اللواتي يسكن الطاحونة يصلين القداس الإلهي في كنيسة عذراء قازان التي بنتها الرئيسة الكسندرة. ولكن ازدياد عدد الأخوات من جهة وضيق الكنيسة من جهة أخرى جعلت من الواجب تشييد كنيسة جديدة وهكذا من سنة ١٨٢٧م، بدأن ببركة القديس بجمع المواد لإقامة كنيستهنّ الخاصة.

تبرع بالكنيسة الجديدة كلّ من ميخائيل باسيليفتش ماندوروف وأخته الراهبة هيلانة باسيلييفنا والتي شغلت منصب المسؤولة عن الدير الجديد. كان البار كما ورد سابقاً قد شفى السيد ماندوروف من مرض عضال. وكاعتراف بالجميل وهب كل ثروته لبناء كنيسة الدير.

في عام ١٨٢٨م بدأ العمل بالدير ببركة أسقف نيزينكورد أثناسيوس على أساس المخطط الجديد الذي وافقت عليه الإدارة الحكوميّة المسؤولة. وفي العام التالي اكتمل بناء الكنيسة. كانت حجرية ومؤلفة من طابقين.

في ٦ آب ١٨٢٩م كرّسَ مذبح الطابق العلوي على اسم ميلاد المسيح، وفي ٨ أيلول عام ١٨٣٠م كرّسَ مذبح الطابق السفلي على اسم ميلاد السيدة العذراء. وفي هذه الكنيسة تقام كل يوم صلاة السحرية وتقرأ المزامير على مدى الأربع والعشرين ساعة وأمام أيقونة السيد تضاء شمعة لا تطفأ، وأمام أيقونة ميلاد العذراء يضاء قنديل لا ينام وذلك بحسب وصية البار.

اشترى البار من ماله الخاص أجراس الكنيسة من مدينة نيزينكورد والأواني المقدسة من موسكو. وحوّل بعض الحاجات إلى كسينيا فاسيليفنا، وقدّمت بعض التبرعات الأخرى الأميرة غولتسن من موسكو قبل أن يحين وقت الافتتاح. وأرسل مع الأب باسيليوس ساندومسكي بعضاً من البدلات الكهنوتية والأقمشة الصالحة لصنع بدلات كهنوتية. ثم اهتم بتأمين بعض الأيقونات مثل عذراء قازان وأيقونة البار سرجيوس راندونيز والبارين كيرلس وماريا وأيقونة الشفاعة عليها قميص من فضة وهي ثلاثة أقسام، السيد والسيدة والنبي الكريم السابق يوحنا المعمدان، وأيقونة بعض القديسين ويحافظ على كل هذه الأيقونات في الدير.

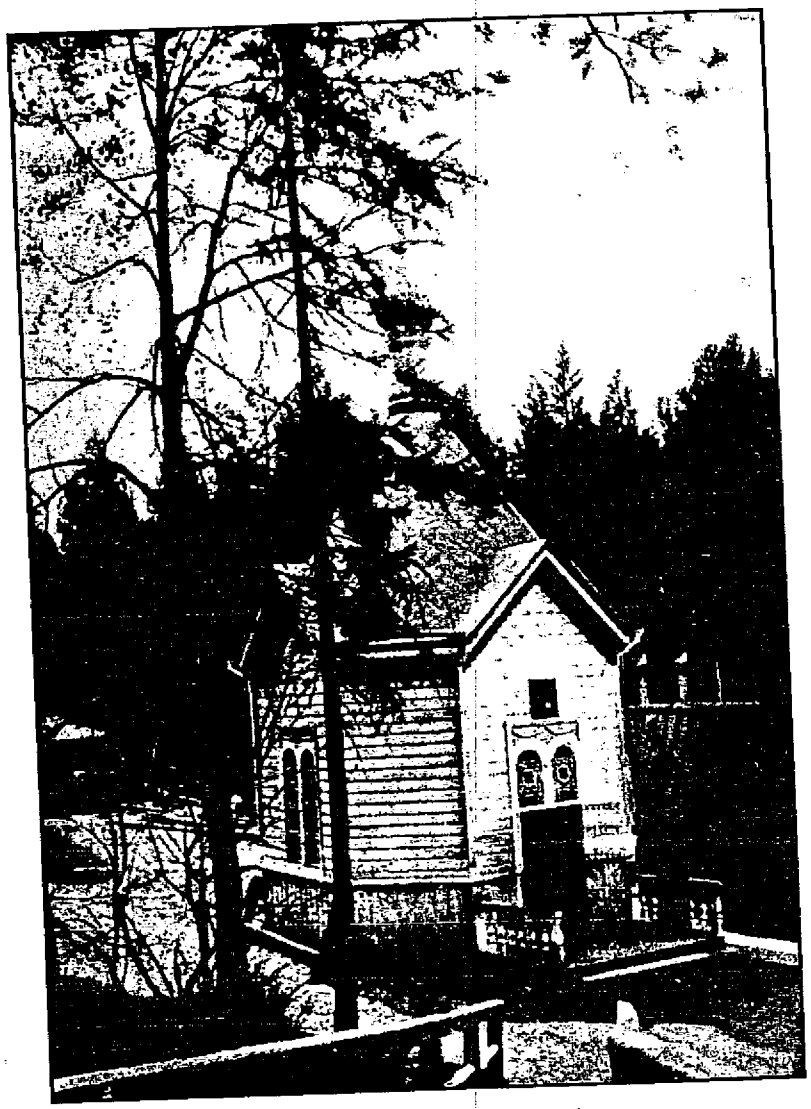

«منسك القديس كما كان عام ١٩٠٣»

قانون دير الشركة

بعد افتتاح كنيسة ميلاد المسيح، طلب البار أن يقدَّس يومياً بالتبادل ولمدة ستة أسابيع كاهنا الرعية الأب باسيليوس ساندوفسكي والأب يوحنا ديرتيف. ولم يدعوا مرتلين من الخارج فقد رتلت في مكان الجوقات بحسب الترتيب الرهباني الراهبات أنفسهن. في البدء رتلنَ على السجيّة، وبعد ذلك تعلّمنَ الترتيل الأحادي الصوت من الأب باسيليوس. وفي الهيكل خدمت المتبرِّعة ببناء الدير هيلانه فاسيليفنا ماندوروف، الابنة الروحية للأم كسينيا، رئيسة الدير، وبراسكيفي ايفانوفا. وحدد البار للدير الجديد القوانين التالية:

١) لتقرأ المزامير في الكنيسة على مدار الأربع والعشرين ساعة من قِبَلْ اثنتي عشرة راهبة بالتناوب كل ساعتين. والأخوات اللواتي سيتلونَ المزامير سيتلونها بصوت عالٍ لأنه يقال إن الملائكة ذاتها تفرح لدى سماعها قراءة المزامير، وهذه القراءات ستستمر دون توقف ما عدا الفصح، وأن تذكر الأخوات أثناء التلاوة ، البيت الملكي وباني الدير وأن يصلين لأجل راحة نفوس الملوك الأرثوذكسيين والمسيحيين.

٢) على جميع الراهبات أن يستعِدْنَ لسرّ الاعتراف، وأن يشتركنَ بالأسرار الإلهية في الأصوام الأربعة من كل عام وفي الأعياد الاثني عشر الكبرى.

٣) أن تقام الذبيحة الإلهية في كنيستي ميلاد المسيح وميلاد العذراء كل أحد وعيد من الأعياد السيدية الاثني عشرَ، وفي الأيام المتبقية تقام الخدمة فيهما بحسب الحاجة ورغبة الواهبين. وفي حال إقامة صلوات لراحة نفوس الراقدين من الأخوة.

٤) في كل أحد قبل القداس الإلهي نرتل في كل الظروف خدمة الابتهال لوالدة الإله. قال القديس: وبذلك لن تصادفكن أية مصيبة، ولكن إذا أهملتنَّ الابتهال ستكونن تعيسات. أصلي أن لا تصادفن مكروهاً.

٥) لتتلَ المزامير في كل كنيسة طيلة الأربع والعشرين ساعة وذلك بالتناوب بين اثنتي عشرة راهبة يرتلن ويقرأن في أماكن الجوقات.

٦) أن يكون للدير مكان لحفظ الأواني المقدسة، تجمع فيه كل الأواني الخاصة بالعبادة، وتستخدم في الكنيسة المكرسات للخدمة الكنسية أي المختارات من الراهبات الأتقى في الدير.

٧) أن تشعَلْ أمام أيقونة السيد شمعة لا تطفأ وأمام أيقونة والدة الإله قنديل لاينام.

وفيما يخص الأعمال، إضافة للعمل في الطاحونة أرشد البار الأخوات لأعمال يدوية بسيطة، أمّا الرسم وتطريز الخيوط الذهبية، التي تتطلب تركيزاً عقلياً فلم يسمح بها إضافة للأعمال اليدوية المشابهة. وقد بنى وصيته هذه على قوانين القديس باسيليوس الكبير والتي تنص على أنه في الأديار يجب أن يعمل الرهبان فقط للحاجات الضرورية للدير. وطلب من الراهبات أن يحافظنَ في كل عمل على الوصية التالية: «العمل في اليد والصلاة على الشفاه».

حافظت الأخوات والأم الرئيسة كذلك بكل التقوى على إرشاداته، فكل إهمال سبَّبَ نتائجَ سيئةً للدير. وبالنسبة للقنديل الذي لا يطفأ وجب أن يكون مشتعلاً أمام أيقونة والدة الإله. وقال أن الزيت لن يفرغ من الدير طالما بقي القنديل مضاءً ولن يجرَّبَ بسوءٍ. و بالحقيقة طيلة اشتعال القنديل، كان ملاك سلام يحرس الدير.

أعطى البار أهمية خاصة لهذه الوصية التي سنَّها كتحديد. وصدف أن انطفأ القنديل ولم يكن عند كسينيا فاسيليفنا المسؤولة عن الخدمة الكنسية زيت لإيقاده ولم تستطع أن تجد زيتاً في مكان ما، فتذكرت وصية البار وتساءلت في حزنها «إذا كانت نبوءات الستارتس بخصوص القنديل لم تتحقق لعدم وجود الزيت والمال فلربما لا تتحقق النبوءات الأخرى التي آمنّا بها بما لا يقبل الشك».

تعذبت الأخت كسينيا فاسيليفنا بأفكار كثيرة بينما بدأت ثقتها بشخص البار سيرافيم تهتز، ووضعت وجهها بين يديها وابتعدت قليلاً عن الأيقونة.

فجأة سمعت أزيزاً خفيفاً. فرفعت عينيها، لتجد القنديل مشتعلاً. ولما اقتربت وجدت أن القنديل مملوء بالزيت، وأن قطعتين من النقود طافيتان على وجه الزيت، فأغلقت الكنيسة وهي مضطربة وذهبت لتعلن العجيبة للرئيسة هيلانة فاسيليفنا. وفي الطريق أدركتها إحدى الأخوات ومعها أحد القرويين.

هل أنتِ المسؤولة عن الكنيسة هنا ؟ سأل القروي.

نعم، ماذا تريد ؟

هأنذا أحمل لكِ ثلاثمائة روبل لأجل زيت القنديل الذي قال لكم عنه الستارتس أن يبقى مشتعلاً.

وأعطى مع المال أسماء والديه الراقدَين. خجلت الراهبة من ضعف إيمانها وزالت كل شكوكها.

بنيت كنيسة خشبية في دير ديفاييفو وأغلقت كنيسة القديس سيرافيم وتوقفت قراءة المزامير وانطفأ القنديل الذي لاينام، والشمعة زالت من أمام الأيقونة. عند ذلك تعرض الدير لعدة مصائب. ردَّت الراهبات، سبب ذلك لعدم المحافظة على وصايا الأب سيرافيم. وحدث هذا التجاوز بسبب تدخّل شخص علماني في إدارته .

ولكن بمعونة الله وبصلوات البار، يواصل القنديل الآن والشمعة اشتعالهما أمام الأيقونات.

كاتدرائية الدير

لم تتوقف تطلعات الأب سيرافيم المستقبليَّة بخصوص نمو الدير عند النصائح التي كان يعطيها، كان يحلم في سنيه الباقية أن يشيِّد فيه كاتدرائية، أي كنيسة مركزية وكان يكلم الراهبات مسبقاً عن بنائها وعن حوادث أخرى بخصوص العيش في ديرهنَّ.

كانت الأخت مطرونه تزور الأب سيرافيم إلى حدٍّ ما أكثر من بقية الراهبات. مرَّة ذهبت لزيارته مرتدية ثياباً مدنية لإحدى الزائرات، تاركة بذلك ثوبها الرهباني، وقد قامت بذلك لكي تتجنب نقد الناس للراهبات باتهامهن بأنهنَّ يزعجنَ الستارتس دائماً.

من أنتِ يا أخت ومن أين أتيتِ ؟. سألها الأب سيرافيم مظهراً أنه لم يعرفها.

أنا الراهبة مطرونة من ديفاييِّفو.

لم أركِ من قبل وللمرَّة الأولى أسمع أنكِ من ديفاييفو. سقطت الراهبة على قدميه نادبةً فعلتَها، ونادمة على تسترها بغير ثوبها الرهباني-وأجهشت بالبكاء ظانةً أنه لن يمكنها العيش إذا تركها البار، ولكنه كأب حنون أخذها من يدها وقال لها:

انهضي يا فرحي، انهضي! إنني أعرف من أتت إليَّ.وبعد أن بقي صامتاً لفترة قصيرة أكمل: أيّ الثلاثة أفضل بين هذه الأشياء، التعزية، الصلاة، أو الحوار؟. الصلاة، يا أبتِ، هي الأنفع، من بين كل هذه. أجابته مطرونة دون أن تتوقف عن البكاء. لقد أجبتِ بحكمةٍ يا أختِ.

وبعد ذلك كلّمها معزياً وقال لها أنه عليها أن لا تترك الدير في أيَّةِ حالٍ من الأحوال حتى ولو رقد هو.

يا أختي، أكمل الستارتس، إن ملكة السموات أعطتنا هذه الأرض التي تعيشون عليها الآن. وأنا الحقير سيرافيم طلبت هذه المساحة من والدة الإله، وهي تضرعت إلى ابنها بهذا الخصوص. ولهذا لن يأخذها منّا أحد. وسنبني كاتدرائيتنا الخاصة، وستكون عندنا قطعاننا وخرافنا والصوف. ستبذر الأخوات وتحصد، وهكذا ستتوفر للدير-حالة الاكتفاء الذاتي. وستأتي الأرامل إلى هنا أيضاً، وسيقدمن بناتهنَّ. وأما نحن يا أختي، فعندنا مشاعر تختلف عن مشاعر الأرامل. هنَّ يفكرن بشكل مختلف. إن الراهبة البتول تفرح فقط بيسوع الفائق الحلاوة، وفي وقت التجارب تهرب إليه وتسلم نفسها لخدمته كلياً حرَّةَ الروحِ. وأما عند

الأرامل فتسود الذكريات العالمية «كم كان المرحوم طيباً وكم كان إنساناً خلوقاً».

فانصرفت الأخت مطرونه إلى ديرها متعزية بعد أن أخذت بركة الستارتس.

ولإقامة كاتدرائية الدير انتقى الأب مكاناً إلى جانب كنيسة عذراء قازان بين الدير القديم والدير الجديد .أما الأرض فقد كانت في أملاك الإقطاعي E.I.Z. زيندانوف الذي أدار بعد وفاة والديه كل الشؤون العائلية وبالطريقة الأمثل، إذ أنه كان الأكبر في عائلته. ويحمل في نفسه للأب سيرافيم احتراماً هائلاً ويرغب من كل قلبه أن يقدِّم الأرض التي كانت تملكها عائلته هناك، لإقامة الكاتدرائية.

أما البار فقد خالفه الرأي. وأعطى مالاً للراهبة هيلانة ماندوروف لشراء الأرض والمطحنة وتوجه نحو المالك مع الراهبة يولياني غريغوريفنا وقال:

«عندما أراد الملك والنبي داود أن يقيم مذبحاً للرب في بيدر أرونة لم يأخذ البيدر مجاناً بل دفع الثمن. وترغب والدة الإله أن يمتلك هذا المكان بالمال ولا يعجبها أن نأخذه مجاناً».

وقّع عقد الشراء، وأعطت الراهبة هيلانة نسخة عنه للبار. ولمّا رقدت هذه الراهبة أخذ الستارتس النص الأصلي للعقد وأعطاه لأخيها ورجاه أن يحتفظ به وأن تبنى كاتدرائية الدير في الوقت المناسب.

في حزيران سنة ١٨٤٨م. وضع أسقف نيزينكورد يعقوب حجر الأساس بيديه في المكان الذي حدده السيد ماندوروف لإقامة الكاتدرائية. وقد وضع الشيطان العراقيل أمام إكمال هذا العمل. وهكذا كرِّست الكنيسة الجديدة سنة ١٨٧٥م. أي بعد مرور سبعة وعشرين عاماً على بدء العمل.

كانت أحوال السيّد زندانوف بعد استلامه ثمن الأرض تتحسن من غير أن يفهم كيف. فتطورت أعماله وأصبحَ عظيمَ وجهاءِ المقاطعة، وصار

له عشرة أولاد وعاش سعيداً.

سميَّ الدير الذي بناه البار بذاته بدون تدخل الأم الرئيسة الكسندرة ميلكونوف «سيرافيم – ديفاييفو» والقانون الذي وضعه حوفظ عليه حتى عام ١٨٤٢م. في ذلك الوقت اتحد الديران ليشكلا دير شركةٍ واحدة. واعترفت الجهات الكنسية والحكومية بهذا الدير المتحد. وفي أيامنا هذه يعد الدير حوالي ٩٠٠ نفس مجاهدة.

لم يفرّق الأب سيرافيم بين الدير الجديد والقديم في التبعية الروحية، واعتبر أن الأم الرئيسة الكسندرة هي بانية كلا الديرين وكان يحترمها كثيراً ونقل هذا الاحترام إلى الأخوة أيضاً.

تحدث مرة إلى الراهبة يوستيني أيفانوفا قائلاً: لو كنتِ تعلمين عِظَمَ القامة الروحية التي أخرجَها هذا المكان! وعِظمَ التي ترقد في ديريكم !. كانت ثيابها قديمة ومصلّحة مئات المرات، ولم تجف وجنتاها من جريان الدمع. حتى الآن أقبّل أثارها. اذهبي في كل يوم يا أختي إلى قبرها وقولي، أيتها الأم سامحيني واعطني بركتك وصلي لأجلي إلى الرب ليسامحني كما سامحك واذكري اسمي عند مذبح الرب.

كان الأب سيرافيم ينظر إلى نفسه كوالد روحي للدير الجديد، مرَّة قال للراهبة افدوكيا افراموفا:

أقول لك يا فرحي أنا ولدتكم روحياً، ولن أترككم في كل حاجاتكم المادية، وأنا اعتبركنَّ أخواتي، وكل اللواتي يأتين بعدكنَّ سيكنَّ كبناتي، وأعتبر أن حامية الدير الجديد هي والدة الإله.

إذن أيتها الأخت، موجهاً كلامه إلى الراهبة بارسكيفي ستيفانوفا، اعلمي أن والدة الإله قد اختارت هذا المكان بذاتها لأجل تمجيد اسمها وهي ستكون لكنَّ حصناً وحماية.

وكان الستارتس يفكّر بالمستقبل بحزن إذ لم يكن عنده من يؤمّنه على الاهتمام بالدير.

كان يقول دائماً: بعد وفاتي لن يكون لكنَّ أبٌ آخر، إذ أنَّ الأب

إيلاريون كاهن ساروف لا يستطيع أن يتحمل مسؤولياتكن، ولا الأب أشعياء يأخذ ذلك على عاتقه. وبالرغم من أن الأب سفاتيوس يستطيع ذلك ولكنه لا يريد. ولهذا أقول لكنَّ: إنه بعد موتي لن يكون لكنَّ أب.

وكان يسلّم أمر الراهبات دائماً إلى الرب وإلى والدة الإله. وقبل وفاته بأسبوع قال للراهبة بارسكيفي ستيفانوفا:

الآن، أنت وكل الراهبات لستنَّ بحاجة لشيء ولكن بعد موتي ستواجهن شدائد كثيرة. اصبرنَ! وهذا سيكون طريقكنَّ. والآن هي البداية فقط. لم أختركنَّ أنا. إن الدائمة البتولية ذاتها قد اختارتكنَّ وسلمتكنَّ إليَّ كفتيات بسيطات. وفي المستقبل سيقترب منكنَّ أشخاص من كل جنس واسم، وكثيرون منهم سيضطهدونكنَّ بسبب غير المستحق سيرافيم، وسيوجهون لكنَّ الأسئلة. لكن لا تخفنَّ أن تقلنَ كل الأشياء التي سمعتنَّ مني. ولكن الآن، ابقين صامتات فلم يحن الوقت بعد.

أكدت مسيرة الدير الزمنية حقيقة أقوال البار.

الفصل الثامن

أديار أرداتوف وزيلينونكورسك

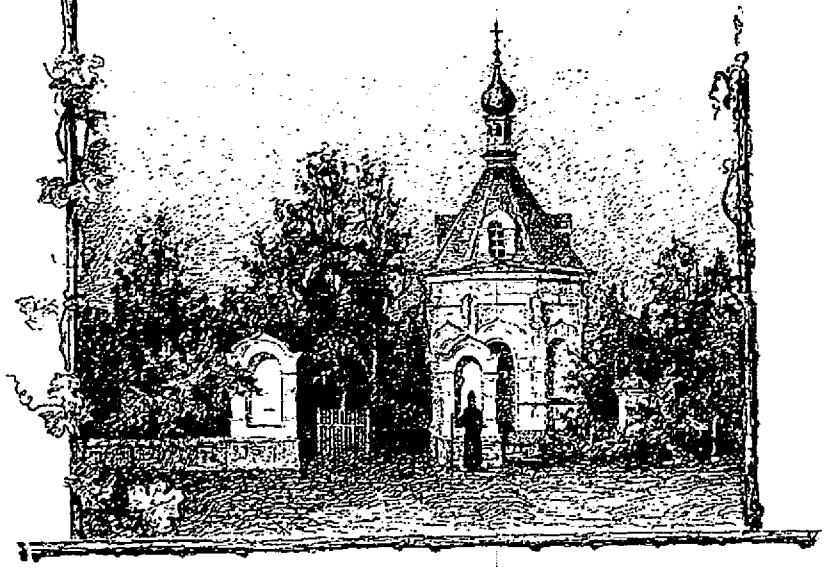

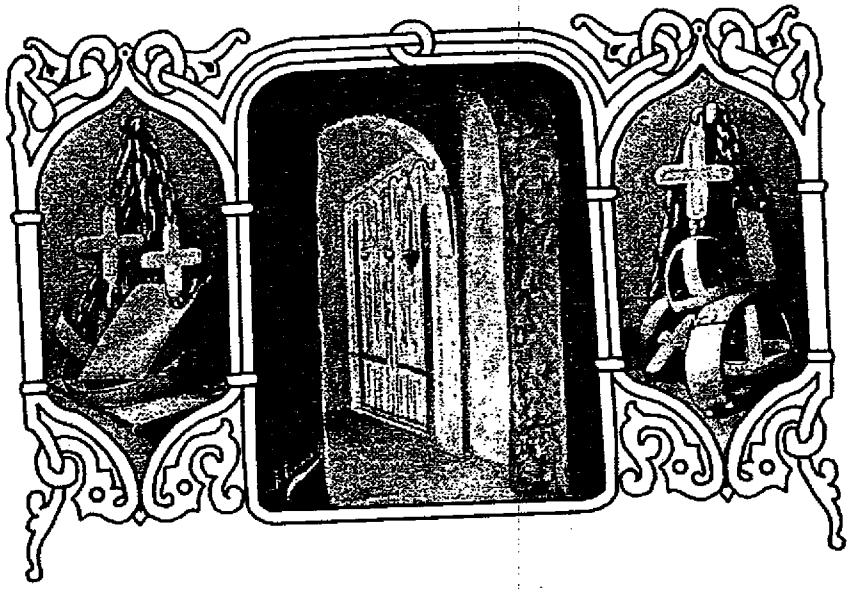

دير أرداتوف

حدَّث الأب سيرافيم الأم افدوكيا اندرييف قائلاً: عندما كنت عائشاً كمتوحد ظهَرَتْ لي العذراء مع الرسل الاثني عشر في نور ومجد لا يوصفان وأوكلت إليّ قيادة ثلاثة أديار. ديفاييفو و أرداتوف وزيلينونكورسك. وبالحقيقة أكدت الأحداث فيما بعد حديث البار.

بانية الدير ورئيسته الأولى هي فاسا ذيمتريًسفنا بوليوخوف من نسب عريق. كان بيت والديها على ضفة نهر ليمت، بالقرب من مدينة أرداتوف. وبسبب محبتها للقريب قدمت هناك ملجأ لبعض الفتيات اللواتي بلا مأوى.

قضين أربع سنوات بأتعاب جسدية وجهادات روحية مصحوبة

بالصلاة ، ولم يكن باستطاعتهن الذهاب إلى الصلاة في أي وقت يشأن، بشكل خاص بسبب بعد الكنيسة عن مأواهن، ولهذا اشترين سنة ١٨١٠م. بيتاً صغيراً و ٢٤٣ م٢ في المدينة بالقرب من الكنيسة، وانتقلن إلى هناك ولبسن الثوب الرهباني متبعات ترتيباً معيناً فيما يخص الجهادات الروحية والصلوات العامة والخاصة. واعتبرن بيتهنَّ ملجأً للفقراء. ومع مرور الزمن ازداد عدد الراهبات فبنين بيتاً جديداً استعملْنَهُ كصالة طعام ومكانٍ للصلوات الصباحية والمسائية.

بحسب رغبتهن، انتظمن كدير وانتخبت فاسا ذيمتريسفنا رئيسة، بسبب شدتها ونقاوة حياتها. ولما توفيت في ٢١ تشرين الثاني ١٨٢٣كان عدد راهبات الدير ٤٠ راهبة. وكان الأباء من ساروف يرشدون الدير وخاصة الأبوان سيرافيم وإيلاريون.

بعد وفاتها اقترحت الأخوات كل منهنَّ على الأخرى أن تكون رئيسة، ولكن لم تقبل واحدة منهن أن تحمل هذا الثقل، وفي النهاية قررن أن يضعن حداً لهذه المشكلة بأن يسترشدن الأب سيرافيم، فذهبت إليه المتقدمات في الدير ليحل لهن المشكلة. ومن غير أن يعطيهن جواباً مباشراً، أدار وجهه نحو الراهبة أفدوكيا اندرييفنا وبدأ يحدثها فيما يخص مهام الرئيسة. فهمت الأخريات أن العذراء اختارت إفدوكيا، أمّا هذه فحاولت أن تتهرب من هذا الشرف وقالت: إنها لا تملك شخصية مقرِّره، وينقص الدير الكثير من الأشياء وليس لها المقدرة أن تقود الأخوات. فأسكتها البار وقال لها: أنتِ اتركيها جميعاً على والدة الإله وابقي في الدير والله سيحميكنَّ من كلِّ شر.

بدت أقوال الستارتس وكأنها تظهر أن إدارة الأخت إفدوكيا ستكون وقتية [وبالحقيقة كانت الأخت إفدوكيا تعتبر الأكبر بين الراهبات والمسؤولة] ولكن عندما جاء الأب إيلاريون إلى الدير، وضع عليها اليد رسمياً وعيَّنها رئيسة .

وآمن الأب سيرافيم أن العناية الإلهية لن تترك الدير، وقد تحقق

أمله هذا تكراراً. ففي فترة المجاعة العامة لم ينقص الطعام الضروري. مرة بقي عندهن خبز وطحين ليومين فقط، ولم يستطعن التزود بهذه المواد من أي مكان أخر، فجمعت الرئيسة الأخوات وأعلنت لهن عن الحاجة الملحَّة.

في هذه الأحوال عليهنَّ أن يخترن واحداً من أمرين. إما أن يصبرنَ على الجوع أو أن يخرجن لاستعطاء الطعام. فصلَّت الراهبات بحرارة، وأرسلن أختاً مندوبة عن الدير إلى البار سيرافيم مع الرجاء أن يصلي إلى الله لأجلهن. وجدته المرسلة يعمل بالقرب من المنسك، فسقطت على قدميه باكية، وقصت عليه المشكلة، أما الستارتس، فلم يتصرف معها بحلاوته المعهودة بل بامتعاض ظاهر وقال لها: أن لا تحزن ولا تيأس. وبعد ذلك طردها قائلاً: تفقدن شجاعتكنّ بسرعة ! لأنكنّ لا تثقن بالله.

وأما الأخت فعادت إلى الدير حزينة جداً وروت أقوال البار وحديثه القاسي، وفي اليوم الثالث لما لم يبق عند الأخوات شيء غير الرجاء بالله. جاء أحد الغرباء إلى الدير وقدم طحيناً. وهكذا تشدَّدنَ ومجدنَ الله.

توجد حوادث أيضاً، حاول فيها الأب سيرافيم حمايتهن من الجوع فكان ينبِّهُ رئيسةَ الدير مسبقاً مستخدماً الأقوال الرمزية حول جوع ما، وحول موت الوحوش وأشياء تعسة مثل هذه.

مرّة زارته مع بعض الراهبات وأعطاها روبلاً فضياً وقال لها:

هذا لَكنَّ لكي تأكلْنَ خبزاً أبيض، وبعد ذلك بقي برهة صامتاً وأخرج من جيبه ورقة نقدية زرقاء وأضاف: هذا للبرغل.

أما الرئيسة إفدوكيا فقد ظنت أن أقواله تخص الحالة التي هنَّ فيها، ولم تعط انتباهاً للورقة النقدية، عند ذلك أخذها من يدها كما كان سيأخذها أيّ أب من يد الولد الصغير الذي لا يعرف قيمة الورقة وأعطاها إياها ثانية قائلاً:

الآن على الأخوات أن لا يهملن المال لأنه عمّا قريب ستحلُّ المجاعة وسيحتجن له.

وبعد أن تحدَّث إلى الأخوات في مواضيع أخرى روحية باركهنَّ وصرفهنَّ.

لكن الراهبات نسينَ الورقة النقدية ومعناها العميق. وبعد وقت قصير سمعن بانتشار الجوع في كلِّ مكان وأنَّ الفقراء يقتصدون باستهلاك الخبز مازجينه بنوع من الخضار. أما الراهبات فبصلوات البار حصلْنَ على خبز أبيض طيلة هذه الفترة.

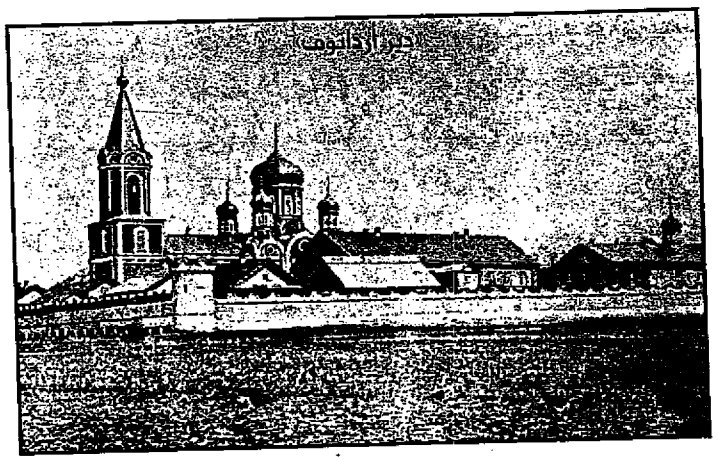

تابع الأب سيرافيم حياة الدير هذا بنواحيها الأخرى. مرَّةً طلبت إليه إحدى الأخوات، يدفعها الحماس للقيام بجهادٍ أكبر، بأن تصفِّدَ ذاتها في الأغلال وأن تصوم مدداً أطول. أما البار فرفض طلبها قائلاً: «لا نحتاج إلى سلاسل ولا إلى الصيام. عيشي كبقية الأخوات. ولكن لا تأكلي شيئاً حتى تجوعي، واتركي مكاناً للروح القدس».

بعد ذلك أراد أن يهدِّئها نهائياً فأضاف: «إنَّ مكان ديركم مبارك جداً، ولهذا يمكن للإنسان أن يخلصَ باتباعه للترتيب الموجود فيه من دون أن يَتَحمَّلَ جهادات تفوق إمكاناته».

وحرص الأب سيرافيم ألا تبقى الراهبات دون إرشاد روحي فقال: عندما ترَونني مشغولاً توجهن إلى الأب إيلاريون وسيرشدكن مثلي.

ووجه الأخوات أن يطلبن صلوات ومساعدة النساك في برية ساروف. وبعينيه الروحيتين ميَّز، كم هي قوية صلاتهم أمام الله.

كان يقول للأم إفدوكيا: إن ديركنَّ ليس حجرياً، بل أأمن من ديرٍحجري، إذ أن الجيران معكم.

ولكن للحفاظ على النظام والأمن العام طلب ألا تهملَ الأخواتُ على الإطلاق حراسةَ الدير في ساعات الليل.

حتى ذلك الوقت كانت الأخوات يذهبن إلى كنيسة الرعية، كنيسة النبي إيليا وكان الأب سيرافيم قد تنبأ ببناء كاتدرائية الدير قبل سنوات من قيامها، لهذا عندما كلمه أحدهم عن الحاجة لبناء كنيسة في الدير قال له الأب سيرافيم: اجلب لي حبلاً وأنا سآتي لقياس المكان الذي ستبنى فيه الكنيسة والمائدة ستكون في الأسفل. بيَّنت الأحداث التي تبعت ذلك أنَّ البار كان يعني المائدة المقدسة أي المذبح المقدس، الذي بالحقيقة بني في مكان منخفض، إذ أن الكنيسة كانت إلى نصفها تحت مستوى الأرض.

ومرة أخرى أرسل البار إلى الرئيسة فنّانين في طلاء الذهب. قال لهم اذهبوا إلى الرئيسة إفدوكيا. اذهبوا إلى الأم ستعطيكم عملاً. يجب أن تذهِّب الأيقونسطاس ولم يكن في الدير كنيسة واحدة فتعجبت الراهبات من هذه الإرسالية العجيبة فاعتقدن أن الستارتس قد أخطأ.

قبل وفاته بقليل ذهبت الأخوات من أرداتوف لزيارته. فأعطى الستارتس للأم وصايا وإرشادات بخصوص إرشاد الأخوات وبعض أعمالها، وفجأة استدار وقال لها:

لا ! يجب أن تعلِّمي، يجب أن تعلِّمي.

أما الرئيسة فلم تفهم ماذا قصد بذلك. ولأن الراهبات كنَّ قد بدأنَّ بالترتيل وحدهنَّ ، قالت للبار:

يا أبتِ إنَّ الأخوات يرتلنَ الآن.

يرتلْنَ إلى حد ما، إنهنَّ يرتلنَ ولكن لا يعرفن الموسيقى. سريعاً ستبنى الكنيسة.

فسألت الرئيسة إفدوكيا بفرح وهل ستكون جاهزة في عيد النبي إيليا.

عندما يكمل بناء الكنيسة سيحلُّ الجوع وسيسقط ثلج كثير ولكن الله سيكون معكنَّ.

هذه النبوءات حول بناء الكنيسة، وطلي الأيقونسطاس بالذهب تحققت كاملة. فلدير أرداتوف كنيسته الخاصة لإكرام والدة الإله الحامية والكلية القداسة، وللكنيسة مصليان صغيران مبنيان بتبرعات المحسنين، و الأيقونسطاس الرئيسي يلمع مذهباً والجدران مزدانة بالرسومات المقدسة، والهيكل غني بالأواني المقدسة والبدلات الكهنوتية وكل ما لا يمكن الاستغناء عنه.

بالحقيقة كان الأب سيرافيم الراعي الحقيقي الجيّد لدير أرداتوف. وكانت الأخوات يجلِلْنَهُ ويطعنَ كل نصيحة روحية من نصائحه. وأما ذاك فكان يقودهن في طريق الخلاص. وعلّم الكبريات أن يكن مسالمات، ومثلاً في الوداعة والبراءة وأن يحتملن ضعفات ونواقص الأخريات. وأن ينتبهن لأنفسهن أكثر ما يمكن وأن يعتنين بخلاص نفوسهن. ونصح الرئيسة أن تقرأ دائماً وتتأمل في حياة القديس سابا المتقدس.

واهتم البار بدير أرداتوف حتى نهاية حياته. وآخر أعماله بهذا الخصوص كان تعيين رئيسة جديدة للدير. فقبل وفاته بعدة أيام جاءت إلى دير ديفاييفو الإقطاعية افبراكسيًا من مسافة ألف فرسخ.

أما راهبات دير أرداتوف، فقد كنَّ قد استعلمن عن شخصيَّتها وميولها. فطلبن إلى البار بحرارة أن يأخذنها معهنَّ لتكون لهنَّ رئيسة. فتظاهر وكأنَّه لم يشأ أن يسمع ذلك. ولم يلتفت إلى المذكورة ولو بنظرة. طلبت منه أفبراكسيًا أن يَقْبَلها وأن يسمح لها أن تسجد أمامه، وأن يباركها وأن يصلي لأجلها، وأما هو فطردها من قلايته كما لو كان قد غضب من تصرفها. فذهبت افبراكسيّا فاقدة الصبر والأمل بأن تراه.

عند ذلك جمع البار أخوات دير أرداتوف، اللواتي كن بقربه وأشار

إلى التي ذهبت وقال: «ها إن افبراكسيّتكم قد أرسلها الله فأحبوها وأطيعوها وقلّدوها في كل شيء».

بمتابعة هذا الدير اتخذ الأب سيرافيم مساعداً له الأب ايلاريون الناسك المحترم في ساروف. واعترف بدير أرداتوف كدير شركة سنة ١٨٦١م.

دير زيلينونكورسك

لدينا معلومات قليلة فيما يخص عمل البار في هذا الدير. نعرف فقط أن الستارتس اهتمَّ بالدير من تأسيسه حتى وفاته.

فعندما كان لا يزال مبتدئاً كان الآباء في دير ساروف يرسلونه في كل عام إلى البازار المقام في زيلينونكورسك لتأمين الحاجات الضروريَّة وأما هو فلم يهمل أن يمرَّ ويدور حول دير الرجال حزيناً إذ لا ساكن فيه.

تأكد من أحد الجوالين أنّه في احدى زوايا الدير النصف مهدَّم يسكن شخص ما مبتغياً خلاص نفسه. هذا الخبر أفرح الأب سيرافيم، إذ رأى في ذلك الميلاد الجديد للدير. ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاته لم يتوقف عن الصلاة لأجله ومساعدته بكلّ الطرق. ولم يكن إبّان حياته عدد الراهبات قليلاً فيه. وقد وجدنَ فيه خلاص نفوسهنَّ. وأكبر الأخوات لا زاريفنا تعتبر قديسة. واليوم في المكان ذاته لا يزال قائماً دير شركة نسائيّ.

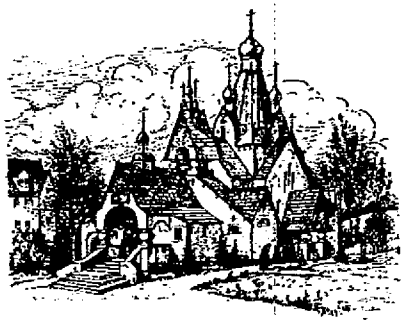

الفصل التاسع

مرشد روحي

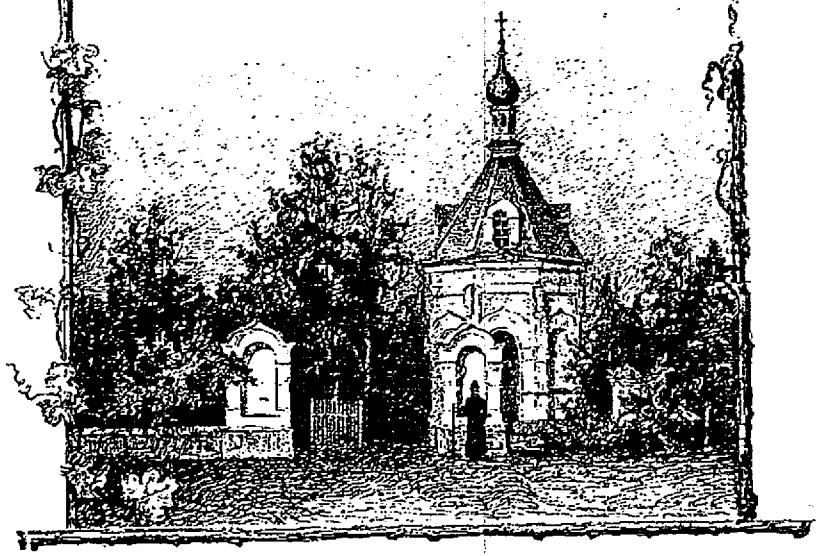

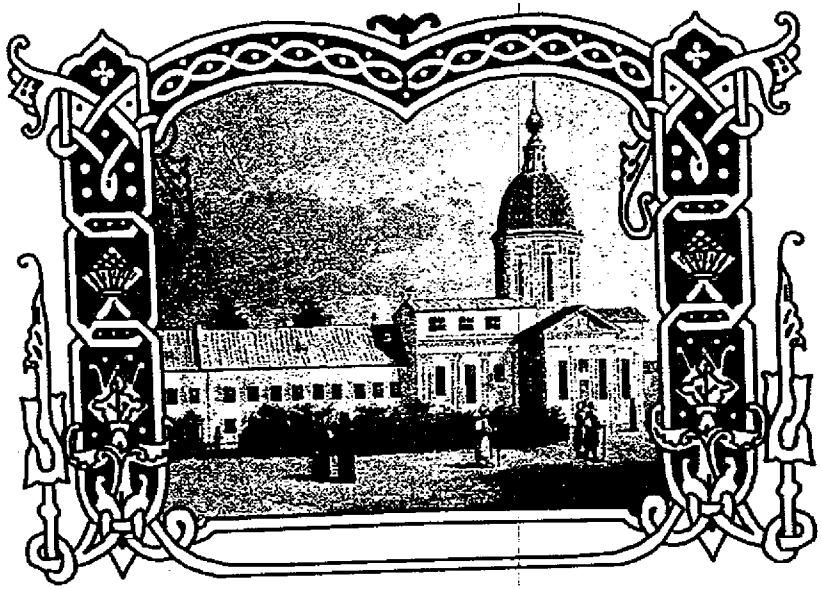

اضطراب الإخوة الرهبان

مَا دام الإنسان موجوداً في هذه الحياة لا يمكنه أن يجد الهدوء من إزعاجات الشرير. فبالرغم من وصول البار سيرافيم إلى سمو روحي، لم يستطع التخلص من التجارب الشيطانية، وكان الكثيرون لا يرتاحون له لأنه كان يستقبل الجميع رجالاً ونساءً من غير تمييز.

قال له أحد الرهبان: كثيرون من الرجال والنساء يزعجونك وأنت تستقبلهم جميعاً بلا تمييز.

أجاب البار: إن القديس إيلاريون ردَّاً على الافتراء لم يغلق بابه في وجه الزوار. ولنفترض أنني أغلقتُ باب قلايتي. فكل الزائرين الذين يحتاجون لتعزية، سيقسمون باسم الله أن أفتح لهم، وبما أنهم لن يأخذوا جواباً سيرحلون كئيبين. فكيف سأتبرر في ساعة الدينونة الرهيب.

شخص آخر لاحظ بجرأة أكبر وقال: آخرون يعثرون بسببك.

فأجاب: أنا لا أعثر لا مع أولئك الذين يستفيدون مني ولا مع أولئك الذين يعثرهم ذلك.

ولم يبق رئيس الدير نيفن بدون تدخل في هذا المجال. مرَّة التقى به وهو عائد من البرّيّة إلى قلايته، فصنع البار لرئيس الدير سجدة بتواضع وبحسب العادة الكهنوتية حياه بالقبلة الأخويّة.

قال له الأب نيفن:

يا أبتِ إنك لمغبوط بسبب جهاداتك الروحية، وكان الأب نيفن يحب الأب سيرافيم ويحترمه، ولي الرغبة أن أنقل لك أفكار الأخوة الذين لا يرضون باستقبال أي زائر في قلايتك دون تمييز. وبالرغم من أخذهم بعين الاعتبار أن هذا يحدث لأسباب روحية فهم يعثرون وبوجه الخصوص بسبب الإهتمام المتميِّز الذي تخصُّ به راهبات دير ديفاييفو.

فصنع البار لرئيس الدير سجدة أخرى وأجاب:

لا تستقبل الأفكار الشريرة ولا تستقبل من كلِّ واحد أفكاره الشريرة نحو القريب. إنك الراعي ولهذا لا تسمح لأحد أن يتكلم دون انتباه فيزعجك ويزعج كل واحد يسير بهدوء نحو الأبديَّة. فقولك يجب أن يمشي، وعصاك يجب أن تكون مرعبة للجميع كسوط.

أما القروي الفلاح E.B. من ليخاتسيف فقد كان يعمل في دير ساروف. اقترب مرّة من مَنْسكه فرآه جالساً يتحدَّث مع فتاة غير معروفة مرتدية ثياباً حسنة ولها من العمر ستةَ عَشَرَ عاماً تقريباً. وبسبب عدم خبرته في الحياة الروحية تفكَّر «ماذا يمكن أن يتحدَّث معها الشيخ؟ وما هي التعاليم التي تناسب سنّها؟». وبينما هو في هذا الفكر وصل إلى مكان قريب منهما. فعرض له البار لحيته الناصعة البياض وقال له: إنني مائت عن كلّ الأشياء فبماذا تفكّر إذاً ؟.

سامحني يا أبتِ، أجابه الفلاح آسفاً وركعَ أمامه.

فباركه الأب مسامحاً إياه وقال له: اهدأ، ولا تفكرّ ثانية بالشر.

نصائح للرهبان

كثيرون من الرهبان والراهبات ورؤساء الأديار زاروا الأب سيرافيم طلباً لإرشاده. فيما يخص واجبات رئيس الدير كان ينصح بما يلي:

يجب أن يكون الرئيس كاملاً في كلِّ فضيلة، وأن تكون مشاعره الروحية متمرِّنة بالتدرّب الطويل على تمييز الشرّ من الخير. وأن يكون عارفاً في الكتاب المقدّس وأن يلهج بناموس الرب ليلاً ونهاراً. بهذه الاهتمامات يستطيع أن يمتلك موهبة التمييز. ويمكن أن يمتلك المجاهد المعرفة الحقيقية للخير والشر عندما يعيش في هذه الحياة الدينونة الآتية ويتذوّق الغبطة الآتيّة. ويحدث هذا الشعور في نفس المجاهد، بطريقة سرّية وروحيّة.

وقبل أن يتقبل الإنسان نعمة تمييز الخير والشر لا يكون قادراً على رعاية الأغنام الناطقة، لأننا دون معرفة الخير من الشر لا يمكننا أن نكتشف فعل الشرّير. لهذا فرئيس الدير كراعٍ للخراف الناطقة يستحسن أن يكون ممتلكاً هذه الموهبة حتى يستطيع إعطاء النصائح المفيدة لكلِّ حالة. إذ أنه كما يقول القديس بطرس الدمشقي: «ليس كل واحد مناسباً ليرشد. ولكن فقط ذاك الذي حصل من الله على نعمة التمييز وذاك الذي بسبب صبره الطويل في النسك حصل على عقل نبوي».

وعلى رئيس الدير أن يكون ممتلكاً لموهبة الإستقراء حتى أنَّه بمقارنته أشياء الماضي والحاضر، يمكنه أن يستشرف المستقبلات وأن يستدرك من البدء كمائن الشرير. ويجب أن يكون متميّزاً بمحبَّته للمبتدئين. يقول القديس يوحنا السلّمي: «الراعي الحقيقي يبدي محبَّة وبالمحبة يصلبُ الراعي».

وعندما كان رؤساء الأديار يسألونه: كيف سيقودون الرهبان الذين ائتمنوهم على نفوسهم؟

كان يجيب: ليكنْ كلّ رئيس دير، وليبقَ دائماً للرهبان كأم حكيمة. الأمّ التي تحب أبناءها لا تعيش لذاتها ولكن لتخدم أولادها. فتصبر

بمحبَّة على ضعفاتهم وتنظفهم عندما يتلوثون. تغسلهم بحنان وصبر. تلبسهم ثياباً نظيفة بيضاء وأحذية. تدفئهم وتطعمهم وتعتني بهم وتعزيهم وتحاول أن تسرَّهم في جميع المجالات حتى لا تسمع من قبلهم ولو تذمراً بسيطاً. وهكذا يكون أبناؤها مكرّسين لأمهم.

هكذا يجب أن يعيش كل رئيس دير لا لراحته ولكن لأجل مريديه. يجب أن يصبر على ضعف الضعفاء منهم، وأن يصبر بمحبَّة على الأمراض والخطايا، وأن يقوِّم بتواضع وأن يشفي بحنان كل الذين سقطوا في مخالفة ما. وأن ينظف برفق الذين تلوّثوا بسيئة ما، وأن يصلحهم بقانون صلاة وصوم، كما حدّد الأباء. وعلى رئيس الدير أن يلْبِسَهم بالتعليم وأن يعطي بحياته المثال على الفضيلة. ويستحسن أن يسهر بلا انقطاع لأجل رهبانه وبكلِّ الطرق أن يعزيهم وأن يؤمِّنَ لهم الهدوء والسلام من كل النواحي، حتى لا يسمع في أي وقت من الأوقات تنهداً أو تذمراً صغيراً. وعند ذلك سيهتم الرهبان وبكل حماس أن يريحوا ويسعدوا رئيسهم.

سنة ١٨٣٠م عيّن أحد الآباء من دير ساروف رئيساً لدير في منطقة قازان، وقبل أن يرحل مرَّ بالبار ليأخذ بركته. وجده في الغابة يعمل في الحقل، فاقترب منه بهدوء من غير أن يقول كلمة.

وحالما رأه الستارتس من بعيد آتياً نحوه ابتدأ يرتِّل /الأكسابوستلاري/ للصليب الكريم «الصليب حافظ كل المسكونة». ولما انتهى سأل الزائر.

إلى أين أنت ذاهب يا أخي ؟

أجاب ذاك: يدعونني إلى قازان.

معك يا أبتِ معلومات خاطئة فلا تذهب إلى بريَّة مكاريف.

لا يدعونني إلى بريَّة مكاريف ولكن إلى بريَّة رايثوه لأكون رئيساً لأحد الأديار. أصلح له الأخ.

فأصرّ الشيخ قائلاً:

أقول لك لا تذهب إلى بريَّة مكاريف وبقي صامتاً لبرهة وجيزة. ثم أكمل، ستقيم لمدة قصيرة خارج بريَّة ساروف ولكن ستأتي أيضاً إلينا وستموت هنا في بريَّة ساروف المحفوظة بالله. وبعد ذلك بارك الأخ وتركه يرحل. ولما وصل الأخ إلى قازان علم أنَّه لم يعيَّن في رايثوه ولكن في مكاريف وعند ذلك تذكّر كلام البار فرفض التعيين فأرسلوه كمنظم لدير تسيفلسكي في تشفين.

فيشهدُ .I.H سكارين، من الأشخاص الموثوقين عند البار، أن الأب سيرافيم قال: قبل اشتداد داء الكوليرا بسنة وذلك سنة ١٨٣٠م«إن غضب الله قادم إلى روسيا. إنّ الكوليرا الجالبة للموت تقترب، اسهروا اسهروا وصلّوا لكي لا تدهمكم فجأة ساعة الموت».

ووصلت الكوليرا إلى دير تشفين حيث كان يخدم الراهب من دير ساروف واضطره الوباء أن يستقيل ويعود إلى ديره القديم.

ولم يكنِ الذين ذهبوا ليسترشدوا من البار قلّة بغية اعتناق حياة النسك وبما أنَّه مَلَكَ موهبة النبوءة كان ينصحهم دائماً ويقول لهم المستقبل. سنة ١٨٣٠م أراد أحد المبتدئين من دير غلينسك أن يسأله هل عليه أن يصير راهباً. لم يكن هذا الشاب يعرف ذاته جيّداً وكان يتأرجح بين الحياة الرهبانية والعلمانية ولم يستطع أن يؤمِّن أحداً على أفكاره. ولم يكن باستطاعة أحد من محيطه أن يحلَّ له المشكلة الأهم في حياته.

لهذا جاء إلى ساروف وسقط على قدمي الأب سيرافيم وتضرَّعَ إليّه أن يحرره من عاصفة الشك والتردد. هل هي إرادة الله أن أصبح راهباً أنا وأخي نيقولاوس ؟.

عند ذلك – أجابه الستارتس، الذي التجأ قبل سنوات عديدة للسبب نفسه إلى الحبيس ذوسيثيوس في كييف -- وقال:«خلص نفسكَ وأخاكَ بالجسد».

وبعد أن تفكر ملياً أكمل:«هل تتذكَّر حياة القديس يوانيكيوس؟ هذا بينما كان يسير في الجبال سقطت منه عصاه على منحدرٍ قاس. فتضايق القديس لأنه لا يستطيع إكمال سيره من دونها. ولمّا صلّى إلى الله عادت

العصا إلى يده».

وبينما كان البار سيرافيم يتحدث بهذا وضع بيد الأخ اليمنى عصاه وأكمل: إنه لمن الصعب أن تقود نفوساً بشريَّة. ولكن وسط صعاب وأحزان هذه القيادة سيوجد إلى جانبك ملاك الرب حتى نهاية حياتك.

بعد ذلك قرّر المبتدئ أن يصبح راهباً وسمي في سيامته بايسيوس. وسنة ١٨٥٦م عيّن رئيساً في دير تسيركينسكي نيقولايفسكي في استراخان. وبعد ست سنوات صار ارشمندريتاً للدير نفسه وهكذا تحقق ما تنبأ عنه البار. وصار أخوه بالجسد راهباً باسم نزاريوس ورقد في دير جيورجيفسكي من كوزيليت ككاهن متوحد.

ولم يتحدث البار فقط عن رؤساء الأديار ومهمّاتهم بل عن الرهبان أيضاً. قال: «امتلك التواضع والطاعة والخضوع وستخلص، مردداً كلمات القديس برصنوفيوس، ولا تعارض شيئاً ، ما هو هذا؟ ولماذا هذا؟ ». يجب أن تكون مطيعاً لمرشدك الذي بنعمة الله قد اتخذ تدبيرك على عاتقه والذي قد سلّمتَ روحكَ إليه.

وأكمل قائلاً: من أقوال القديس ذاته من يرغب بالحقيقة أن يكون تلميذاً للمسيح ليس له الحق أن يعمل شيئاً من ذاته، وكل ما يعمله المريد من ذاته لا يكون مرضياً أمام الله حتى ولو بدا أنّه حسن. فإذا عرف شخص ما الأشياءَ المفيدة لنفسه أفضل من أبيه الروحي. فلماذا يدعى تلميذه ؟

المريد يطيع في كلّ شيء. لا يهتم هو بخلاص نفسه بل يهتم لأجله ذاك الذي أخضع له ذاته وسلمها. وكل من يردع إرادته في شيء بينما لا يرفضها في شيء آخر، هذا يفعل إرادته مع أنه بدا وكأنه قد رفضها ظاهرياً. إن الذي يريد أن يعرف الطريق جيّداً، ولكنه يسير دون قائد يعرفه جيداً، لا يصل أبداً إلى مدينة الهدوء الكامل. أنكر مشيئتك أولاً وجاهد لأجل التواضع في كل حياتك وعند ذلك ستخلص. إنّ التواضع والطاعة يمحوان كل الآلام ويزرعان كل الفضائل.

يستحسن أن يميت المريد كل آلامه في هذه الحياة .ولكي يحصل على الأبدية يجب أن يكون كالصوف في المعمل، حسب قول القديس أنطيوخوس. فالصبّاغ يضرب الصوف ويغسله ويمشطه، وهكذا يجعله أبيض كالثلج، الشيء نفسه عندما يصبر المريد على التواضع والشتائم والأحزان يصبح كالفضة التي تلمع في النار.

يجب أن لا تنشغل بأعمال رئيس الدير ولا تدنه، وإلا فإنك تحزن عطية الله الذي منه تعطى السلطات «ليس من سلطان إلا من الله. والسلطات القائمة هي مرتبة من الله». (رو ١٣: ١) ويجب أن لا تعارض نصيحة رئيس الدير كي لا تخطئ وتجلب عليك عقوبة الله العادلة. «إن كل من يقاوم السلطات يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة» (رومية ١٣: ١-٢). «والطائع يتقدَّم بسرعة في بناء نفسه وفوق ذلك يمتلك فهماً للأشياء ويدخل في الورع ».

الكثيرون من المبتدئين كانوا يسألون الأب سيرافيم كيف سيخلصون؟. قال البار: «بما أنك أتيت إلى الدير فهذا عمل الله مهما كان سببه وبأية طريقة حدث هذا، وإذا حفظت ما سأقوله لك ستخلص أنت وأهل بيتك الذين تصلي لأجلهم».

لم أر صديقاً متروكاً، يقول النبي، ولا ذرّيته تطلب خبزاً / مز ٣٦: ٢٥ /. وراقب هذه الأشياء خلال عيشك في الدير. عندما تكون في الكنيسة انتبه لكلّ الصّلاة دون تهاون وتعلّم جيداً الترتيب الكنسي، الغروب، السحر، صلاة النوم، نصف الليل والساعات.

وعندما توجد في قلايتك بلا عمل يدوي ركِّز على قراءة المزامير بشكل خاص. واقرأ كل قطعة عدَّة مرّات حتى تحفظها في ذهنك. وإذا كان عندك عمل يدوي اشتغل به وإذا نادوك للخدمة اذهب.

خلال قيامك بالعمل اليدوي أو أيّة خدمة أخرى فلتصلِّ بلا انقطاع. «أيّها الرب يسوع المسيح يا بن الله ارحمني أنا الخاطئ». «انتبه لذاتك أثناء الصلاة». أي اهتم بأن تجمع ذهنك وأن تصلهُ بقلبك. في البدء قل

هذه الصلاة مرّتين أو مرّات عديدة بتوقد ذهن، منتبهاً لكلّ كلمة. بعد ذلك عندما يدفئ قلبك بحرارة نعمته ويوحدها معك ستجري الصلاة في داخلك بلا انقطاع.

ستجعلك عذباً وستغذيك. وبما أنك تجعل هذه التغذية وهذا الحديث مع الربّ بستانك، فلماذا تذهب إلى قلاية الأخوة حتى ولو دعوك ؟ الحق أقول لك إن الكلام البطال هو إنكار.

إذا لم يكن بإمكانك أن تميّز ما يجب أن تعلّم الآخرين فعليك أن تصمت. واصمت دائماً وتذكر دائماً حضور الله واسمه، ولا تفتح حديثاً مع أحد، ولا تدن الذين يهزؤون أو يضحكون. وفي هذه الحالة عليك أن تكون أخرس أطرش.

ومهما قالوا عنك فلا تعطِ انتباهاً. وخذ لك مثالاً البار استيفانوس الحديث. فصلاته كانت لا تنقطع وخلقه متواضع وشفتاه مطبقتين وقلبه منسحق وعقله متوقد. كان يمتلك جسداً طاهراً ونفساً نقية ويتوليّة لم تلوث وفقراً حقيقياً وعزوفاً عن التملك، ونسكاً وطاعة هائلة وخضوعاً حذراً، وكان يعمل بصبرٍ ورغبة.

عندما تجلس إلى المائدة فلا تراقب ماذا يأكل كل واحد، ولكن راقب نفسك مغذياً إيّاها بالصلاة. تناول الطعام عند الظهيرة بشكل كافٍ. وتعفف على العشاء. كلْ مرة واحدة يوم الجمعة ويوم الأربعاء إذا استطعت.

نمْ في الليل أربع ساعات على أقل تعديل من العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة حتى الثانية بعد منتصف الليل. وإذا شعرت بتعب نم قليلاً عند الظهيرة وحافظ على هذا طيلة حياتك فإنّه ضروري لهدوء ذهنك. وهذا ما تبعته أنا منذ سني حداثتي. على كلّ حال إننا نستعطف الله لكي يعطينا الراحة في ساعات الليل وإذا عوّدت نفسك على ذلك فلن تملّ بل ستكون يقظاً وفرحاً.

بالحقيقة أقول لك بمسيرة كهذه ستبقى في الدير طيلة حياتك. كن

سلامياً والربّ سيساعدك «يخرج مثل النور برّك وحقك كالظهيرة». (مز ٣٦: ٦) «ويضيء نورك أمام الناس» / متى ٥: ١٦ /. ٦كان الراهب كبريانوس منزعجاً من عبء خدمة أوكلت إليه فذهب طالباً نصيحة البار، ولم يكد يصل إلى باب القلاية حتى ابتدره على الباب قائلاً: «يا فرحي لا يوجد طريقة لترفض بها الطاعة».

ومرّة ذهب إليه راهب من دير بعيد وكان الأب يعمل إذ ذاك بالقرب من البئر فصنع له الراهب سجدة وطلب بركته، ولكن البار إذ كان منشغلاً لم يعره انتباهاً، وبقي الراهب صامتاً ثمّ غادر من دون أيّة تعزية. بعد ذلك اقترب الأب سيرافيم من إحدى راهبات دير ديفاييفو، التي كانت تعمل قريباً من هناك وقال لها: «أيتها الأخت، ها إنه يطلب بركة، وهو لا يعرف لأي غرض».

فهم الراهب من تصرف البار أنّه قد تصرّف بلا تعقل وبلا تفكّرٍ ولهذا لم يأخذ البركة.

تعاليم للعلمانيين

في الوقت ذاته، مع تعليم الرهبان، علّم الأب سيرافيم العلمانيين أيضاً. فأصلح مواقفهم وشددهم في أسس الحياة المسيحية. مرّة قاد أحد الاكليريكيين الأتقياء إنساناً متعلماً ويدرّسُ في أحد السمينارات اللاهوتية. هذا الأستاذ لم يذهب ليسمع الستارتس، بل على الأغلب لكي ينال بركته مع إمكانية اعتناقه للحياة الرهبانية. باركه البار بحسب العادة الكهنوتية ولم يقل له شيئاً فيما يخصّ الرهبنة بل ابتدأ يتكلّم مع الكاهن. فوقف الأستاذ إلى جانبهم متابعاً الحديث. وحاول الكاهن مرّات عديدة أن يحوّلَ الكلام حول الموضوع الذي من أجله جاء صديقه المثقف، ولكن الشيخ لم يعر الأستاذ اهتماماً قط. وفي لحظة رمقه بنظرة ثمّ سأل: هل يحتاج أن يتعلّم شيئاً آخر أيضاً ؟.

أضاف الكاهن قائلاً: إن صديقي يعرف الإيمان الأرثوذكسي، إنّه أستاذ سمينار لاهوت ويرغب بحل بعض التساؤلات الداخلية عنده حول الرهبنة.

أكمل البار: وأنا أعرف أنه حاذق بصياغة العظات. إن تعليم الآخرين هو كَرَمْيِ الحجارة من قبة الأجراس، ولكن أن تطبّق كل ما تعلّمه يشبه رفعك الحجارة إلى هناك. بهذا المقدار يختلف التعليم عن التطبيق.

وتوجه إلى الأستاذ وأكمل قائلاً: ادرس حياة القديس يوحنا الدمشقي وهناك ستجد ما الذي يجب أن تتعلّمه أيضاً.

في ١٨ تموز ١٨٣١م زاره إيفان مكسيموفيتش مع زوجته كريندیتسكي. يخبر ايفان قائلاً: وجدنا الستارتس يعمل بين الكرّاث فصنعنا له سجدة حتى الأرض. وبعد أن باركنا، وضع يده على رأسي، وبدأ يرتل طروبارية رقاد العذراء:«في ميلادك حفظت البتولية». ثم جلس بين الخضار وقال لنا أن نعمل الشيء نفسه أمّا نحن فسجدنا أمامه وسمعنا تعليمه. حدّثنا عن الحياة المقبلة وعن حياة القديسين وعن حماية ودفاع واهتمام العذراء لأجلنا نحن الخطأة. وقال لنا ما المهم أن نشتغل به لأجل الأبدية.

طال الحديث مدّة ساعة، ولكن هذه الساعة لا تقارن بكل حياتي السابقة. شعرت في قلبي بحلاوة سماوية لا تفسّر. الله وحده يعرف كيف تدفّقت هناك ولا شيء على الأرض يشبهها. وحتى اليوم عندما أتذكّرها تمتلئ عيناي بدموع الورع ويتهلل كلّ وجودي. وبالرغم من أنني لم أكن ملحداً، لم يكن إيماني حاراً. وكنت غير مبالٍ بخصوص الروحانيّات، لكن الأب سيرافيم جعلني أتذوّق لأوّل مرّة الربَّ الكلي القدرة وحنانه وكماله الذي لا ينضب.

حتى ذلك الوقت كانت نفسي باردة، وأعجبني أن أتلهى بأقوال التجديف ولهذا سمح الرب بأن يسود عليَّ روح التجديف الوسخ، فحاصرتني أفكار التجديف طيلة ثلاثة أعوام وخاصة ساعة الصلاة داخل الكنيسة، وبالأكثر عندما كنت أصلي إلى والدة الإله، وكنت أتفكّر فوق كلّ جهلي أنّه لا يمكن لأي عذاب أرضيٍّ أن يكفي لعقوبتي. فقط العذابات في الجحيم يمكنها أن تكون على مقدار تجديفي.

هدّأني. وقال لي: لا تخف من هذا الاضطراب العقلي ،من المحتمل أن يكون عملاً حسوداً من أعمال العدو. ومهما هاجمتك الأفكار التجديفيَّة الوسخة عليك أن تكمل صلاتك بلا خوف. ومن ذلك الحين أخذت تلك التجربة تتراجع شيئاً فشيئاً وتلاشت خلال شهر.

مرَّة زاره أربعة من المؤمنين القدماء من قرية بافلوف من محافظة غورباتوف. وأرادوا أن يسألوه إذا كان من الصحيح أن يرسموا إشارة الصليب بالإصبعين. وكانوا جاهزين لتقبل فكرته إذا كان ذلك سيترافق بعجيبة أو علامة ما. وحالما عبروا باب القلاية الخارجي وقبل أن يتفوّهوا بكلمة اقترب من الأوّل وأمسك بيده اليمنى ووحّد أصابعه الثلاثة بحسب الطريقة الأرثوذكسية وبعد أن رسم عليه إشارة الصليب قال له: هكذا تصنع إشارة الصليب! وهكذا صلِّ وعلّمه للآخرين. بهذه الطريقة حددت علامة الصليب من الرسل أنفسهم وأما أن ترسمه بالإصبعين فهذا ضد القوانين المقدّسة. أتضرّع إليكم وأصليّ أن تنضموا إلى الكنيسة الأرثوذكسية. إنها تملك كلَّ القوة ومجدَ الله وتقاد من الروح القدس كسفينة لها دفة متينة، وأشرعة ومراس، والقابضون على دفتها هم المعلمون الماهرون الكنسيون، وأما رؤساء الكهنة فهم خلفاء الرسل. أما سفينتكم فتشبه قارباً صغيراً دون مقود وهي متعبة. وهي مرتبطة بكنيستنا بواسطة حبال تنسحب وراءها وتلطم من الأمواج. بكل تأكيد لو لم تكن مربوطة بالمركب لغرقت.

ومرَّة أخرى جاءه إنسان من المؤمنين القدماء وسأله قل لي يا رجل الله! أي إيمان هو الأحسن، الذي في هذه الكنيسة أم في الكنيسة القديمة؟.

فأجابه اترك هذه التّرهات. إنَّ حياتنا هي البحر والكنيسة الأرثوذكسية المقدسة هي السفينة، وماسك دفتها هو المسيح ذاته. وبالرغم من أنه لنا مثل هذا الربّان فالمؤمنون بسبب خطاياهم وضعفهم يبحرون مكابدين في بحر الحياة ولا ينجون جميعاً من الغرق. كيف إذاً ستخلص أنت بقارب صغير؟ أين تدعّم أملك بخلاصك بما أنك لا تملك

ربّاناً ؟.

مرَّة في الشتاء جاءوا إليه بامرأةٍ مريضةٍ وتركوها في البهو أمام قلايته حيث كان مجتمعاً عدد من الزائرين. فطلب أن يضعوها أمامه وكان جسدها مجمَّعاً بعضه إلى بعض وركبتاها قد التصقتا بصدرها، فأغلق الباب وسألها. من أين أنتِ يا سيدتي ؟

من منطقة فلاديمير.

هل أنت مريضة منذ زمن طويل ؟

ثلاث سنوات ونصف.

وما سبب مرضك ؟

فيما مضى يا أبت كنت أرثوذكسيَّة ولكنهم زوَّجوني بشخص من المؤمنين القدماء ولمدّة طويلة لم أدخل في إيمانهم، وكانت كلُّ الأمور على ما يرام. في النهاية أقنعوني فابتدأت أرسم الصليب بإصبعين، وأنا لا أذهب إلى الكنيسة، وفي إحدى الليالي خرجت إلى حديقة المنزل. فوجدت أمامي حيواناً يقذف ناراً وشعرت أن ناره تحرقني. وبسبب الخوف سقطت أرضاً وابتدأت أرتجف ولما مضى وقت طويل ولم أعد إلى المنزل قلق أهلي،فبحثوا عنيّ فوجدوني مستلقية في الحديقة، وحملوني إلى الغرفة، ومنذ ذلك الوقت وأنا مريضة.

أفهم، قال الأب. وهل تؤمنين ثانية بالكنيسة الأرثوذكسيَّة المقدّسة.

أومن، يا أبتِ.

مباشرة جمع البار أصابعه بالطريقة الأرثوذكسية ورسم علامة الصليب وقال: اصنعي أنتِ أيضاً علامة الصليب بالطريقة ذاتها باسم الثالوث القدوس.

بكل سرور يا أبتِ ولكني لا أستحكم بيديَّ.

فأخذ زيتاً من قنديل السيدة العذراء ودهن يديّ المريضة وصدرها، فابتدأت تتحرك فجأة. وبعد فترة وجيزة تعافت تماماً، والشعب الواقف في غرفة الاستقبال رأى العجيبة ونشرها في الدير وخاصَّة في قسم

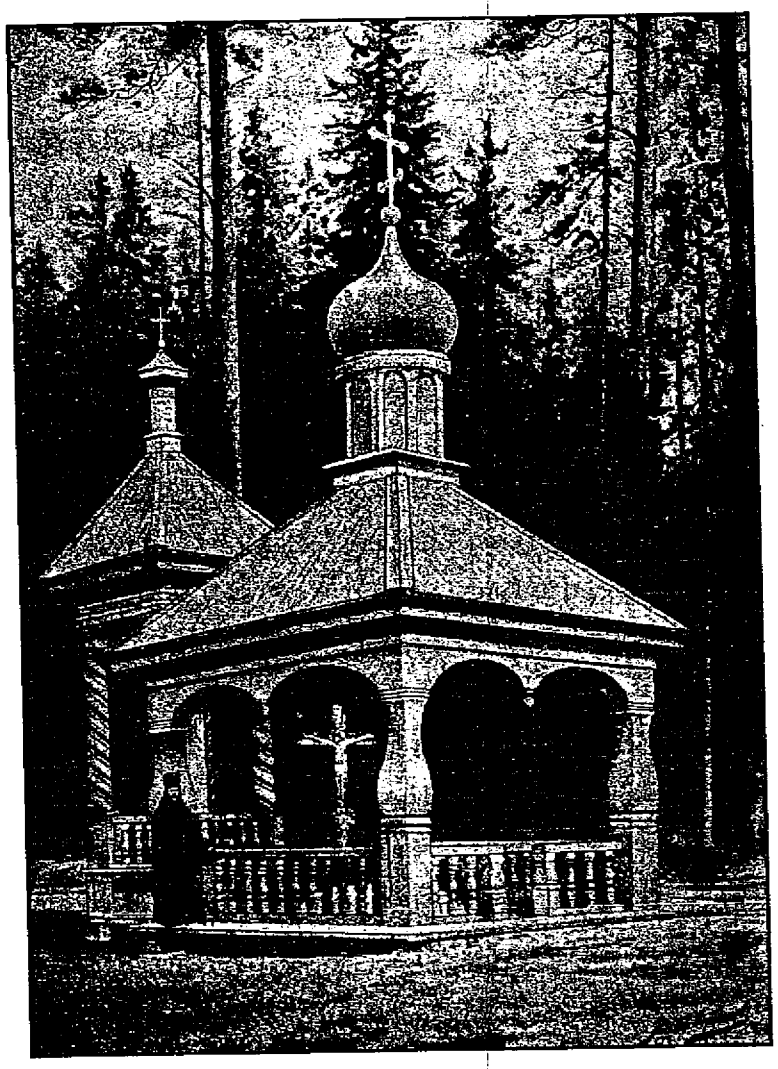

الكنيسة في مكان صلاته مدة ألف يوم

الضيافة.

بعد أن هدأت الأمور جاءت إليه أخت من ديفاييفو. قال الأب: يا أختي لم يشفِ المريضة الوضيعُ سيرافيم بل ملكة السموات.

وبعد ذلك سألها. هل يوجد أناس في عائلتك لا يذهبون إلى الكنيسة؟

لا يا أبتِ ولكن والديَّ وكل عائلتي يرسمون علامة الصليب بالإصبعين.

قولي لهم عني أن يوحِّدوا الأصابع الثلاثة باسم الثالوث الأقدس.

لقد كلمتهم كثيراً بهذا الخصوص ولكنهم لم يستمعوا إليّ.

الآن سيستمعون إليكِ. اطلبي ذلك باسمي وبدءاً من أخيكِ الذي يحبني فهو أول من سيقبل مني ذلك. يا ترى هل لك أقرباء متوفون رسموا الصليب بالإصبعين ؟.

إنه لشيء محزن. الجميع في عائلتنا رسموا الصليب بهذه الطريقة.

تفكّر البار قليلاً ثم أكمل. ولو كانوا أخياراً إلا أنهم سيعاقبون لأجل ذلك. إنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة لا تقبل رسم الصليب بهذه الطريقة. هل تعرفين قبورهم ؟

اذنْ يا أختي ستذهبين إلى القبور وستصنعين ثلاث مطانيات أمام قبر كلّ واحد وستصلّين إلى الرب أن يغفر للأموات في الأبدية.

صنعت الراهبة للأموات ما قاله الأب سيرافيم، وبعد ذلك نقلت إلى الأحياء وصيّته . فأطاعوها بدقة لأنهم يعرفون أنه عبد الله الذي يدرك أسرار الإيمان.

اهتم الأب سيرافيم كثيراً برسم علامة الصليب بشكل صحيح وآمن جداً بقوته العظيمة.

مرَّة جاء أحد القرويين من قرية أرداتوف إلى الدير لكي يتبرَّك، وقبل أن يتحرَّك صَدَمَ رأسه بقوة مما أفقده الذاكرة. في هذه الحالة أخذوه إلى ساروف. وفي الدير قاده أحد مواطنيه من الرهبان إلى البار.

حدّث المريض بعد ذلك قائلاً: بينما كنت أقترب من قلاية الستارتس ابتدأت أشعر بتحسّن وابتدأ عمل الذاكرة والإدراك يعود شيئاً فشيئاً. أتذكر كل ما قاله وصنعه لي في تلك الساعة. لقد باركني أولاً ورسم على جبهتي علامة الصليب من الزيت الذي في القنديل. ثمَّ أعطاني خبزاً جافاً وأخيراً دلّني كيف أصنع علامة الصليب بالأصابع الثلاث وقال لي: «إن الله رحيم. صلِّ إليه هكذا ومع الوقت ستعود كلّ الأمور كما كانت. بالحقيقة بعد زمن قصير من عودتي إلى البيت تعافيت تماماً بصلوات عبد الله الأب سيرافيم».

كان البار دائماً يجذب الخطأة إلى التوبة بنظرة واحدة وكلمة بسيطة. وبعد ذلك كانوا يقرّرون أن ينهضوا من سقطاتهم. حاول أحد القرويين الموجودين بين الجمع، مرّات عديدة، أن يقترب منه، وفي كلّ مرّة كان يفشل في محاولته، وكأن أحداً ما كان يدفعه إلى الوراء. وأخيراً سأله الستارتس بقسوة: إلى أين أنت قادم ؟

هذا القول جعل القروي يضطرب، ويتواضع عميق أخذ يعترف بخطاياه بشدة أمام الجميع.

قال: أعرف أنني لست مستحقاً أن أظهر أمام مثل هذا الكوكب المنير. لقد كان لهذا التصرّف البسيط من قبل القروي ثمار عظيمة.

حدَّث إيفان باكوفليتس كارتايف : أنه سنة ١٨٣٠م في شهر تشرين الأول، قد أرسل من منطقة كورسك إلى المكان الذي خيَّم فيه فيلقه إلى أن يتم إعداد فرقة الخيّالة. قال: كان طريقي يمرّ بالقرب من ساروف. في كورسك، وفي الطريق سمعت الكثير عن جهادات آباء بريَّة ساروف، نزاريوس، مرقص، وآخرين. وأكثر من سمعت عنه الحبيس الأب سيرافيم وعن حياته المقدسة وعن فراسته الصائبة، وموهبة شفاء كل أنواع الأمراض الجسديّة والنفسيَّة مع موهبته النبويَّة .

ألهبت هذه القصص قلبي إلى درجة كبيرة فقررت أن أزور دير ساروف دون تأجيل، ولكنني خفت أن يكتشف الأب سيرافيم خطاياي

وعلى الأخص أن يبكتني على أفكاري فيما يخصّ الأيقونات المقدّسة. لقد آمنت أن أيقونة مصنوعة من يد إنسان قد يكون خاطئاً لا يمكن أن تكون مرضية للرب. وبالتالي لا تسكن فيها النعمة الإلهية ، وبالتالي لا يمكن أن تكون موضع احترام وعبادة.

وخضعت لخوف الرقابة وعبرت دير ساروف. ولكن في آذار من نفس العام تلقيت أمراً للعودة إلى فيلقي. في هذه المرّة قررت أن أذهب إلى الدير، وتوجهت إلى قسم الضيافة، ومن هناك إلى قلاية الستارتس. والخوف الذي كان يجرّبني تحوّل إلى فرح هادئ، وأحببت الأب سيرافيم من غير أن أعرفه.

أناس كثيرون كانوا في الخارج ينتظرون، لنيل بركته. وبينما كان الستارتس يباركهم. نظر إليّ وأشار نحوي بيده لأقترب. فتقدّمت بخوف ومحبّة. وصنعت له مطانية وطلبت بركته للطريق وللحرب القادمة وصلاته لكي أحيا. فباركني بصليبه النحاسي الذي كان يضعه على صدره وقبّلت الصليب، وابتدأ يعرّفني مظهراً بذاته خطاياي.

وعندما انتهى الاعتراف المعزي قال لي: «يجب أن لا نخضع للخوف الذي يفرضه الشيطان في سني حداثتنا. بل علينا حينئذ أن نكون يقظين بشكل متميّز، وبعدما نطرد صِغرَ النفس علينا أن نتذكر،أنه بالرغم من كوننا خطأة، فكلّنا تحت نعمة المخلص الذي دون إرادته لا يمكن أن تسقط شعرة واحدة من رؤوسنا».

بعد ذلك بدأ يتكلّم عن ضلالي فيما يخص إكرام الأيقونات. «كم هو مضرّ أن نهمل أسرار الله التي لا يسعها العقل البشري الضعيف ! كيف تعمل إرادة الله في الأيقونات المقدّسة، وكيف تشفي الخطأة مثلي ومثلك ليس فقط بالجسد ولكن روحياً. لأن الخطأة بإيمانهم بنعمة الله الحالّة فيهم يخلصون ويدخلون في ملكوت السموات».

بعد ذلك لكي يشددني في احترام الأيقونات قال التالي « يرد في الكتاب المقدّس أنه كان في تابوت العهد ،الشاروبيم الذهبيّة. وأنّ

الإنجيلي لوقا رسم هيئة أمّ الله ».

وفي النهاية إن الرب نفسه ترك لنا صورته غير المصنوعة بيد. قال لي: يجب أن لا تعطي أهميّة لأفكار التجديف، ففي يوم الربّ الرهيب ينتظر روحَ الكذبِ ومشاركيه عقابٌ أبديٌّ.

قال لي أشياء كثيرة تخصُّ خلاص النفس ولكن لا أذكرها كلها «إن تجارب الشيطان، قال مشدداً، تشبه خيوط العنكبوت التي حالما تهب الريح تنقطع. ويكفي أن نصنع إشارة الصليب لتختفي كمائن الشيطان. كلّ القديسين صبروا على التجارب. وكلما طالت مدّة بقاء الذهب في النار يصبح أكثر نقاءً. الشيء ذاته يحدث مع القديسين، إذ بالتجارب يصبحون أكثر خبرة. وبالصبر يخففون غضب الله العادل ويصبحون أصدقاء المسيح الذي لأجل اسمه ولأجل محبته صبروا مرّاتٍ كثيرة». كرر البار ما يلي: «بحسب تعاليم المخلص، الطريق الضيّق أفضل لنا لندخل إلى ملكوت الله».

المدّة التي كنت أستمع فيها للبار كنت قد نسيت وجودي الأرضي. واستحقّ الجنود الذين حضروا معي أيضاً أن يأخذوا بركته. وبعد أن حدّثهم بخصوص الحرب تنبأ لهم أنه لن يقتَل منهم أحد في المعركة. وبالحقيقة ليس أنهم لم يقتلوا حتى ولم يجرحوا.

قبل رحيلي تركت عنده ثلاثة روبلات فضة لأجل الشمع. ولكنّ الشيطان أراد أن يشوّش ضميري ووشوش لي «لماذا تركت المال عند الأب القديس؟» وعدت إلى الستارتس لأطلب المغفرة، ولكنّ الله عاقبني على هذا التعاون مع الشرير. فبالرغم من أنني كنت بالقرب من قلاية الأب سيرافيم فلم أتعرّف إليه. فاضطررت أن أسأل أحد الرهبان الذي كان جالساً هناك فدلّني عليه الراهب متعجباً. قلت الصلاة ودخلت فأسرع الستارتس وقال لي «في الحرب مع الفرنسيين قارب أحد القواد أن يخسر يده اليمنى، ولكنّ يدَه هذه كانت قد قدّمت لأحدّ النساك ثلاث قطع نقديّة لأجل بناء كنيسة معيّنة، ولأجل صلوات الكنيسة أنقذه الله. افهم هذا جيداً ولا تندم فيما بعد على أعمالك الصالحة، إن أموالك ستذهب لأجل بناء دير ديفاييفو لأجل صحتك.

بعد ذلك عرَّفني من جديد وأعطاني قطعاً من القربان لآكلها، وأن أشرب ماءً مقدَّساً، وبعد أن رشني بالماء المقدس صلى «ليذهب بنعمة الله الروح الشرير الذي دخل في عبد الله ايفان هذا». ثمَّ أعطاني كعكاً يابساً لأجل الطريق وماءً مقدساً وقربانة وضعها الستارتس بيده في حقيبتي، فأخذت بركته للمرّة الأخيرة وطلبت منه أن يذكرني في صلواته قال لي «ضع رجاءَكَ على الربّ، اطلب عونه وحاول أن تسامح قريبك وبعد ذلك كل ما تطلبه يعطيه لك ».

خلال فترة الحرب ضد البولونيين اشتركت في الكثير من المعارك، ولكن الربّ حفظني لأجل صلوات عبده الصدِّيق.

مرة جاء القائد بولص ياكوفليتس كبرياتوف إلى البار وشكره على صلواته وقال له: «بصلواتكم نجوت خلال الحرب مع الأتراك، إذ كنت محاصراً من قبل مجموعات كثيرة من جنود العدو، وكنت أنا ومعي جنديٌّ واحد فقط من رجالي، ولم أكن أتوقع مساعدات، ولم يكن بامكاني أن أتحرك إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولم يكن لدي أي أمل بالخلاص، وكنت أصرخ دائماً بلا انقطاع "يا ربّ ارحم بصلوات الأب سيرافيم" ثم أكلت الخبزات الجافّة التي أعطيتموني إياها وشربت من الماء المقدَّس وحفظني الله سالماً من الأعداء».

قال البار: «إنّ الإيمان واسطة عظيمة للخلاص، وخاصة الصلاة الدائمة. ومثالنا في ذلك النبي موسى ،الذي بالرغم من أنه كان في المعركة يصلي في قلبه بصمت سمع الربّ يسأله «موسى موسى، لماذا تصرخ إليَّ هكذا ». وطيلة المدة التي بقي فيها موسى رافعاً يديه في حالة صلاة كان ينتصر على عماليق» فها هي إذاً الصلاة إنها النصر الدائم «من الأفضل أن أموت من أن أترك الصلاة ولو للحظة واحدة» قال: وبقوّتها «سدَّ النبي دانيال أفواه الأسود بينما الفتية الثلاثة أخمدوا بها نار الأتون».

في اللحظة التي كان الستارتس يتكلّم بهذا اقترب منه مدنيّان.

والتفت إلى واحد منهم وقال له: وعملنا نحن كما هو عملكم أنّ نعلّم الأطفال أيضاً. نعم إنه كذلك. أجاب ذاك وهو في حال ذهول، إنني كاهن

من الكنيسة الغربيَّة.

بعد هذا الحديث تعهد الكاهن الكاثوليكي أن يصبح أرثوذكسياً وكما يذكرون فقد صار أرثوذكسياً.

أراد الأمير نيقولاوس نيقولايفتس أن يأخذ بركة البار وهو في طريقه من موسكو إلى بيتروبوليس. وجاء إلى دير ساروف، ولكنَّه لم يجده هناك، فاتجه نحو البريَّة. وبعد أن قطع نصف فرسخ بعيداً عن الدير رآه قادماً إليه ففرح جداً، واقترب منه وطلب بركته.

من أنت ؟ سأل الاب.

مسافر، أجابه إذ لم يرد أن يظهر شخصيَّته.

عند ذلك عانقه البار بكل محبة وصداقة وسلَّم عليه مصافحاً وقال له: المسيح قام ! هل تقرأ الإنجيل المقدّس ؟

نعم إنني أقرؤه.

اقرأ بقدر ما تستطيع بشكل مستمر هذا النص من الكتاب الإلهي تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني فإني وديع ومتواضع القلب فتجدون راحة لنفوسكم /متى ١١: ٢٨–٣٠ /.

وبينما كان يقول هذا عانق الأمير ثانية، وتحادث معه طيلة الطريق، وحدّثه عن حياته المستقبلية والأتعاب التي ستحدث له، والتي تحققت كلّها في وقتها. وعندما وصلا إلى الدير قاده إلى قلايته وأعطاه ماءً مقدّساً، وملأ له كفه من الخبز الجاف، وفي ساعة مغادرته سألَ الزائرَ، هل ستمكثون طويلاً في الدير؟

لا، أفكر أن أرحل عند الصباح بعد القداس الإلهي.

أريد أن أراك أيضاً قبل أن ترحل، لأنني أحببتك، قال له الستارتس بحنان كبير، ولأجلك لن أذهب غداً إلى البرية بل سأبقى في الدير.

في اليوم التالي خرج وانتظر الأمير في بهو قلايته. وبعد أن باركه عانقه وقاده إلى الداخل، وأعطاه ثانية ماءً مقدساً وخبزاً مجففاً وذكّره أن يدرس كثيراً ذلك المقطع الإنجيلي، ونصحه بدراسة دستور الإيمان وخاصة المقطع «والحياة في الدهر الأتي آمين». ثم باركه للطريق.

للأسف لم نستطع الحصول على بقيَّة الأحاديث مع الأمير والتي نفعته كثيراً وعزته. وبقيت بالنسبة لنا غير معروفة.

كان الأب سيرافيم يحترم الوالدين كثيراً حتى ولو كانوا في حالة ضعف مهين. مرّة ذهب إليه أحد الزوّار برفقة والدته التي كانت معتادة على السكر. أراد الابن أن يتحدّث إلى الستارتس حول هذا الضعف. فوضع البار يدَه على فمه ورمقه بنظرة قاسية ولم يتركه ينطق بكلمة. قال له: بحسب تعليم كنيستنا، علينا أن لا ندين الوالدين لأجل نواقصهم بل لنحترمْهم ونحبَّهم. ثمَّ استدار نحو الأم وقال لها أن تفتح فمها ولما فتحته، نفخ فيه ثلاث مرّات. وفي ساعة رحيلهم أضاف انظروا ماذا لدي لأقول لكم: «لا تتركوا في بيتكم ولا نقطة نبيذ ولا وعاء نبيذ (وانتبه إلى الأم) لأنك لن تستطيعي مقاومة الشهوة».

ذهب إلى البار بعض ممن أرادوا إجراء أحاديث معه وليس لنفعهم الروحي بل ليشبعوا فضولهم.

قال له واحد من الزوار: عندي فكره أنّ نهاية العالم تقترب، وكذلك اليوم العظيم يوم الحضور الثاني.

إن لديك رأياً عظيماً في الوضيع سيرافيم، أجاب البار. هل أستطيع أن أعرف متى تأتي نهاية العالم، وتلك الساعة العظيمة، التي فيها سيدين السيّد الأحياء والأموات وسيعطي لكل واحد حسب أعماله؟ لا، هذا لا أستطيع أن أعرفه.

سقط الزائر على وجهه من الخوف أمام أقدام الستارتس، فأقامه بلطف وأضاف:إن الرب قد قال بشفتيه الأبديَّتين: «أما ذلك اليوم وتلك الساعة لا يعرفها أحد حتى ولا ملائكة السموات إلا أبي فقط، وكما كانوا في أيام نوح هكذا يكون حضور ابن الإنسان. وكما كانوا في زمن ما قبل الطوفان يأكلون ويشربون يزوِّجون ويتزوَّجون حتى اليوم الذي جاء فيه الطوفان وأهلك الجميع، هكذا يكون حضور ابن الإنسان» (مت ٢٤: ٣٦ – ٣٩).

هنا تنهَّد الستارتس بعمق ثم أكمل: نحن الذين نعيش على الأرض قد تحولنا كثيراً عن طريق الخلاص، نغضب الربّ جداً بإهمالنا للأصوام

المقدَّسة. والآن يحلّ المسيحيون أكل اللحم في الصوم الكبير ولا يحافظون على صوم الأربعاء والجمعة أيضاً. والكنيسة قد وضعت قانوناً «أن الذين لا يحافظون على الأصوام المقدسة وصوم الأربعاء والجمعة كل العام يرتكبون خطأ عظيماً. إلا إذا تبنا، عند ذلك يرحمنا الرب. عندنا الإيمان الأرثوذكسي والكنيسة التي بلا عيب. وبسبب هذين الشيئين ستبقى روسيا مجيدة ومخوفة من أعدائها دائماً ولا ينتصر عليها. وستملك الإيمان والتقوى كراية والحقيقة كدرع. وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» انظر (مت ١٦: ١٨).

قال له أحد الأخوة: ماذا تعلمهم جميعاً ؟ إذ رآه مكرّساً لتعليم الآخرين.

أجاب الستارتس أتبع تعليم الكنيسة التي ترنم «لا تَخْفِ كلمة الله وأَعْلِنْ عجائبه» (غروب الثلاثاء العظيم).

وأيضاً أرسلوا ليسألوه: «لماذا تمسح كل الزائرين من زيت القنديل المشتعل أمام الأيقونة التي في قلايتك؟».

أجابهم: «إننا نقرأ في الكتاب المقدس أنّ الرسل كانوا يمسحون المرضى بالزيت. وكثيرون منهم كانوا يشفون». من نتبع ؟ إن لم يكن الرسل. لقد انتشرت هذه العادة منذ ذلك الوقت دون توقف لأن الممسوحين كانوا يشفون.

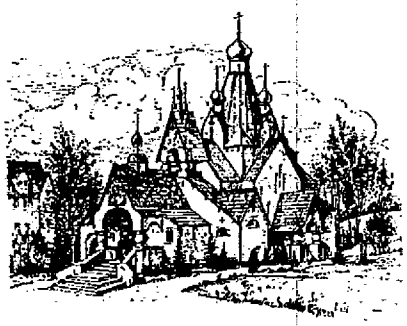

الفصل العاشر

مظاهر روحيـة

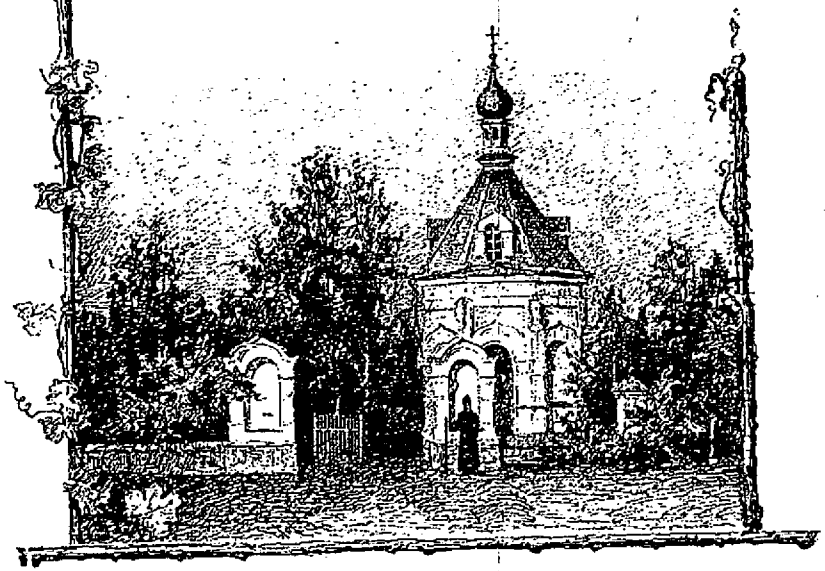

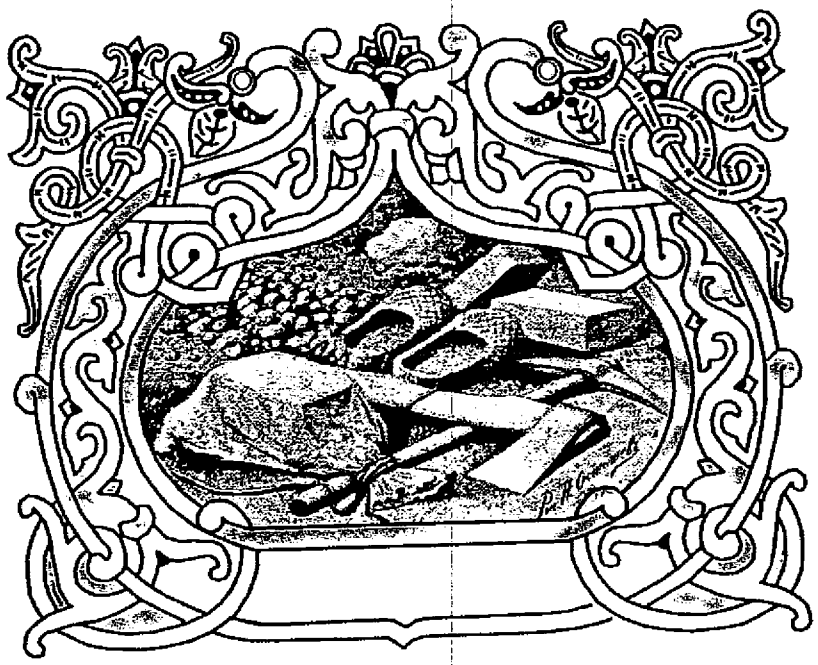

موهبة معرفة المستقبل

نال القديس نعمة قوية في معرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل.

جاءت إليه شابة زائرة لتسترشد بنصائحه كيف تخلص ولم تكن الحياة الرهبانية قد خطرت على بالها إطلاقاً.

وقبل أن تسأله قال لها: لا تقلقي لهذا كثيراً، عيشي كما تعيشين وسيرشدك الله إلى الباقي. بعد ذلك سجد أمامها حتى الأرض وقال: أرجوك لأجل شيء واحد، أن تقومي بكل عملٍ وحدك واحكمي باستقامة. وهكذا ستخلصين.

بدت أقوال القديس مستغربة بالنسبة للشابة أما هو فأكمل: عندما يأتي ذلك الوقت ستتذكرينني.

قالت الفتاة وهي مغادرة: من الممكن أن يسرَّ الله أن نلتقي ثانية.

أجاب البار: لا إننا ننفصل في هذه اللحظة إلى الأبد. ولهذا أطلب صلواتك المقدّسة.

وأنتم أيّها الأب صلّوا لأجلي.

سأصلي ولكن انطلقي الآن بسلام، لأنهم سيتذمّرون كثيراً.

بالفعل استقبلها رفاقها في بيت الضيافة متذمرين جداً من تأخّرها. صارت هذه الشابة راهبة باسم كاليستي. ولما صارت فيما بعد رئيسة دير زفيغياسكي في قازان، تذكّرت نصائح الأب سيرافيم ووجّهت حياتها بما يتفق وتلك النصائح.

مرَّة جاءت إليه فتاتان من بنات الأب استيفانوس كاهن دير ساروف، الروحيات. واحدة منهما كانت شابة من عائلة تجار. والأخرى أكبر منها بكثير ومن عائلة نبيلة. هذه منذ نعومة أظفارها كانت ملتهبة بمحبة الله وترغب أن تصبح راهبة. ولكن والديها مانعاها في ذلك. جاءت الاثنتان إليه لتأخذا بركته ولتسمعا نصائحه. طلبت منه الكبرى البركة لتصبح راهبة أما هو فنصحها بأن تتزوّج.

قال لها: إن الحياة الزوجيّة مباركة من الله ذاته. وما تحتاج إليه، أن يحافظ عليها بإيمان ومحبة وسلام من الطرفين. وستسعدين بالزواج. ولا تصلحين للحياة الرهبانيّة. إن الحياة الرهبانيّة صعبة. ولا يستطيع الجميع أن يعيشوها.

أما الشابة من العائلة التجاريّة فكانت تفكّر بصمت ولم تتفوَّه بكلمة عن الحياة الرهبانيّة. ولكنه أعطاها بركته لتصبح راهبة وحدد لها الدير أيضاً.

لم تخرج واحدة منهن مسرورة من هذا الحديث. واضطربت الكبرى جداً من نصائحه وبردت محبتها له. وقد تعجب مرشدهما الروحي الأب استيفانوس، ولم يستطع أن يفهم كيف أن الستارتس يحوّل عن الحياة الروحيّة شخصاً ولاسيما أنه ذو حماس وشخصية ناضجة بينما يوجّه

شخصاً يافعاً إليها بالرغم من أنه لا يشتهي حياة كهذه. أظهر الزمن صدق الأب سيرافيم، تزوجت الكبرى وعاشت سعيدة، بينما ذهبت الصغرى إلى الدير الذي حدده لها ، بموهبته النبويَّة .

اما ايلارخوس تيبلوف فقد اعتاد أن يزوره في كل عام.

في سنة ١٨٢٩م، حَدَّثَ، أنه ذهب إلى ساروف مع زوجته وأولاده، وفي الطريق كانت زوجته تتذمّر من أولادها الذين يقرؤون فقط الكتب الروحية ولا يتطلّعون إطلاقا لدروسهم أو لأية كتب علمية أو خارج هذا الإطار من الاهتمامات. وقالت هذا بشكل خاص عن ابنها الأكبر، ذي السنوات العشر تقريباً. ولم يكن مهتماً لأيِّ شيء آخر غير الكتب الدينية.

ولما وصلنا إلى ساروف ذهبنا دون توقف إلى البار الذي استقبلنا بفرح كبير. وبعد ان باركنا طلب منّا أن نقيم ثلاثة أيّام. ولما كان يبارك امرأتي (قال ايلارخوس) قال لها «يا سيّدتي لا تستعجلي لتعلّمي أولادك الفرنسيّة أو الألمانية. جهزي أولاً نفوسهم وما زاد على ذلك سيعطى لهم فيما بعد. ولما بارك ابني الكبير دعاه بـ(يا كنزي) وكان الستارتس طيلة حياته يخبرني عن حوادث عائلتي المستقبلية السعيدة منها، والمحزنة، وكان يقويني بنصائحه الأبوية ».

أكمل ايلارخوس قائلاً: في السنة ذاتها كنت حاضراً الحادث التالي:

جاء شخص كان يرغب بالزواج من شابة لا تليق به ولم يوافق أبواه على زواج كهذا. كان الشاب يعرف أن والديه يحترمان البار كثيراً ولا يمكن أن يخالفاه إذا أعطى موافقته. ولهذا أراد أن يريحه إلى جانبه. فجهَّز الحجج على صحة نيّته مع بعض المقاطع من الكتاب المقدّس لكي يقنعه إذا رأى منه ممانعة. وقبل أن يسأله عن الشخص الذي شغل اهتمامه، سمع البار يسمّيه له ويسمّي أباه. وبيّن له مقاطع الكتاب المقدّس التي حضّرها. سجد له الشاب مندهشاً من قوة موهبته في معرفة الخفيّات، فأنهضه وقال له: «لا يعجب مخططك لا الله ولا والدة الإله ولا والدتك ولهذا لن يتمَّ هذا الزواج. وبالحقيقة لم يتم الزواج. غادر الشاب القلاّية

بعد أن عاش ما لم يكن قد آمن به من قبل، أي أنه من الممكن أن يوجد على الأرض أبرار. وقد أقنعه الحدث بشكل قاطع بحياة الأب سيرافيم المقدّسة».

تحدَّث ايلارخوس أيضاً أنه كان علينا نذر في كل سنة أن نزور أحد الأديار في تشفين بسبب مرض كانت زوجتي تعاني منه في الماضي.

في سنة ١٨٣٠م وفي اليوم الذي قرّرنا فيه أن ننطلق سقطت امرأتي وهي تهبط السلم من الطابق الثاني وتحركت ركبتها من مكانها، وبمساعدة أحد الأطباء العمليين (الشعبيين) رجعت رجلها إلى وضعها. ولكن مع أقل حركة كانت الركبة تخرج من مكانها. وبالتالي لم يكن بالإمكان أن نغادر البيت. ولكن ثقتنا بصلوات الأب سيرافيم جعلتنا نحاول السفر.

برغم الشتاء تحركنا مباشرة، والألم يزداد في الطريق. وبالرغم من كل الثقة التي كنت أضعها في الأب سيرافيم اقترحت عليها مرّات عديدة أن نعود، لكنها لم تشأ، إذ كان عندنا منذ وقت طويل، مبدأ لا يتحوّل وهو أنه عندما نكون مسافرين بالقرب من ساروف كنّا نميل لنحصل على صلاته. وهكذا في هذه المرّة أيضاً، بالرغم من أن الطريق أمامنا كان طويلاً، ملِنا لنأخذ بركته. فبدأ ألم زوجتي يخف ونحن لم نزل بعيدين عن دير ساروف. ولما وصلنا توقّف الألم كلياً وثبتت الركبة في مكانها وزال الورم.

مثلنا أمامه وقال لنا بعد أن باركنا: أن نذهب إلى البريّة حيث منسكه عند البئر. وصلنا إلى هناك عند الظهر. فاستقبلنا بفرح عظيم، وقدَّم لنا ماء من النبع لنشرب. وأعطانا كيسين من الخبز للطريق وباركنا قائلاً: «انطلقوا. انطلقوا. إن الطريق سويّة». تذكرنا كلماته الأخيرة عندما كنا عائدين من تشفين. بالحقيقة كانت الطريق جيدة، فبالرغم من أننا كنا في شهر كانون الثاني لم يكن فيه ولا حفرة. فقد أصلحوها جيداً إذ كانوا يتوقعون أن يمرّ القيصر من هناك.

قالت أليصابات نيقولايفنا بوزخين: «سمعت عن قداسة وموهبة معرفة المستقبلات عند الأب الحبيس سيرافيم منذ أن كنت طفلة، وكنت أشتهي أن أراه وآخذ بركته. تحققت رغبتي سنة ١٨٣٠م».

فعندما كنت منطلقة إلى ساروف توقفت في بيت في قرية أرزاماس، وهناك أخبروني أنه إذا رغبت برؤية الستارتس يجب أن أكون في الدير يوم الأحد قبل نهاية القداس الأول. لأن البار بعد القداس الأول يغادر الدير إلى منسكه ولا يعود إليه إلا يوم الأربعاء.

كان الطقس ثقيلاً، وصحّتي معتلّة، ولم تكن لي القوّة لطلبه في منسكه، ولهذا تابعت سيري إلى ساروف من غير أن أرتاح في أرزاماس. كان السبت مساءً، سرتُ كل الليل وعند الصباح وصلت إلى الدير، ولما دخلت إلى المضافة سألت راهباً إذا كان القداس الإلهي الأول قد انتهى، ولما قال لي: إنّه قد انتهى، خاب أملي من لقاء الستارتس. ولكن الربّ أراد أن يهبني هذه التعزية، فانطلقت نحو قلايته حيث شاهدت جمعاً من الزائرين، وكان الباب مغلقاً من الداخل، ولا توجد علامة تدلّ على أنه موجود هناك. وكنا نريد أن نأخذ بركته ونسمع شيئاً مفيداً، ولم يتجرأ أحد على قول صلاة المناداة. وبالرغم من انّ بعضنا حاول ذلك بقي الباب مقفلاً.

وقفت ورائي سيدة ومعها طفلة فطلبتُ منها أن تدع الطفلة تقول الصلاة «بصلوات آبائنا القديسين». لأنها أكثر طهارة من الجميع. ولما تفوهت الطفلة بالصلاة فتح الباب، ولكننا حزنّا كثيراً عندما بدأ الباب يرتدُّ من جديد وكنت أقرب الجميع إليه.

فقدت الأمل وتضرعت إلى الرب سريّاً: «يارب إنني عديمة الاستحقاق أكثر من الجميع، لأنه لدى رؤيتي أغلق الباب». وحالما فكرت بذلك سمعت الستارتس من وراء الباب نصف المغلق، يقول لي:

اهدئي يا سيدتي اهدئي، انتظري قليلاً. من فضلك يا سيِّدتي قولي لي ماذا تريدين؟ ماذا تحتاجين؟.

جاوبته باكية لشدّة فرحي. أرغب بأخذ بركتكم وأن أطلب صلواتكم المقدّسة،

ليباركك الرب ولتكن نعمته معك، باركني، وأعطاني ثلاث قطع قربان.

وبعد ذلك بارك الجميع قائلاً لكل واحد على حدة: «اذهب بسلام» وأما ليّ فلم يقل شيئاً مثل ذلك، ولهذا انتظرت. ولما ذهب الجميع قال لي بحنو.

من فضلك يا سيّدة تعالي بعد الغروب.

ذهبت إلى قسم الضيافة وهناك قطّعت القربانات الثلاث إلى قطع أصغر إذ أردت لدى عودتي إلى البيت أن أوزّعها على كل الذين يحبون الأب سيرافيم، وانتظرت بصبر صلاة الغروب لكي أذهب ثانية إلى قلايته ولكي أقدّم له هديّتي وهي عبارة عن قطعة قماش. وكنت قد طلبت من أحد الأشخاص أن يشتري لي شمعاً وزيتاً ولكنه نسي. ولهذا فكرّت أن أقدّم له النقود مع قطعة القماش. وكنت قد سمعت أنه لا يأخذ من أحد شيئاً، فإذا لم يقبل شيئاً سأعطي القماش للدير وفي المرّة القادمة سأشتري له بالنقود زيتاً وشمعاً.

بعد الغروب وجدته في غرفة الانتظار أمام باب قلايته ساجداً بالقرب من تابوته وحالما رآني نهض بسرعة وقال لي:

من فضلك تعالي يا سيدتي.

وحالما سمعت كلماته المعزية هذه، قدمت له الهديّة بشيء من الرهبة ولكن بأمل.

يا أبتِ القديس اقبلوا مني هذا الثوب مع كل احترامي ومشاعري الحارة.

كم كان الفرح الذي شعرت به عظيماً عندما أخذ القماش من يدي وقال لي:

أشكرك يا سيدتي كلها مباركة في بيت الله ومرضيّة.

وتجرأت أن أقول: لم أتمكن من شراء الشمع والزيت لهذا اقبلوا مني النقود.

أخذ الستارتس النقود بشكر. وفيما بعد عندما قصصت فرحتي على أحد رهبان ساروف المدعو دمسكينوس تعجّب من التكرّم الاستثنائي الذي أبداه الستارتس نحوي.

حديثي السابق مع الستارتس خلق في داخلي الرغبة أن اعترف فقال لي الأب دمسكينوس إن شيئاً من هذا القبيل غير ممكن، ولكنني تضرّعت إلى الله الليل كلّه ليجعلني مستحقة له. فانطلقت عند الصباح إلى قلايته، ولما فتح لي تلميذه الباب وجدته في غرفة الانتظار ساجداً أمام تابوته (نعشه). فقادني إلى قلايته وطلب مني أن أرسم الصليب وأن أشرب ماءً مقدساً مقدّماً إياه بنفسه ثلاث مرات على فمي، ثم طلب منديلي الذي على رأسي فأعطيته إياه فوضع فيه حفنة من الخبز المجفف قائلاً:

لا تهتمي يا سيدتي فهذه للتوزيع، وزّعيها على كل الراغبين.

عند ذلك تذكرت قطع القربان الثلاث التي كنت قد قطعتها البارحة إلى قطع أصغر فدهشتُ من معرفته النبوية المبهرة .

يا أبت القديس ! تجرأت أن أنادي بتقوى ولكن بخوف، اسمح لي أن أقول لك شيئاً (تفكرت أن أطلب منه أن أعترف).

أجاب: تفضلي يا سيدتي.

وفجأة مسكني من يديّ وبدأ بتلاوة الصلاة «يا الله اصفح واترك واغفر خطاياي وكل ما أذنبت به إليك». كانت دهشتي لا توصف وكذلك خوفي وفرحي. ورددت معه الصلاة بتنهدات مسموعة وبعد ذلك سقطت على ركبتيّ. وسجد هو بقربي ماسكاً بيدي طيلة تلاوتنا للصلاة. وبعد الغفران، الذي يمنح عادة بعد الاعتراف، أعطاني صليبه النحاسي لأقبّله وقال لي ماسكاً يدي اليمنى:

نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الآب وشركة الروح القدس لتكن معك دائماً، طيلة حياتك، في ساعة الموت وفي الحياة الأبدية.

شعرت بفرح كبير، فانحنيت وقبلت يديه. وأما هو فباركني للعودة وقال لي: سيساعدك الله.

بالحقيقة وصلت بصلواته إلى بيتي بالرغم من انتشار الكوليرا المرعبة في كل مكان.

ويجب أن أتكلم عن حادثة أخرى تظهر أن الله كان يستجيب لصلواته . التقيت امرأة قد أنجبت أبناءً كثيرين ولكنهم كانوا يتوفون في العام الأول لولادتهم. فطلبت مني بإلحاح أن آخذها إلى الستارتس سيرافيم برفقة ابنتها المولودة حديثاً، ولما وصلنا إلى منسكه، حدَّثته عن مشكلتها وطلبت صلاته، فوضع يده على رأس الطفلة وقال:

«لتتعزي بها. وبالحقيقة عاشت الطفلة. وكل الذين ولدوا بعدها ماتوا في العام الأول لولادتهم».

بموهبة معرفة الغيب قدّم الأب سيرافيم نفعاً كبيراً للناس. مرّة جاءت إلى ساروف من بنز امرأة شماس تقية اسمها إفذوكيّا لكي تأخذ بركته، ولما خرج الستارتس من كنيسة المشفى تبعته هذه مع كثيرين ووقفت في الصف الأخير أمام قلايته وانتظرت دورها لكي تقابله.

وفجأة ناداها قائلاً لها: تعالي إلى هنا بسرعة يا إفذوكيّا .

فوجئت إفذوكيّا من مناداته لها باسمها من غير أن يكون قد صادفها من قبل. فتقدّمت بورع وتقوى. باركها الستارتس وأعطاها قرباناً وقال : يجب أن ترحلي بسرعة لتلحقي بابنك في البيت.

فانطلقت إفذوكيا حالاً ولم تلحق بابنها في البيت لأنه في فترة غيابها كانت إدارة معهد اللاهوت في بينز قد عينته طالباً في كلية اللاهوت في كييف.

ولكي يصل الشاب إلى الكليّة في الموعد المحدد كان عليه أن يرحل بسرعة، فالمسافة بين كييف وبينز كبيرة.

ولما أنهى دراسته ترهبن باسم إيرينرخوس ثم عيّن مدرساً في معهد للاهوت ثم أسقفاً.

بينما كان أحد المدَّعين أنهم من أصحاب الملكيات الواسعة عائداً من القرم، صادف المبتدئ يوحنا بتخونوف وتضرَّع إليه أن يتوسط له عند الأب سيرافيم لكي يقبله وقال له: أنه حضر مرّتين إلى الدير ولم يستطع رؤيته.

وتحرَّكا نحو منسك البار ولكن المبتدئ يوحنا أحسَّ بشعور غريب من الخوف نحو الزائر، بالرغم من أنه قد رآه في ذلك اليوم يصلي ساجداً وعيناه تدمعان أمام أيقونة والدة الإله. فترك الزائر قبل القلاية بعدَّة أمتار وذهب إليه وقال له: يا أبتِ، إنَّ شخصاً ما، يريد مقابلتك.

ولكن البار كلمه بقسوة: من فضلك ابتعد عن أمثال هذا الإنسان لأجل اسم الله، إن هذا الزائر «فرّيسي»

لقد رأيته مصلياً بدموع داخل الكنيسة، قال المبتدئ يوحنا، آملاً تحويله عن موقفه.

لا، أصرَّ ذاك بأشد قساوة. إنَّه ساقط وتعس جداً.

فنقل المبتدئ هذه الأقوال إلى الزائر وأكمل قائلاً له:

صلِّ للرب لكي لا تهلك روحك إلى الأبد.

فاعترف ذاك باكياً وقائلاً بزفرات: إن نفسي مليئة بالأفكار والمشاعر غير النقية.

بعد فترة وجيزة جاء إلى ساروف زائر آخر وظهر أنه قروي بسيط. طلب من الراهب يوحنا أن يأخذه إلى الأب سيرافيم. فظنَّ يوحنا أن الشيخ لن يستقبله كما تصرَّفَ مع الزائرِ الأول ولهذا تركه بعيداً عن القلاية، بعض الشيء.

كان البار في ذلك الوقت يجمع القصب. وحالما سمع أن زائراً من كييف يريد مقابلته طلب من المبتدئ أن يأتي به. فاقترب الغريب وطلب منه البار أن يجلس بقربه.

قال له: اترك الطريق الذي اخترته. اطرح عنك القيود والبس حذاءك وعد إلى البيت. إن أمَّك وزوجتك وأولادك يعانون كثيراً من غيابك واشتغل

ببيع الخبز. أعتقد أنك ستنجح كثيراً بهذا العمل. إن لي صديقاً تاجراً في ايليتس اذهب وانقل له تحيّاتي. قل له: إن الوضيع سيرافيم قد أرسلني وهو سيأخذك كموظف.

بالرغم من أن الزائر كان يستمع بانتباه شديد لكلماته، إلا أنّه لم ينطق بكلمة، فقد بقي صامتاً طيلة الوقت وفي الختام أعطاه الأب سيرافيم بركته كما أعطاها للآخرين وتركهم يذهبون بسلام.

سأل الراهب يوحنا الزائر قائلاً له لماذا صمتَّ؟

أجابه الزائر: لم أخسر بصمتي بل حصلت على ما كنت أرغب به دون أن أتكلّم، أي أنني قد عرفت الطريق الذي عليَّ أن أتبعه. لقد عرف الستارتس بموهبة معرفته للغيب كلَّ حياتي. فأنا إنسان بسيط وعملي هو بيع الخبز، وبهذا العمل كنت أطعم عائلتي ولكن بسبب محبتي لله الفاقدة التمييز اشتهيت حياة الغربة ودون أيّة بركة أو توجيه تركت عائلتي من غير معين ولبست السلاسل وذهبت إلى كييف، وهناك التقيت بأحد الشيوخ الذي أرسلني بدوره إلى هنا إلى الأب سيرافيم، وقد أوصاني أن أطيع كل ما يقوله لي. لقد استدركني البار سيرافيم وحده. وما بقي هو أن أشكر الله وأعود إلى بيتي حسب وصيته.

قبل وفاة البار بفترة وجيزة زاره الكسي بيتروفيتش من مدينة غاندوف وكان يكنُّ له محبة واحتراماً عظيمين، وقد اصطحب معه تلميذين من تلامذة أحد المعاهد اللاهوتية كانا ينتظران التعيين. وبعد أن باركهما البار قال لواحدٍ من التلاميذ: انطلق سريعاً إلى بيتك لأن ناراً قد اندلعت في الحبوب وعليك أن تساعد أهلك.

وقال للآخر:عد إلى بيتك في أقرب وقت، إنهم ينتظرونك لتعيينك، فتعجّبَ التلميذان وتأكدا بعد عودتهما أنه لا يوجد شيء مخفيٌ عن الستارتس العجيب.

كان القروي افثيموس فاسيليفيتش من قرية ليخاتسيف قد تولى مهمة بناء قمة برج دير ساروف، وكان واقفاً فوق سطح البرج، ومعه

بعض العمال، وكان يراقب العمل أثناء وضع القبّة بشكل نهائي. وبينما كان العمل يقترب من نهايته خطر في ذهنه أن يطلب بركة وصلاة الأب سيرافيم لكي يهدأ باله بأن كلّ شيء سينتهي بشكل حسن. ولمّا تفكّر بذلك وإذا بالأب سيرافيم يخرج من قلايته إلى الدار ويباركه ثلاث مرّات.

زاره مرّة في دير ساروف رئيس دير اللافرا، في بيسوكونكورسك، المتوحد انطونيوس وأحد التجار من فلاديمير. دخلا معاً. فطلب الستارتس من رئيس الدير أن ينتظر. ودون مقدمات بدأ يتحدَّث مع التاجر وبعد أن أنّبه على خطاياه نصحه قائلا:

كل مصائبك وأحزانك هي نتائج حياتك الخاطئة اتركها واصطلح.

كان يتكلّم بحرارة حتى أن التاجر ورئيس اللافرا قد تأثّرا لدرجة البكاء ولما انتهى قال للتاجر.

صمْ في دير ساروف وتناول الأسرار الطاهرة وإذا تبت حقيقة لن يمنع عنك الرب رحمته ونعمته.

سجد التاجر أمام البار وشكره على نصائحه ووعده بأن يحفظها ويعمل بها. ثم طلب صلواته وخرج من القلاية دامع العين.

تجرأ الرئيس انطونيوس وقال للشيخ: يبدو أن نفس الإنسان واضحة أمامك كما الوجه أمام المرآة. لقد لاحظت أنه من غير أن تسمعوا أحزان ومشاكل هذا الزائر قلتموها له كاملة.

وبينما كان البار صامتاً أكمل رئيس الدير إنني أرى أن ذهنكم نقي جداً حتى أنّه ما من شيء خفي في قلب الغريب.

لا تتحدّث هكذا يا فرحي ووضع يده على فم رئيس الدير ليصمت، إن قلب الإنسان مفتوح أمام الله فقط. والله وحده عارف بالقلوب.

إذا يا أبتِ! كيف قلتم للتاجر كل ما يجب من غير أن توجهوا له سؤالاً ؟

فشرح له ذلك قائلاً: إن هذا الإنسان مع آخرين كثيرين يزورونني كعبيد لله وأنا الخاطئ سيرافيم هكذا أفكّر، أي إنني عبد لله وأفكر أن الله

يأمرني وهذا ما أنقله لكل من يطلب مني كلاماً نافعاً. وأول فكرة تأتيني أتقبلها على أنها من الله وأقولها لمحدثي. لا أعرف ماذا يجري في داخله، ولكن أومن أن هذا ما ترشدني إليه إرادة الله لأجل منفعته. توجد حوادث أخرى لا ألجأ فيها لإرادة الله ولكن ألتجئ لمنطقي، إذ أنها تبدو لي بسيطة، وفي هذه الأحوال أخطئ كثيراً. ولما أكمل هذه المحادثة الكاشفة والمفيدة والتي أعطانا إياها الأب انطونيوس نفسه ختم كلامه قائلاً:

لقد سلمت نفسي وإرادتي للرب الإله كما الحديد في كور النار. وكما يريد الله هكذا أفعل. لا أمتلك إرادة تخصني. وكل ما هو مرضٍ لله هذا ما أنقله.

موهبة الشفاء

شفيَ عدد كبير من المرضى، بصلوات الأب سيرافيم، على قدر إيمانهم. في عام ١٨٣٠م جاءت إلى ساروف مريضة تعاني من مرضٍ عضال. وكان جسمها قد تورّم وأخذ يخرج قيحاً. وكانت مريضة جداً لدرجة أنها بمشقة وصلت إلى ساروف. في الطريق إلى الدير توقفت مرّتين، المرّة الأولى في دير نيزينكورد النسائي حيث ساءت حالتها كثيراً فقاموا لها بترتيبات ما قبل الموت.

ولما وصلت إلى ساروف توجهت مع الزوار الآخرين إلى قلاية البار وانتظرت في نهاية الصف، ولكن البار شقَّ الجمع وتوجه مباشرة إليها ومدَّ يده وتناول منديلاً كانت المريضة قد صنعته بذاتها. فمسح وجهه بالمنديل ثلاث مرّات وقال لها تعالي معي يا فرحي.

وبعد أن قادها إلى قلايته باركها وأعطاها قربانة وماءً مقدَّساً وتركها ترحل قائلاً لها، سنتقابل غداً.

في الغد كان البار يستقبل الزوارَ في البريّة القريبة بالقرب من الجدول، وكان يلبس منتيَّته القصيرة ويحمل شمعة مضاءة بيده ويباركهم جميعاً قائلاً لكل واحد شيئاً مفيداً، وفي النهاية اقتربت المريضة.

فقال لها: أنت يا سيدتي، إنكِ مريضة جداً اذهبي إلى البئر لتغتسلي واشربي من الماء وستصبحين في حالة حسنة.

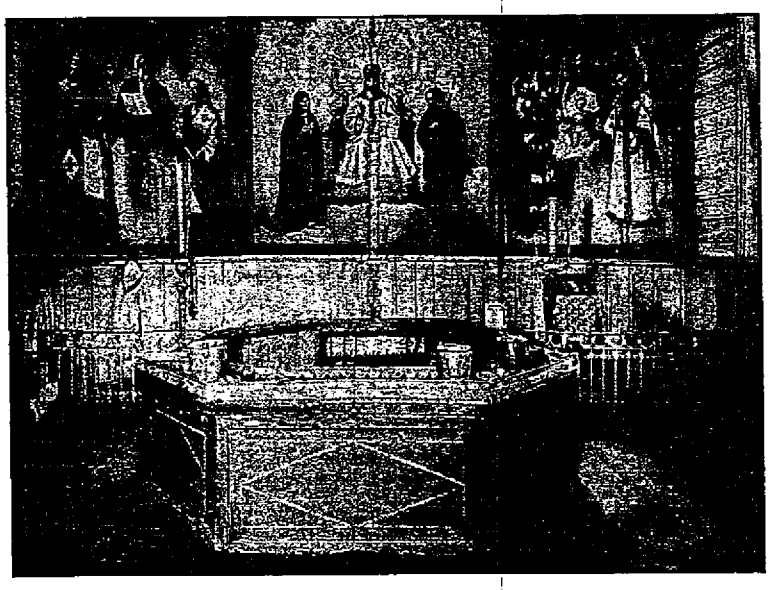

داخل بئر البار سيرافيم سنة ١٩٠٣

لقد شربت يا أبتِ واغتسلت عندما أتيت إلى هنا.

خذي، يا ابنتي، خذي ماءً من البئر واحفظيه معكِ لكي تشربي واغتسلي. اغسلي جسدك كله وسيشفيكِ به رسل المسيح.

يا أبتِ ليس لي وعاء لكي أضع الماء فيه.

عند ذلك دخل إلى قلايته وأعطاها دلواً.

ومن ساعة رحيلها لتملأ الدلو إلى ساعة عودتها كان يعيد عليها كل ما قاله سابقاً.

ولما عادت إلى بيت الضيافة صنعت بدقة كل ما قاله لها الستارتس بالرغم من أن الماء يضرُّ في حال مرضها، وبالرغم من كل احتجاجات الذين كانوا برفقتها.

في اليوم التالي نهضت من الفراش صحيحة ومعافاة بشكل كامل. والسائل الذي كان في جسدها قد اختفى. وتراجع الورم وخفَّ الألم،

وعادت إليها قواها وعاد إلى وجهها لونه الطبيعي، وأصبحت المريضة وكأنها ولدت من جديد، ولم يعرفها كل الذين شاهدوها في اليوم السابق.

وقبل أن تأخذ طريق العودة أرسل لها البار رفيقتين مع بركته وثلاث عصي، واحدة برأس للمريضة سابقاً، وواحدة بأربعة فروع لإحدى رفيقتيها، وواحدة بسيطة للأخرى. ودلّ الزمن أن كل علامة من هذه العلامات كان له معناه الخاص.

صارت المريضة راهبة باسم بولخيريًا، ثم رئيسةً لدير سلوبوت في أبرشية بياتسكي. ورفيقتها الأولى صارت راهبة مع أبنائها الثلاثة، الفتاة والولدين. وأمّا رفيقتها الثانية فدخلت الدير وصارت راهبة.

كان الراهب انطونيوس من ساروف يتحدَّث مع البار بالقرب من بئره.

قال الأب سيرافيم: يا أبتِ لقد صلّيت لكي يشفي ماء هذه البئر الأمراض.

وهكذا تفسَّر الخواص الشفائية لبئر الأب سيرافيم وماؤه لا يفسد بمرور الزمن ولو حفظ في أوعية مغلقة. حاول البعض تفسير هذه الظاهرة قائلين بأنَّ أملاحاً تدخل في تركيب الماء وهذه الأملاح تحفظه. ولكنّه معروف أن المياه المعدنيَّة تتحوّل بسرعة أيضاً.

من ميّزات ماء بئر الأب سيرافيم أن كل الذين استحموا به في البرد لم يصبهم الزكام بل بالعكس، شفى الكثيرين.

في كل مرة كانوا يأخذون ماءً مقدساً للسيّدة .N.B كان يعتريها خوف وهلع، ولم تفدها الأدوية بشيء، ولما لم يكن لأهلها ما يفعلونه أتوا بها إلى الأب سيرافيم. فأعطاها بعضاً من قطع السكر وطلب منها أن تغتسل في بئره، ولما اغتسلت شفيت تماماً وعاشت سعيدة مع أبنائها.

كانت ماريا K تعرف شخصياً البار سيرافيم. هذه ذكرت في إحدى رسائلها للحبيس المتوحد جاورجيوس وكانت قد كتبت الرسالة قبل ستة أشهر من وفاته وذكرت ما يلي:

«سأتحدث ثانية عن الأب سيرافيم عن نبع فرحي. كانت زوجة القائد سبيانكي السيدة مافرا . L مريضة، وكانت تشعر بملل شديد، وبسبب المرض لم يكن بإمكانها أن تصوم كما يحدد طقس الكنيسة. فذهبت إلى البار الذي أرسلها لتشرب ماءً من نبعه، وشربت مافرا من النبع. وفجأة خرجت من عنقها كمية كبيرة من السائل الأصفر ومن تلك الساعة صارت في حالة جيِّدة.

أكملت ماريا. K أن تاتيانا فاسيليفنا بارينوف كانت تعاني من تورم في يدها، وبسببها صارت يدها جرحاً واحداً. فقال لها أن تغسلها بماء البئر ففكرت تلك، كيف سأصنع هذا، إذ أن لمسة بسيطة تزيد من ألمها. ولكنها لم تتجرأ على العصيان، وحالما غسلت يدها سقط عنها شيء كالدهن مع جلدٍ وعادت اليد نقيَّة.

استحم الكثيرون ممن بهم جراح في البئر وشفوا جميعاً. إنَّ حياة الأب سيرافيم والنعم الإلهية التي زينته تجعلني أبتهج: ولكن عندما أفكر أنه قد انتقل من الأرضيات ولن أراه مجدداً تمتلئ نفسي بالفرح وعيناي بالدموع. وكنت أتمنى أن آخذ بركته لأدخل إلى دير ديفاييفو وأصبح راهبة. ... كنت معجبة بمواهبه، ومهما تحدثت معه كنت أجد الوقت قصيراً، فقط كانت عيناي تدمعان بلا توقف. وعندما كان يَحْدثُ تحوّل ما في حياتي، ويكون الأب سيرافيم قد أعلنه لي مسبقاً، كنت أشعر وكأن قلبي يذوب من الحزن. ولكن الستارتس كان يتمكّن من تهدئتي وجعلي مطيعة لمشيئة الله.

عجائب الأب سيرافيم الشفائية كانت كثيرة.

يقص راهب من ساروف اسمه الكسندروس الحوادث التالية:

عندما كنت لا أزال في العالم عانيت من وهن في جميع أعضائي. والألم الأشد الذي عانيت منه كان وجع أذنيَّ. وفي النهاية صار لا يطاق. ولم تفدني الأدوية. فقررت التوجه إلى ساروف لطلب صلوات الأب سيرافيم. دخلت إلى قلايته وسقطت على قدميه. ومن غير أن يقول كلمة

توجَّه نحو قنديل الزيت المضاء أمام أيقونة العذراء وغطس يده في الزيت ودهن أذني الملتهبة، وللحال شعرت بارتياح وذهب الألم نهائياً. عند ذلك قال لي: أنت، ستصبح خاصتي.

بالحقيقة، بالرغم من الموانع الكثيرة التي واجهتني أصبحت راهباً في دير ساروف.

بعد دخولي الدير عاد ألم يدي ولم يعد باستطاعتي أن آكل ولا أن أرسم إشارة الصليب إلا باليد اليسرى.

فذهبت إلى الستارتس وسجدت له وطلبت منه بركته وصلواته المقدّسة.

فباركني بحنو وقال لي بفرح: صلِّ لملكة السموات واصنع أمامها ثلاث مطانيات.

ولما قمت بما أمر به حرفياً قدَّم لي دلواً مملوءاً بالماء المقدس قائلاً لي أن أرفعه بيدي اليمنى.

قلت له لا أستطيع يا أبتِ، إنَّ يدي تؤلمني وهي في حالة ضعفٍ شديد. عند ذلك مسكني من يدي المريضة وأعطاني الدلو وقال:

خذ واشرب. بمساعدته تمكنت من أن أشرب. ثمَّ باركني وتركني أرحل. والحمد لله من ذلك الوقت شفِيَتْ يدي نهائياً بصلواته.

أورد القائد براسكي في إحدى رسائله لرئيس دير ساروف روفائيل ما يلي:

« سنة ١٨٢٦م زرت ديركم وذهبت إلى الأب سيرافيم لأخذ بركته، وكان البرد قارساً في الممر أمام قلايته بحيث أنني كنت أرتجف برغم - ارتدائي بذلتي العسكريّة.

في تلك الساعة كان البار يتحادث مع أحد الرهبان، وبينما كنت واقفاً في الممرّ أصلي لوالدة الإله، فتح الباب وخرج قائلاً:

يا للفرح الذي يهبني إياه الرب !

وللحال أدخلني إلى قلايته وطلب مني أن أجلس على المقعد، وجلس

هو على الأرض لأن القلاية كانت مليئة بأشياء مختلفة، وقبَّل يدي وحادثني محتفظاً بها ضمن يده. هذه كانت محبته للقريب. ومن جملة ما قلته له إنني أشعر بألم في صدري وكنت شاباً واهناً وأصفر.

أجابني إنه لا شيء. وبعد أن وقف أخذ قارورة وأعطاني قائلاً لي:

اشرب جرعَةً كبيرة.

ولما شربته علمت أنه زيت فخفت مما ستكون النتائج. بالعكس، فمن تلك الساعة تراجع ألم الصدر، ومن إنسان واهن القوى أصبحت بمرور الزمن صحيحاً وقويّاً.

بعد مرور أعوام عديدة أجبرني حادث على ترك الخدمة العسكرية بشكل نهائي. فغادرت بطرسبرغ، ولكن استقالتي هذه سببت لي إحباطاً شديداً بحيث أنني تعذبت عاماً كاملاً. وإذ كنت مسافراً إلى أرزاماس عبرت من دير ساروف. وتوجَّهت مباشرة إلى قبر البار وصليت عليه التريصاجيون. ولما انتهيت فارقني الشعور بالإحباط، وأصبحت ثانية بكامل صحتي».

قرويون كثيرون كانوا يعملون في كلٍّ من ديري ساروف وديفاييفو. وكان لبعضهم ارتباط خاص به، وكانت المحبة بينهم متبادلة، وصار بعض منهم شهوداً ثقاة لحوادث من حياته. قروي ما من ليخاتسيف شعر بعوارض الكوليرا في عام ١٨٣١م، فتفكّر أن يطلب مساعدته، وزحف بصعوبة حتى وصل إلى قلايته. فأعطاه أيقونة العذراء ليقبِّلها، وشرب ماءً مقدساً وأكل بعض قطع القربان. هدأ المريض قليلاً ثم طلب منه البار أن يسير حول الدير، وعندما يصل إلى الكاتدرائية أن يدخل ويصلي.

قال له: وهناك ستشفيك نعمة الله.

فأطاعه القرويُّ. وبنعمة الله عاد إلى بيت الضيافة بصحة تامة.

يقص ايلارخوس .A.B تيبلوف الحدث التالي:

«عندما كنت في الثلاثين من عمري انتشرت الكوليرا في منطقة كاترينوسلافا وتوفي عشرون شخصاً ممن كانوا تحت سلطتي، بينما كان

قلبي يتقطع من معاناة البعض وتأوهات البعض الآخر ونواحهم. في هذه اللحظات العصيبة تذكرت البار»

كان قد قال لي: عندما تتعرّض لأحزان تعال إلى قلاية الفقير سيرافيم وهو يصلّي لك.

قررت مع امرأتي أن نذهب إليه ونطلب منه أن يخلصنا من المرض المريع. في الليلة نفسها ظهر لامرأتي في الحلم وقال لها أن تذهب إلى بئر معينة، حيث كانت قد ظهرت في وقت ما أيقونة السيّدة العذراء، وأن نأخذ ماء من هناك لنشربه نحن وأتباعنا.

تبعد البئر عن مزرعتنا عشرة فراسخ. وانطلقنا باكراً جداً مع كلّ أفراد عائلتنا وعمالنا واثقين بشفاعة عبد الله الأب البار سيرافيم.

ولما وصلنا إلى البئر رسمنا علامة الصليب وشربنا من الماء واغتسلنا نحن وكل خدامنا. بعد ذلك أرسلت بطلب برميل من القرية فملأناه ماءً وتحركنا إلى القرية جميعاً.

في القرية جمعت كل سكانها واستدعيت الكاهن وصلينا صلاة تقديس الماء. وبعد أن أخذنا جميعاً من الماء المقدّس أرسلنا منه إلى المشفى حيث كان الكثيرون على شفير الموت، وكلّهم بنعمة الله ورحمته تعافوا بسرعة، ولم يمت واحد في قريتي بسبب الكوليرا.

انطباعاً متميزاً خلق لنا شفاء سيدة عجوز عمرها سبعون سنة، كانت حالتها سيئة جداً لا أمل فيها، ولأنها كانت فاقدة الوعي قام أحد جيرانها بنضحها بالماء المقدس على كل جسدها ورمى في فمها بعضاً منه، وبعد قليل أخذ العرق يبلل جسدها وخلال ساعة كانت قد تجاوزت حالة الخطر.

أجبر الخوف من داء الكوليرا الكثيرين على الالتجاء إلى البار. فسأله بعضهم شخصياً وبعضهم بواسطة الرسائل، حول الطريقة التي يجب أن يتبعوها للحذر من الكوليرا، وكان يجاوبهم كما يلي:

إذا استدعينا اسم الرب سنخلص، كل من له اسم الرب على شفاهه

سيخلص «اكشف للرب طريقك واتكل عليه، وهو يجعل ويخرِجُ مثل النور برَّك وحقَّك» (مز ٣٦: ٥ – ٦). فقط اخضع للرب وتضرّع إليه.

ثم ينصح بعد ذلك بأن يطبقوا قانون الصلاة الذي حدده للعلمانيين، ولكل الذين لا وقت كافٍ لديهم للصلاة. وكل من يطبق هذه لن يعدَم رحمة الله. والصلاة هي الطريق إلى الرب، وسينقذ كل من يتناول الأسرار المقدّسة باستمرار وليس فقط، مرّة واحدة في العام. ومثل هذا الإنسان سيحصل في هذه الحياة على السعادة والعمر المديد. تذكروا قول الرسول: «افرحوا دائماً، صلّوا بلا انقطاع واشكروا على كلّ شيء» (١تسالونيكي ٣: ١٦ – ١٨).

«لأنني أعتقد أن نعمة سر المناولة تصبح محسوسة فقط عندما يعيش الإنسان الذي يتناولها الغبطة والسلام. وواحد من الذين يفعلون مشيئة الرب أفضل عند الله من جمع من الخطأة. كثيراً ما أجاب على الرسائل التي كانت تأتيه من غير أن يفتحها. وبعد وفاته وجدوا الكثير من الرسائل المختومة التي كان قد أجاب عليها في وقتها».

كان لصلاة البار قوّة عظيمة، وشفت مرضى كانوا قد وصلوا إلى شفا الموت. في أيار ١٨٢٩م مرضت امرأة اليكسي بوروتيلوف من قرية بافلوف من منطقة غورماتوف وكان للسيد إيمانٌ وطيدٌ بصلاته وكان البار يحبه أيضاً كتلميذه. انطلق هذا إلى دير ساروف حيث وصل في منتصف الليل، وبالرغم من الساعة غير المناسبة ذهب إلى غرفة الأب سيرافيم، وكان الأب سيرافيم ينتظره جالساً عند باب القلاية.

قال له: ما الذي دفعك يا فرحي ! أن تأتي إلى قلاية الأب سيرافيم في هذه الساعة؟

جئت أطلب المعونة لامرأتي المريضة.

عندئذٍ، قال للزائر: ستموت امرأتك.

أما الزائر فسقط على قدميه وتوسَّلَ إليه بدموع أن يتشفع عند الرب لكي يهبها الصحة. وللحال غرق البار بالصلاة لمدة عشر دقائق، ثمَّ فتح

عينيه وأنهض بوروتيلوف وقال له: إذن، يا فرحي، سيهب الرب الحياة لامرأتك. انطلق إلى بيتك بسلام.

ولما عاد إلى بيته علم أنه في الساعة التي صلّى فيها الأب سيرافيم ارتاحت امرأته وتعافت سريعاً.

في أيلول سنة ١٨٣١م جاء إلى ساروف أحد أصحاب الأراضي من منطقة سيبرسك ونيزيكورسك، واسمه نيقولاوس اليكسندروفتش موتوبيلوف. كان قد درس الأدب في جامعة قازان، وعمل مستشاراً بإصدار القرارات القضائية وقوانين الدولة قبل جدولتها، وكانت له المرتبة الشرفية السادسة في المدينة، وشغل أيضاً عضو شرفٍ، مراقباً للمؤسسات العلميَّة في منطقة كورسوسك.

قدم إلى ساروف مريضاً جداً، ولكنه بصلاة البار تعافى بأعجوبة. وقد ورد في أحد النصوص المحفوظة في دير ديفاييفو والتي كتبت بيده ما يلي حول شفائه:

لقد شفاني الستارتس العظيم من مرض الروماتيزم الشديد. كان جسدي عليلاً ورجلاي مشلولتين ومتورمتين عند الركب، بينما امتلأ بالقروح أسفل القدمين وجوانبهما. وقد عانيت أكثر من ثلاث سنوات من غير أن أحصل على الشفاء.

وأنا في هذه الحالة أعطيت أمراً بنقلي من مزرعتي الموجودة في نيزينكورد إلى برية ساروف. وصلنا في ٥ أيلول ١٨٣١م. وفي ٧و٨ أيلول عيد ميلاد السيدة العذراء استحققت أن أقابله مرّتين ولكن من غير أن أشفى.

- في اليوم التالي نقلوني إلى البرّية القريبة وأربعة رجال يمسكون بي بينما الخامس كان يسند رأسي. وإذ كان الستارتس يتحادث مع الزوّار تركني الرجال تحت صنوبرة كبيرة ظليلة موجودة على ضفة نهر ساروفكا، ولما طلبت منه أن يشفيني، أجابني:

لستُ طبيباً. فمن يبتغون الشفاء عليهم أن يذهبوا إلى الأطباء.

لقد زرت أفضل الأطباء ولكنني لم أجد شفاءً، والآن ليس لي أمل بالشفاء من شدائدي إلا برحمة الله. ولكن بما أنني خاطئ وليس لي دالة عند الله، أطلب صلواتكم المقدسة لكي يشفيني.

هل تؤمن بأن ربنا يسوع المسيح هو محب البشر والكلية الطهر والدته دائمة البتوليَّة؟

أجبته: أومن.

هل تؤمن أن الرب شفى فيما مضى كل ضعف بشري مباشرة فقط بكلمته وبلمسة منه؟. وهكذا الآن يستطيع أن يشفي بالسهولة نفسها كلّ الذين يطلبون معونته. وهل تؤمن أيضاً أن شفاعةَ والدةِ الإله كليّةُ القدرة، وأنّه بشفاعاتها من الممكن أن يشفيك الرب مباشرة وبالكامل؟.

أومن من كل نفسي، ومن كل قلبي. فلو لم أكن مؤمناً بكل هذا ما كنت لأطلب أن يأتوا بي إليكم.

إذا كنت تؤمن فأنت قد عوفيت.

كيف أكون معافى ورجالي وحضرتكم تمسكون بي من يديَّ.

لا، قال لي: لقد أصبحت صحيحاً كلياً. اتركوه أرضاً، قال للرجال الذين كانوا يمسكون بي.

بعد ذلك أنهضني هو من كتفيَّ وأوقفني على رجليَّ وقال لي:

قف بشكل أثْبَتْ واثْبتْ على الأرض بقوة. نعم هكذا ! ولا تتردد، والآن أنت معافى تماماً. أنظر إنك تقف بشكل جيِّد ،أضاف ذلك بنظرة ملؤها الفرح.

فقلت إنني أقف جيداً لأنك أنت تمسك بي جيِّداً من يديَّ.

إنني لا أمسكك إطلاقاً قال ذلك مبعداً يديه. إنك تقف دون مساعدتي، والآن امشِ، يا سيد، غيِّر مكانك.

وأمسك بيدي بينما وضع يده الأخرى على كتفي وقادني إلى مكان معشب في أرض غير مستوية بالقرب من الصنوبرة الكبيرة. هل رأيت يا حبيبي كيف تمشي حسناً.

أجبت نعم: لأنك تمسكني.

كلا، وسحب يده، إن الربَّ سرَّ بأن يشفيك تماماً. لقد طلبت من العذراء ذلك. والآن تستطيع السير جيّداً من دون مساعدتي، ومن الآن فصاعداً ستسير دائماً بشكل حسن. تعال، قال لي، وبدأ يدفعني لكي أتقدَّم.

سأقع وسأجرح – صرخت.

لا لن تجرح ستمشي بشكل جيِّد.

مباشرة شعرت بقوة سماويَّة تغطيني، فتشددت وبدأت أمشي بثبات وفجأة أوقفني وقال لي:

لقد اقتنعت الآن بما فيه الكفاية أن الرب قد شفاك تماماً «يترك الربّ سيئاتك ويغسل خطاياك. هل ترى العجيبة التي فعلها المسيح معك؟ آمن به من دون شكوك. وثق بعنايته بك وأحببه من كلِّ قلبك، واشكر ملكة السماء لمعونتها. وبما أن المرض قد أنهكك مدة ثلاث سنوات فلا تمش كثيراً، ولكن قليلاً في كلِّ مرة. ابدأ بالمشي شيئاً فشيئاً، وانتبه لصحتك التي هي هديَّة ثمينة من الله».

وبعد أن تحدثنا أيضاً بما فيه الكفاية، تركني أعود إلى المضافة، وعاد رجالي وحدهم إلى الدير ممجدين الله على الأعجوبة التي رأوها بأعينهم. وأنا انطلقت بالعربة مع الأب غورياس المسؤول عن قسم الضيافة. وكثيرون من الزائرين الذين عادوا قبلي نقلوا خبر العجيبة العظيمة إلى الجميع.

لقد شفى الأب سيرافيم أيضاً كل المعذبين من أمراض نفسية والكآبة والأرواح الشريرة.

كان مرض الكآبة قد سيطر على أحد رهبان ساروف وأوصله إلى حالة من اليأس. طلب هذا الراهب من راهب آخر أن يذهبا في نزهة.

خرج الاثنان من الدير بعد الغروب وابتدأا السير حول البستان. يتعزيان بالحديث، ولما اقتربا من الإسطبل حيث بداية الطريق إلى بئر البار. أراد الأخ المكتئب أن يغيّر الاتجاه لكي لا يقابل الستارتس في حالة

كهذه. ولكن قبل أن يبتعدا رأوه قادماً لمقابلتهم، وكانت ثيابه غير اعتيادية. فقد رفع جزءاً من ثوبه الأبيض وعلقه تحت زناره. سقط الأخوان على قدميه، فباركهم كأب محب لأولاده بعذوبة فائقة. وبعد ذلك ابتدأ يصلي ترنيمة الأودية التاسعة من البراكليسي الصغير، والذي يصلَّى في كلِّ حزن وشدَّة. «أيتها العذراء املئي قلبي فرحاً يا من قبلت ملء الفرح وبددت ظلام الخطيئة» وبعد ذلك ضرب الأرض بقدمه.

لا يسمح لنا باليأس. لقد انتصر المسيح على كلِّ شيء. لقد أقام آدم وحرَّرَ حوّاء. وأمات الموت.

فانتقلت حالته النفسية إلى نفس الأخ الحزين، فعاد إلى الدير نشيطاً ومليئاً بالسلام.

كان لأرملةٍ ثلاثة أولاد، وكانت تتعب كثيراً لإطعامهم، فكانت تتذمر من نصيبها القاسي. ولما سمعت به قررت أن تزوره وأن تطلب بركته وتحدِّثه عن تعبها. فذهبت إليه، وبعد أن باركها قال لها:

لا تتذمّري من نصيبك. سيبقى لك واحد لإطعامه. وبعد أسبوع رقد اثنان من أبنائها، فذهبت إليه فزعة بسبب المصيبة غير المتوقعة لكي تحصل منه على تعزية من الحزن الذي كان يتآكلها.

قال لها حالما رآها: «صلّي إلى العذراء و إلى جميع القديسين، لقد قتلت ابنيكِ باللعنات التي صببتها عليهما. توبي عنها جميعاً. واعترفي واضبطي غضبك من الآن فصاعداً لكي لا تخطئي. وبارك الأرملة وطلب منها أن تقبِّل الصليب الذي كان متدلياً على صدره وعاد إلى قلايته».

كان البار يشفي المضرورين من الشياطين بحضوره وبالصليب وبصلاته.

قصَّ أحد عمال الدير من قرية ليخاتسوف قائلاً: «رأيت بعينيَّ بعض الرِّجال ينقلون بصعوبة امرأة بها شيطان إلى منسك الستارتس. وكانت تمانع طوال الطريق وحالما وصلوا إلى السياج سقطت أرضاً، وأرجعت رأسها إلى الوراء وصرخت:

محرقْ ! محرقْ !

خرج الأب سيرافيم من قلايته. ولما لم ترد المرأة أن تفتح فمها أسقط فيه بصعوبة نقطاً من الماء المقدس، في ذات اللحظة خرجت من فمها غيمة دخان. ثم رسم عليها علامة الصليب وبدأ يصلي. في تلك اللحظة عادت المجنونة إلى وعيها وابتدأت هي أيضاً بالصلاة. وبعد حين رأيتها في كاتدرائية دير ساروف معافاة وسألتها كيف تشعر.

المجد لله، قالت لي، الآن لا أشعر بالمرض السابق».

شفاءات ونبوءات

في بعض الأحيان كان الأب سيرافيم مع الشفاء يتنبأ للمرضى أو لمرافقيهم. شيء من هذا حدث للأب ملكي صادق أحد رهبان دير أرزاماس، وكان بياع سمك وكانت له امرأة وأولاد. وقد بنى مخزناً من حجر تحت الأرض، وفي يوم من الأيام كان ابنهم ذو الأعوام الخمسة يلعب مع طفل من أبناء جيرانهم على درج المخزن، فوقع على رأسه، وأصيب بشدّة ومنذ ذلك الوقت ساد الحزن في بيتهم. كان الطفل يبكي في الليالي، وكانت قدماه قد شلّتا نهائياً ولم يعد باستطاعته أن يحرّك إصبعاً، وضعف جسمه، حتى أصبح بقية من العظام والجلد. وإذا أراد أن يطوي رجليه أو ركبتيه كان يسْمَعُ لهما أزيز . الشيء نفسه كان يحدث عندما يحاول أن يتمدد.

جرَّب أبواه وصفات طبيّة عديدة ولكن دون نتيجة، وعلى العكس فقد ظهر جرح كبير في صدره. وفي النهاية قررا أن يأخذا الصبي إلى ساروف إلى الأب سيرافيم وخلال الطريق عندما كانوا يعبرون جسوراً أو معبراً كانوا ينقلونه على الأيدي والولد يبكي باستمرار نتيجة للألم الحاد في صدره، وكان يطلب منهما أن يعيداه إلى البيت لكي يستلقي فيكون له ذلك أكثر راحة.

ولما وصلوا إلى الدير علموا أن البار في البرّية. فمكثوا هناك وانتظروه بصبر وعند عودته، بعد أن باركهم، قبّل الولد المريض في رأسه،

فأعلمه الأبوان بما يخص مرض الصغير، أما هو فقال:

أوقفوا العلاج وصلّوا لله. وبعد ذلك أعطى الولد أن يشرب ماءً مقدساً وبعضاً من الخبزات الجافة.

في طريق العودة كان الولد أكثر هدوءاً. عمل الأبوان كما قال لهما البار. وبعد مضي وقت قصير رأت الأم حلماً، أنها جلبت إلى البيت أيقونة عذراء قازان الكلية القداسة لشفاء الصغير من كنيسة دير أرزماس الذي يحمل شفاعتها.

وعملاً بما رأوا في الحلم، جلبوا الأيقونة إلى البيت حيث قاموا بصلاة السهرانية وتقديس الماء. ولما انتهت الصلاة بارك الكاهنُ الصغيرَ بالصليب وأعطاه ماءً مقدساً ليشربه، وطلب منه تقبيلَ أيقونة العذراء التي بقيت في البيت حتى الصباح.

عند الصباح قدّموا طلبة شكرية وأعادوها بورع إلى الكنيسة.

لما عادت الأم إلى البيت أخذت الطفل على ركبتيها وفجأة ارتخت رجلاه وامتدتا بشكل طبيعي. بكى الأبوان من فرحهما. وبدأ الطفل يمشي بخطوات غير ثابتة ومع مرور الأيام تحسنت حالته باضطراد حتى شفي تماماً.

وخلال زيارتهم لساروف كان البار قد قال للوالد أن يترك العالم. حاول الوالد أن يقدّم تبريراً لهذا القول. وفي النهاية شجّع امرأته على دخول الدير مع ابنتهما لكي يتمكن هو أن يصير راهباً.

ووالدانا اللذان يعيشان معي أين تفكّر أن نتركهما ؟.

قال: سأبني لهما قلاية وسأقدّم لهما الضروريات للعيش.

في النهاية رفضت الزوجة أن تصبح راهبة. ولم يمضِ وقت طويل حتى توفيت، وكذلك أبواها، فترهّب الأب مع ابنه في دير بيسوكونكورسك، والابنة في دير القديس نيقولاوس في أرزماس. وهكذا تحققت النبوءات التي تكلم عنها البار برموز.

تعرض لنا السيدة N.B. نيكاسن بعض الحوادث، فيما يتعلّق

بشفاعات ونبوات البار.

كنا نشتهي أنا وزوجي أن نزور الأب سيرافيم. ذهبنا إلى ساروف ولم نجده في الدير، فتحركنا إلى قلايته في البريَّة، ولما وصلنا خرج بذاته لاستقبالنا. ولما عرف الستارتس أن زوجي يحبّ تزيين الكنائس قال له: هذا ما يقوله داود النبي « يارب أحببت جمال بيتك وموضع سكنى مجدك» (مز ٢٥: ٨). إنه لشيء جميل جداً أن يزيّن الإنسان معابد الله. وبعد ذلك دعانا إلى قلايته في الدير، وهناك طلبنا بركته، لنسافر إلى موسكو لنزور صاحب الأراضي التي نعمل بها، لكي يعتقنا من العمل أو ليحرر زوجي من وظيفة مراقب العمل، وأما الستارتس فأمسك زوجي من يده وقربّه من أيقونة العذراء وقال له: أرجوك أن لا تستقيل من وظيفتك إكراماً لوالدة الإله. إن خدمتك هي لأجل مجد الله فأنت لا تقسو على الفلاحين. لا تعط أهمية لما يمكن أن يتفوَّه الفلاحون بالسوء عليك أو على زوجتك. فلا تذهب إلى موسكو. هذه وزنتك. مرَّة أعطيت لأحد مراقبي الأراضي بركة بأن يطلب انعتاقه بعد موت سيّده الذي كان دائماً يشتري حقولاً ويدفعها إليه ليزرعها. وعندما توفي سيّده حررته زوجة سيده معطيّة إياه ثروة كبيرة.

قصَّ الأب سيرافيم على زوجي هذه الحادثة لأنه عرف مسبقاً أن كلّ هذا سيحدث لزوجي.

كان زوجي يعاني من مرض غريب فعندما يصيبه قليل من البرد يحمرّ وجهه كما لو سكب عليه دم، وتنتفخ عروقه وتهتاج شرايينه ويشعر بحكّة غريبة في أنفه تدعوه إلى العطس دون توقف. هذا العطس المرضي تارة يدوم ليوم ومرّاتٍ عديدة لعدَّة أيام مما كان ينهكه تماماً. وقال له الأطباء في موسكو ونيزنكورد أن يتوقَّى إذا أراد الشفاء وقالوا له أيضاً: إنه من الممكن أن يصاب بمرض خطير، أما هو فلم ينشغل إطلاقاً بصحته، ولهذا اشتدَّ عليه المرض فقررنا أن نذهب إلى ساروف.

زرنا الأب سيرافيم وبعد أن باركنا رفع عن المدفأة وعاءً فيه ماء

وطلب من زوجي أن ينحني وأخذ يسكبه على رأسه، وطلب منه أن يغتسل بهذا الماء، وأعطاه منشفة ليجفف بها رأسه. من ذلك الوقت تعافى زوجي وعاش بعدها سبع سنوات.

وعندما باركنا الستارتس لطريق العودة قال لي:

أتى لزيارتي رجل وامرأتان. قالوا الصلاة ولكنني لم أقبلهم فابتدؤوا بقرع الباب بشدة وإذ لم أستطع أن أفعل شيئاً نمت. هل تفهمين هذا؟.

لدى عودتي إلى قسم الضيافة وجدت أحد الموظفين الحكوميين من نيزينكورد، الذي جاء مع امرأته إلى ساروف، فطلبا مني أن أذهب معهما إلى البار. إذ لم يتجرأا أن يذهبا إليه وحدهما، ربما لن يقبلهما. ووافق زوجي على ذهابي معهما. انطلقنا معاً ولما وصلنا إلى مدخل قلايته سمعناه منشغلاً أمام غرفته. قلت الصلاة لكي يفتح لي وأما هو فلم يجب بكلمة آمين المعتادة وبقي الباب مغلقاً. ناداه رفاقي ولكنه بقي صامتاً، فابتدأ الرجل يضرب الباب بشدّة، عند ذلك سمعناه يتمدد وراء الباب وبعد دقائق سمعنا غطيطهُ، ففهمت من هو الرجل ومن هما المرأتان، الذين كلمني عنهم الستارتس فاضطررنا أن نعود إلى قسم الضيافة من غير أن نقابله.

في السنة الأخيرة قبل وفاة زوجي ذهبت إلى قلايته، وجدته يجمع حطباً في جانب الطريق، ولما رآني دعاني لأقترب منه وقال لي:

يا سيدتي لقد أعطاني الآباء هذه البركة بأن أجمع الحطب ليتيماتي راهبات ديفاييفو، والشتاء آتٍ وسيحتجنَ للمدفأة. وبعد ذلك أخذني من يدي إلى مكان الخضار، حيث كان قد زرع بطاطا وبصلاً.

ها هو كنزي يا سيِّدتي انظري مما أعيش. إن غنى زوجك سينتقل إلى أيادٍ غريبة ولكن لا تهتمّي لذلك.

وبالحقيقة توفي زوجي بعد أشهر قليلة، وتحقق كل ما تنبأ به ذلك الستارتس العجيب.

عانيت لفترة من الزمن، من مرض في معدتي وابتدأت العلاج ولكن لما رأيت أنني لا أنتفع شيئاً، جئت إليه وكلمته بخصوص المرض.

فقال لي، يا سيدتي إذا أكملت العلاج ستموتين بسرعة. اصبري بصمت على المرض وستشفين عندما توقفين العلاج. عندما تنتقلين إلى ملكة السموات هناك ستعاينين أشد مما تعانين.

بالحقيقة توقف المرض حالما أوقفت العلاج. وذهبت إلى قرية بوليتس حيث تحفظ أيقونة العذراء العجائبية، رأيت هناك في البيت الذي أقمت به عجوزاً تغيرت كلّ هيئتها من كثرة الجراح في جسدها. وعند الصباح وأنا متوجهة لحضور القداس الإلهي وجدت فتاة بهيئة محزنة، كانوا قد نقلوها مريضةً ومتورمةً، ترتجف جميع أعضائها. ودون إرادتي تذكرت أقوال الستارتس، «عندما تذهبين إلى الملكة السماوية هناك ستعاينين أسوأ مما تعانين».

مرّة ذهبت إليه برفقة أختي، التي كانت زوجة أحد الكهنة ولكنها ترملت فقال لها:

إن حياتك يا خورية ستكون مباركة حتى وفاتك.

أجابته تلك: لأجل المسيح اعذرني يا أبتِ كيف يكون ذلك، دائماً أخطئ بمشاجرتي مع أبي، لقد أعطى بيته لأخي والآن يقيم معي بشكلٍ دائم.

فأجابها : مع من تريدين الإقامة، إذاً، إن لم يكن مع والدك.

يا أبتِ، إن لي ابناً والآن ينهي دروسه وعليه وطّدت أملي.

لا يا سيدتي لا تتأملي، لا يكن لك أي أمل.

بالحقيقة توفي ابن أختي بسرعة.

زرته مرّةَ في يوم الأحد بعد القداس الثاني.

سألني. هل كنت حاضرة القداس الإلهي ؟

كنت، يا أبتِ.

هل رأيت كيف صلينا هناك نياحة امرأة؟ لقد جهّزَ لها متقدمنا نعشاً جميلاً، هل تفهمين هذا ؟ سألني هذا السؤال عدّة مرّات. تفكرت لربما بهذه الطريقة أراد أن ينبهني على أن آخرتي تقترب. وانطلقت إلى البيت

منشغلة بهذه الأفكار مررت في قرية زيولييف لكي أسلّم على عمتي ولكنني علمت هناك أنها قد ماتت ودفنوها بعد القداس الإلهي يوم الأحد الماضي ذاته، الذي كنت فيه عند الستارتس. وعند ذلك فهمت موهبته النبويَّة العجائبيَّة.

كان المتقدم في الكهنة قد هيأ نعش عمتي وقام بدفنها بالقرب من الكاتدرائية، ولم يكن يعلم عن قداسة الستارتس شيئاً، ولما كلمته عنه أحب أن يتعرّف إليه، فانطلق إلى ساروف ومن هناك إلى قلايته. كان البار ينتظره، وبعد أن سلّم عليه بالسلام الكهنوتي قال له: «ليباركك الربّ يا أبت (وذكر اسمه) ولتشملك العذراء مع شفعاء كنيستك بحمايتهم».

منذ ذلك الوقت بات ذلك الإكليريكي يكنّ له احتراماً عظيماً .

ومرَّة كنت قد أحضرت له معي شمعاً فسألني:

هل تنوين أن تذهبي إلى دير ديفاييفو ؟.

نعم وأنوي أن أقدّم هناك ثلاث أيقونات.

إذاً ستعطين لهن الشمعات، فالشيء ذاته بالنسبة لك، فهناك سيذكرنك في الصلاة أيضاً.

وبعد قليل أكمل:

يا سيدتي، هل تعلمين بأمور النحل. عندما تجلس الملكة في الخلية تجلس النحلات حولها. هكذا بالضبط تحيط راهبات ديفايفو بالعذراء.

آه يا أبت كم هنَّ محظوظات راهبات ديفاييفو اللواتي هنَّ مع العذراء دائماً.

هل تغارين من الراهبات ؟ الشيء ذاته ممكن للأرملة. لقد كانت حنة النبيَّة أرملة. يا ترى هل منعها شيء من العبادة ؟ وأنتِ فلتحبي أخواتي ولتحترميهنَّ ولا تنتظري أن يأتين إليكِ ولكن اطلبيهن أنتِ.

لم يمضِ وقت طويل حتى ترملتُ. عند ذلك أرسلت إليَّ ايريني بروكوبيفنا رسالة من ديفايفو وطلبت مني أن ألتحق بالدير. فتذكرت كلمات الستارتس «لا تنتظري أن يأتين إليكِ ولكن تعالي أنتِ إليهنَّ»

وهكذا قررت أن أترهَّب في دير ديفاييفوس.

قصَّت السيدة سيرافيما كورساكوف عن زوجها الحدث التالي:

«عندما كان زوجي في سن الثانية عشرة أصابه مرض ثقيل في عينيه وكان مرضاً خطيراً. كانت حالته لمدَّة تسعة أشهر تثير الشفقة. فقررت والدته في النهاية أن تجلبه إلى ساروف.

وصلا إلى الدير في ٣ آب ١٨٢٩م، وكان الأب سيرافيم قد انقطع عن الناس لأسباب شخصيَّة. ولم يكن يستقبل أيَّ إنسان. فانتظرا خمسة أيام، بعدها فتح الباب من جديد لكلِّ العطاش لبركته، لإرشاده وشفائه.

وحالما رأى الولدَ المريض وأمَّه دعاهما إليه، وباركهما وبدأ ينفخ في أذني الولد وعينيه، وفي نفس الوقت كان يصلِّب له على رأسه وأخيراً باركه وقال: ستصبح معافى.

وفي لحظة خروج اندراوس من القلاية قال له ستتزوج سيرافيما.

وتوجه نحو والدته قائلاً: إنَّها لخطيئة أن لا تكرّمي العيد. بهذه العبارة أظهر خطأً كانت هذه المرأة قد ارتكبته وهي قادمة إلى الدير.

وحالما خرجا من قلاية الستارتس بدأ الأعمى اندراوس يرى نور الله، وعاد نظره إليه خلال شهر واحد.

وفيما يخص نبوءته حول اسم التي ستصبح زوجة الشاب. فقد تحققت عندما أصبحت أنا سيرافيما امرأته ».

نبوءات مختلفة

مرّات كثيرة تنبأ الأب سيرافيم وأعلن عن حوادث مستقبليَّة. وقد حدَّثنا شخص عن إحدى مريباته، كانت تسكن في نيزني نوفكورد الحدث التالي:

«كانت هذه المرأة بائسة في زواجها، إذ كانت قد تزوجت من رجل أرمل لديه ولدان من الزواج الأول. ولهذا حاول أقرباؤها أن يطلِّقوها منه. ولكنها لم تشأ أن تفعل ذلك قبل أن تسترشد بنصائح الأب سيرافيم.

قال لها الستارتس: لن تتركي زوجك لأي سبب كان، أرجوكِ أنا الراهب الخاطئ، وستنتهي قريباً كل العذابات التي تقاسينها – بالحقيقة، بعد نصف سنة توفي زوجها وأخذت المؤسسات الحكومية الولدين».

تنبأ الأب سيرافيم لإحدى السيدات التقيات أن مجاعة ستحدث، ونصحها بأن تتمون بالحبوب لكي لا تقاسي من الضيق، فقامت هي بدورها بنقل الخبر إلى أبيها الروحي الأب يعقوب أحد كهنة دير ساروف والذي بدوره نقل الخبر إلى الرهبان على المائدة الديرية الثانية. فصدَّق الخبر بعض الرهبان وأخذوا يصلون إلى الله أن يرفع غضبه عن الأرض، أما قليلو الإيمان فبدؤوا بالتحدث ضدّ الأب سيرافيم.

أظهرت الأحداث صدقه . ووقعت المجاعة بسرعة وأخذ ثمن الخبز يرتفع من أسبوع إلى آخر وصار ثمن ربع كغ من الخبز يساوي من ٢٠ إلى ٢٤ روبل بينما كانت مخازن القمح قد نضبت.

في عام ١٨٣١م أعلن الأب سيرافيم للكثيرين أنَّ مجاعةً قريبةً آتية. وعندما رأى رئيس الدير نيفون قال له بأمر:

الجوع آتٍ. الجوع آتٍ.

ثم قال لمجلس الدير: تموَّنوا من الطحين لستِّ سنوات لأنه للمرّة الرابعة في حياتي تقع المجاعة.

زاره مرَّة الأب ابراميوس، من دير القديس نيقولاوس النسائي في أرزاماس، وخلال حديثه معه أخبره الأب سيرافيم أنه سيصبح متقدماً في الكهنة، وسيرشد المنشقين ولكنه سيتضايق كثيراً من بعض الشمامسة الذين حصلوا على النعمة بدون استحقاق. وتحقق الأب إبراميوس من حدوث هذه النبوءات في حياته وقال إن نصائح الأب سيرافيم أفادته كثيراً للقيام بمهام عمله كمتقدِّم في الكهنة.

كانت الأرملة التقيَّة بيلاجيا ايفانوفا سكارن من أرزاماس تشتهي منذ حداثة سنها أن تصبح راهبة. وكان الأب سيرافيم قبل وفاته بخمس سنوات قد أنبأها بأنها ستصبح يتيمة. وأنها ستتزوج وتنجب سبعة

أطفال، وأعطاها أسماءهم وستخسر زوجها. تحققت كل هذه الحوادث بالرغم من البعد الزمني.

جاءت اليه امرأة إقطاعية من آل زينيايف من مدينة بالاخنا فنصحها بأن تصبح راهبة ولكنها رفضت. عند ذلك كشف لها عن أسباب هذه النصيحة.

قال لها: لن تكوني سعيدة في زواجك. ستنجبين أولاداً كثيرين وستخسرين زوجك، وستعانين من فقر شديد أشد مما ستعيشينه معه، ولكنها لم تسمع نصيحته. وفي النهاية ندمت كثيراً لأن الأمور التي تنبأ لها بها تحققت بكاملها.

زارته مرّة فتاة فقيرة من أرزاماس من عائلة نوزيفنيكوف، وكلمته بألم عن فقرها، فأجابها عندئذ: أنّه بزواجها ستصبح غنيّة ولكنها ستجرّب بشدائد عديدة.

كانت تقيم في دير نيكولايفسكي للنساء فتاتان من طبقة زراعية، وفور رؤيته لهما قال لواحدة منهما: سيأخذك أسيادك إليهم خلال عام واحد وستخدمين عندهم خمس سنوات.

كانت الفتاتان قد جاءتا إلى الأب سيرافيم مع أخيهما.

قال البار للأخ:

إذا استطعت أن تحفظ نفسك من الخطايا المميتة، سيطيل الله بعمرك حتى الثمانين، وذلك شيء نادر في أيامنا هذه.

ولقد تحققت هاتان النبوءتان.

قصّت إلبيذا ثيوذورفنا أوستروفسكي، ما يلي:

كان أخي العقيد فلاديمير أوستروفسكي يقيم دائماً في نيزني نوفكورد عند عمتي الأميرة غروزنسكي، التي كانت تثق بالأب سيرافيم ثقة عظيمة. فأرسلته مرّة إلى الستارتس الذي يعلم المستقبلات. فاستقبل أخي بكل ترحاب ولطف وأخذ يرشده وفجأة قال له:

آه يا أخي فلاديمير ستصبح سكيراً خطيراً (كبيراً) فأحزنت هذه

الأقوال أخي كثيراً إذ كان موهوباً بالكثير من النعم والتي كان يستعملها دائماً لمجد الله. كان يكنُّ للأب سيرافيم احتراماً عظيماً وكان لمرؤوسيه أباً رحيماً وواثقاً جداً أنه بعيد عن هذه الصفة وغير مضطرب أو مهتم بسبب سمو ورفعة حياته. فهم الستارتس اضطرابه فقال له:

لا تضطرب ولا تحزن فالله في بعض الأوقات يسمح بسقوط الغيورين بخطايا ثقيلة، لكي لا يسقطوا في الخطيئة العظيمة والتي هي خطيئة الكبرياء. أما تجربتك فستعبر برحمة الله وستعيش بتواضع بقية حياتك ولكن لا تنسَ خطيئتك. بالحقيقة بعد مروره بعدة حوادث استعبد لخطيئة السكر وذلك لأجل تأديب عائلتنا. وفي النهاية تحنّن الله عليه بصلوات الأب سيرافيم. وإذ كان لأخي قلب بسيط، لم يتحرر فقط من خطيئته ولكنه جاهد بحماس غريب فيما تبقى من حياته ليكون مسيحياً صادقاً.

ذهبت الطفلة H.A.A.T مع أمها إلى دير ساروف لتتبرّك برؤية الأب سيرافيم وتنال بركته. ولما وصلت إلى الدير رأت مجنوناً مربوطاً بسلاسل ثقيلة، يدوُر هنا وهناك فحزنت كثيراً من هذا المنظر المريع ورغبت بأن تعطيه حسنة، لكن ،لم يكن معها نقود. وبعد أن فتشت جيداً في ثيابها وجدت معها نصف روبل فأعطته له. فلما زارت البار سيرافيم دعا الصغيرة للاقتراب منه وباركها وقال لها:

كم كان صنيعك جميلاً حين أعطيت نصف الروبل الفضي لذلك المسكين.

وبعد قليل. كلّم الصغيرة ثانية داعياً إياها صاحبة المعالي. اضطربت أمها لدى سماعها هذا النداء الموجه لابنتها وحاولت أن تشرح له أن هذا اللقب لا يناسب عائلتهم. لكنه في كلّ مرة كان يتوجه إلى الصغيرة، كان يناديها بهذه الكلمة «صاحبة المعالي».

عادتا إلى البيت ولم يستطيعا أن تحلا هذه النبوءة لوقت طويل، ولكن لما بلغت الصغيرة السن القانونية تزوجت قائداً في الجيش، عند ذلك

فهموا أن كلمته إنما كانت تعبيراً نبوياً.

لم يكن السيد فياتسيسلاف أندرايفتش من موسكو قد فكّرَ في حياته بالزواج، بل كان يتعجب من الناس الذين يتحملون واجبات كهذه. وصدف مرّة أن زار دير ساروف بينما كان مسافراً من ريازان إلى أرزاماس. وهناك سمع للمرة الأولى عن الأب سيرافيم تفكّر في نفسه قائلاً: «لأذهب أنا أيضاً لعله يقول لي شيئاً ما. وذهب بالفعل. وبعد أن باركه أعطاه خبزات وقال له: واحدة لك وواحدة لزوجتك وواحدة لابنك. ولكن السيّد فياتسيسلاف لم يعط أهمية لهذا القول. وبعد وصوله إلى أرزاماس بوقت بسيط، تزوّج. وكما قال الستارتس أنجب ولداً».

كانت نتالي إيفانوفا مكرّسة بكل تفكيرها له وكانت تزوره دائماً لكي تتعزى بأحاديثه الجميلة وتعاليمه الروحية. هكذا قضت سني شبابها عذراء، ولم تفكر على الإطلاق بالزواج. ولما قدّم لها قبعة للأطفال مخاطة من قماش قال لها:

آه خذيها ستنفعك عندما يولد صغيرك وستلدين سيداً شهيراً ولكن بعد ثلاث سنوات من زواجك ستعانين من شدائد مختلفة، لا تخافي سيعزيكِ الله وستكونين سعيدة.

احتفظت نتاليا بالقبعة الصغيرة ككنز لا يثمّن ولم تذكر لأحد شيئاً، وانتظرت تحقيق نبوءته. وبعد مرور فترة كافية تزوجت بالرغم من كونها تجاوزت الثلاثين عاماً. ولما أنجبت، ألبست الصغير القبعة المهداة من البار وتحققت كلماته أيضاً بخصوص حياتها بعد الزواج، وعاشت بعد ذلك سعيدة.

تنبأ الستارتس سيرافيم للبعض بموتهم وذلك، كي لا يرحلوا عن هذا العالم دون توبة لائقة. مرّة جاء لزيارته مدير مصنع مع زوجته وأولاده. وبالرغم من أن الشيخ لم يكن يعرفهم، دعاهم بأسمائهم وقال لكل واحد منهم سنةَ وشهرَ ويومَ وفاته.

قال للأب أنه سيعيش عشرين عاماً والأم اثني عشر عاماً. لم نتحقق

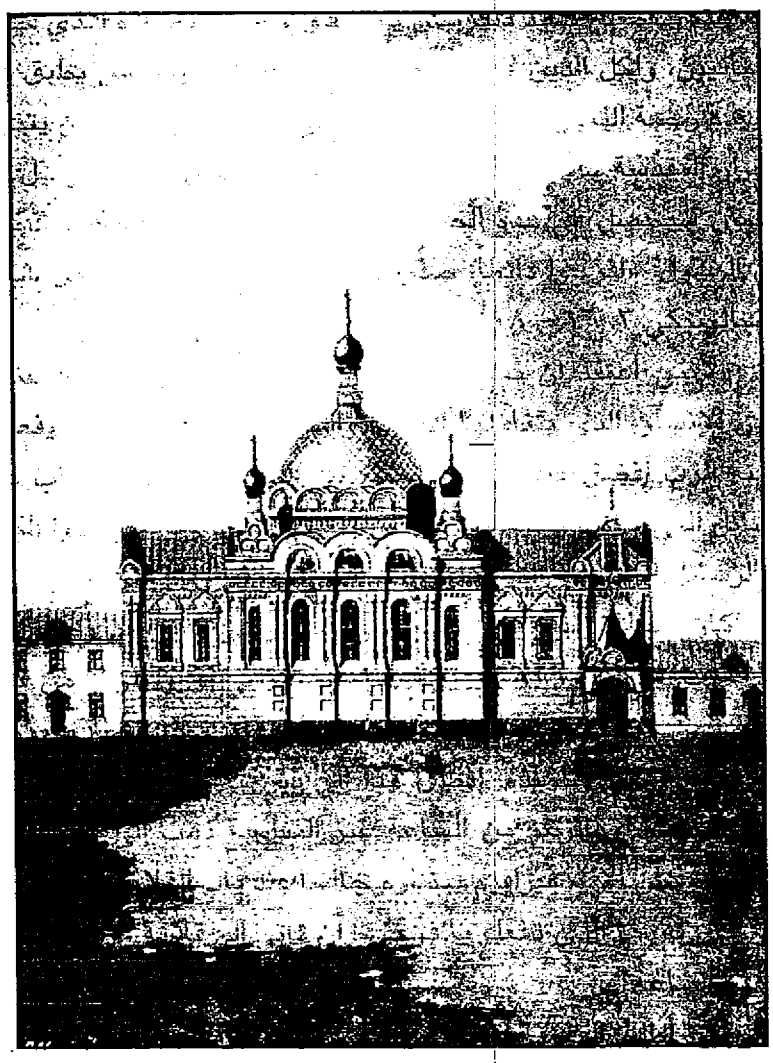

الكنيسة التي بنيت مكان قلاية البار في دير ساروف

من موت مدير المصنع، ولكن علمنا أن زوجته توفيت في التاريخ نفسه الذي حدده لها البار.

لكي ينبه البار سيرافيم أحد أعضاء مجلس بلديَّة كانتوم قال له: إن الله سيعاقبك بالموت. فذهبت امرأته إلى البار الذي استقبلها بمحبَّة أبويَّة ونصحها أن تقنع زوجها بأن يصلح عدم عفته وعدم رحمته وعدم تصرفه بالعدل (الضعفات التي سادت على نفسه). وقال لها: إن الله سيعاقبه لا محالة. وبينما كان يكلمها بهذا أخذ حفنة من نثرات خشبية من المدفأة وأعطاها لها.

خذي هذه النثرات واحتفظي بها.

فرحت المرأة ببركته . ولكنها كانت مضطربة جداً بسبب العقوبة المرتقبة لزوجها. تحدثت مع أقاربها بخصوص بركة البار الغريبة، والتي لم يستطع أحد أن يفهم معناها.

وأخيراً وصلت الساعة الرهيبة التي فيها ترجمت أهميَّة الهديَّة وفهم ما قاله البار نبوياً.

في أحد الأيام امتلأ الجو بغيوم عاصفة سوداء وعند المساء، حدثت عاصفة رهيبة. فتوجه سكان المدينة جميعاً لإقامة الصلاة. وكذلك فعل الرجل والمرأة اللذان زارا البار. وكان ولداهما قد ناما. الأول بالقرب من النافذة والآخر أبعد منها بقليل. وفجأة سقطت صاعقة على بيتهما وضربت مباشرة الإطار الخشبي المعلَّق على الحائط فتفتت إلى قطع صغيرة جداً. كثير من هذه القطع انغرس في وجه الزوج وفي ذقنه. كانت الجراح مميتة. ولم تصب الزوجة ولا الأولاد بأي أذى. ففهمت الزوجة المسكينة أقوال البار وفهمت معنى هديتَّه الغريبة.

في كانون الثاني عام ١٨٣١م. جاء إليه الأب انطونيوس رئيس دير بيسوكونكورسك. وكان يعذبه فكره بأن موته يقترب. وصل إلى ساروف مساءً وتوجَّه مباشرة إلى قلايته. في طريقه قال له الرهبان: إن البار لم يعد من منسكه في البرّية. كانت الساعة الخامسة وبدأ الظلام يسدل

ستاره. فتفكرَّ في ذاته، هل يذهب لملاقاته في البريَّة أم ينتظره في الدير، وفجأة ظهر من بعيد قادماً يتوكأ على مِعوَله، بلباسه المعتاد وجرابه على كتفه. فاقترب من الأب انطونيوس وصنع له مطانية.

سأله البار: كيف مررت من هنا.

إنني أطلبكم يا أبتِ. أجاب ذاك بصوت حزين. هيا – هيا يا فرحي إلى القلاية قال الأب سيرافيم فرحاً.

دخل الستارتس ومن ورائه الأب انطونيوس سائلاً بتضرّع.

قل لي: هل سيحدث ما تقوله أفكاري اليائسة؟ بأن موتي قريب؟ فإذا كنت داخل قلايتي أو أتمشى خارجاً يبدو لي أنني أرى الدير للمرَّة الأخيرة وأستنتج من ذلك أنني سأموت عاجلاً وقد دللت على مكان قبري. أريد أن أعلم هل يقترب موعد موتي؟ فقط لكي أستعفي من أعمالي وأكرِّس بقية حياتي للعبادة والصمت. إن خبر موتي ليس بالشيء الذي يخيفني.

كان البار يسمع الأب انطونيوس من غير أن يبدِّل الوقفة، بقي ماسكاً يده طوال الوقت، ولما انتهى رَمَقَهُ بنظرة حنان وقال له:

يا فرحي! ليست الأمور كما تفكر بها، إن عناية الله قد أوكلت إليك ديراً عظيماً.

ظنَّ الأب انطونيوس أن البار أراد أن يبدد تفكيره فقاطعه:

يا أبتِ هذا لا يهدئ من روعي ولا يريح أفكاري. أرجوك قل لي: بكل صراحة. أليست أفكاري حول موتي علامة إلهيَّة على أن نهايتي تقترب ؟ وأنا سأتلقى جوابك بكل امتنان وهدوء. أريد أن أجابِهَ ساعة موتي بالاستعداد الواجب. صلّوا لأجلِ نفسي.

لا أساس لأفكارك، أجابه بوداعة ملائكيَّة، أكرر لك أن عناية الله ستوكل إليكَ ديراً كبيراً.

كيف يمكن أن يصبح دير بيسوكونكورسك كبيراً. أتضرع إلى الله أن لا يقل عدد رهبان الدير أكثر.

أكمل البار بثبات قائلاً: عليك أن تستقبل في اللافرا بمحبة

مضيافة، أولئك الذين سيأتون لزيارتك من ساروف، أوكل الذين سيأتون إليك راغبين أن يقيموا هناك.

يا أبتِ، كيف يمكن أن يرغب راهب من ساروف أن يأتي ليقيم في دير بيسوكونكورسك. مع ذلك إذا أراد أحد، أو أرسلت أنت أحداً، تعرفون بكم من الاهتمام سنستقبله.

عندما تأتي الساعة لا تترك يتيماتي.

لم يتمالك الأب انطونيوس نفسه في تلك اللحظة، بل عبَّر عن كل محبته نحو الأب البار وانكبَّ فوقه معانقاً إياه وبكى طويلاً. ولم يفهم كلماته الأخيرة. بل توقف عند كلمة يتيمات. واعتقد أنَّه كلَّمه عن موته القريب.

قال البار: صلِّ لأجلِ والديَّ ايسيذوروس وأغاثي وبعد قليل قال له متابعاً: سلِّم نفسك في كل الأحوال وبجميع الأشياء لإرادة الرب واهتم بالصلاة، ولتكن دقيقاً بواجباتك، رحوماً نحو الأخوة. كن للأخوة كأم وليس كأب. وكن متواضعاً. فالصلاة والتواضع هما جمال الفضيلة.

في النهاية احتضنَ رئيس الدير وباركه بالصليب الذي كان يلبسه على صدره وقال له:

اذهب الآن ببركة الله. لقد أزِفَت الساعة إنهم ينتظرونك.

خرج الأب انطونيوس من القلاية دون أن يتمكن من تفسير أقوال البار. فأخفاها في قلبه ككنز جزيل الثمن ولم يتبدد فكر الموت من ذهنه ولكنه دخل في انطباعاتٍ معزية. ولما صار خارجاً، صادف مرْسَلاً من قبل الأب نيفن، رئيس الدير، الذي دعاه لزيارته، وهكذا تحققت أقوال الرئيس «حان الوقت، إنهم بانتظارك». فتوجه بالفعل لزيارة الرئيس نيفن الذي كان في الفراش بسبب مرضه، ومن هناك توجه إلى دار الضيافة.

كانت عربته جاهزة وبأفكار مضطربة توجه نحو ديره. كانت الأحصنة تركض بهدوء ولم يمنعه شيء عن الاستسلام للتفكير. وغرق في

أفكاره التي كانت تشغله. فجأة لم يستطع الراهب المرافق الجالس في مقدمة العربة أن يتمالك نفسه أكثر وبدأ بالبكاء.

لماذا تبكي؟ سأله الأب انطونيوس. لأنه قد قابلني الأب سيرافيم وقال لي « إن ساعة انفصالكم عن رئيسكم تقترب».

بهذه الدقة، عرف الأب سيرافيم مسبقاً هذا التغيير في حياة الأب انطونيوس.

انقضى شهر كانون الثاني وشباط وجاء شهر آذار. وبدأ الصوم الكبير. كانت قراءة المزامير مستمرَّة بلا انقطاع في الدير وكان الرهبان يتبدَّلون كل ساعتين. في الثاني من شهر آذار وفي يوم الإثنين من الأسبوع الأول حان دور الأب انطونيوس، ولما أنهى التلاوة عاد إلى مكانه.

عند ذلك اقترب منه أحدهم وأعطاه رسالة من مطران موسكو فيلاريتوس داعياً إياه ليكون رئيساً في دير الثالوث القدوس للقديس سرجيوس، بسبب وفاة الأب الرئيس الأرشمندريت أثناسيوس. وفي داخل الرسالة وجدت رسالة أخرى في مغلَّفٍ صغير موجهة إلى أسقف نيزينكورد أثناسيوس، لأجل الإسراع باستقالة الأب أنطونيوس من رئاسة دير بيسوكونكورسك. عندئذٍ فهم الأب أنطونيوس كلَّ ما تنبأ له عنه الأب سيرافيم قبل شهرين وأكدت الأحداث التي جرت، بكلِّ دقة أقوال الأب البار. ففي ١٠ آذار ١٨٣١م وصل الأب انطونيوس إلى موسكو، وقابله المتروبوليت فيلاريتوس. في ١٩ من ذات الشهر وصل إلى لافرا القديس سرجيوس راندونيز، وهكذا صار رئيساً لهذا الدير في التاسعة والثلاثين من عمره. وبقي في هذه الخدمة أكثر من ٤٦ عاماً.

أرسل المتقدم في الكهنة باسيليوس ديمترييف الرسالة التالية إلى رئيس دير القديس بولص أوبنورسكي، يوشافاط.

لقد طلبتم في رسالتكم أن تعرفوا بما تنبأ الأب سيرافيم لوالدي، عندما زار والدي ساروف. لقد سمعت منه هاتين النبوءتين. الأولى هي التالية:

يوجد في قرية بيسنو – كونوبييف، حيث كان أبي كاهناً، كنيستان خشبيتان.

تنبأ لأبي قبل أربع سنوات قائلاً: ستسقط الكنيستان.

أجاب أبي: أيها الكلي الطهر إن كنائسنا مبنيَّة بشكل دقيق وأساساتها حجريَّة.

لا، ستسقط أجابه البار ثانية.

يا أبتِ هل تعنون بذلك هيكل جسدي؟

أعني الهياكل المادية، أصرَّ ذاك. وأنت ستشيِّد هيكلاً من حجر.

لست بهذه المكانة لكي أقوم بذلك.

ستساعدك عذراء قازان ومالك المنطقة. لن تكون وحدك. عندما سيشيد الهيكل، سيقترح عليك رؤساء كهنة، أن تشغل منصب متقدِّم في الكهنة في المدن. عليك أن لا توافق بأن تترك رعيتك ولا تستبدل المجد الأبدي بالمجد المؤقت.

بعد أربعة أعوام وذلك سنة ١٨٢٨م احترقت الكنيستان بسبب حريق أتى على القرية بكاملها. عند ذلك ألقى أبي كلَّ أمله على السيدة الكلية القداسة. فترك عائلته. وولدين وفتاتين غير متزوجتين وتوجه إلى تامبوف، إذ أراد أن يأخذ بركة الأسقف ايفجينوس لبناء كنيسة من حجر. وكان مزوداً بدفتر تبرعات رسمي موقع من المجلس الكنسي.

سافر لمدّة سبع سنوات ليجمع المال. وصَل مرتين إلى موسكو. وبعد مرور عام واحد على الحريق استطاع بمعونة العذراء أن يضع الأساس لتشييد الكنيسة الأولى، واشترك أيضاً في العمل مالك المنطقةالذي، أعطى الأمر إلى مكتبه لإعطاء ثلث مدلخيله الماليَّة لبناء الكنيسة الجديدة.

كانت الكنيسة الحجرية الضخمة جاهزة بحلول عام ١٨٣٥ م وكرِّست على اسم تجديد هيكل قيامة الرب.

والكنيستان الصغيرتان الجانبيتان تقدستا على اسم الثالوث القدوس وعذراء قازان.

لقد جابه أبي خلال عملية بناء الكنيسة ضائقة مالية. ولكنَّ عذراء قازان ساعدته للخروج من هذه المشكلة

وفي الوقت الذي كانت الكنيسة تبنى فيه، عرضوا على والدي مهمَّة متقدِّم في الكهنة في إحدى المدن، ولكن أبي رفض أن يغادر القرية بناءً على وصية الستارتس.

النبوءة الثانية للأب سيرافيم تخصّ عائلتنا. كان لأبي ثلاثة أبناء وكان يشتهي أن يخلفه أحدنا في خدمته الكهنوتية. كان أخي الأكبر قد صار راهباً. فسأل والدي الأبَ سيرافيم:

لمن من الباقين تمنحون بركتكم ؟

أنت بمن ترغب؟

أريد الأوسط المدعو نيقولاوس.

لا، سيأخذ مكانك ابنك الأصغر.

بالحقيقة، خلفت أبي في خدمته الكهنوتية، أنا الخاطئ، وقد مضى على خدمتي في إحدى كنائس القرية ٢٧ عاماً. عشت أنا وأبي ٢٦ سنة، كنت أخدم في إحدى الكنائس وفي الكنيسة الأخرى خدم أبي. كانت القرية مفصولة بنهر تسنو. ولما شعر أبي أن قواه تضعف أعطاني مكانه. وبعد قليل سلَّم نفسه للرب بسلام عام ١٨٥٧ م.

لمعلومات أوسع يمكننا أن نطلبها من أخي الأكبر ومن أحد أبناء عمّي ،اللذين كانا قد زارا دير ساروف مرتين وحصلا على بركة لقاء البار شخصياً.

إن أخي الأرشمندريت نيكون هو الآن رئيس دير بالاكلافسكي في سيفاستوبولي من أعمال منطقة تافريذوس. أما ابن عمي الجزيل الاحترام فيلاريتوس فهو رئيس أساقفة في تشيرينكوف ونيزنسك. كان آباؤنا أخوة وقد خدموا في الكنيسة ذاتها. كثيراً ما كان الستارتس يتنبأ لأخي ولابن عمي أنهما سيصبحان راهبين، حتى أنه قال للأول أنه سيذهب إلى المكان الذي دفن فيه جدّي. وكان جدي قد خدم في قرية كونوبييف.

وأعطى مكانه لأبي أما هو فالتحق بدير تشيرنييف الذي يبعد عشرين فرسخاً عن قريتنا وهناك توفيً. وبحسب نبوءة الستارتس صار أخي أرشمندريتاً في دير تشيرنييف. ليس لديَّ معلومات أكثر. أطلب صلواتكم المقدَّسة.

المتقدم في الكهنة باسيليوس ديمتريف
من قرية بيسنوكونوبييف
من محافظة ساتسك من ولاية تامبوف.
١٦ أيار ١٨٦٥ م

أرسل الأرشمندريت نيكون أخو المتقدم في الكهنة باسيليوس بدوره رسالة إلى يوشافاط رئيس دير بولص أبنورسكي. جاء فيها ما يلي:

« في ١٢ كانون الثاني تسلمت رسالتك وقد أجبت عليها بهذه. قبل أن أنهي دراستي في معهد اللاهوت بقيت في شهر آب ١٨٢٧م لمدة ثلاثة أسابيع في بريَّة ساروف. كان الأب سيرافيم قد أعطاني إذناً خاصاً. وخلال هذه المدَّة، استحققت أن أتحدَّث معه لمرّة واحدة.

لماذا تريد أن تصبح راهباً؟ هل تحتقر الزواج ؟

أجبت، لا لم أحمل في ذهني فكراً سيئاً عن الزواج، أريد أن أصبح راهباً لكي أخدم الله بشكل أفضل.

قال لي: مباركة هي طريقك. وبعد أن لبس بطرشيله، قال لي سجل ما سأقوله لك ولكن ليس على الورق بل احفظه في قلبك.

١. نظف قلايتك يومياً بمكنسة جيِّدة.

٢. وأشعل الموقدة يومياً وسخن الماء لأن الماء الساخن ينظف الجسد والنفس معاً.

٣. مارس الصلاة القلبيَّة الدائمة كما يعلِّم الأباء القديسون في الفيلوكاليا، لأن صلاة يسوع هي منارة في طريقنا ونجم يقود إلى السموات.

٤. تمرن على هذه الصلاة متنفساً من أنفك ومغلقاً شفتيك لأن هذه

الطريقة هي سوط ضد الجسد وضد الأهواء الجسدية.

٥. أضف مع الصلاة الاعتيادية للرب يسوع المسيح يا والدة الإله خلِّصينا.

٦. إن الصلاة الخارجية فقط لا تكفي. والله وحده ينتبه للذهن، ولهذا فالرهبان الذين لا يتَّحدون بالصلاة الداخليَّة ليسوا رهباناً بل لابسي سواد فقط.

٧. اهرب من النساء كما من نار جهنم لأنهن يحولن جنود الملك العظيم إلى عبيد للشيطان.

٨. تذكَّر أن ثوب الراهب الحقيقي أن يحتمل الاتهامات والسيئات عن معرفة. فإذا لم توجد الأحزان لا يكون خلاص.

٩. اعمل كل الأشياء شيئاً فشيئاً – قليلاً قليلاً ولا تنهها دفعة واحدة. ليست الفضيلة حبة كمثرى لتأكلها كلَّها دفعة واحدة.

لقد أعطاني الستارتس الملهم هذه الوصايا الجزيلة القيمة والتي أعتبرها بنفس مستوى تعاليم الآباء الأثوسيين والسينائيين. لقد كان الأب سيرافيم بالنسبة لي أغلى ما أملك في هذا العالم. لم أصرِّح بهذا لأحد من قبل، ولكن رسالتكم جعلتني أكشف أن الستارتس قد دخل إلى قلبي كختم، سيبقى من غير أن يمَّحي إلى الأبد.

في حديث آخر قال لي الأب سيرافيم:

إنني أعرف والدك، في قريتكم كنيستان ستحترقان، ولكن أباك سيبني كنيسة حجريّة جديدة مع جناحين. الجناح الأول سيكون للفقراء. وفي الحريق الثاني سيضطر للسكن في الجناح الثاني. وبالحقيقة احترقت الكنيستان مع القرية سنة ١٨٢٨م، وصار الحريق الثانيّ في عام ١٨٤٠م واحترق بيت والدي فاضطرَّ أن يسكن في أحد أجنحة الكنيسة.

مرّة سألني البار: هل عندك ابن عم؟

نعم عندي.

هل يدرس في الأكاديمية، سيكون هو الملح في كل حياته.

(هذه النبوءة وصلت إلى فيلاريتوس رئيس أساقفة تشيرنيكوف)

وبعد ذلك أكمل:

هل عندك ابنة أخت مريضة . اجلبها معك غداً إلى هنا. وفي اليوم التالي أحضرت معي ابنة أختي ذات الخمسة عشر عاماً. فأخذ ذاك زيتاً من وعاء ومسحها به على جبهتها وعينيها وأذنيها ويديها قائلاً:

تمسح أمة الله راهبة.

وبالحقيقة سيمت بعد فترة راهبة في أحد أديار تامبوف. ثم التفت إلي وقال:

اذهب وعد إلى هنا بعد تسعة أيام.

كانت هذه الفترة حزينة بالنسبة لي. إذ قد هوجمت من أفكارٍ تجديفية قويَّة بحيث أنني لم أستطع أن أدخل الكنيسة. ورغبت في مغادرة الدير ولكن الأب ايلاريون ثناني عن عزمي قائلاً لي:

يعرف الستارتس ماذا يقول. ولما انتهت الأيام التسعة اقتربت بصعوبة من مدخل قلاية الأب سيرافيم، ولم أكد أقول الصلاة حتى رأيته يفتح الباب ويسقط على قدميَّ ويقول لي:

سامحني بسبب التجارب التي تحملتها. لقد حدثت لتعرف ما هي التجارب التي ستصادفها عندما تصبح راهباً ولكن عليك أن لا تضعف.

لبس بطرشيله وعرَّفني وأمرني بتناول الأسرار الإلهية، وبعد المناولة تبدَّد عني كلَّ فكرٍ مظلم.

في الزيارة الثالثة الأخيرة والوداعيَّة، سرَّ الستارتس أن يقول لي:

عندما تصبح راهباً ستبدأ بالارتباط ببلدك ورعيّتك ثم سيأخذونك إلى بلد بعيد، لا تهتم، بل رتل بفرح: «للرب الأرض بكمالها المسكونة وكلُ الساكنين فيها».

أقدم كل احترام طالباً صلواتكم المقدّسة

رئيس دير بالاكلافسكي – غورغيفسكي نيكون

١٧/ كانون الأول / ١٨٦٥ م.

مرّة جاء إليه قائد الجيش أنطونيوس أوفيموفيتش ماخوتن ومعه امرأته، ليأخذا بركته ويسمعا إرشاداته. كان الوقت يوم الجمعة. وبعد أن تبادلا عناق المحبة، بدأ البار يكلمهما بوداعة وفي النهاية سألهما:

هل تنويان البقاء في دير ساروف طويلاً ؟. على كل حال أنصحكما أن لا ترحلا قبل القداس الثاني ليوم الأحد. سنقيم في هذا الأحد عيداً ومجدليَّة كبرى.

سأل القائد الراهبَ في المضافة، وكذلك رئيسَ الدير نيفون عن سبب الاحتفال.

لا علم لنا أننا سنقيم أيَّ احتفال. أجاب رئيس الدير.

في تلك اللحظة بالضبط اقترب من الأب نيفن خادم الدير وأعطاه حزمةً بريدية من ضمنها كانت رسالة المجمع المقدّس تنبئ بولادة الأمير الكبير. وعلى أساس هذه الرسالة وجب أن ترتل مجدليَّة كبرى شكريَّة في الأحد القادم قبل القداس، وأن تقرع أجراس الدير فرحاً كلَّ اليوم. فَتَعجَّبَ كلّ من رئيس الدير وقائد الجيش من موهبة النبوءة التي تميَّز بها الستارتس.

جلبت غابة ساروف أرباحاً كثيرة للدير في أيام رئيسه نيفن ورأى الأب سيرافيم مسبقاً وتنبأ أن عاصفة ستدمِّر أشجاراً كثيرة منها وبالفعل وقعت الكارثة.

نبوءات عن روســـيا

قال البار مرَّة لألكسي يورغيفيتش بوروتيلوف: ستقوم ضد روسيا ثلاث قوى، وستضعفها كثيراً، ولكن بسبب الإيمان الأرثوذكسي سيتحنن الله عليها ويحفظها. لم يفهم بوروتيلوف معنى الكلمات. ولكن ثبت بعد ذلك أن البار كان قد قالها ليدل على حرب القرم. ومرّة كان يتحدث مع موتوبيلوف عن مستقبل روسيا فقال له:

يجب أن نصلي، لأني أرى في بعض الأحيان شيئاً منذراً كغضب إلهي يشبه الغيوم السوداء الدكناء في أفق روسيا الأرثوذكسي النقي.

بالحقيقة ليست هي المرّة الأولى التي يظلم فيها الأفق. فليس من الطبيعي بالتأكيد أن تمرّ ألف سنة من حياة بلادنا الأرثوذكسية دون اضطرابات وتشوّشات روحية. ولكن الروح القدس سيقود بأمان مركب روسيا الأرثوذكسية إلى هدفه بالرغم من الأمواج المزبدة. إنهُ محفوظ بإرادة الله الأزلية. ستهدأ الأمواج والمركب سيكمل مسيرته بشكل طبيعي.

مرّة وفي حالة من اليأس من إزدياد الفساد الجسدي بين الشعب الروسي وعدم طاعته سأل موتوبيلوف الستارتس النبوي.

ماذا سيحدث بعد ذلك يا أبتِ إذا ازداد الشرّ الحالي باطّراد ؟.

أجابه البار:

إن النبي إيليا تذمّر مرّة وقال للرب «كلّ الشعب يسجد للبعل وقد بقيت وحدي مؤمناً أما حياتي ففي خطر». ولكن ماذا قال له الرب ؟ «لا! يوجد سبعة آلاف ركبة لم تسجد لبعل».

فإذا كان في الشعب، الذي وصل آنذاك إلى قمة الفساد، سبعة آلاف مؤمن بالله فكم يمكننا أن نقول بالنسبة لروسيا. فلم يكن عدد الشعب في ذلك الوقت يبلغ ثلاثة الملايين. كم يبلغ عددنا نحن الروس؟

حوالي الستين مليوناً يا أبتِ.

أي أننا أكثر منهم بعشرين مرّة.

فاحسب بمفردك كم يوجد بيننا من المؤمنين بالله فيجب أن لا نقنط «لأن كل الذين حدّدهم دعاهم وكل الذين دعاهم قد برّرهم وكل الذين برّرهم قد خلصهم» (رو ٨: ٣٠). «لأن الله معنا». «المتوكلون على الرب مثل جبل صهيون، الذي لا يتزعزع» (مز ١٢٦: ١) «الرب حافظك، الرب ظلٌ لك عن يمينك فلا تلفحك الشمس في النهار ولا القمر في الليل وليحفظ الرب دخولك وخروجك من الآن وإلى الدهر» (مز ١٢٠ ٥، ٦، ٨).

هكذا يحفظ الربّ خاصته أي المسيحيين الأرثوذكسيين، الذين يحبونه من كل قلوبهم ويحدمونه ليلاً ونهاراً ويحميهم كحدقة العين لأنهم هم أيضاً يحفظون بدقةٍ كل الشرائع، والعقائد والتقاليد ويحيون بحسب وصايا المسيح ويقرّون بإيمانهم قولاً وعملاً.

ولكي يؤكد الحقيقة بأنه لا يزال الكثيرون في روسيا راسخين بالأرثوذكسية، كشف لأحد معارفه الرؤية التالية:«مرّة كنت موجوداً في حالة من الدهش، رأيت الأرض الروسيّة كلها كما لو غطيّت بضباب دخان أبيض. رَمَزَ هذا الضباب لصلوات المؤمنين الصاعدة إلى عرش الله».

وفي أحد النصوص المكتوبة باليد، والذي وجد في قلايته بعد وفاته، كتب مايلي: «بعد سنوات قليلة من نقل رفاتي والتي ستتم في ساروف خلال الصيف بحضور القيصر الأخير وعائلته. ستبدأ في روسيا حقبة من المشاكل وستجري فيها الدماء أنهاراً. سيتشتت الملايين من الروس في كل العالم... هذه المشاكل القاسية سيسمح بها الله لكي يطهّر الشعبَ الروسي، ولكي يخلصه من فتوره. وفي النهاية ستقوم روسيا وستصبح دولة عظيمة. كل هذه، ستبدأ بعد مرور مئة عام على وفاتي. فأنصح كل الروس أن يتهيّؤوا لهذه الحوادث العظيمة بالصلاة والتوبة».

ميزات حياته

بعد أن أنهى البار حياته الانفرادية صار يأكل مرّة واحدة في اليوم عند المساء وكان لباسه الداخلي صيفاً شتاءً قطعة جوخ سوداء سميكة. وفي الصيف كان يلبس فوق قميصه الداخلي رداءً قطنياً أبيض، وفي الشتاء يلبس فروة. واستعمل أثناء الشتاء والحر الشديد رداءً قصيراً من جلد وكان يحزم ثيابه بقطعة من قماش بدلاً من استعماله للحزام الجلدي. ويعلق صليباً من نحاس على صدره.

في الصيف كان يلبس للأعمال خارج القلاية «حذاء الفلاحين»، «شاروخ» وفي الشتاء يلبس أحذية مصنوعة من صوف. أما لحضور القداس الإلهي فكان يلبس أحذية جلديّة لكي يظهر بمظهر لائق. ويضع دائماً على رأسه قلنسوته ولاطيته وإذا تجرأ وخالف القواعد ينزع عن قلنسوته اللاطية الرهبانية. وإذا رغب بتناول الأسرار الإلهية كان يضع البطرشيل والأكمام بيديه وبعد ذلك يستقبل الزوّار في قلايته وهو

مرتديهما. مرّة لاحظ أحد الزوار الأغنياء شدة فقره، فسأله:

لماذا ترتدي هذه الأسمال؟.

فأجابه : إن الأمير يواصف كان يعتبر أن الرداء الرهباني الذي أعطاه أيّاه الناسك برلاعام أثمن من حلّة ملكيّة.

جاهد الأب سيرافيم كثيراً ضد النوم. ففي سنيه الأخيرة كان يقضي ساعات الليل المخصصة للاستراحة، تارة في مدخل قلايته وتارة في قلايته. كان ينام جالساً على الأرض ممدّداً رجليه وظهره مسنود إلى الحائط، وفي بعض الأحيان يستلقي ويسند رأسه على حَجَرَة أو على جذع شجرة. وينام في بعض الأحيان على أكياس فيها حجارة أو أخشاب كانت عنده في قلايته. ولما اقترب زمن وفاته كان يستريح ساجداً وساناً مرفقيه على الأرض وواضعاً رأسه بين راحتيه.

إنكاره النسكي لذاته، محبته وتسليمه إرادته للرب وللعذراء، كانت من الصفات التي تميّز بها.

سنة ١٨٣١م ذهب ايفان ياكوبليفيتش كاراتايف لزيارته وأخذ بركته وبينما كان يتهيأ للسفر إلى كورسك سأل البار:

ربما ترغبون أن توصوا بشيء لأخيكم بالجسد أو لأحد أقربائكم.

عند ذلك أخذ البار أيقونة العذراء والمسيح وقال مبتسماً:

ها هم أقربائي – أما بالنسبة لأقربائي بالجسد فأنا ميت.

مرّة زاره تجار من مدينة كورسك. كانوا عائدين من أحد المهرجانات التجارية. وبعد أن باركهم سألهم إذا ما كانت أعمالهم قد نجحت. فتحدثوا معه بالشؤون التجارية وسألوه وهم راحلون:

ماذا لديكم يا أبانا لنقول لأخيكم ؟.

قولوا له: إني أصلي إلى الرب وللسيدة الكليّة الطهر لأجله ليلاً ونهاراً.

بعد أن رحل التجار رفع يديه عالياً وكرّر بحماس

لا يوجد شيء أفضل من الحياة الرهبانية !.

لا يوجد شيء أفضل من الحياة الرهبانية !.

كان يخصص الوقت المتبقي من راحته ومن اهتمامه بالزائرين للصلاة. كان يتمم جهاده بكل دقة وحماس لأجل خلاص نفسه. كان يصلي كثيراً لأجل كل المسيحيين الأرثوذكسيين الراقدين منهم والأحياء، وعند قراءة المزامير، كان خلال كل محطّة يصلّي من كل قلبه لأجل الأحياء «يارب خلص وارحم كل المسيحيين الأرثوذكسيين العائشين أرثوذكسياً في كل مكان سيادتك. هبهم سلام النفس وصحة الجسد. واصفح عن كل خطاياهم الطوعيّة والكرهيّة وبصلواتهم ارحمني أنا التعس».

وبعد ذلك كان يصلي لأجل الأموات «أرح يارب نفوس عبيدك الراقدين من أجدادنا وآبائنا وإخوتنا. هبهم ملكوتك والتمتع بالحياة السعيدة التي لا نهاية لها واصفح لهم عن كل خطيئة طوعية أو كرهيّة». وفي ساعة الصلاة لأجل الأحياء والأموات كان يشعل شموعاً أمام الأيقونات في قلايته. وحول أهمية هذا العمل قال في حديث خاص مع نيقولاوس. آ. موتوبيلوف بتاريخ تشرين الثاني ١٨٣١م.

قال موتوبيلوف: «رأيت في قلاية الستارتس قناديل كثيرة وشموعاً أكثر منها، صغيرة وكبيرة، موضوعة في زوايا مختلفة. وكان الزائرون يقدمونها له مع الزيت ويتركون في بعض الأحيان نقوداً لشرائها. وأما هو فلم يكن يقبل المال في كل الحالات. وبسبب سيلان الشموع تشكلت تلال من الشمع. وتساءلت: لماذا يشعل الأب سيرافيم كل هذه الشموع والقناديل داخل قلايته. إذ ينتج عن ذلك حرّ لا يطاق؟.

هل تريد يا عزيزي أن تعلم لماذا أشعل هذا العدد من الشموع والقناديل أمام الأيقونات المقدّسة؟. انظروا ها هو السبب. مؤمنون كثيرون يحبونني ويحسنون إلي يتيماتي في دير الطاحون. ويقدمون لي زيتاً وشموعاً ويطلبون أن أصلّي لأجلهم. فعندما أقوم بقانوني أذكرهم أولاً كلهم. ولكن الأسماء كثيرة، ولا أستطيع أن أعيدها لأنني عند ذلك لن

أستطيع أن أعمل قانون صلاتي. إني أشعل هذه الشمعات كذبيحة واحدة للربّ. كل شمعة تقابل مؤمناً والشمعة الكبيرة تقابل عدداً كبيراً من المؤمنين. إذا سقطت الشمعة هذا يعني أن هذا الإنسان قد سقط في خطايا مميتة، وعند ذلك أحني ركبتيَّ لأجله أمام رحمة الله. وأوقد لأجل بعض الناس قنديلاً دائماً. وفي كل مرَّة أريد أن أذكرهم أقول «أذكر يا ربّ كل هؤلاء الناس الذين لأجلهم أوقد هذه الشموع والقناديل» هذا ليس ناتجاً عن تفكيري فقط أو حماساً بسيطاً من غير سند. بل هو مستند على الكتاب المقدَّس. يرد في الكتاب أن موسى سمع صوت الربّ قائلاً له: أوصِ هارون وبنيه أن يشعلوا قنديلاً طوال الوقت من المساء حتى الصباح أمام الربّ. بشكل أبدي ثابت إلى كلّ أجيالكم (لاو ٢٤: ٢ – ٣) هذا هو السبب الذي من أجله توقد كنيستنا شموعاً وقناديل في الكنائس وفي بيوت المؤمنين أمام أيقونات الربّ المقدَّسة وأيقونة والدة الإله والملائكة والبشر القديسين.

وكما كان البار سيرافيم يصلي لأجل الأحياء، كان يصلي لأجل الراقدين بحسب ترتيب الكنيسة الأرثوذكسية. ففي ٢٥ أيار ١٨٣٢م زاره أحد الأشخاص، الذي كتب فيما بعد كل ما تحاور به معه. في البدء ذكر الستارتس دير ديفاييفو ومدح الأخوات لأجل طريقة حياتهن واتعابهن. ثمَّ أخذ نفساً عميقاً وطلب من الله أن ينيِّح الراهبة هيلانة التي كانت قد رقدت منذ فترة قصيرة والمقصود بها هيلانة فاسيليفنا ماندوروف المعروفة لدينا فيما سبق رئيسة دير سيرافيم – ديفاييفو. وكان ذلك التاريخ اليوم الأربعين على وفاتها.

مرَّة أخرى قصَّ البار الحدث التالي:

«توفيت راهبتان وكلّ منهن كانت قد صارت رئيسة دير. وكشف لي الربّ أن نفسيهما قد لاقتا صعوبات في محطات المحاسبة الموجودة في الهواء. فبقيتُ ثلاث ليالٍ مصلياً إلى العذراء لأجل خلاصهما. وأخيراً رحمهما صلاح الله بصلوات السيدة العذراء الكلية القداسة وعبرتا

محطات المحاسبة الهوائية وحصلتا على مغفرة الخطايا».

قصَّ رئيس الدير يوشافاط تيخونوف ما يلي: فيما يخص الجرح الذي حصل للبار من الروح الشرير «كان أحد القرويين المجاورين قد ضايق الأب سيرافيم كثيراً لأنه كان يحاول بشتى الطرق أن يسيء إلى دير ديفاييفو. كان مسيئاً جداً فشكوته للأب سيرافيم وطلبت منه أن نستعمل وسائط قويَّة لكي نبعده عن الدير». فطلب مني أن أذهب ليلاً إلى قلايته. ولما التقينا بدأ كما يلي:

هذا الإنسان أقول أنا أيضاً، إنه يشبه وحشاً، ولكن لندعه لمشيئة الرب ومشيئة السيدة العذراء. وهي التي ستدبّر أمره، إذا أرادت أن تبعده الآن. اعلم أنه باستطاعته أن يصنع شراً أكبر لك وللدير.

وبينما كان الستارتس يتكلّم اعتلاه تعبير رهيب، وبدا وكأن شخصاً ما قد هاجمه أو كما لو كان يحترس من كل الجهات.

وقال لي عندما نتصارع مع عدو نقف هكذا!

ثمَّ عاد إلى هيئته المتواضعة. وللحال كشف لي عن سرّ مقدس:

لقد علمت مرَّة (لم يظهر إن كان قد علمه من رؤيا أو ذكره له آخر) أن نفساً تعيسة قد علقت بأظافر الشيطان (لم يكشف الستارتس بماذا كانت قد أخطأت) صليت لأجلها إلى الرب ووالدة الإله ورأيتها تطير برحمة الله من أظافر الشيطان كحمامة كليَّة الضياء. ولكن الروح المفسد لم يستطع أن يتحمل هذه الخسارة فنفث عليَّ كلَّ شرِّه. وبينما كان يقول لي ذلك أخذ يدي ووضعها لتتحسس مكان الجرح الذي كان قد حصل له من الشيطان والذي شفي بأعجوبة. وبالحقيقة فقد لمست الجرح في ظهر الستارتس، بين كتفيه، كان بقدر بيضة، طرياً جداً ومتدلياً كقطعة لحم وكانت هذه العلامة في ظهره حتى وفاته. وكما قال لي فقد شابه ألم الجرح ألم إصبع تحترق في النار.

«فلو لم يشفني الله والعذراء الكليّة القداسة، أكمل الستارتس، ما كان باستطاعة أحد أن يشفيني».

قصت الأميرة .E الحدث التالي:«جاء أبن أخي من بيتروبولي مريضاً وكان يعاني من ضعف شديد إلى درجة أنه لم يكن باستطاعته أن يمشي وحده. ودون أي تباطؤ أتيت به على حمالة إلى ساروف ومنه إلى الأب سيرافيم.

كان الستارتس في ذلك الوقت واقفاً أمام باب قلايته كما لو كان ينتظر المريض. ولما ولجنا إلى الداخل قال له: يا فرحي سنصلي معاً أنت وأنا ولكن انتبه. ستبقى مستلقياً كما أنت ولن تتحوّل إلى الجانب الثاني.

بقي الشاب ساعات طويلة على حالته حتى نفد صبره وأراد بحب الفضول أن يرى ماذا يفعل البار. ولما استدار، رآه واقفاً في الهواء في حالة الصلاة. كان المنظر مفاجئاً وغير اعتيادي مما جعل الولد يصرخ.

أنهى البار صلاته واقترب من الشاب وقال له:

الآن ستقول للناس إن سيرافيم هو شخص قديس إذ أنه يصلي في الهواء ... ليرحمك الله. احذر !. حتى وفاتي لا تقل لأحد ما رأيته وإلا فإنك ستمرض من جديد.

نهض الشاب من فراشه بالطبع مسنوداً من آخرين ولكنه خرج من القلاية ماشياً. وفي بيت الضيافة حاصره الموجودون بالأسئلة.

ماذا صنع لك ؟ ماذا قال لك الأب سيرافيم ؟

ولكي يزداد العجب لم يجبهم بكلمة، ووصل إلى بطرسبرغ معافى تماماً. وبعد فترة جاء لزيارته فأخبرته أنه قد رقد. فكشف لي عن صلاة البار في الهواء. هي المرّة الوحيدة التي رأته فيها عينا إنسان على هذه الحالة. ولكن هذا لا يعني أنها المرّة الوحيدة التي رفع فيها الستارتس في الهواء وهو يصلي».

علاقة البار مع شخصيات روحية

من غير أن نتجاوز الحد فإن كل روسيا عرفته وكانت تكرّمه. كان صيت الناسك العظيم قد طبّق الأفاق. كثيرون من نساك عصره ومعارفه كانوا يغدقون عليه المديح معرّفينه بكل احترام أمام الآخرين. الكل كانوا

ينظرون إليه « كمدينة مبنية فوق جبل».

كهنة ورؤساء كهنة الكنيسة الأرثوذكسية، وأناس روحانيون وأصحاب قامات في الفضيلة كانوا يكنّون احتراماً عميقاً لناسك ساروف. وبعض الأساقفة كانوا يكتبون له الرسائل ويطلبون نصائحه. لكن رسائله تلك لم توجد بعد وفاته.

كان رئيس أساقفة بورونيز انطونيوس يرسل له بعض الهدايا وعلى وجه الخصوص أيقونات وبعد أن يستلمها كان يبدي رسومات القديسين ويقول:

ها هم الذين يرشدوننا إلى الطريق نحو الأبديّة. وكان يجيب على رسائل رؤساء الكهنة شفهياً ومرّات بالكتابة. وكان يكن محبة واحتراماً عظيمين لرئيس الأساقفة أنطونيوس ولما كانت ذكراه ترد كان يدعوه «رئيس كهنة الله العظيم ».

هنأ البار سيرافيم رئيس الأساقفة أنطونيوس برسالة كتبها بيده على اكتشاف رفات البار مطروفانس المقدسة. (اكتشفت رفات البار مطروفانس بعد ذلك، في سنة ١٨٣٢م وفي العام نفسه أعلنت قداسته. حتى ذلك الوقت لم يكن قد سمع عنه شيئاً وقد أظهر رئيس الأساقفة رسالة البار هذه للبعض) ويقول بعضهم أنها لا تزال محفوظة في أرشيفه.

عرف الأب سيرافيم الكثيرين من الكهنة المتزوّجين الذين لمعوا بالتقوى والقداسة. كان يحترمهم جداً إلى درجة أنه كان يرسل إليهم زائريه لكي يعلّموهم ويرشدوهم. من بين هؤلاء الكهنة كان الأب الكسيوس جنيفاسيف كاهن قرية باسورمان في منطقة سيبرسك كوورمسك، الذي توفي في ٢١ نيسان ١٨٤٨م عن عمر ناهز الخامسة والثمانين. كان الأب سيرافيم يعتبره ناسكاً عظيماً وكان يقول دائماً:

عندما يصلي هذا الإنسان لأجل نفوس المسيحيين يشبه شمعة تشتعل أمام عرش الله. إنه مجاهد ومن غير أن يعطي النذور الرهبانية

فهو ارفع من رهبان كثيرين. انه مضيء كنجمٍ نيِّرٍ في السماء الروحية.

روى الأب الحبيس جاورجيوس من دير والدة الإله في راندونسك للمبتدئ .N.B ما يلي:

«إنَّ هذه الصورة التي تراها على الحائط هي للأب سيرافيم الذي من بريَّة ساروف. لقد كانت حياته الإلهية معروفة للجميع. في زمن مضى كنت ولفترة طويلة أعاني من الفكر التالي. كنت أفكر أن أرحل إلى دير آخر أكثر هدوءاً لأن الزوار والرسائل كانوا يضايقوني كثيراً، ويصدف في بعض الأحيان أن يكتبوا شيئاً مهماً، فكان عليَّ أن أجيب. جاهدت مع فكري مدَّة سنتين، من غير أن أقرر شيئاً. ومن غير أن أقول لأيٍّ كان شيئاً. وكنت أورد في ذهني كل الأماكن حيث كان بإمكاني أن أتوحد فيها أكثر. وفي يوم من الأيام دخل إلى قلايتي أحد الخدام.

أعلن لي أن أحد الزوار قد قدم من ساروف. ويحمل لك معه بركة ودعاء الأب سيرافيم وقد أوكل إليه أن يقول لك كلمتين بشكل خاص.

أجبته دعه يدخل.

بالحقيقة دخل وقال لي:

يعلن لك الأب سيرافيم أنَّه مخْجَلٌ بعد هذه السنوات الطويلة من التوحد أن تطيعوا الأفكار المعوجَّة وتتركوا مكانكم. لا ترحلوا إلى أي مكانٍ آخر. إن العذراء الكليّة القدّاسة توصيكم أن تبقوا حيث أنتم.

ثم صنع الزائر سجدة ورحل. أما أنا فبقيت كالمصعوق كيف أن إنساناً من غير أن يعرفني وحتى من غير ان يتراسل معي، عرف أفكاري الخفيَّة. استعدت وعيي سريعاً وطلبت من الشماس أن يعيد الزائر ثانية على أمل أن استوضح منه أكثر. ولكنه لم يستطع أن يجده في أيِّ مكان لا في الدير ولا حوله. ومنذ ذلك الوقت هدأت روحي وتوقفت عن التفكير بتغيير المكان».

من علاقات البار الروحيَّة مع معاصريه من النساك وعلى وجه

الخصوص من أعمالهم المشتركة التي كانت تصبو إلى الهدف ذاته، كانت الحادثة التالية التي تستحق الانتباه بشكل خاص.

كانت ماريا ايكونيكوف من تومسك قد دارت مرّات عديدة على الأماكن المقدسة. ومرّة ذهبت إلى مدينة اتسينك إلى الستارتس دانيال. وتقدمت لأخذ بركته للذهاب إلى زيارات حج مستقبليّة. فلم يدعها الستارتس تدخل إلى قلايته بل استقبلها خارجاً. رماها بنظرة قاسية وقال لها بصوت قوي:

لماذا جئت إليَّ أيتها الزائرة الحمقاء ؟ لماذا تدورين متلاعبة على الله وعلى الناس؟ إنهم يعطونك مالاً للشمع والطلبات وأنت تتجرَّئين أن تصرفيها على طرقك الغريبة. في مكانٍ ما شريت خمراً بثمن غالٍ وفي غيره تكلمت بوقاحة. لقد قطعت مسافة عظيمة بعربة ودفعت الأجرة من النقود التي أعطيت لك نذراً لله. يجب أن تحترمي نفسك. اذهبي واقطني في تومسك ولتعيشي من عملك اليدوي بأن تنسجي جوارب وعندما تشيخين اطلبي حسنات لتعيشي. أطيعيني ولا تتجولي ثانية في روسيا.

وإذا كان الأب دانيال يتحدث، أفزع الزائرة بعصاه ثم دخل إلى قلايته. ومن غير أن تتفوه المرأة بكلمة ركعت، ثم عادت إلى تومسك حيث أقامت في بيتها. فقررت أن تتوقف عن زيارة الأماكن المقدَّسة وبدأت تشتغل بالعمل اليدوي. مرَّت ستة أشهر، بعدها أراد بعض أقاربها ومعارفها أن يحجّوا إلى كييف وطلبوا منها أن ترافقهم لأنها كانت ذات خبرة. في البدء رفضت ولكنها في النهاية رضخت.

ولما وصلوا إلى ساروف توجهوا إلى منسك الأب سيرافيم لكي يأخذوا بركته لأجل الطريق. فاستقبل الآخرين بفرح وباركهم وأعطاهم خبزاً مجففاً ولكنه طرد مرشدتهم على الطريق، ولم يقل لها كلمة قط.

مرَّ أسبوع وفي النهاية تهيأ زوار ساروف للرحيل. فاقتربت ماريّا من بابه وصرخت بدموع: يا أبتِ سيرافيم أعطني بركتك لأجل الطريق إن

رفاقي يرغبون بالرحيل.

عند ذلك خرج من قلايته ورمقها بقسوة وصرخ.

لماذا تتجولين في روسيا ألم يمنعك عن ذلك الأب دانيال؟ ارجعي إلى بيتك.

أعطني يا أبت البركة أن أذهب للمرّة الأخيرة. ولن أذهب بعدها ثانية.

قلت لك عودي إلى بيتك. لن أعطيكِ البركة لن تكمّلي، صرخ البار مرَّة أخرى.

كيف سأعود يا ابت ؟ إن الطريق طويل ولا أملك كبِّيكاً واحداً !

عودي، وارجعي ! سيعيدونك بأحصنة إلى تومسك من غير مال.

في النهاية باركها وأعطاها قطعة كعك وأغلق الباب وراءه. انفصلت المرأة عن رفاقها في السفر ورجعت أدراجها. وفي مدينة نيزني نوفكورد التقت ببعض معارفها من التجار الذين أخذوها إلى تومسك.

إن عبيد الله يرون ويسمعون بعضهم بعضاً بالأحاسيس الروحيَّة.

ظهور العذراء

استحق البار أن يتقبَّل زيارة والدة الإله قبل وفاته بعام واحد وعشرة أشهر أي في ٢٥ آذار ١٨٣١ في الصباح الباكر. قالت الراهبة افبراكسيا من دير ديفاييفو. «قبل الرؤيا بيومين طلب مني الأب سيرافيم أن أزوره. ولما ذهبت قال لي:

ستزورنا سيدتنا الكليَّة القداسة. عند ذلك حنيت رأسي وغطاني بمنتيته، وقرأ عليَّ من كتاب، ثم أنهضني وقال لي:

تمسكي بي ولا تخافي شيئاً.

فسمعت ضجَّة كما من ريح قويَّة في وسط الغابة. ولمّا توقفت الريح سمعت ترنيماً عذباً. وفتِحَ الباب وحده ودخل ضوء أشدُّ لمعاناً من الشمس، وامتلأت القلاية برائحةٍ زكيَّة أطيب من رائحة البخور. كان الأب

راكعاً ويداه مرفوعتان، وأنا أرتجف من الخوف. وفجأة وقف وقال لي:

لا تخافي، يا ولدي. هذا ليس شيئاً شيطانياً، إن رحمة الله تسمح لنا بذلك. ها هي الكلية الطهر والكليَّة المجد سيدتنا والدة الإله الكلية القداسة قادمة قريباً منا.

بالحقيقة تقدَّم الموكب ملاكان، أحدهما يمسك بيده اليمنى والآخر بيده اليسرى أغصاناً قد ازهرت منذ وقت قصير. وشابَةَ شعرهما خيوط الذهب وكان منسدلاً على أكتافهما بحريَّة. وخلفهما يسير القديس يوحنا السابق والقديس يوحنا اللاهوتي لابسين ثياباً بيضاء برّاقة.

ثم ظهرت العذراء والدة الإله ذاتها تتبعها اثنتا عشرة عذراء وكانت مرتديّة منتيَّة كالتي ترتديها في أيقونة «يا فرح جميع المحزونين» كانت منتيَّة منيرة وجمالها لا يتخيَّل، وبلون لا يمكن أن أعبِّر عنه و معلقة تحت الذقن، بعلاقة زنارٍ كبيرة مستديرة ومقفلة. وكانت المنتيّة مكتسية بصلبان ومزينة بأشكال عديدة ولكن لم أعرف بماذا. وما أذكره أنها كانت تشع بنور غريب. وتحت المنتيَّة لبست ثوباً أخضر مشدوداً في الأعلى بزنار. ويتدلى من عنقها شيء يشبه البطرشيل، وأكمام، ولباسها مزيَّن كله بصلبان. وقامتها أطول من كل العذارى وتضع على رأسها تاجاً رائعاً مزيناً بصلبان أيضاً. وكان التاج شديد اللمعان بحيث لا يمكن أن تقابله عين. وكذلك حلقة الزنار. ووجهها وشعرها أطول وأجمل من شعور الملائكة ويتهدل على كتفيها بحريَّة.

كانت العذارى تتبعنها اثنتين اثنتين، وكنّ أيضاً يلبسن تيجاناً ولكنهنّ كنَّ يختلفن عنها من ناحية الشعر واللون وكذلك بالشكل والقامة، وكنَّ جميعهنَّ جميلات جداً. بعضهنَّ انفصلنَ ووقفنَ حولنا. والملائكة تقف في الوسط وبدت كأنَّ القلاية واسعة جداً. وكان كلّ شيء نوراً، ولكنه نور أشدّ لمعاناً وبياضاً من الشمس فخفت وسقطتُ. فاقتربت مني السيدة ولمستني بيدها اليمنى وارتضت أن تقول لي:

قفي يا أختي ولا تخافي منّا. لقد قدمت معي عذارى مثلك.

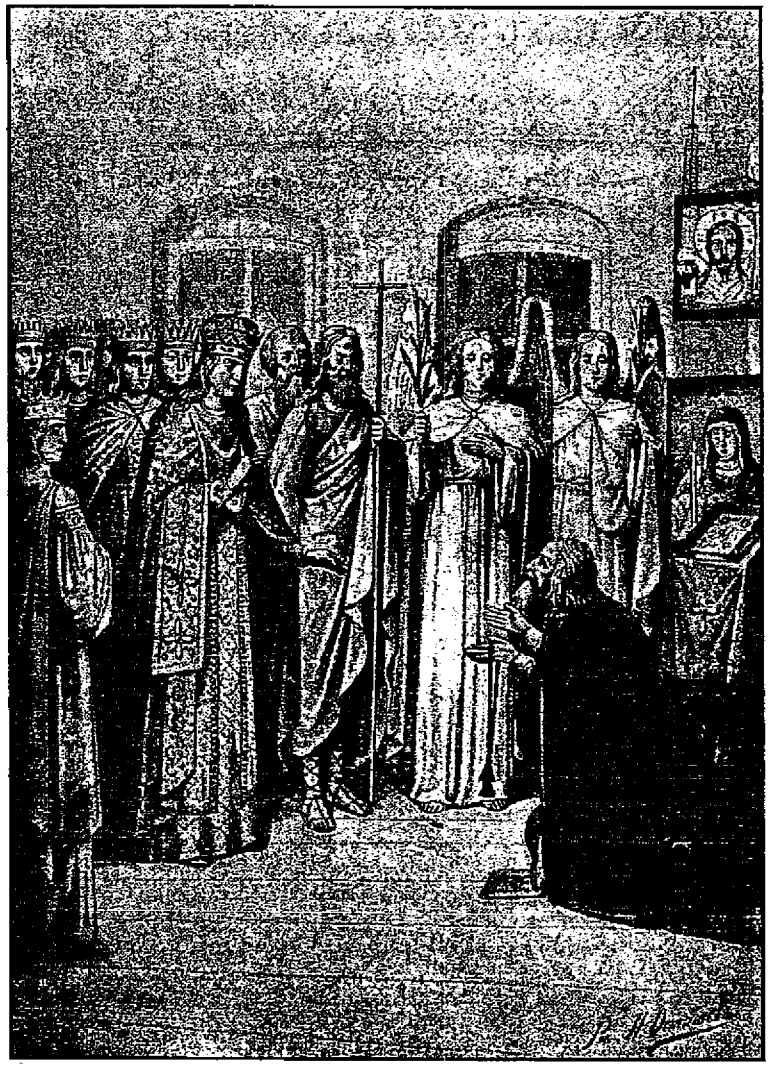

«ظهور العذراء»

لم أدرك كيف وقفت، وكررت الملكة السماوية.

لا تخافي ! لقد جئنا لنزوركم.

كان الأب سيرافيم قد وقف منتصباً أمام والدة الإله الكلية القداسة وهي تتكلم معه بشكل طبيعي وبود كما لو كانت تتكلّم مع أحدِ أخصائها. سألتُ الستارتس بفرح عظيم، أين نحن ؟ ومن هم هؤلاء ؟

ظننت أنني لم أعد على قيد الحياة. عند ذلك كلمتني والدة الإله وقالت لي:

اقتربي وحدك من العذارى واسأليهنَّ بنفسك. فاقتربت، في الصف الأول كانت العظيمتان في الشهيدات بربارة وكاترينا.

في الصف الثاني، أول الشهيدات تقلا والعظيمة في الشهيدات مارينا.

في الصف الثالث، القديسة ايريني والبارة ايفبراكسيّا.

وفي الصف الرابع، العظيمة في الشهيدات بيلاجيا وذوروثيا الإنطاكيَّة.

وخلفهن البارة مكرينة والشهيدة يوستيني.

في النهاية تبعت العظيمة في الشهيدات يولياني والشهيدة أنيسيّا.

اقتربت منهن صفاً بعد صف وكن يقلن لي أسماءَهن ووصفنَ لي كما في السنكسار حياتهن واستشهادهن الذي تحمَّلنه لأجل المسيح وبعد ذلك قلن لي:

لم يهبنا الله هذا المجد مجاناً ولكن بالشهادة وأنتِ أيضاً تستشهدين.

قالت والدة الإله الكليَّة القداسة أشياء كثيرة للأب سيرافيم وبالرغم من اشتراكي بالرؤية لم استطع أن أسمعه. سمعت فقط ما يلي:

لاتترك العذارى (راهبات ديفاييفو)

آه يا سيدة أجاب الستارتس إنني أجمعهنَّ ولكنني لا أستطيع أن أرشدَهنَّ وحدي.

أنا سأساعدك في كلِّ شيء. ستعلمهنَّ الطاعة. إذا حافظن عليها سيكونَّ معك وبالقرب مني. و إلا سيخسرن نصيبهن بين هؤلاء العذارى اللواتي هنَّ الأقرب إليَّ ولن يتمتعن لا بهذه المرتبة ولا بهذا التاج. وكل من يحقِّرهنَّ سيعاقب مني وكل من يخدمهنَّ إكراماً لله سيجد رحمة أمامه.

بعد ذلك توجهت العذراء إليَّ وقالت:

انظري إذن إلى هؤلاء العذارى وإلى تيجانهنَّ. بعضهنَّ تركن ملكاً أرضياً وغنى لأجل ملكوت السموات. جميعهنَّ أحببن الفقر الطوعي. وأحببن السيد فقط ولهذا ترين كم هو المجد والكرامة التي استحققنها. وكما تحملت الشهيدات الأوائل هكذا تتحمَّل المعاصرات. فقط أولئك تحملن علناً بينما اليوم يتحملن سرياً بحزن القلب وسينلن الأجرة ذاتها.

بعد ذلك استدارت والدة الإله الكلية القداسة نحو الستارتس وباركته وقالت له:

قريباً، أيها العزيز، ستكون معنا.

وتبادلت معه السلام وكذلك كلّ القديسات وباركه كلّ من السابق ويوحنا اللاهوتي، أما العذارى فسلمن عليه مصافحة باليد، وتوجه إليّ أحدهم قائلاً:

لقد استأهلت هذه الرؤية بفضل صلوات الآباء سيرافيم. ومرقص ونزاريوس وباخوميوس.

وفجأة اختفى كلّ شيء وانتهت الرؤيا. التي دامت أقل من ساعة.

فقال لي الأب سيرافيم: أرأيتِ يا أخت مقدار النعمة التي أهلنا الرب أن نتمتع بها نحن الوضيعين. واليوم قد أهلت أنتِ أيضاً. إنها المرَّة

الثانية عشرة التي استأهلت أن أعاين بها رؤيا. يمكننا أن نحتفظ بإيماننا ورجائنا بالرب. انتصري على الشيطان عدوِّنا وعيشي دائماً بحكمة. سيساعدك الرب في كلِّ شيء. اطلبي معونته ومعونة السيدة العذراء والقديسين واذكريني أنا الوضيع. وفي صلاتك قولي يارب كيف ستكون ساعة موتي ؟ يارب كيف سأقترب من الدينونة الرهيبة ؟ كيف سأجيب عن أفعالي ؟ يا ملكة السموات أعينيني ».

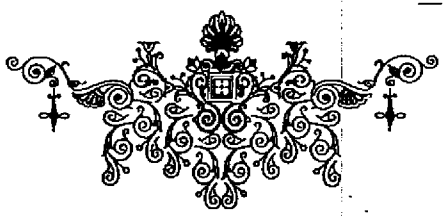

الفصل الحادي عشر

نحو الأخدار السماوية

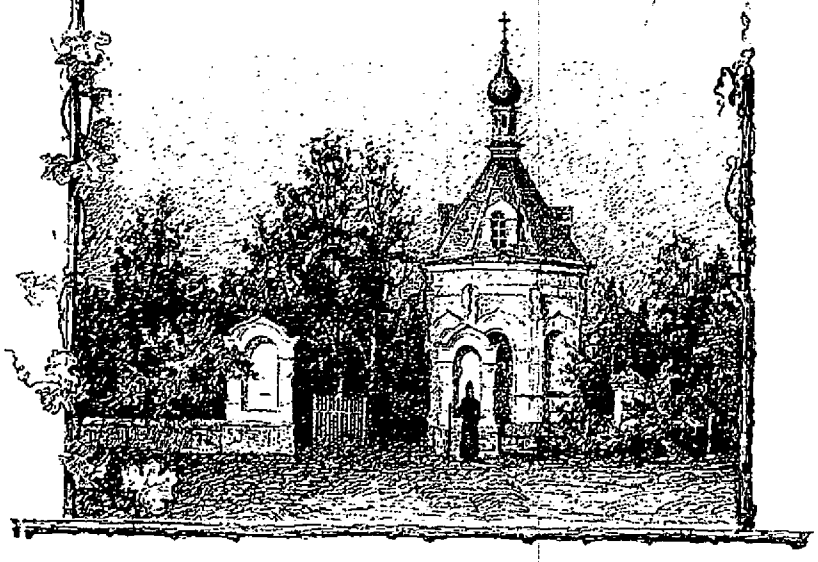

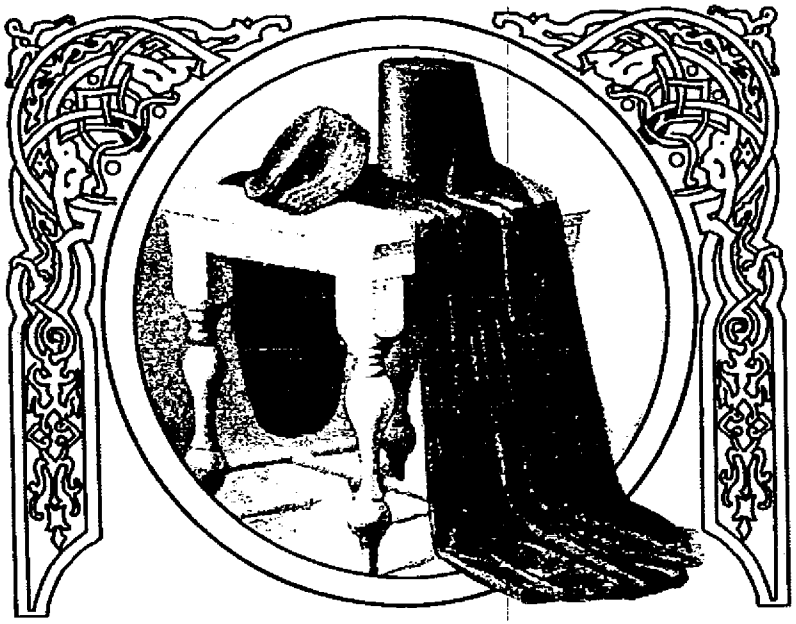

لقاءاته الأخيرة

شعر البار قبل وفاته بعام واحد بضعف جسدي شديد. إذ كان عمره آنذاك اثنين وسبعين عاماً. أما الترتيب الذي تبعه بعد أن أوقف حياة التوحد فقد وجب الآن ودون مفرٍّ أن يتبدَّل. وصار نادراً ما يذهب إلى البريّة. ولم تبقَ لديه القوى الكافية ليستقبل في الدير باستمرار كل الزوّار. مما كان يحزن الشعب الذي اعتاد أن يقابله بلا مانع، أما الآن فبدأ يمتنع عنه.

لكن الكثيرين منهم كانوا يملكون الحماس ليبقوا فترة طويلة في مضافة الدير بانتظار اللحظة التي يكون فيها قادراً على استقبالهم لكي يروه وليسمعوا من فمه تعليمه المشتهى وتعزيته.

وبشكل نادر أكمل الستارتس تعليمه وشفاءه بالصلاة وإعلان المستقبلات. وهذه الحوادث التي سنوردها الآن حدثت مع الزوّار خلال السنة الأخيرة من حياته.

قصّ الراهب لابس الجبَّة باسيليوس من دير بيتسيرسك من نيزينكورد ما يلي:

«في عام ١٨٢٥م جاء أبي يوليوس صاموئيلوف إلى بريَّة ساروف مع ابنيه الصغيرين أنا ذو ستة الأعوام وأخي كيرلس. فقد أراد أن يصلي وأن يطلب بركة الأب سيرافيم. وصلنا الدير في عيد الصليب الكريم المحيي ثم ذهبنا إلى قلايته في اليوم التالي بعد القداس الأول. وبعد أن باركنا الستارتس قال لأبي.

لن يهتمَّ بكَ باسيليوس في شيخوختك. اشتر له إنجيلاً. إنَّ كيرلس هو الذي سيعيش معك وسيساعدك، وكان والديَّ دائماً يذكرانني بهذه النبوءة. وفي سنة ١٨٣٢م كان عمري أربعة عشر عاماً، اشتهيت أن أذهب إلى ساروف وحدي لكي أسترشد بالستارتس النبوي. فأخذت الإذن من والديَّ وانطلقت. ولما التقيته أردت أن أسأله عن تطوّر مستقبلي. أما هو فسبقني وقال لي:

يا فرحي ستدخل إلى الدير.

يا أبتِ إنني عبد مزارع.

قال لي اسمع، ستساعدك العذراء وستتركك سيدتك حرًّا بتوسط شخصيات عالية المستوى.

بهذه النبوءة المعزية و ببركة الأب سيرافيم انطلقتُ إلى البيت. ولما صرت في السابعة عشرة من عمري، أخذت موافقة أهلي لأصبح راهباً بالرغم من أنني كنت لا أزال عبداً مزارعاً. دخلت إلى بريَّة ساروف وقد دلّت السنتان اللتان قضيتهما في ساروف أنني مستحق أن أنتسب إلى صفّ المبتدئين. عند ذلك أعطاني رئيس الدير نيفن البركة لكي أذهب وأهتم بالحصول على حريَّتي والتخلّص من حالة العبودية.

انطلقت إلى بطرسبرغ وأرشدتني العناية الإلهية أن أتوجَّه إلى الأب أغناطيوس رئيس دير القديس سرجيوس. وافق الأب الطيب مباشرة على طلبي، وبسرعة استطاع تحقيق حرّيتي المشتهاة. وأصبحت مبتدئاً في برية ساروف. ومن هناك نقلت إلى دير بيتسيرسكي في نيزينكورد، وهكذا تحققت نبوءة الستارتس بكاملها».

قصَّت الراهبتان الأختان بالجسد، كاترين وآنّا باسيليفنا لاتيزنسكي ما يلي:

سنة ١٨٣٢م تلقى أخونا أمراً بمرافقة بعثة كنسيّة إلى الصين، وكان قد صار من قَبْلُ قائدَ بعثة عسكريَّة إلى أورينبورك. وكانت طريقه تمرّ من نيزني نوفكورد. حيث كانت عمتنا رئيسة دير رفع الصليب الكريم. ولما كانت رئيسة وشيخة محترمة، اشتهى أن يزورها. وأخبرنا نحن أيضاً (وكنا وقتئذ نقيم في بينز) أن نذهب إلى نيزني نوفكورد لكي نلتقيه.

التقينا في الأسبوع العظيم، في الفترة التي تتوقف فيها المواصلات، ولهذا أجبر على البقاء. ومن جهة أخرى كان قد أرهق من السفر المتعب. وفي الحملة العسكريَّة الأخيرة كان قد جرح في يده اليسرى. والآن قد اشتدَّ عليه الألم وصار من الواجب أن يقوم بعلاجها بأخذ الحمامات الطبيَّة.

كنت أنا وأختي نحمل ثقة حارة بصلاة الأب البار سيرافيم، فاستفدنا من توقف أخينا اللاإرادي وبدأنا نشجعه على المجيء معنا إلى ساروف لكي يأخذ بركة الستارتس لسفرته البعيدة والخطرة.

بعد محاولات كثيرة خضع لطلباتنا ولكنه لم يقم بذلك عن إيمان بقداسة الأب سيرافيم بالرغم من أنَّه كان يحترمه، بل من محبته لنا، لأننا قلنا له: إنه فقط عندما يزور بتقوى شيخنا المحترم سيهدأ اضطرابنا من جهته.

في اليوم السابق لذهابنا حصلت بيننا مناقشة طويلة. تحدثنا بشكل خاص عن الأيقونات المقدَّسة وعن الأيقونات العجائبيَّة الكثيرة

منها. كان أخونا يؤكد أنها كلها واحدة. قال أما تمييزنا الأيقونات وتسميتنا لبعضها بالعجائبية فهو ضلال. كنا نرغب بالوصول إلى ساروف نهار الأحد أو في عيدٍ ما لكي يرى أخونا الستارتس للمرّة الأولى داخل الكنيسة وهو ذاهب ليتناول الأسرار المقدَّسة. ولما وصلنا إلى الدير ذهبنا إلى القداس الإلهي الأوَّل الذي كان الستارتس يتناول فيه عادة. ولما انتهى القداس دخل أخونا إلى الهيكل لكي يأخذ بركته وليقول له كل ما أوصته به عمتنا والأسقف أثناسيوس الذي كان يشرف على منطقة نيزينكورد روحياً وبعد ذلك انتقل هذا الأسقف إلى تامبولسك حيث رقد.

أما نحن فعدنا إلى قلايتنا في بيت الضيافة. وعاد أخونا بسرعة وقد أظهر تحولاً عجيباً. كلماته الأولى أظهرت أن الستارتس قد صنع معه عجيبة عظيمة.

قال لنا: في الوقت الذي كنت أنقل إلى الأب سيرافيم أقوال عمتنا ورئيس الكهنة، أمسك يدي اليسرى وضغط عليها بشدة ولولا حيائي لكنت صرخت. والآن لا أشعر بأي ألم على الإطلاق.

بعد المائدة ذهبنا معاً إلى الغابة إلى منسك الستارتس، ورأيناه من بعيد جالساً بالقرب من البئر. لابساً ثوبه الأبيض. ومزنَّراً وسطه بحزام من صوف وكتفاه مغطاتان بقميص جلدي. فطلبنا وقتئذٍ من أخينا أن يقترب وحده بينما كنا نراهما من بعيد. كما بدا لنا، لقد استقبله الأب سيرافيم بترحاب كبير. وبعد أن باركه، أجلسه إلى جانبه وتحدَّث معه نصف ساعة تقريباً. وفي النهاية رفع الستارتس رأسه وصنع لنا إشارة بيده لنقترب. وإلى أن وصلنا نهض وركش خضاره بالمعول. وبعد أن باركنا قال لأخينا: انتظر سأعود.

دخل إلى منسكه وخرج للفور ماسكاً نصف قربانة. فأعطاها له وقال بمحبَّة.

هذه لك من كل قلبي. وأضاف بحزن.

أما نحن فلن نتلاقى ثانية.

لا يا أبتِ _ سآتي غداً إليك، قال أخي بتأثرٍ.

لن نلتقي مرّة ثانية. كرَّر الستارتس.

أصرَّ أخي. في طريق العودة سأتي لأراكم.

لا، لن نتلاقى نحن ثانية.

ودَّعنا الأب سيرافيم وانطلقنا نحو الدير. في الطريق سألْنا أخانا.

إننا نراك متغيِّراً جداً، أين يكمن ذلك ؟.

إنني مقتنع الآن تماماً بقداسة الرجل الإلهي وموهبته النبويَّة. وكل ما قلتماه لي عنه هو حقيقة ولم تزيدا في شيء.

قلنا له حدثنا بتفاصيل دقيقة.

عند ذلك قصَّ علينا ما يلي:

اقتربت لأخذ بركته وشرحت له أنني ذاهب إلى الصين، وقد تعمدّت المرور من ساروف لأحصل على صلاته ودعائه لي لأجل هذه السفرة الطويلة باركني وجعلني أجلس إلى جانبه وقال لي:

يا أخي ماذا تنفع صلاتي وبركتي أنا الخاطئ. أطلب المعونة من ملكة السموات. يُوجد في كنيستنا الشتوية أيقونة الينبوع المحيي اذهب وقدِّم هناك ابتهالاً. إنها عجائبية. ستساعدك... هل قرأت يا أخي سيرة يوانيكيوس العظيم. إنني أنصحك بقراءتها. كان ضابطاً وإنساناً متميِّزاً حتى قبل أن يصبح مسيحياً. آمن بالرب ولكنه كان مُضَلَّلاً مثلك في موضوع الأيقونات. كن رحوماً على الآخرين إذا كنت تريد أن يكون الرب رحوماً معك وفي الختام قال لي أنني سانجح في رسالتي الموكلة لي وسأعود معافى.

عدنا مباشرة من المنسك إلى كاتدرائية الدير. وكان أخونا ملتهباً بالمحبة والثقة به. فأراد أن ينفِّذ وصيَّته من دون تأخير، بقيامه بابتهال إلى ملكة السماوات. وبعد ذلك طلب السنكسار من صديقنا الأب المتوحد أناسطاسيوس لقراءة حياة القديس يوانيكوس وتأكد أنه كان ضابطاً وعطوفاً، صار مسيحياً. ولكنه بالنسبة للأيقونات كان متمسكاً ببعض

الضلالات. في النهاية وجد أحدَ الأباءِ الحبساء كالأب سيرافيم. الذي حرَّره من الضلالة.

لما رحل أخونا من ساروف كان ممتلئاً محبةً وثقةً بالبار. وشعر أنَّه قد تعافى بالجسد والروح فرمى كل أدويته. وبعد مدَّة كتب لنا أنه لم يشعر على الإطلاق في أي وقت أنَّه معافى بهذا المقدار.

ونجح في مهمته بنعمة الله وصلوات الستارتس. ولدى عودته أراد أن يزور الأب سيرافيم مرّة ثانية فأخبرناه أنه لم يعد على قيد الحياة. وهكذا اكتملت نبوءته التي قالها لأخينا لدى وداعه إيّاه « إننا لن نتلاقى ثانية ».

ظهرت موهبة الستارتس النبويَّة من خلال واقعة آخرى حدثت مع أخينا. لما كان راحلاً عن ساروف أعطى للأب انسطاسيوس شيئاً ليس بذي قيمة لكي يسلمه للبار مع محبته. ولما تناوله الستارتس ارتضى أن يقول:

سيأتي ثانية إلى هنا ولكن ليس وحده. أوصيته أن لا يترك امرأته.

نقل إلينا هذا الخبر الأب أنسطاسيوس في دير ساروف وذلك بعد عدة أشهر من رحيل أخينا.

لم نشك إطلاقاً بحقيقة أقوال البار بالرغم من أن أخانا لم يعبِّر إطلاقاً عن رغبته بالزواج. ولما عدنا إلى البيت كتبنا له ما سمعناه فأجابنا هو كالتالي «لم يخب الأب حتى ولا في هذا لقد كشف أعماق قلبي. فقد وجدت شابة كما كنت أريد وأهدف إلى الزواج منها».

قَصَّتْ إحدى الأختين المدعوَّة كاترينا الحدث التالي:

مرَّة زرت دير ساروف برفقة أختي آنّا التي رغبت بأن تقدم لأيقونة رقاد العذراء أساورها وأقراط أذنيها. ولكي تخفي عملها هذا سلمتها لصديقنا الأب المتوحد دامسكينوس ورجته أن يعطيها لرئيس الدير من غير أن يذكر لأحد شيئاً.

تمَّ هذا العمل أمام باب قلاية الستارتس المغلق. ولما تقدمنا إلى

مدخل القلاية استقبل أختي بفرح كبير. وقال لها:

ستكافئ والدة الإله، تضحيتك الآن وفي المستقبل.

لقد كنا يتيمتين وكان الستارتس تعزيتنا الوحيدة لأنه كان يقول لنا باستمرار إنه هو الذي سيعزينا، وهو سيصلي لأجلنا. والآن نؤمن أننا قد حصلنا على التعزية إذ أن الرب ووالدة الإله أهَّلانا نحن الأختين كاترين وأنا أن نحصى بين راهبات ديفاييفو، ونقدم حماسنا لأجل خير هذا الدير المقدَّس كأقلِّ المال قيمة.

ومما يستحق التسجيل بشكل خاص، حديث الستارتس مع بوغدانوف، الذي استحق في عيد الميلاد عام ١٨٣٢م أن يراه في دير ساروف.

«يقول: أتيت شخصياً إلى كنيسة المشفى قبل بدء القداس الإلهي. ورأيت البار سيرافيم في الخورص على اليمين جالساً فركضت مباشرة وأخذت بركته.

قلت له: يا أبتِ. أريد الحديث معك.

ليس الآن، ليس الآن. أجابني.

انتهى القداس الإلهي فاقتربت منه ثانية.

وبدلاً من السلام قال لي: كل الأشياء ستسير بشكلٍ حسن بصلوات والدة الإله.

فتجرأت وقلت له حدد لي يا أبتِ وقتاً لمقابلتك لسماع نصائحك.

أجابني: بعد يومين عندنا عيد، ولا حاجة لنحدد ساعة خاصة.

وقبل رحيلي قدمت له ابنتي فيرا لكي تأخذ بركته فباركنا وأعطى لكلينا خبزاً جافاً.

جهزت الأسئلة التي أردت أن أطرحها عليه. وفي يوم العيد ذهبت إلى قلايته فاستقبلني عند مدخل القلاية. أخذ الزيت والشمع الذي أعطاني إياه آخرون لأجلبه معي وبدأنا النقاش:

سألته: هل أترك عملي أو أعيش في القرية؟.

لم تزل شاباً. اشتغل.

لكن عملي ليس جيداً.

هذا يتوقف على إرادتك. واعمل الخير. إن طريق الرب هي نفسها للجميع. وحيثما تكون سيكون عدوك قريباً منك، وكل من يتناول الأسرار المقدَّسة سينجو حيثما وجد، وكل من لا يتناول لا أعتقد أنَّه سيخلص. عش بسلام ولا تحتفظ بشرٍّ نحو أحد.

سألته: هل سينتهي عملي بشكل جيِّد ؟

وزع ما معك على أهلك ويجب أن توزعه بمحبة.

هل أعلِّم أولادي اللغات والعلوم أم لا؟

ترى هل هو مضرّ أن يتعلموا أيَّ شيء؟

قلت في نفسي أنا الخاطئ: كم هو مثقف حتى يجيبني بهذه الطريقة! لكن في اللحظة نفسها سمعت الستارتس النبوي يقول:

إسأل شخصاً آخر أكثر تمييزاً. كيف يمكنني أنا الوضيع أن أجيب على هذا بما لا يتفق مع منطقك ؟

وزرته عند المساء أيضاً. فقال لي:

من الأفضل أن تترك النقاش لأننا سنؤدي حساباً لله عن كلِّ كلمة بطالة.

رجوته، يا أبت، لنكمل حديثنا الهام جداً بالنسبة لي. أريد أن أسألك ما يلي. ألا يشبه إخفاؤك أعمالك التي حصلتَ عليها بنعمة الله، إنكار بطرس في حال معرفتك أنك ستنال من قبل الناس الهجاء بدلاً من المديح؟ وماذا يمكن أن يقوم أحدنا به إذا جرى العكس؟.

أجاب الستارتس: إن الرسول بولص كتب في رسالته إلى تيموثاوس لا تشرب ماءً فقط بل ضع معه قليلاً من الخمر وبعد قليل أوصى «لا تشرب الكثير من الخمر» فهنا نحتاج للتمييز، لا تعتد بذاتك، وعندما تحتاج للكلام لا تصمت.

– بماذا تنصحونني أن أقرأ؟

– الإنجيل، ادرس أربعة فصول في اليوم، من كل إنجيل فصلاً. وحياة أيوب أيضاً بالرغم من أن امرأته قالت له: إنه من الأفضل له لو مات. فصبر عليها جميعاً وخلص. فلا تنسَ أيضاً أن ترسل هدايا لكل الذين قد أهانوك.

– عندما يكون إنسان ما مريضاً يجب أن يتطبب. كيف؟ عادة، يجب أن يوجد شخص يوجه حياته؟.

– إنَّ المرض ينقي من الخطايا، اعمل إذن كما تريد واسلك الطريق الوسط ولا تحاول أن تفعل شيئاً فوق طاقتك وإلا ستسقط. وعندئذٍ سيضحك عليك الشرير. وَتعفَّفْ ما دمت شاباً. لقد شجَّع ،الشيطان شاباً أن يرتمي في وادٍ. وافق الشاب، ولكن القديس غريغوريوس اللاهوتي خلّصه... هل يفترون عليك ؟ لا تفترِ على أحد. أيطردونك ؟ اصبْر. أيتكلمون عنك بالسوء ؟ امدح. أحكم أنت على نفسك لكي لا يحكم عليك الله. اخضع لإرادة الربّ ولا تكذب على الإطلاق. وميِّز في داخلك الخير من الشر. مغبوط الإنسان الذي يعرف هذا. أحبب قريبك. ليكن القريب جسدك ونَفَسكَ. إذا عشت بالجسد ستدمِّر الجسد والروح معاً. وإذا عشت بحسب الله ستخلِّص الاثنين معاً. إن هذا الجهاد أصعب من السفر إلى كييف أو أبعد.

كانت كلمات الأب سيرافيم الأخيرة إشارة إلى رغبتي بالذهاب للتبرك في كييف أو أبعد لو باركني. ولكنه قد ميَّز ذلك بموهبته النبويَّة.

قلت له: هل على الإنسان يا أبت أن يدافع عن مكانته الاجتماعية فينفق أموالاً تفوق إمكاناته الاقتصادية مع أنها غير ضروريَّة؟.

– كل إنسان يستطيع ولكن الأحسن، ما يرسله الله. يكفي الإنسان الخبز والماء.

إنَّ محبتنا للغريب لا تسمح لنا بأن نقوم بأعمال تخالف إرادة الله وبسبب مثل هذه المحبة ضاع الكثيرون وكل من لا يصنع الفضيلة كما يجب، يخطئ. يجب أن نحبهم جميعاً ولكن يجب أن تحب الله أكثر من الجميع.

– صلِّ لأجلي يا أبتِ.

– إنني أصلي يومياً لأجل الجميع. اهتم بسلام النفس، حتى لا تزعج أحداً ولا يزعجك أحد. وعند ذلك سيعطيك الله دموع توبة. أيفترون عليك؟. لا تفترِ على أحد.

– كيف سأحافظ على كرامتي وعلى الطاعة بين مستخدميَّ؟ إن العقوبات القانونية ليست ضد الإرادة الإلهية.

– حافظ عليها برحمة، بتخفيف الأتعاب وليس بالعقوبات أعطهم ليأكلوا وليشربوا. كن عادلاً. إن الله يعرف ولربما سيصبر بعد، كثيراً. أما أنت فاصنع التالي: طالما أن الله يصفح. اصفح أنت أيضاً. حافظ على سلاحك الروحي حتى لا يكون في عائلتك احتجاج ما. عند ذلك ستكون سعيداً. إن يوسف بن يعقوب عندما رموه في الجب، لم يحزن. وفيما بعد وهبه الله قمحاً غزيراً وبدأ الجميع يطلبون منه.

– هل يوجد خطر عندما أقبل نصيحة أي كان بخصوص مشاكلي؟

– إنه خطر بالنسبة لك، لأنك لا تزال في البداية وعلى وجه الخصوص لا تأمن لأولئك الذين يغضبون. لكن يمكنك أن تطلب النصح من كل الذين يعيشون البتوليَّة لأن روح الله يغطيهم. بشكل عام اهتم دائماً بأن يكون عندك التمييز وطالع الإنجيل.

طلبت من الستارتس أن يفسِّر لي مناماً.

قلت له: رأيت في الحلم أن شخصاً أعطاني أمراً بأن أبني كنيسة.

– أرى أن هذه هي رغبتك الخاصة. فإذا كان الله قد اختارك لشيء مثل ذلك وتوجد حاجة له. عند ذلك ابنِ ببركة الله.

– هل يجبُ أن نصلي لله لكي يخلصنا من الخطر؟

– ورد في الإنجيل. إذا صليتم فلا تطيلوا الكلام... لأن أباكم يعرف ما تحتاجون إليه قبل أن تطلبوه. لكن صلّوا هكذا. أبانا الذي في السماوات... (مت ٦: ٧ – ٩). في هذا توجد نعمة الله. وعلى كل مسيحي أن يحترم ويحب ما تسلمتْه الكنيسة وقبلتْه. واهتم بالذهاب إلى الكنيسة

حتى ولو كنت تشعر بضعفٍ ما، وصلِّ لأجل الجميع، وهكذا تصنع جميلاً عظيماً. قدم زيتاً للكنيسة وخمراً وشموعاً. لأن الإحسان يجلب لك نعمة عظيمة.

– ما هو رأيك بالصوم والزواج ؟

– ليس ملكوت الله طعاماً أو شراباً ولكنه صدق وسلام وفرح بالروح القدس. على الإنسان أن لا يشتهي شيئاً زائلاً، وكل ما عدا ذلك حسن عند الله.

إن البتوليَّة ممجّدة و الأصوام ضرورية للتفوّق على صفعات الأهواء الجسديَّة والروحية... وباركهم الله قائلاً: «تكاثروا وانموا واملأوا الأرض». وحده الشرير هو الذي يشوّهها جميعاً.

ماذا لديكم لتقولوا عن أفكار التجديف وعدم الإيمان؟.

لا تقبلها أبداً إنها من عمل الشيطان. اشترِ كتاب المزامير وهو سيعلمك.

هل يمكن للإنسان أن يحلَّ صومه عندما يمنعه الأطباء عن تناول الطعام الصيامي إذا كان مضرّاً لصحته؟.

إن الخبز والماء لا يضرّان أحداً، وإلا كيف عاش الناس عليها مدة مائة عام ؟ والأهم «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ولكن بكلِّ كلمة تخرج من فم الله» (مت ٤: ٤). إذاً، حافظ على كل ما قبلته الكنيسة في المجامع المسكونية السبعة. الويل للإنسان الذي يحذف منها أو يضيف عليها. ماذا لدى الأطباء ليقولوا للصديقين الذين شفوا الجراح النتنة بلمسة ؟ ماذا لديهم ليقولوا عن عصا موسى التي بها أخرج الله ماءً من الصخرة ؟ إن الله يدعونا. تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم لأن نيري صالح وحملي خفيف (مت ١١: ٢٨ – ٣٠). ولكننا نحن لا نريد ذلك.

كيف يمكن للإنسان أن يقتلع الكبرياء ويمتلك التواضع؟

بالصمت، قال الرب لأشعياء «على من أتطلّع. على المتواضع

والوديع والذي يتّقي أقوالي» (أشعياء ٦٢: ٢). وبالصمت ننتصر على الخطايا العظيمة.

كان الستارتس، على غير عادته، فرحاً طيلة المدة التي كنّا نتحادث فيها. كان واقفاً ومستنداً على طرف تابوته الذي طلب هو بذاته أن يهيّئوه له وكان يمسك بيديه شمعة مضاءة وطيلة الحديث كان يخاطبني «بمحب الله» (لقب الأساقفة).

وعن ابنتي قال:

إن طريقها صعب، ستتزوج رجلاً. الله وحده يعرف ماذا سيكون. ولما ودعني، شكرني على زيارتي وفي اللحظة التي كنت آخذ بركته أراد هو أيضاً أن يقبّل يدي. وصنع لي سجدة حتى الأرض، وبعد ذلك أعطاني قطعاً من الخبز الجاف لكي أوزعها على مستخدميَّ. وأخيراً تركني أرحل قائلاً لي: ليكن الله معك. إن هذه الخبزات جديدة، لقد أخرجتها من المدفأة للتو. كنت قد كتبت الأسئلة التي طرحتها عليه من قبل على ورقة، وإلا لما كان بإمكاني أن أسأله بهذه المهارة ولا أن أتذكّر أجوبته.

ومن جهة ثانية فقد تكلّم بسرعة فائقة. حتى أنني قبل أن أكمل السؤال كنت أتلقى الجواب.

ساعد الأب سيرافيم بموهبته النبويَّة. كثيراً في اتمام زيجات ناجحة وقيام عائلات سعيدة. مرَّة زاره موظف كان ماراً من ساروف، فأراد أن يأخذ بركته لكي يتزوّج. فقال له البار إنَّ عروسه موجودة في ساروف. وخلال وقت قصير قدمت إلى الأب سيرافيم فتاة كانت ترغب بالزواج وكانت قد أعلمته ببعض الحالات التي حدثت لها.

قال لها الستارتس لا، إنَّ عريسك في ساروف. ولم يكن الزائران قد التقيا أبداً. ومصادفة بتوجيه العناية الإلهية توجها إلى هناك. وتعرفا على بعضهما وقرّرا أن يتزوّجا وأخذا بركته وعاشا سعيدين.

لم يكن الحدث المذكور مصادفة بل من عناية الله التي فعلت من خلال الستارتس. فأعمال الله تظهر ببساطة عجائبية على الدوام. وهذه

هي خصوصيتها. وهناك حالات مشابهة لم يُطَعْ فيها الستارتس فكان المصير الفشل. مرَّة جاء إليه شخص غنيّ من ريازان وطلب صلاته وبركته لكي يتزوَّج. فدلَّه الأب سيرافيم على الزوجة التي كان الله قد حددها له وقال له عن اسمها. وكانت الفتاة تعيش في مزرعة مجاورة لأملاكه. ولكن الشاب رفض. مدعياً أنه قد انتقى العروس من المنطقة التي يقطن فيها. قال الستارتس: هذه لن تهبك السعادة بل التعاسة والدموع.

تزوّج الشاب الفتاة التي رغب بها، ولكن قبل مرور عام توفيت زوجته فأحاطته الأحزان والدموع. فذهب إلى البار الذي نصحه أن يأخذ التي كان قد دله عليها في المرَّة الأولى وبهذا الزواج عاشا سعيدين.

كان البار يعيد السلام إلى أعضاء الأسر المتفرِّقة.

كانت العائلةT من منطقة بينز على خلاف وكان الوالدان قد اقتسما الأولاد وسكنت المرأة في تنكارود. والرجل في بينز. ولحسن حظهما ذهب الرجل مرّة إلى ساروف. وحالما رآه الستارتس بدأ بتعنيفه لماذا تعيش بعيداً عن زوجتك. عد إليها، عد. أعادت كلمة الستارتس الرجل إلى الصواب، فذهب من ساروف إلى تنكارود، فأخذ امرأته وذهبا معاً للتبرك في كييف. وبعد ذلك سكنا في قرية بالقرب من تنكارود. حيث عاشا سعيدين وبحسب ناموس الله.

في أحد الأيام جاءت إليه امرأة حزينة جداً إذ كانت قد فقدت كل أثر لابنها. وبقلب مضطرب سقطت عند قدميه وطلبت صلواته لأجل ابنها الضائع كما كانت تظن.

قال لها امكثي في بيت الضيافة وانتظري ابنك.

مكثت المرأة وانتظرت يوماً، اثنين، ثلاثة أيام. بعدها بدأت ثقتها تقلّ به. لذلك انطلقت لتأخذ بركته لكي ترحل. ولكن ماذا حدث ؟ في تلك الساعة كان ابنها موجوداً في قلاية البار. فأخذه من يده وسلّمه لأمّه التي ابتهجت بعودة ابنها.

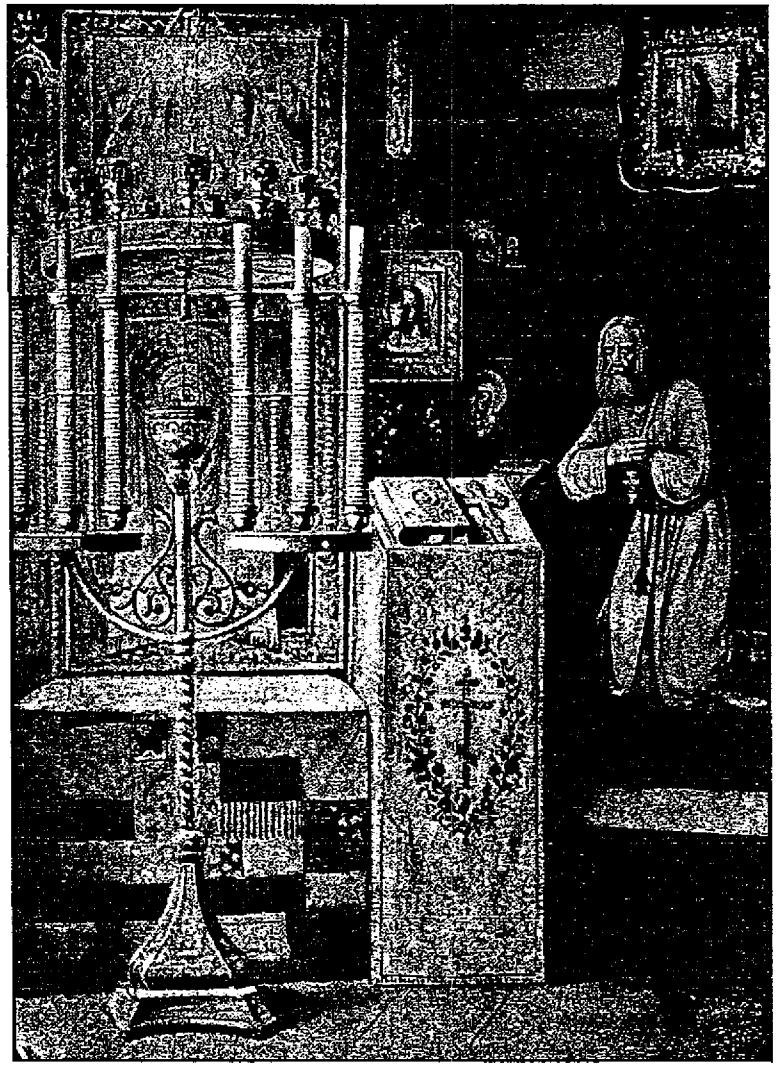

داخل قلاية البار كما كانت سنة ١٩٠٣ في كنيسة دير ديفاييفو

إعلانات رقاده

لم تكن نبوءات الستارتس سيرافيم تتعلّق فقط بالآخرين بل كان قد بدأ يتنبأ بموته منذ زمن. مرَّة زارته الراهبة باراسكيفي ايفانوفا مع بعض الأخوات من دير ديفاييفو.

قال لهن إن قواي تضعف. ستعشن وحدكنَّ سأترككنَّ.

أخذت الراهبات بالبكاء بسبب أقوال الستارتس المحزنة والتي جعلتهنَّ يضطرين. وبالرغم من كلِّ هذا لم يذهب بالهن نحو الموت. اعتقدن أن البار تعب من ثقل السنين ويريد أن يترك العناية بهنَّ لكي يعيش حبيساً.

ومرّة أخرى زارته براسكيفي ايفانوفا وحدها. وجدته في الغابة في البريَّة القريبة. وبعد أن باركها جلس على جذع شجرة ،أما هي فركعت بجانبه وبدأا حديثاً روحياً. وفجأة دخل بذهول غير معهود. فانتصب واقفاً ورفع يديه ونَظَرَه إلى السماء. فقد عاين غبطة الحياة المستقبلية وأضاء روحه نورالهي.

في هذه المرة كان الستارتس يتكلم فقط عن الفرح الأبدي الذي يستمتع به المؤمن كأجرة عن أحزان هذه الحياة الزائلة.

كان يقول: يا للفرح، يا للعجب الذي يملأ نفس الصديق التي بعد انفصالها عن الجسد تستقبلها الملائكة و تقودها أمام الله!.

و بينما كان يتكلم حول هذا، سأل الأخت مراراً اذا ما كانت تفهم. أما هي فلم تجب بكلمة. كانت تفهم أقواله ولكنها لم تفهم أن الحوار كان يدور حول نهايته، عند ذلك كرر ما قاله في السابق:

إن قواي تضعف. ستعشن الآن وحيدات. إنني أترككن ،ففكرت الأخت أنه يريد أن يعيش وحيداً، أما هو فعلم أفكارها وقال لها:

لقد بحثت لأجد لكنّ أمّاً، رئيسة. لقد بحثت لكنني لم أجد. و لن يحل مكاني آخر عندما أرحل. إنني أترككنَّ للرب ولوالدة الإله الكليَّة القداسة. ولكن الأخت لم تستطع حتى الآن أن تفهم أنه كان يتكلّم عن موته. كانت

تفكر أنّه من غير المعقول أن لا يوجد للدير إنسان روحي يقوده حتى ولو كان البارقد سلّمهنّ للرب ولوالدة الإله الكليّة القداسة.

يا أخت – قال الستارتس. لا يوجد اليوم إنسان بإشعاع روحي. إنني أتركنّ للرب ولوالدته الكليّة الطهر. في هذه اللحظة تكلّم بوضوح عن موته، فسقطت الراهبة عند قدميه وبدأت بالبكاء. بكت بحزن شديد إلى درجة أنها لم تستطع أن تتكلّم ولا أن تسمع أقواله.

بدأ البار سيرافيم يقول غيباً الفصل الحادي عشر من الإنجيل بحسب متى الإنجيلي «أنتم نور العالم...» ولما انتهى انتقل إلى الفصل الرابع عشر من الإنجيل بحسب يوحنا الإنجيلي «لا تضطرب قلوبكم...»

ثم أكمل الفصل الخامس عشر وتوقف عند الآيات ٢٣ و ٢٤ من الفصل السادس عشر «الحق الحق أقول لكم كل ما تطلبونه من أبي باسمي يعطيه لكم وحتى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا تجدوا لكي يكمل فرحكم». وهنا توقف.

لماذا تبكين باستمرار أيتها الأخت، مع الوقت ستصبح لديكن أم قديسة.

وكلما زارته راهبات ديفاييفو في الفترة الأخيرة كان يعرض عليهن أيقونة أم الإله وكان يقول لهنّ للتعزية.

إنني أسلمكنّ وأترككنّ بعناية ملكة السموات هذه.

قبل وفاته بخمسة أشهر زارته الراهبة بلاتونيزا من دير الأيقونة غير المرسومة بيد في سبيريسك، وكانت ذاهبة إلى أرزاماس لعيادة أحد الأطباء المعروفين. كانت تريد نصيحته لأجل أوجاع الروماتيزم التي كانت تنتابها في رأسها وخديّها وأذنيّها. ولكن قبل ذهابها مرّت من ساروف لكي تأخذ بركته لأجل علاجها.

بقيت في ساروف خمسة أيام. كانت تتردد إلى قلايته في اليوم خمس مرّات. ولكنها لم تستطع مشاهدته. لأنه على غير عادته نادراً ما كان يستقبل الزوّار، وفي النهاية استقبلها في منسكه. فصنعت له سجدة

حتى الأرض وطلبت بركته لكي تبدأ بالمعالجة.

لا تبدئي أجابها ذاك.

وبعد أن أشار إلى السماء أضاف.

انظري إلى الذي سيشفيكِ، اذهبي الآن واغتسلي من البئر.

كان قد مضى على الراهبة ثلاثة أعوام لم تغتسل فيها، أي من الوقت الذي بدأ فيه مرضها. لأنها كانت تخشى أن يصيبها البرد. ولكنها لم تتردد عندما طلب منها الستارتس ذلك. فذهبت إلى البئر واغتسلت وللأسف زادت عليها أوجاعها. ثم طلب منها أن تشرب من الماء، وحالما شربت منه اعتراها ألم شديد في وجهها وأسنانها. فبسط الستارتس في النهاية يده-اليمنى على وجهها المتألم وقال:

سيريحك الله حتى النهاية. اذهبي في طريق السلام.

فشعرت الراهبة بتوقف الألم حالاً ولم تتعرض بعد ذلك لأيّ إزعاج.

ولما أرادت الرحيل باركها بالصليب المعلق على صدره وقال لها:

لا تحزني لأنكِ لم تريني كثيراً. كنت أقيم تذكارات لأجل راهبة قد رقدت.

سألت الراهبة هل لي أن آمل برؤيتكم ثانية يا أبتِ.

سنتلاقى هناك، قال البار: مشيراً إلى السماء، هناك هو الأفضل. هناك هو الأفضل.

في تلك السنة زاره الستارتس تيمون، المتنسك في بريّة ناديف وكان قد مضى عليه أكثر من عشرين عاماً لم يرَ خلالها مرشده الروحي. وصل في الربيع إلى ساروف مشياً على الأقدام. فتوجه حالا نحو قلايته وانتظر اللحظة المشتهاة للقائه ولكن البار لم يعطه الإذن بالدخول بالرغم من أنه كان يستقبل الجميع رجالاً ونساءً، ما عدا الأب تيمون. وأخيراً أعطاه البركة بالدخول عند الليل.

قال الأب تيمون: وحالما دخلت إلى قلايته، سقطت على قدميه باكياً من شدة فرحي بحيث أنني استأهلت أن أراه على قيد الحياة بعد

هذه السنين الطويلة.

سألته: لماذا يا أبتِ القديس، غضبتم علي أنا الخاطئ ولم تسمحوا لي بالدخول طوال اليوم.

لا ليست الأمور هكذا أيها الأب تيمون. أجابني، بعد أن أقعدني إلى جانبه. إنني أحبك. لكنني فعلت هذا، لأنك راهب وبالأكثر ناسك، ولهذا من المفترض أن تكون ممتلكاً لفضيلة الصبر. وقد أردت أيضاً أن أجرِّب ما تعلمته في البريَّة طيلة هذه السنين، ربما خرجت من هناك بلا فائدة. كل الآخرين هم من العلمانيين وزيادة على ذلك هم من المرضى. لأنه كان عليَّ أولاً أن أشفي هؤلاء، كما قال الربّ: «لا يحتاج الأصحاء إلى الطبيب بل المرضى» /لو ٥: ٣١/. وقد أردت أن يكون لدينا الزمن الكافي لنتحدَّث معاً.

قضينا الليل بكامله نتحادث.

بين أشياء كثيرة قال لي الستارتس.

ابذر يا أبتِ تيمون ابذر القمح الذي أعطيَ لك في كل مكان. ابذر في الأرض الصالحة وابذر في الرمل، ابذر على الطريق، ابذر في الصخر وفي الشوك، ابذر في كل مكان لكي يدوم ويزداد ويأتي بثمار حتى ولو كانت قليلة... لا تخفِ في الأرض وزنتك التي أعطيت لك لكي لا يعاقبك الرب، أعطها للصيارفة الذين سيضيفون عليها الفوائد. إنني أنصحك يا أبتِ تيمون أن تقيم صداقات ولا تقم علاقات (ارتباطات) أولاً، مع أعداء الكنيسة، أي الهراطقة والمنشقين، ومع هؤلاء أيضاً الذين لا يوقرون الأصوام وثالثاً مع النساء. إن النساء يسئن إلينا كثيراً نحن الرهبان... وحافظ في ديركم المنشأ جديداً في ناديف على ترتيب أديار الشركة بالتمام حسب تعاليم وقوانين الآباء القديسين، حتى لا يقوم كلّ واحدٍ بمشيئته. ولا تسمح لأحد أن يدخن أو أن يحتسي الكحول. وقلل من الشاي على قدر استطاعتك. إن إرضاء المعدة ليس من عمل الرهبان. أكمل الأب تيمون قائلاً: بعد هذه النصائح أعطاني بركة لأجل السفر. وعدت إلى

منسكي حيث أعيش شاكراً يسوع المسيح ووالدة الإله الكليَّة القداسة.

ذاق البارّ في هذه الفترة مضايقات وإزعاجات غير محتملة وغير عادلة. من خلالها ميَّز بعض العلامات التي تنبئ بموته.

هربت إحدى الفتيات من السجن ولما أرادت أن تختفي، قصَّت شعرها بشكل دائري. ولبست ثياب راهب مبتدئ وتنقلت بين الناس بهذا الزي. في النهاية اكتشفت السلطة أمرها وحققت معها. فادعت أن الأب سيرافيم. قد أعطاها البركة بأن ترتدي هكذا. ولكنه هو كعالم بالمستورات لم يعطها بركته على الإطلاق بأن تفعل فعلتها المذمومة. فأبلغت السلطات الرئيس نيفن ليقوم بالتحقيق. ظهر في النهاية أن الفتاة قد كذبت على رجاء أنهم بسبب نزولهم عند إرادة البار سيصفحون عنها لمحاولتها التخفّي بثياب مبتدئ.

لقد أزعج هذا الحادث الأب سيرافيم كثيراً. فقد بقي أياماً وليالي بكاملها، لم يخرج من قلايته، ممضياً الساعات بالصلاة. وقد أحزن جداً آباءً ونسّاكاً محترمين من ساروف كالأب إيلاريون ونيقوديموس.

كان البار يشعر مسبقاً بموته وكان يتهيأ. فصار يخرج قليلاً إلى البريَّة ويستقبل عدداً قليلاً في قلايته لكي يتكرّس بلا انقطاع لاستعداده للأبديَّة. وكانوا يرونه في هذه الفترة دائماً في مدخل قلايته جالساً بالقرب من نعشه، مستسلماً للتفكير في نهاية الحياة على الأرض وحياة الإنسان بعد القبر وخاصة بحياته. كانت هذه الأفكار تنتهي بصلوات طويلة ومصحوبة بحزن مرّ.

في النصف الثاني من السنة الأخيرة لحياته بينما كان يحيِّي الكثيرين كان يقول لهم بشكل واضح.

لن نتقابل نحن ثانية.

كان البعض يطلبون منه أن يعطيهم البركة ليأتوا في الصوم الكبير إلى ساروف لكي يستعدّوا للمناولة الإلهية. إذ كانوا يريدون أن يسعدوا

بسماع أقواله ورؤية وجهه. ولكنه كان يجيبهم:

في ذلك الزمان سيكون بابي مغلقاً، لن تروني. كان واضحاً أن حياة البار سيرافيم تنطفئ. أما روحه فقد بقيت يقظة كما في الماضي وأكثر أيضاً.

قال لبعض الاخوة إن نهاية حياتي تقترب. أما من الناحية الروحية فأنا كما لو كنت قد ولدت اليوم، وأما جسدياً، فأنا ميت من جميع النواحي.

قبل موته بأربعة أشهر ،سنة ١٨٣٢م وفي شهر آب زار دير ساروف الأسقف أرسانيوس أسقف تامبوف وكانت المرّة الأولى التي يزور بها المنطقة. وبالرغم من وجود البار في المنسك، اعتبر أنه من واجبه أن يأتي إلى الدير لكي يستقبل الأسقف الجديد مع باقي الأخوة. وبعد الاستقبال عاد من جديد إلى منسكه.

شاهد الأسقف أرسانيوس كل الكنائس والأماكن الداخلية في الدير، وبعد ذلك أراد التعرف على ما هو خارج الدير من أبنية وملحقات مصحوباً من الايكونوموس الأب أشعياء ومن حامل مفاتيح كاتدرائية تامبوف الأب نيكيفورس تليادنسكي فزار مناسك الآباء، سيرافيم وذوروثيوس. في ذلك الوقت كان الأب سيرافيم يصفّف حجارة على ضفة الساقية الصغيرة الجارية بالقرب من منسكه. وحالما رأى الأسقف يقترب أسرع باستقباله وطلب بركته.

سأله الأسقف بمحبة ورضى ماذا تفعل هنا؟

إنني أفرش الضفة بالحجارة، أيّها السيد القديس لكي لا يضربها الماء ويجرفها.

إنه عمل جيد يا قديس الله. لكن أرني الآن منسكك هنا في البريّة.

ليكن أيها المبارك. ليكن أيها الجزيل الاحترام، قالها البار بطيبة وقاده إلى قلايته..

وكما يصف الذين كانوا هناك، لم يكن في قلايته شيء مميّز. كانت

كوخاً خشبياً عادياً مع مدخلٍ صغير. وكل أثاثاتها عبارة عن طاولة سيئة الصنع من خشب الحور وكرسيان من الفئة نفسها. في الزاوية الأماميَّة كانت الأيقونات المقدَّسة. وأمامها قنديل مشتعل. ووجِدَ أيضاً كتاب للصلاة.

قدم البار للأسقف مسبحة كهديَّة مع ربطة شمع ملفوفة بقماش وقنينة زيت وجوارب صوفيَّة، فأخذ الأسقف الهديَّة بكل سرور وسأل:

أين هي زاوية راحتك المفضَّلة في هذا المنسك؟. المكان الأكثر انفراداً.

كان الأسقف يعرف من خلال أحاديث الناس أين كانت الزاوية ومن غير أن ينتظر توجَّه نحو الموقدة فأوقفه البار وقال له ببساطة.

انتبهوا ستتلوث ثيابكم لا تقتربوا أيها الجزيل الاحترام. ولكن ذاك فتح باباً يؤدي إلى مكانٍ مشترك بين حائط القلاية والمدفأة. وهناك رأى مكاناً ضيقاً لدرجة أنه لا يكاد يسع إنساناً واقفاً أو راكعاً. وكان في هذه الزاوية كما في الغرفة أيقونة صغيرة وقنديل مشتعل في الوسط بين الحائط وعارضة البَاب. وبشكلٍ واضح كان البار ينفردُ في هذا المكان من وقت لآخر للسهرانية والصلاة.

انطلق الأسقف إلى منسك الأب ذوروثيوس، هادفاً أن يرجع من جديد إلى قلاية الأب سيرافيم الذي بقي مع الأب نيكيفوروس منتظرين ومتحدثين. من بين الأشياء التي قالها للأب نيكيفوروس مشيراً إلى الأسقف.

ينتظره الكثير، ينتظره الكثير من الجهاد ولكنَّ الله سيساعده. ولما عاد أمسكه البار من يده وتطلّع إليه بورع وقال: يا سيد. ها إن الكثيرين من الزوار يأتون إليَّ أنا الوضيع سيرافيم ويطلبون أن أعطيهم شيئاً لأجل البركة. إنني أعطيهم خبزاً جافاً من طحين أبيض أو أسود وملعقة خمرٍ أحمر .هل أستطيع أن أفعل ذلك؟

يمكنك – يمكنك، ولكن كل شيء على حده. أي من تعطه خبزاً فلا

تعطه خمراً أحمر لأن الناس البسطاء، كما سمعت، يعتقدون ببساطتهم ويخبرون أنك تناولهم الأسرار المقدَّسة. ولهذا من الأفضل أن لا تعطي خمراً على الإطلاق. أعطِ خبزاً يابساً فقط.

فأجابه ليكن أيها السيد الجزيل الاحترام، وقد طبق هذه الوصيَّة مدة حياته. ودَّع الأسقف الستارتس وكذلك فعل الأخر ولكن بطريقة غير معتادة. فبعد أن أخذ بركة الأسقف الأخيرة سجد أمام قدميه. فأمسكه الأسقف وطلب منه أن يقف. استمرَّ البار يصنع المطانيات وهو راكع حتى رحل الأسقف.

وفي الليل الثاني جلب بنفسه الوعاء الصغير الذي حوى الخمر الأحمر إلى القلاية حيث كان الأسقف وأعطاه لخادمه قائلاً:

أعطِ هذه للجزيل الاحترام من الخاطئ سيرافيم. وكان قد طلب من الأسقف أن يصلّي لأجله. وقام الأخير بإتمام هذه الرغبة كاملة. فمن الهدايا ،حفظت الشموع والزيت والخمر، دون مساس واستعملت في القداس الحبروي الذي أقيم لأجل الراحة الأبديَّة لنفسه المغبَّطة. أمَّا المسبحة والجوارب والقماش فقد احتفظ بها الأسقف لنفسه.

وفي دير ساروف تحفظ رسالة من الأسقف أرسانيوس يصف فيها بكل دقة زيارته للبار بعد ٢٣ سنة. جاء فيها:

«لم يؤثر شيء على علاقة الأب نيفن مع الأب سيرافيم. وهذه العلاقات، تظهر بالنسبة للأول المستوى الرفيع والدقة التي أكمل بها مهمته كرئيس للدير، وكم كان يحترم ويحافظ على نقاء الحياة الرهبانية. وبالنسبة للثاني تشهد على بساطة إنجيلية وعدم شرّ. ولكونه يمتلك تلك الفضائل لم يستطع أن يفكّر أن بعض التلامذة المدَّعين أكثر مما هم حقيقية، وبعض التلميذات قد استعملوا اسمه لتحقيق أهداف باطلة والوصول إلى رغبات غير ممدوحة.

ولربما كان من الواجب لكتابة سيرة حياة الأب سيرافيم أن أذكر زيارتي الأولى له. لما فيها من معانٍ ساميَّة ومواهب نبويَّة. فقد زرته في

كوخه النسكي. وكان وقتها يرتب الحجارة على ضفة الساقية الصغيرة. والهدايا التي قدمها لي كانت زيتاً، وخمراً أحمر وبعض الشموع، وقطعة قماش وجوارب صوفيَّة وسبْحَة صلاة. ولما أردت الذهاب ودَّعني بمطانيات متكرِّرة. حاولت أن أوقفه ولكنني لم أستطع فاضطررت عندئذٍ أن أرحل بسرعة لكي لا أتعبه أكثر. لكنه استمرَّ ساجداً يصنع المطانيات. كلّ هذه الأفعال إضافة لأقواله كانت رموزاً تعبيريَّة. لقد ظهر فيما بعد أنها كانت تصوِّر مستقبلي ومستقبله. أما هو فقد مات بعد وقت قصير وأنا مستمرّ بنعمة الله أرتب حجراً فوق حجر لكي أحصِّنَ ضفَّة الكنيسة من وثبات ماء هذا العالم».

في ١٣ أيلول، قبل وفاته بثلاثة أشهر ونصف زارته كاترين إنكورفنا زفولسكي مع ابنتها آنّا ذات السنوات الأربع. كانت الصغيرة تعاني من ألم شديد في عينيها حتى أن بعضهم عبرَّوا عن خوفهم من بقائها عمياء.

قدمتها أمها للبار. فأعطاها قنينة ماء وطلب منها أن ترش من الماء على عيني ابنتها وبعد ذلك أضاف:

بشفاعات والدة الإله الكليَّة القداسة الينبوع الحي ستشفى، وبالحقيقة نهضت عند الصباح معافاة. فطلب منها أن تبقى في الدير لتتابع حتى النهاية كل الصلوات المقامة في ١٤ أيلول. وأن تتناول طعام الغداء هناك .ولكن كاترين لم تعمل بنصيحته فرحلت للحال بعد القداس الثاني. وبسبب عدم طاعتها ضلَّت في الطريق يوماً كاملاً.

قبل وفاة الستارتس بشهور عدَّة، طلب أن ترسل رسائل إلى بعض الأشخاص يطلب فيها منهم أن يأتوا إليه في الدير. وطلب أن يقال بعد وفاته لكلّ الذين لم يستطيعوا الحضور أن حضورهم كان ضرورياً لمنفعة نفوسهم.

قال لأحد رهبان الدير الذي جاء ليزوره بعد أن أرشده: أطفئ هذه الشمعة.

نفخ الأخ على الشمعة وأطفأها.

أكمل قائلاً: هكذا لن يروني ثانية.

وقال للأخ بولس الذي كان يسكن في القلاية المجاورة.

سريعاً ستأتي النهاية.

أما ذاك فقد تفكّرَ بقلبه البسيط.

ترى هل يعني الستارتس نهايته أم نهاية العالم؟.

قبل الأول من عام ١٨٣٣م حفر البار سيرافيم قبره إلى جانب هيكل كاتدرائية الرقاد في المكان نفسه الذي حدّده ووضع فيه حجراً بعد أن ترك حياة العزلة.

وقبل وفاته بوقت قصير سأله أخ يعاين سموَّ جهاده النسكي.

يا أبت لماذا لا نعيش حياة الآباء الأولين، الشديدة؟

لأنه لا توجد عندنا العزيمة لشيء مثل هذا. فلو كانت لدينا العزيمة لكنا عشنا كالآباء القدماء الذين لمعوا بالنسك والفضيلة. إن نعمة الله ومعونته تعطى لكل الذين يطلبون من كلِّ قلوبهم الآن كما في الزمان القديم بحسب ما يقول الكتاب «يسوع المسيح هو هو أمس واليوم وهو إلى الأبد». / عب ١٣: ٨ /

هذه الحقيقة العظيمة التي وعاها البار من خبرة حياته الخاصة كانت تشكل أنشودته الأخيرة وختم جهاداته.

قبل أسبوع من وفاته، في يوم عيد الميلاد، سنة ١٨٣٢م ،ذهب كالعادة إلى القداس الإلهي الذي كان يقيمه الأب الرئيس نيفن. تناول الأسرار الإلهيَّة وبعد ذلك تحدَّث مع رئيس الدير عن كثيرين من الرهبان الجدد ولم ينسَ للمرّة الأخيرة أن يعبِّر عن رغبته بأن يضعوه في نعشه الموجود في مدخل قلايته عندما يموت.

عندما عاد إلى قلايته أعطى للراهب يعقوب / الذي صار كاهناً متوحداً في دير تولسيسكي / أيقونة من مينا (زملط) التي صوِّرت عليها زيارة والدة الإله للقديس سرجيوس، وقال له:

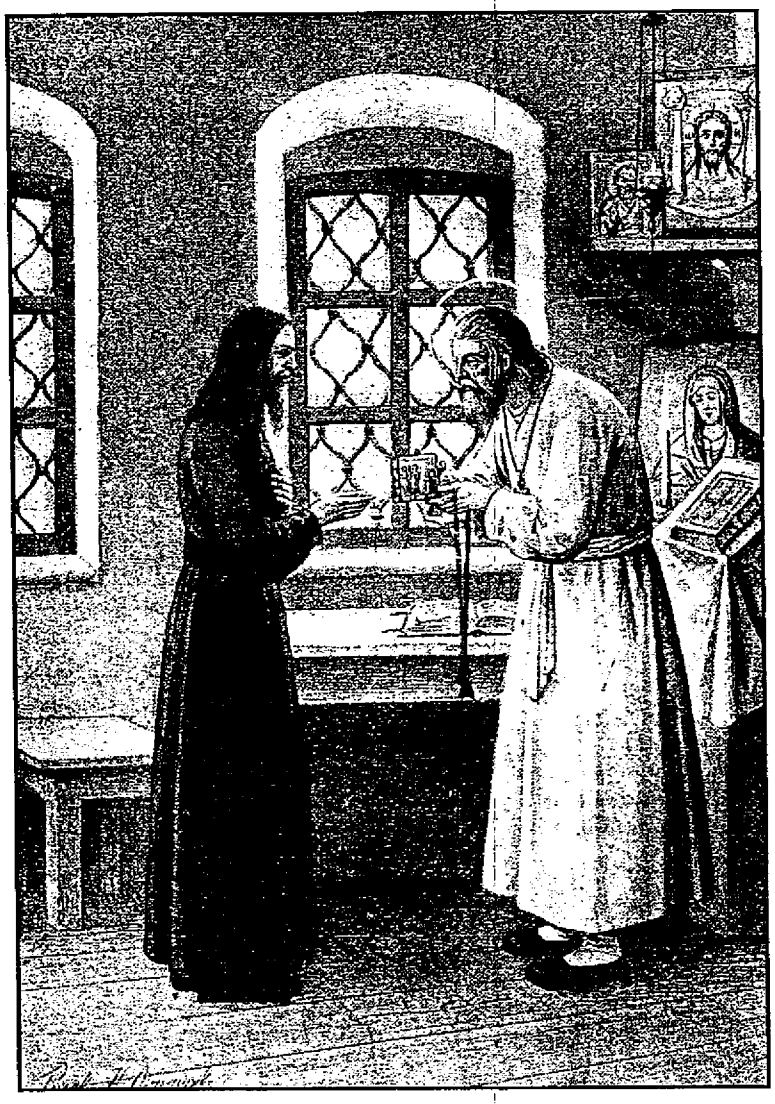

أعطى للكاهن يعقوب أيقونة من خزف

عندما أموت أنزلوني في القبر مع هذه الأيقونة. لقد أرسلها لي الأرشمندريت المحترم أنطونيوس رئيس لافرا الثالوث القدوس من بقايا القديس سرجيوس باني الدير.

الرقاد المقدس

في الأول من كانون الثاني عام ١٨٣٣م، يوم الأحد، جاء البار وللمرّة الأخيرة إلى كنيسة المشفى على اسم القديسين زوسيما وسفاتيوس. فأشعل شموعاً أمام كل الأيقونات وقبّلها. الشيء الذي لم يلاحظ الاخوة أنّه قام به من قبل، ثم تناول الأسرار الإلهيَّة. وفي نهاية القداس طلب الصفح من كلّ الإخوة. ثمّ باركهم وقبلهم وقال لهم معزياً: اخلصوا، ولا تتهاونوا، اسهروا. لأن الأكاليل قد جهِّزَت لنا.

بعد ذلك عبر من وراء المائدة المقدَّسة وصنع سجدته المعتادة وخرج من الباب الشمالي. ربما أراد بذلك أن يعبِّر عن مجيء الإنسان إلى العالم من بابِ طريق الولادة. ويخرج من باب آخر، أي باب الموت. في ذلك الوقت كان الجميع قد لاحظوا ضعفه الجسدي. ولكنه كان روحياً نشيطاً هادئاً وفرحاً.

بعد القداس الإلهي زارته الراهبة إيريني فاسيليفنا من ديفاييفو، فأعطاها الستارتس مئتي روبل ورقيَّة. وقال لها أعطها لبراسكيفي ايفانوفا، لكي تشتري خبزاً من الضيعة القريبة.

في ذلك الوقت كانت كل أهراء الدير قد استهلكت وكانت الأخوات يجابهن حاجة عظيمة.

في اليوم نفسه زاره الأب المتوحد ثيوكتستوس من دير بيسوكونكورسك في أرزاماس. ولما انتهى الحديث قال له البار:

أقم قداساً في الدير.

إنني مستعجل لأعود ولا أستطيع.

ستقدس إذاً في ديفاييفو.

ويبدو أن الأب تيوكتستوس لم يفهم حتى ولا هذه الكلمات فأخذ بركة البار ورحل من الدير.

كانت قلاية الأب سيرافيم مفصولة عن قلاية الأب بولس بحائط. حيث كانت المدفأة. وكان الترتيب في ساروف منذ القديم أن يعيش كل واحد بمفرده. وإذ لم يكن عند الأب سيرافيم تلامذة، ولا خادم في قلايته، لهذا كان الأب بولس يقوم بمهام الخادم. وكان البار يثق به. ويقول عنه:

إنَّ الأب بولس بسبب بساطة قلبه سيدخل إلى ملكوت الله دون تعب. إذ أنه لم يدن أحداً. وهو يعرف فقط خطاياه وضعفه.

كان البار معتاداً عندما يغادر الدير إلى المنسك أن يترك الشموع في قلايته موقدة أمام الأيقونات المقدّسة منذ الصباح، وإذ كان للأب بولس دالة عليه كان يقول له من وقت لآخر أنه يخشى من اندلاع حريق بسبب الشموع المضاءة.

ما دمت حياً، أجاب البار، لن يندلع حريق. ولكن عندما أموت سيدرَكُ موتي باندلاع النار.

في اليوم الأول من كانون الثاني ١٨٣٣ م لاحظ الراهب بولس أن الستارتس قد ذهب ثلاث مرات إلى المكان الذي كان قد دلَّ عليه لدفنه، كان يجلس هناك ويتأمل الأرض لساعات طويلة. وعند المساء سمعه الأب بولس يرتل في قلايته التراتيل الفصحيَّة «إذ قد رأينا قيامة المسيح ... » استنيري استنيري يا أورشليم الجديدة ...« أيها المسيح إن فصحكَ الأجل الأمثل...» وأناشيد النصر الأخرى.

وفي ٢ كانون الثاني الساعة السادسة صباحاً، بينما كان الأب بولس خارجاً من قلايته اشتمَّ رائحة دخان منبعثة من قلاية الأب سيرافيم. فطرق الباب وقال الصلاة المعتادة، كان الباب مغلقاً من الداخل ولم يتلقَّ جواباً على صلاته فخرج إلى الممرِّ وميَّز في الظلام الرهبان الذاهبين إلى الكنيسة.

فصرخ أيّها الأخوة والآباء، ، أشتم رائحة دخان، ترى هل من شيء

يحترق بالقرب من هنا، ربما خرج الستارتس إلى البريَّة؟.

قفز أحد الأخوة وهو المبتدئ انيكيتوس إلى داخل القلاية . فرأى أن الباب مقفل ففتحه بقوة كاسراً المزلاج الداخلي.

كان الكثيرون من المسيحيين الغيورين قد قدَّموا له أشياء من قماش. وكانت هذه مع الكتب مرميَّة بشكل غير مرتب على المقعد الخشبي بالقرب من الباب والدخان يتصاعد منها. ربما وصلتها النار من شعلة أحد الشموع أو من شمعة كانت قد سقطت. ومع كل هذا لم يندلع حريق.

كان الظلام يخيِّمُ على الحديقة والشمس قد بدأت ترسل خيوط أشعتها. لم يكن في قلاية البار ضوء ولم يكن يسمع له صوت ولا يمكن رؤيته. فظنَّ الرهبان أنَّه يستريح من جهاداته الليليَّة فولجوا إلى الداخل. وشعروا ببعض الاضطراب في القلاية. وقام بعضهم برش الثلج على المواد المدخِّنة. استمر القداس الصباحي كالعادة في كنيسة المشفى «كانوا يرتلون بواجب الاستئهال» عندما ذهب أحد المبتدئين وأعلن ما جرى، فأسرع الاخوة إلى قلايته حيث اجتمع منهم كثيرون. بدأ الراهب بولس والمبتدئ يوحنا يتحسسان في الظلام أثاث القلاية الفقيرة وفي النهاية وجدوا الستارتس. فأحضروا شمعة. كان الأب سيرافيم ساجداً بردائه الأبيض في مكانه المعتاد لصلاته أمام أيقونة والدة الإله بلا غطاء على رأسه وصليبه النحاسي في عنقه ويداه مضمومتان على صدره بشكل صليب. فظنوا أن النوم قد أخذه وحاولوا أن يوقظوه بكل حذر ولكنهم لم يتلقوا جواباً. كان الستارتس قد أنهى حياته النسكيَّة. كانت عيناه مغلقتين ووجهه مستنيراً من رؤية الله. كان مستنيراً بالمجد الإلهي. وكان جسده ساخناً لدرجة أنك تظن أن روحه قد فارقت مسكنها في تلك الساعة ، لم يكن باستطاعة أحد أن يوقظه. فرفع الرهبان جسده على أيديهم وببركة الرئيس جلبوه إلى القلاية المجاورة، قلاية الأب المتوحد افستاثيوس. ثمَّ غسلوا وجهه وركبتيه والبسوه الأسكيم ووضعوه في تابوته الخشبي. وبعد ذلك أخذوه إلى الكاتدرائية.

شيئاً فشيئاً انتشر الخبر وعمَّ الحزن. وبينما كانوا يرتبون الأشياء في قلايته رأوا أنّ الكتاب الذي كان أمامه قد رقد رقاده الأبدي أيضاً، إذ احترق احتراقاً كافياً.

انتشر خبر وفاة البار بسرعة في كل مكان. تأسف الجميع عليه وبكوا بكاءً مرّاً. كان الفراق صعباً، وبشكل خاص على راهبات دير ديفاييفو. كان حزنهنَّ شديداً لأنَّه لم يكن قد وجد لهنَّ بديلاً عنه يثق به لرعايتهنَّ.

كانت الراهبة براسكيفي ايفانوفا /التي أرسل لها الستارتس مائتي روبل قبل موته لشراء الخبز/ قد اشترت الخبز وعادت إلى الدير. لكنها في الطريق سمعت الخبر المفجع فوجهت الحصان على طريق ساروف.

كان الراهب ثيوكتستوس الذي زار الستارتس في اليوم الماضي قد رحل من ساروف في اليوم نفسه ، ونام في برديانوف وفي اليوم التالي تحرّك منذ الصباح الباكر للسفر البعيد. في الطريق انحلّت أربطة الحصان فاضطرَّ أن يتوقف في دير ديفاييفو.

وجد الأخوات ينتحبن البار في حزن عميق ودموع. وكاهن ديفاييفو غائب بسبب خدمات إدارية. فطلبت الأخوات من الأب ثيوكتستوس أن يقدِّس لهنّ لأجل راحة نفس الستارتس وهكذا تحققت أقوال البار . «أنت ستقدِّس في ديفاييفو».

وضعوا في نعشه بحسب رغبته، الأيقونة المصنوعة من زملط والتي أرسلت له من دير الثالوث الأقدس للقديس سرجيوس. وبقي جسده ثمانية أيام موضوعاً في كاتدرائية رقاد والدة الإله.

بقي دير ساروف حتى يوم دفنه مليئاً بألاف البشر، الذين جاؤوا من المناطق المجاورة لكي يتبرّكوا بالستارتس المغبوط. كان الجميع يبكون على فقده ويصلّون لأجل راحة نفسه، كما صلى هو طيلة حياته لأجل صحة وخلاص الجميع.

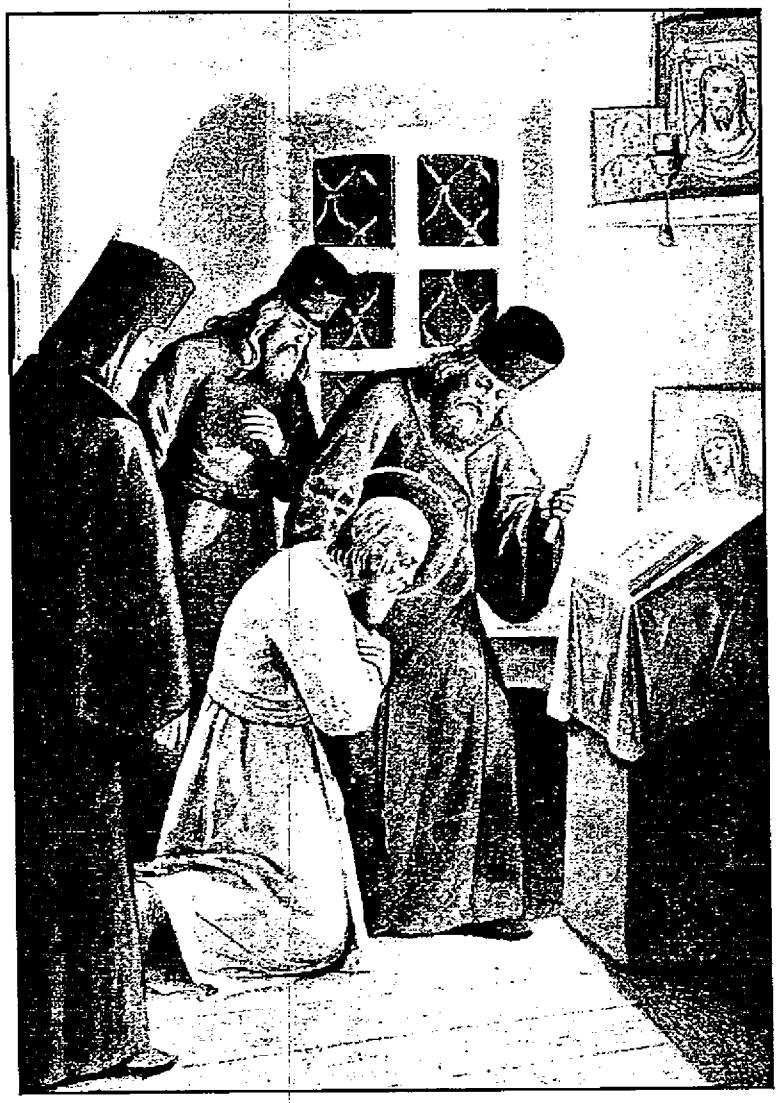

رقاد البار

أقام خدمة الجنازة الرئيس نيفون وكان قبره قد أعدَّ في الجهة اليمنى للهيكل المقدَّس للكاتدرائية، بالقرب من قبر مرقص الحبيس. وبتقدمة التاجر شيْريف من نيزينكورد ارتفع فوق قبره تذكار مصبوب من حديد.

لم تتلَ خطابات حين دفنه. فذكريات حياته وأعماله وما روي عنه بالقرب من قبره، كانت التعليم الأفضل الذي يحل مكان كل الخطابات.

بعد وفاته بزمن قصير كان أحد الضباط مسافراً على عجلة من أمره إلى كورسك حيث توقف فيلقه فمرَّ من دير ساروف. وكعادته رغب أن يأخذ بركته . لكنه حزن جداً واضطرب عندما علم أنه قد مات ، كتب قائلاً: «لقد اعتبرت ذلك بمثابة عقوبة على خطاياي. لكنني بعد أن صنعت على قبره صلاة تذكار الأموات شعرت فجأة أنني قد ارتحت جداً. و بدا لي وكأنني أخذت مغفرة الخطايا من الستارتس نفسه، وشعرت أيضاً وكأنني سمعت وعده أنه سيصلي لأجلي أمام مذبح الرب».

فأوكل رئيس الدير نيفون للضابط أن يزور أقرباء البار في كورسك ليقدِّم لهم بركته وصورته وأن يشرح لهم نهاية نسيبهم المغبوط.

ولما وصل الشاب إلى كورسك ذهب مباشرة إلى أقرباء البار وهناك وجد أن أخاه الكسيوس قد مات منذ زمن قصير. وكان قبل أيام بصحة جيدة، لكنه أخذ يعاني من الاكتئاب، دون أن يعرف سبب ذلك، إذ لم يكن قد أخبر بموته حتى ذلك الوقت.

جعله الاكتئاب يطلب التعزيَّة في الصلاة فصار يذهب كل يوم إلى الكنيسة وهكذا تهيأ. واعترف وتناول الأسرار الطاهرة. في ذلك الوقت علم من ساروف خبر وفاة أخيه. فبدأ يتجهَّز بشكل نهائي استعداداً لموته. وبالحقيقة بعد أن أنهى صلاة تقديس الزيت رقد رقدته الأبدية.

لقد كلمه البار سيرافيم عن موته عندما زاره الأخ أثناء توجهه إلى كييف فمرَّ من دير ساروف.

قال له: أعلم أنه عندما أموت ستأتي نهايتك بسرعة.

الحفاظ على ذكراه

بعد جنازة البار بدؤوا بجمع كلّ الصور التي رسمت لشخصه وهو على قيد الحياة لكي يحافظوا على ذكراه مع أنه لم يرغب في وقت من الأوقات أن يرسموا له صورة.

كانت والدة الراهبة أناسطاسيّا من ديفاييفو تحترمه كثيراً، وكانت في وقت مضى قد رجته بالسماح لها بأن تصنع له صورة نصفيّة.

من أنا الوضيع حتى ترسمي وجهي. إن الناس يصوِّرون أيقونة الله والقديسين. أما نحن فبشر ،نعم بشر خطأة.

الشيء نفسه قاله لأحد رهبان ساروف مضيفاً التفسير التالي:

يجب أن نحاول دائماً قطع وثبات حب المجد الباطل في لحظة هجومها. في الوقت ذاته استمرت والدة أنسطاسيا بإزعاجه لكي يسمح لها برسمه. فوافقها عندما رأى غيرتها وقال لها:

ليكن بحسب قلبك طالما أنك ترغبين بذلك. وبفضل هذه المحاولات توجد صورتان حقيقيتان للأب سيرافيم. الأولى عندما كان عمره خمسين عاماً. في هذه صوِّر البار دون غطاء على الرأس. وجهه أبيض ونظيف وعيناه زرقاوان وأنفه مستوٍ مرتفع بعض الشيء نحو الأعلى وشعره أشقر فاتح، كثيف مع بعض الشعرّات البيضاء هنا وهناك. ويداه مضمومتان على صدره يلبس المنتيَّة والبطرشيل. لقد رسم هذه الصورة رسام من كلية ديمتريوس افستاثييف للسيِّدة أنينكوف التي سلمتها لدير ساروف.

أما الصورة الثانية والموجودة في غرفة رئيس دير ساروف فقد رسمت قبل وفاته بخمس سنوات. رسم بالمنتيّة والبطرشيل والأكمام تماماً كما كان يذهب للمناولة. يظهر فيها وجهه شاحباً. وقد أثقلته سنوات الجهاد والنسك، شعره أبيض وكثيف ولكنه ليس طويلاً. ويداه أيضاً على صدره فوق البطرشيل. رسم هذه الصورة الفنان سيريبرياكوف الذي صار فيما بعد أحد رهبان دير ساروف.

بعد وفاته، ظهر أشخاص كثيرون ممَّن شهدوا عن عمل طيِّب أو عمل عجائبي حصل معهم بواسطة القديس. وقد وقعت قصص هذه الحوادث

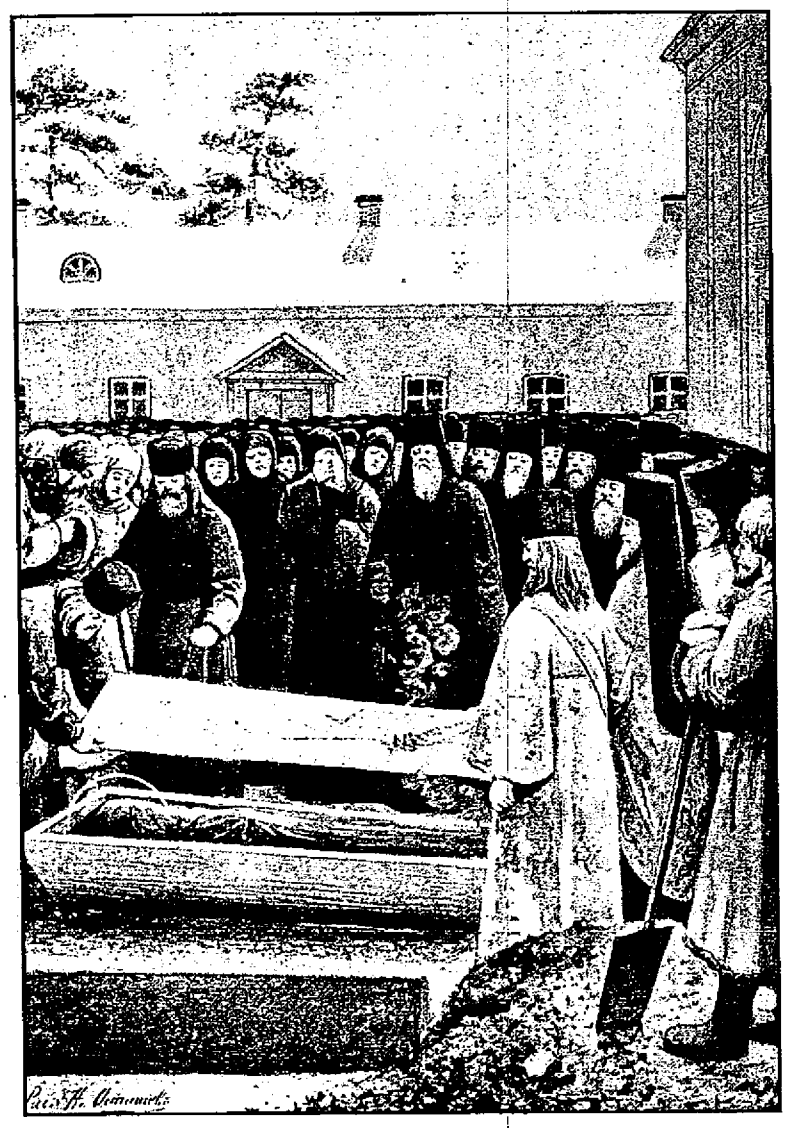

دفن البار

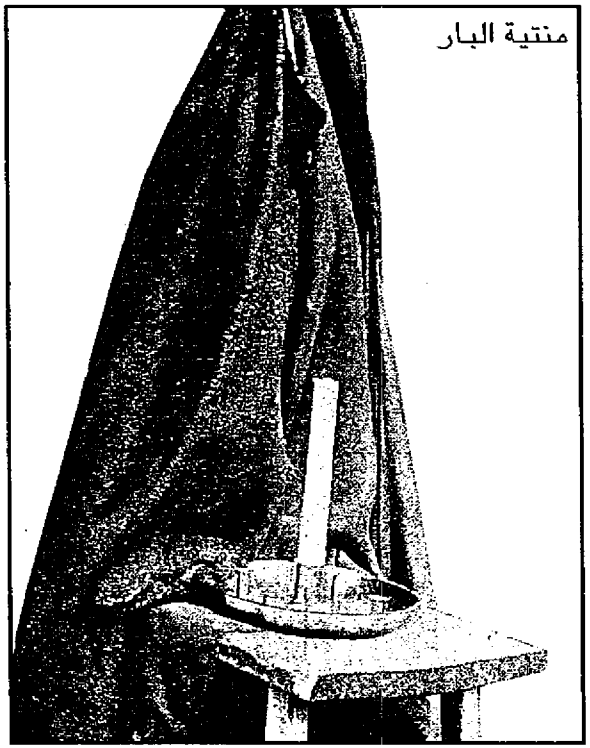
منتية البار

من قبل المحسَن إليهم. وكل الذين كان عندهم أشياء من متروكاته حاولوا الحفاظ عليها ومن لم يكن عنده شيء حاول الحصول على شيء منها كبركة. وبحسب ترتيب دير ساروف، أنه بعد وفاة كل راهب توضع مقتنياته الخاصة في المخزن وتصبح ملكاً عاماً في الدير وإذا ما أراد أحد الأخوة أن يأخذ شيئاً يمكنه أن يحصل عليه من المخزن، ويمكن أيضاً أن يحضر شيئاً ويستبدله. بالرغم من أن مقتنيات الأب سيرافيم قد وضعت في المخزن، إلا أنها لم تبق فيه زمناً طويلاً، فقد وزعها الرئيس نيفن والأب أشعياء على أولئك الذين كانوا يحترمونه كثيراً والذين رجوهم بحرارة أن يسمحا لهم بأخذها.

وهكذا حصل الراهب غفرائيل على صورة للستارتس. وهذا السعيد الحظ لشدة احترامه له لم يكن يظهرها لأحد وإذ ما أظهرها لأحد في وقت

أكف البار

ما، لم يكن ليتركها بين يديه. حوفظ على الصليب النحاسي الذي كان يلبسه على صدره في دير ديفاييفو مع هديَّة أسقف نيزينكورد أرميا. وهو موضوع في هيكل كنيسة التجلي. أما الصليب الحديدي الكبير الذي كان يلبسه داخل ثيابه فهو موجود في ساروف.

عندما علم تيبلوف بموته طلب أن يأخذ شيئاً من قلايته فأعطوه الإبريقين اللذين بهما كان يحضر الماء لحاجاته الشخصيَّة وكان الإبريقان مليئين بالماء من بئره.

بقي المعول الذي كان يعمل به في البريَّة مع الراهبة براسكيفي ايفانوفا. لقد حصلت عليه في حياته وحافظت عليه كشيء مميَّز غالي الثمن. أخيراً أعطته للرئيسة لكي يحفظ في قلايته في المنسك.

كتبت ماريا كوليتسيف التي كانت على علاقة روحية متينة مع الحبيس الأب جورج. كتبت بتأثر «بعد موت الأب سيرافيم أخذت منديلاً أبيض من قلايته وقنديلاً وكأساً، وأخذت راهبات ديفاييفو جبتين. لبست إحداها إحدى الراهبات وأعطت الأخرى لماريا كوليتسيف. أما شعره الذي سقط مرَّتين بسبب مرضه، فقد احتفظ به في ديفاييفو وفي ساروف».

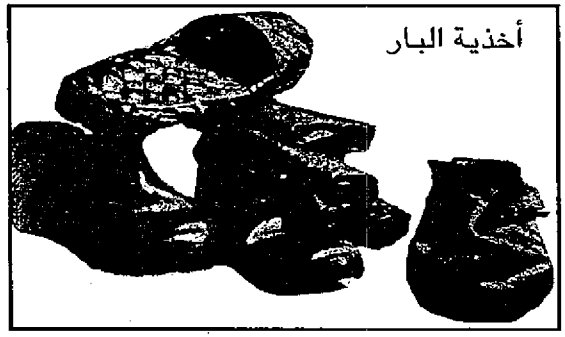

أخذية البار

من أغراضه الشخصيّة اشتهرت بشكل عام إحدى منتياته. وكان قد قدمها قبل موته بزمن قصير لرئيسة دير ديفاييفو كسينيا. ولما ذهبت الراهبة أليصابات أندرييف تاتارينوف إلى بطرسبرغ لجمع التبرعات، أخذت معها هذه المنتيَّة لكي تعينها. اشتهرت المنتيَّة في بطرسبرغ، إذ بواسطتها شفي طفل صغير لم يقوَ أفضل الأطباء على شفائه.

ومن الكتب المقدّسة التي كان يطالعها، يوجد واحد في ساروف وآخر في ديفاييفو مجلَّدٌ تجليداً فنياً. كان يحمله معه دائماً في جرابه الذي كان يعلقه فوق كتفيه. في هذا الكتاب كان قد حزم إضافة للأناجيل المزامير وأعمال الرسل. ورسائل الرسل القديسين. وفي الدير النسائي لا يزال موجود جزء صغير من السنكسارات التي تحرَّقت أثناء رقاده.

ولا تزال الصخرتان اللتان صلّى عليهما ألف يوم، ليلاً نهاراً، لكي يقهر هجمات العدو، موجودة. الأولى لا تزال على حالها الأول وموضوعة في كنيسة التجلي في ديفاييفو. على هذه كان يقف في قلايته ليصلي خلال النهار.

بقيت قطعتانٍ من الصخرة الثانية التي كان يصلي عليها ليلاً. وما تبقى منها فقد توزعه المؤمنون للبركة. والقطعتان اللتان حفظتا يبلغ طول الأولى زراع، أحضرت سريعاً إلى كنيسة التجلي في ديفاييفو. وأما القطعة الأخرى فموجودة في قلايته في دير ساروف.

وقد نقِلَ منسكه، الذي كان يجاهد فيه في البريَّة القريبة أيضاً إلى

مقتنيات البار في قلايته داخل كنيسة دير ديفاييفو سنة ١٩٠٣

ديفاييفو. في هذا المنسك كانت قراءة المزامير لا تنقطع، لأجل راحة نفوس الملوك ورعاة الكنيسة والأب سيرافيم وأخوة الدير الراقدين ولأجل المحسنين إليه.

أعطي منسكه في البريَّة البعيدة لراهبات ديفاييفو وأدخل في بناء هيكل كنيسة التجلي. ويحافظ في نفس المكان على مقعده الذي كان عنده في ذلك المنسك.

توجد في الجهة اليسرى من كنيسة الثالوث القدوس في ديفاييفو، أيقونة والدة الإله «فرح كلِّ المحزونين». وقد صوِّرت على قماش ممدود على خشب السرو، وكانت موجودة في قلايته في دير ساروف ووضع لها قميص فضيّ جزيل الثمن. ويرتّل أمامها في يوم محدد من الأسبوع مديحاً للرب ولوالدة الإله لا يجلس فيه. ويحترم المؤمنون هذه الأيقونة بشكل خاص، وبحسب اعتقادهم أنهم يأخذون منها تعزيَة روحيَّة. ويوجَد في الكنيسة نفسها أربع علب تحفظ فيها بعض الأشياء من أغراضه

الشخصيَّة، البطرشيل، ومنتيّة. وكتب طقسية. وقبعات رهبانية. وجبة قصيرة. وأداة للحفر. ومعول. كذلك أحذيته. وأكمامه. وقليل من شعره مربوط كعقدة. سكينه وجواربه وأشياء أخرى.

إنه لملاحظ أن أكثر الأغراض الشخصيَّة للأب سيرافيم موجودة في ديفاييفو في الدير الذي كان قد أعطى له كلَّ قلبه.

أما رفاته المقدَّسة فستشكل على الدوام أقدس كنوز دير ساروف. لقد توحَّد فيه لأجل خلاص نفسه. وفيه أنهى حياته المقدَّسة. فهو لم يغادر الدير على الإطلاق بل لم يخطر بباله مطلقاً مثل هذا التفكير كما كان يؤكدُ. وبالتالي، جسده أيضاً يجب أن يبقى هناك دائماً كعلامة رباط روحيٍّ مع الدير لا ينحل أبداً.

وكانت الأمكنة التي قدَّسها بحضوره تستدعي احتراماً عاماً، لقد صار مكانها في الفترة الأخيرة كنائس صغيرة. كان قبره غير مغطى، وكان الزوار في ساعة إقامة الذكرانية عليه معرّضين للمطر وللحرّ.

سنة ١٨٩٠م أنشئ بناء صغير بقبة وبابين في المكان الذي يتقاطع فيه حائط هيكل الكنيسة الصغيرة الشرقي مع هيكل الكنيسة الرئيسة والحائطان الآخران من زجاج مع عوارض وأبواب معدنيّة.

يوقد فوق القبر قنديل لا ينطفئ. وصوِّرت ستُ حوادث من حياته على قطعة من قماش ووضعت على الحائطين الحجريّين من جهة الهيكل وهي على التوالي:

١. صلاته فوق الصخرة.
٢. إطعام الدبَّة.
٣. ظهور والدة الإله في يوم البشارة
٤. رقاده. وصورتان أخريان.
٥. واحدة منها، للقديس بهيئته الكاملة.
٦. وفي الثانية يبارك الزوّار عند البئر. وتوجد صورة الراهب مرقص المدفون في القبر، الموجود عند أسفل قبر البار سيرافيم.

أما البئر الذي أصلحها، والتي كانت ينبوعاً حقيقياً للشفاءات فقد بقيت على حالها لوقت طويل. وكان كل مؤمن يعتبر أنها بركة له أن يدخل فيها كاملاً ليغسل رأسه أو يشرب من مائها. ولكنها كانت موجودة في مكان مكشوف ولهذا فالزوّار من كلِّ جنسٍ وسن كانوا يجتمعون معاً وبالنتيجة كانوا يستصعبون الاستحمام. وبعد فترة بني فوق البئر كنيسة صغيرة رائعة بأيقونات وحدثين هامين من حياته. ونحو الأسفل بمسافة قصيرة بني خزان لبناءين منفصلين تماماً. وبالقرب من البئر في المكان الذي كان فيه منسك الستارتس بنيت قلاية بشكل وأبعاد المنسك القديم الذي كان قد نقل إلى ديفاييفو.

وفي عام ١٨٩٠م في مكان الصخرة التي صلى عليها ألف يوم بنيت كنيسة صغيرة مفتوحة مغطاة بقبة مسنودة على أربعة أعمدة مزخرفة وفي داخلها يوجد المصلوب وحجرة كبيرة لتذكار جهاد البار.

وفي عام ١٨٩٣م اكتشفوا في منسكه في البريّة البعيدة مغارة القبو التي كان يختفي فيها بسبب الزوّار لكي يصلي دون انقطاع. وجدت فيها أيضاً حجارة كانت تساعده على الصلاة. بقي الكهف دون مَسٍّ. وبني فوقه منسك جديد بأبعاد المنسك القديم نفسه قبل أن ينتقل إلى ديفاييفو. ويعتبر الزوار أنه من واجبهم زيارة هذا المكان حيث تقدست جهاداته.

أما القلاية التي كان ينزل بها عندما كان يعود من البريَّة لا تزال في حديقة الدير مقابل قبره. لقد تقبَّل فيها زيارة والدة الإله ومنها قد انطلق نحو الربّ. وكانت قبلاً تشكل جزءاً من جناح قلايات الدير الجنوبيّة. ويوصل إليها بهو ضيِّق ببابين الباب الأول باب الراهب بولس والباب الثاني باب قلايته هو.

كانت أبعاد قلايته ٥ X ٥ X ٣ أذرع، وكان لها من الجهة الجنوبيَّة نافذتان تطلان على الحديقة وعلى نهر ساروف. وفيها موقدة وإلى جانبها وضعت علبة محفوظات بواجهة. حيث عرضت بعض أغراضه مثل منتيَّته ومع منتيَّته عصا الراهب ذي الأسكيم الكبير مرقص، وقلنسوته

وسبحة صلاته وصليبه وشعره الذي سقط خلال مرضه والإنجيل الذي حمله معه وقطعة من الصخرة التي صلّى عليها ألف ليلة ومقعد خشبي كان قد صنعه بذاته.

وعلى حائط القلاية توجد نسخة عن أيقونة العذراء «فرح جميع المحزونين» والموجودة في ديفاييفو، مع بعض الأيقونات الأخرى. وفوق الواجهة إضافة لأغراضه الشخصيَّة وضعت رسمتان من حوادث حياته على قماش، الأولى بهيئته الكاملة يبارك. بينما في الثانية، حدث وفاته.

سنة ١٨٩٧م هدِّمت كل القلالي التي كانت موجودة حول قلايته وفوق المكان بنيت كنيسة كبيرة على اسم الثالوث القدوس. وهكذا صار مكانُ جهادِ وصلاةِ ونهايةِ البار سيرافيم السعيدة موضوعاً دون تبديل تحت سقف الكنيسة.

عاش البار سيرافيم ومات لمجد الله. وقبل أن يعلن رسمياً كقديس كان اسمه يطوَّب في كلّ روسيّا. كانت الذكرانيات تقام لراحته ليس فقط في بريَّة ساروف وفي دير ديفاييفو بل في مناطق كثيرة، في بطرسبرغ، في كييف، في موسكو. في مدن الريف البعيدة وفي قرى الأرض الروسيَّة كلها.

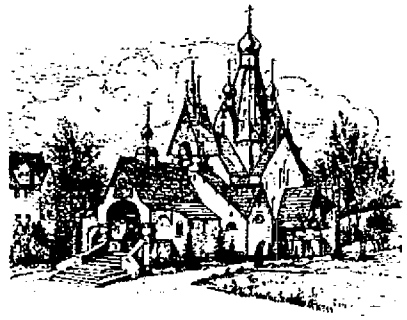

الفصل الثاني عشر

كرامات بعد الموت

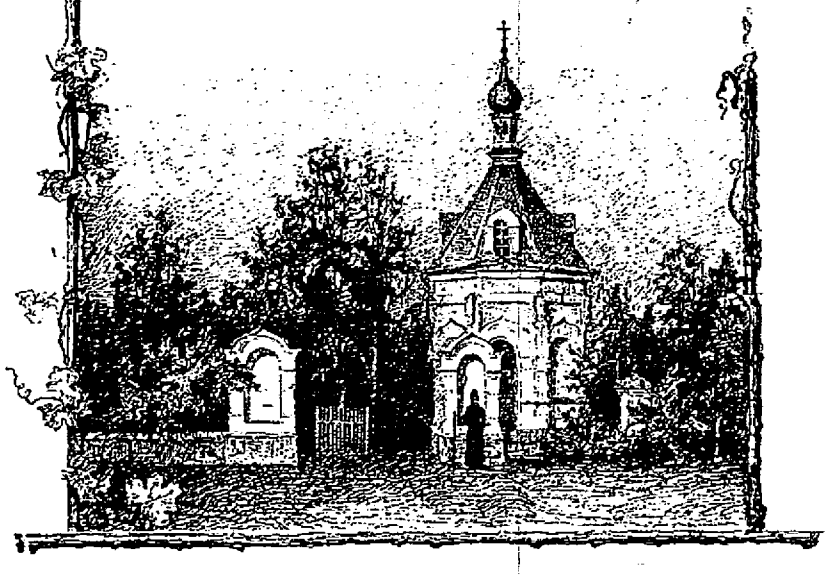

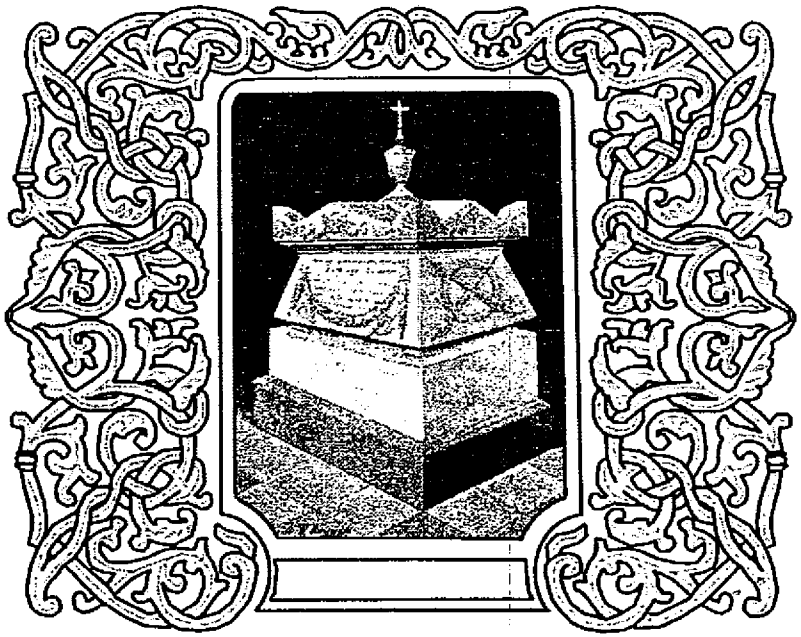

الثلاثون سنة الأولى

«الصديقون يعيشون إلى الأبد» . استمر البار سيرافيم بعد وفاته يساعد بشفاعته الحارة عند المذبح السماوي كل الذين يطلبون منه بإيمان وحرارة. كثيرون من المسيحيين الذين جرّبوا بأمراض وتجارب متنوعة يشهدون علانية أنهم قد نالوا شفاءً ومساعدة سريعة، عندما طلبوا شفاعته.

لم يكن قد عَبَرَ نصف عام على وفاته عندما أصيبت إحدى راهبات ديفاييفو بمسٍّ شيطاني لسبب غير معروف. في هذه الحالة فقدت عقلها، وأخذت تلتطم بالأرض وتشد شعرها بجنون وتهاجم الجميع دون سبب محدد.

شعرت في إحدى الليالي وكأنها موجودة في كنيسة ميلاد السيِّد في ديفاييفو وكانت هناك الأخت S . D والبار سيرافيم. أخذ البار يدها ووضعها في يده وطلب منها أن تمسك باليد الأخرى الأخت . S . D وقاد المريضة إلى الهيكل المقدس ودار بها حول المائدة المقدّسة وفجأة شعرت بأنها صارت صحيحة ومرتاحة. ولما استيقظت رسمت الصليب. فنظرت حواليها وتحسست رأسها ونهضت معافاة بالتمام، ومن ذلك الوقت لم يظهر عليها ثانية ما كانت تعانيه سابقاً.

في حزيران سنة ١٨٣٣م كتبت السيدة .K كوليتسيف من ساروف للأب جاورجيوس المتنسك في زاندوسك ما يلي:

«إن المبتدئ ثيوذوروس الموجود في ساروف وأصله من مدينة كوزلوف تامبوف، عندما كان ساكناً في العالم، أصابه مسّ جنوني، وبعد أن جربّ وسائط معالجة عديدة من غير فائدة، تقدّم إلى رئيس دير ساروف نيفن وطلب منه بدموع أن يقبله في الدير ليعيش بتوبة. وكان قد اعترف أنه بسبب خطاياه قد سمح الربّ بأن يحمل هذه التجربة الشيطانية.

قَبِلَه رئيس الدير. وكان المبتدئ ينفّذ كل الخدمات بحماس كبير ويكرِّس الساعات القليلة المتبقيّة للصلاة ثم يترك قليلاً من الوقت للنوم. في أحد الأيام بعد صلاة مصحوبة بالدموع استسلَم لنوم خفيف. فرأى أمامه البار سيرافيم بالثياب نفسها التي كان يلبسها في سنيه الأخيرة.

قال له: اصنع، صلاة ابتهالية للسيدة العذراء وتذكاراً للوضيع سيرافيم وأنا سأشفيك.

بإيمان لا يتزعزع صنع المبتدئ كما قال له الستارتس وبعد الصلاة الابتهالية أقام صلاة الذكرانيَّة. وعندما بدأ الشماس بالطلبة من أجل الذكر المغبوط والراحة الأبديَّة لعبد الله الراهب سيرافيم المتنيح... سقط ثيوذورس على الأرض نافثاً من فمه دخاناً، رآه كلّ الذين كانوا هناك. وبقي نصف ساعةبلا شعور ، تحرر بعدها من الشيطان بصلوات البار ».

ظهور البار اثيوذورس

بعد مرور عامين على وفاته مرضت الراهبة .K.N من دير ديفاييفو بالحمى واقتربت من شفا القبر. ولما سئمت من الوسائل الطبيّة مسحوها بزيت مقدّس. وكانت خلال مرضها قد فقدت كل إحساس بيدها ولهذا كانوا يحركون اليد في الفراش واضعين تحتها منديلاً. مرّة رأته في نومها قائلاً:

لماذا، يا أخت لا تأتين إليّ قريباً من البئر؟ .

انني مريضة فقد شلّت يدي.

أيّة يد؟

اليمنى.

عند ذلك أمسكها من اليد المريضة وأنهضها مكرراً.

تعالي إليّ عند البئر.

ولما استيقظت وجدت أن يدها قد شفيت واستطاعت أن تحركها كالصحيحة ولكنها كانت منهكة بسبب الحمى فلم تستطع أن تأتي إلى ساروف سيراً على الأقدام. فأتوا بها بعربة في اليوم الثاني، وغسلوها بماء بئر الأب سيرافيم فعوفيت تماماً. الراهبة نفسها قصّت الحدث بتاريخ ٢٠ تموز ١٨٦٢م.

عانت الراهبة S . B من ديفاييفو، من مرض في عينيها فرأت نفسها في منامها، في اليوم السابق لعيد رأس السنة ١٨٣٥م أنها موجودة في كنيسة والدة الإله في تشفين. وفجأة خرج الأب سيرافيم من باب الهيكل الأوسط ببدلته البيضاء. فنفخ عليها وقال لها:

افركي عينيكِ.

أنت هو يا أبتِ ؟

كم أنت قليلة الإيمان، يا فرحي ! إنني لأجلكنّ أقيم قداساً إلهياً ولكن بالرغم من أنك طلبتني فأنت لا تؤمنين.

هكذا قال ثم اختفى، أما الراهبة فقد شفيت كما أخبرت بذاتها.

بينما كان .A كاراتايف عائداً من قطعته العسكرية عام ١٨٣٣م. هاجمه لصوص ،فطلب معونة البار ،فخلص من الخطر.

كان ايلارخوس افريكان باسيلييفتس تيبلوف يكن احتراماً عظيماً للبار. هذا ذهب في عام ١٨٣٤م إلى ساروف مع عائلته وكانت ابنته ذات ثلاثة الأعوام تعاني من مرض في قدميها. لم يكن باستطاعتها الوقوف حسناً. فقاموا بذكرانية على قبر الستارتس المنتقل وأخذوا الطفلة إلى بئره واثقين أن الله سيشفيها بصلواته.

هناك أعطوا الابنة ماء من البئر لتشرب، وغسلوا به قدميها، ثم أخذوا معهم قليلاً منه لكي يصلّوا صلاة الماء المقدس في الدير.

وبينما كانوا داخلين إلى الدير، فجأة طلبت الصغيرة من مربيتها أن تتركها لكي تمشي وحدها، فوجئت المربية، وتحت إصرار الطفلة تركتها تمشي ممسكة بيدها، لكن الطفلة سحبت يدها وبدأت تركض. ولما رأت العائلة العجيبة عادوا إلى قبر البار وشكروه بدموع.

في عام ١٨٤٦م عانى الابن الثاني لتيبلوف من التواء في قدمه، آلمه مدّة عامين. ولما حان وقت خدمته في فيلق الفرسان، جاء والده إلى بريّة ساروف في ٢١ كانون الأول ١٨٤٨م آملاً بما لا يقبل الشك بحماية البار، المحسن العظيم لعائلتهم.

وبعد أن أقام له ذكرانية ذهب إلى البئر بصحبة ولديه. وبالرغم من الصقيع غسل الولد رجله بالماء. وبعد زمن قصير جاء الولدان إلى البئر. اغتسل الشاب هذه المرّة من رأسه إلى قدميه ثم ركع أمام الأيقونات الموجودة على أحد الأعمدة هناك وصلى مع أخيه لكي يرحمه الربّ بشفاعات البار. وعند العودة إلى البيت لم يشعر المريض بأي ألم إذ كان قد تعافى تماماً.

في عام ١٨٤٠م كتب الراهب كبريانوس من ساروف ما يلي:

«منذ زمن عانيت من ألم دائم في رأسي. وبعد موت البار سيرافيم أعطوني قبعة الجوخ السوداء التي كان عادة يضعها على رأسه. وكلما كان الألم ينتابني كنت ألبسها وأتضرع إليه أن يخلصني. وحالما اضعها على رأسي كان الألم يفارقني. الشيء نفسه كان يحدث لي عندما كانت أسناني تؤلمني إذ كنت أعض على قطعة من الصخرة التي جاهد عليها في البريّة، وكان الألم يفارقني».

مرَّة جلبوا إلى البئر امرأة مصابة بجنون وكانت تعاني من مسٍّ شيطاني، فتشدُّ شعرها وتمزِّق ثيابها وتدور، ولما سكبوا لها ماءً بدأت بالصراخ.

اذهبوا، اذهبوا إن الراهب يعذِّبني.

استمرّوا بسكب الماء حتى هدأت وسقطت جامدة كصخرة. ولما استعادت وعيها رسمت إشارة الصليب وشربت وحدها ماءً من البئر. ومنذ ذلك الوقت لم يظهر عليها أي شيء من الأعراض السابقة.

بينما كان G.Z.S من قرية بولسوي تسيريفاتوف في منطقة أرداتوف ذاهباً في عام ١٨٤٨م إلى قرية أوكيل ،شعر بعوارض الكوليرا. وبإيمانٍ بالبار، ركض نحو بئره. فاغتسل بمائها ورش نفسه به وشرب منه، شعر بعدها بارتياح كما لو لم يكن قد مرض من قبل إطلاقاً.

D.A.A إقطاعي من نيزينكورد ومحسن كبير لدير ديفاييفو، فقد نظره في شيخوخته ولم يعد باستطاعته أن يميِّز شيئاً. في الوقت نفسه خسر عزاءه الوحيد، مطالعة الكتاب المقدس وكتب الآباء.

طلب من أخته التوأم وهو مليء بالحزن أن تزوره، أما هي فأرسلت له ماءً من بئر القديس سيرافيم. أخذ الأعمى قطعة قماش نظيفة وبلَّلها بالماء الشافي وغطى عينيه المريضتين. وصلى: أيّها الرب يسوع المسيح يا ابن الله اشفني بصلوات الستارتس سيرافيم.

كرّر الصلاة ثلاث مرّات. بعد المرّة الأولى رفع قطعة القماش وميَّز الأشياء من حوله كما في ضباب أو من خلال منخل كثيف. بعد الثانية صار يميِّز الأشياء بشكلٍ أوضح. وبعد المرّة الثالثة صار يقرأ.

ذهب إلى بريَّة ساروف مفعماً بشعور الفرح من شفائه وهناك أقام صلاة شكر للرب ولوالدة الإله وصلاة ذكرانية للبار سيرافيم، وخصص في كل عام قسماً من دَخْلِهِ لدير ديفاييفو كاعترافٍ بمحبَّة البار الأبويَّة.

قبل موت البار بستة أشهر، ذهب N.M.K. برفقة زوجته إلى ساروف. فأعطاهم البار علامة كوصيَّة، حول حياتهما الزوجيَّة وقال

لهما مبتسماً:

إذا لم تحافظا على هذه الوصيَّة ستموتان سريعاً.

وقد حافظا عليها طيلةَ حياته ولكنهما تجاوزاها بعد وفاته. فمرض الزوج فجأة وارتفعت حرارته وضعفت أعضاء جسده وبعد أسبوعين فقد صوته. وشلَّت شفتاه ولم يبد أي أملٍ بالشفاء.

في ذلك الوقت زاره طبيبه الذي قصَّ حلمه على الموجودين كلّهم هناك، قال: بينما كنت آتياً إلى المريض قابلت كاهناً شيخاً لابساً ثياباً بسيطة. أوقفني الشيخ وقال لي:

أذاهب أنت لتشفيه؟ لن تشفيه ولكن قل له: أعطِ وعداً ما لله. وسيحيا إن حافظ عليه.

سمع المريض قصة الطبيب. ففهم أن الشيخ هو الستارتس سيرافيم وأن مرضه، عاد نتيجة لتعدّيه الوصية. فتاب بمرارة وقطع وعداً لله، أنه سيضع تحت حمايته إحدى قريباته اليتيمة المدعوة إلبيذا، إذا شفي.

ولما أعطى الوعد شعر مباشرة بارتياح وبعدَ قليل جلس في السرير ونادى امرأته التي شكر الله معها بدموع. وفي اليوم التالي بدأ يمشي في الغرفة وخلال وقت قصير تعافى تماماً.

كتب الأب المتوحد سيرافيم الروسي أحد نساك آثو، والملقب بـ «أيّوريتي» وحامل اسم سرجيوس لدى تقبله الإسكيم الكبير.

بينما كنتُ في عام ١٨٤٩م مرتحلاً من بياتكا مرضتُ بشدَّة. فخفتُ أن أموت. إذ لم يستطع أي علاج طبي أن يعيد إليَّ قوتي وصحتي.

وفي ليل اليوم الأول من كانون الثاني عام ١٨٥٠م كأني سمعت صوتاً يقول لي:

غداً تذكار رقاد الأب سيرافيم من ساروف فأقم قداساً وذكرانية لراحة نفسه وذاك يشفيك.

شعرت بعزاءٍ كبير. ولم أكن قد تعرفت شخصياً على الستارتس. فقط قمت بزيارة منسكه سنة ١٨٣٨م ومنذ ذلك الوقت صرت أكن له ثقة

ومحبة. هذا الرباط والثقة تقوّياً سنة ١٨٣٩م عندما رأيت في الحلم أنني أقمت له صلاة ابتهالية ورتلت من كل نفسي «أيها الأب البار تشفع لأجلنا. بعد الأوديَّة الثامنة شعرت أنه من الواجب أن أقرأ إنجيلاً. لم أعرف الإنجيل الذي سأقرؤه، أللبار أم فصلاً آخر.

وفجأة سمعت صوتاً:

اقرأ من إنجيل متى (١٠: ١٦ – ٢٢) ولما سمعت هذا الصوت السري استفقت فأمنت أن الأب سيرافيم هو قديس كبير. بعد الإعلان السري الذي حرّكني لأذكر الأب سيرافيم رجوت مَنْ في الدير أن يقيموا قداساً إلهياً وذكرانية. وحالما انتهوا تراجع المرض وشعرت بارتياح غير معهود. ومنذ ذلك الوقت أنا معافى بنعمة الله (أعمال ورسائل «لأيوّريتي» بطرسبورغ ١٨٥٨ م).

قصَّت B. M. E حادثة مشابهة حدثت لعمتها، التي قامت سنة ١٨٥٤م بزيارة لديفاييفو لكي تصلّي، وبعد صلاة السهرانية شربت كأسين من الماء البارد وهي مبلّلة بالعرق. فكانت النتيجة أن ارتفعت حرارتها. وبعد ثلاثة أسابيع صارَت تأكل وتشرب قليلاً ولم تعد تستطيع النوم إلا نادراً. وفي الأسبوع الرابع أغمي عليها ولم يعد من أمل بشفائها. فأخذوا بإعدادها بالأسرار المقدسة للموت.

وكانت إلى جانب المريضة راهبة مرافقة لها في السفر من سمولنسك بهدف جمع التبرعات لديرها. توجهت هذه الراهبة نحو والدة الإله وصلّت للأب سيرافيم ليطلب من والدة الإله أن تطيل حياة المريضة. اقتربت الراهبة في الصباح من المريضة وقالت لها:

أي حلم رأيته بخصوصك؟.

عن موتي ؟ سألت تلك بارتعاد.

لا، ستشفين، هكذا قال لي الأب سيرافيم.

فقامت المريضة وجلست في فراشها، مع أنها لم تكن قد رفعت رأسها عن وسادتها حتى ذلك الوقت.

ثم قالت للراهبة تكلّمي بسرعة.

تحدثت الراهبة قائلة: لقد طمأنني الأب سيرافيم وقال لي: «لا تضطربي» ستعيش عبدة الرب أفذوكيا. لقد صليت إلى الرب ولوالدته الكليَّة الطهر. بعد ذلك أخذك الستارتس ومرَّرك من خندق وذهب بك إلى أيقونة والدة الإله على جدار الكاتدرائية.

في نهاية الحديث شعرت المريضة بتحسن كليّ. وفي اليوم التالي رغبت باستنشاق هواء نظيف. فطلبت من سائق العربة أن يأخذها إلى مكان ما من غير أن تعيِّن مكاناً. مرَّ السائق بالخندق ودار بها حول الكاتدرائيَّة وقادها أمام أيقونة والدة الإله وهكذا تحقق حلم الراهبة. قصت المريضة ذاتها، تلك العجيبة تحت الأيقونة الموجودة عند البئر.

سنة ١٨٥٦م ظهرت على الابن الوحيد لنائب حاكم منطقة كوستروم علائم مرض في المعدة، وكان عمره ثماني سنين. تفاقم المرض إلى قرحة، وبعد فترة توقفت التشنجات وحلَّ محلها الاكتئاب، فتحوّل الولد السعيد القوي إلى سيئ المزاج.

مع تطوّر الزمن تفاقم الاكتئاب ، وكانت النوبات تنتهي بالدموع، ومن وقت لآخر صار يخرج زبداً من فمه ثم أخذت تظهر عليه علامات تشنج. هذه النوبات صارت تتكرر على المريض خمس مرّات في النهار، وفي الليل كان يستسلم لنوم هادئ. في فترة مرضه الأخيرة أخذت النوبات تظهر في الليل أيضاً.

لم يكن للوسائط الطبية نفع يذكر، فأخذ الوالدان يخشيان على ولدهما، لكن بقي لهما بعض الأمل برحمة الله.

في تلك الفترة أهدت راهبة من كوستروم أمَّ الصبي كتباً عن حياة القديس سيرافيم ساروف. طالع الوالدان الكتاب باستمرار فدهشا من جهاد البار وأفعال النعمة الإلهية.

استمرَّ المرض الذي بدأ في تموز حتى أيلول. وفي إحدى الليالي رأى الصغير في حلمه الرب بلباس أحمر محاطاً بملائكة. وقال له:

إذا قمت بما سيقوله لك الستارتس الذي سيأتي ستصبح في صحة جيدة. ولما حضر الستارتس، قدّم ذاته باسم سيرافيم وقال للطفل:

إذا أردت أن تتعافى اذهب إلى غابة ساروف، وخذ ماءً من البئر المدعوة «لسرافيم»، واشرب مدة ثلاثة أيام صباحاً ومساءً، واغسل رأسك وصدرك ويديك ورجليك.

قصَّ الولد الحلم على والديه، اللذين شكرا الله وبدأا يفكران بالطريقة التي سيجلبان بها الماء. في الصباح قصَّ الولد حلماً ثانياً وهو مشاهدته الكلية القداسة محاطة بملائكة، قالت له بوداعة، أن يطبِّق مباشرة وصيَّة الأب سيرافيم.

أقنع الحلم الثاني والدَي الصبي بحماية البار وحنان الله على المريض. وبينما كانا يفكران كيف سيجلبان الماء. أخبرتهما الراهبة المعروفة عندهما من غير توقع أنها سترسل وعاءً مليئاً بماء من بئر الأب سيرافيم قبل أن يطلبا ذلك.

فمجدوا لله على حنانه. ولما أعطيا للمريض من ماء البار تعافى تماماً. في ١٤ تموز ١٨٦٠م زار الولد مع أبيه قبر القديس وشكراه. والأب بذاته عرّف رئيس دير ساروف كيف شفي ابنه بشفاعة الستارتس سيرافيم، وكتب القصة بيده.

كان أحد الإقطاعيين في منطقة تامبوف وقائدُ الجيش P. A. B يعاني من ألم مزمنٍ في رأسه. وفي سنة ١٨٥٧م ذهب إلى ساروف في عيد رقاد السيدة العذراء. وبعد القداس الإلهي الأول في كنيسة المشفى طلب أن يذهب إلى البئر. ولكنه فكرَّ بامرأته التي كانت تنتظره في الضيافة ليشربا الشاي.

توجه نحو الضيافة، ولكن من غير أن يدرك وجد ذاته متوجهاً نحو البئر، ولما وصل خاف أن يغتسل، لأن رأس المريض الحساس كان ثقيلاً. وكان الجو بارداً وماطراً. فدبَّر الله شفاءه بطريقة عجائبية، من غير أن يفهم كيف انزلق في الوحل، وسقط في البئر على رأسه وغطس فيه بكامله.

فذهب عنه الألم تماماً.

وبينما كان عائداً إلى الدير، قابل قروياً قال له ما يلي:

اليوم شفاني الأب سيرافيم. كانت يدي متورِّمة، وكانت قد شلَّت، ولم يكن باستطاعتي أن أرفعها؛ لأنها كانت تؤلمني كثيراً. فجئت إلى هنا ووضعتها مرتين في ماء البئر فعادت صحيحة تماماً.

يوم الأربعاء من الأسبوع الخامس من الصوم الكبير سنة ١٨٥٨م ملأت الراهبة افذوكيا من دير ديفاييفو براداً كبيراً بالجليد. وفجأة تعثرت وسقطت بقوة فوق بعض قطع الجليد المسننة.

لم يصدر عنّها أيَّ صوت بسبب شدّة السقطة. كانت الراهبات في ذلك الوقت يعملن بالقرب من الدير. فشعرن بغيابها فبحثن عنها ولما دخلنَ البراد وجدنها في الظلام مرميَّة على الأرض.

فخشينَ أن تكون قد ماتت. ساعدهنَّ قرويان وأخرجاها بصعوبة كبيرة. كانت إفذوكيا لم تزل على قيد الحياة. فجلبوها إلى أقرب قلاية وأخبرن الأب الروحي وببركة الرئيسة طلبن الطبيب من قرية برتيانوفو.

بعد أن استعادت المريضة أحاسيسها، اعترفت وتناولت لكنها تألمت كثيراً من جنبها ومن رأسها حيث كان الورم شديداً. أجرى لها الطبيب عمليَّة الفصد اللازمة. ولكنه قال: إنَّ السقطة خطيرة. فقد كان جنبها بكامله متورماً. ولم يستطيع أن يعرف عدد الرضات الموجودة في الجانبين؛ لأن أي لمس بسيطٍ للمريضة كان يسبب لها إغماءً طويلاً.

بعد أربعة أيام أتوا بها إلى المشفى وهناك استمرت نوبات الألم. كانت الراهبة تصرخ وتتأوه من الألم، وبصعوبة كان أربعة أشخاص يستطيعون رفعها ليضعوها على الوسادة. كان بإمكانها أن تتمدَّد على الجهة اليمنى فقط.

لم تستطع أن تنام من شدّة الألم في الأسبوعين الأولين على سقوطها. وفي منتصف ليل الأربعاء العظيم نامت نوماً خفيفاً، رأت خلاله البار سيرافيم داخلاً إلى غرفتها.

قال البار وهو يقترب من سريرها: جئتُ لأزور يتيماتي. فأنا لم أزرهنَّ منذ زمن طويل.

يا أبتِ إنني أتألم كثيراً. قالت تلك بدموعٍ مرّة.

سأضع لكِ لزقة. قال البار:

وإذ جمع أصابعه الثلاث رسم إشارة الصليب على المكان المضروب مكرراً ذلك الأمر ثلاث مرات، واختفى. فتحت افذوكيا عينيها. لم يكن في الغرفة أحد، وكان الصمت التام سائداً، فاستسلمت سريعاً للنوم. ولما استفاقت في الساعة الخامسة صباحاً لاحظت نفسها أنها كانت مستلقية على الجانب المتألم من غير أن تشعر بأي ألم. فتذكرت ظهور البار وقالت: إنه كان لديها لفترة طويلة الشعور بأن لزقة موجودة على الجانب المضروب. في اليوم نفسه نهضت المريضة من فراشها دون مساعدة وتمشت عدة مرّات في الغرفة وقصّت على كثيرين شفاءها العجائبي.

عانت أولغا H إحدى القرويات الساكنات في ريازان من مرض مؤلم جداً مصحوباً بهقة وتثاؤب وخبل. فكانت تصرخ وتلطم ذاتها بقوة. وكانت عيناها تظلمان وتمزق ثيابها قطعاً مبدية قوة غير معهودة.

دام مرضها ثماني سنوات. في عام ١٨٥٨م ذهبت مع ثلاث زائرات إلى ساروف و ديفاييفو. في الطريق أصابها وهن. ولكنها استطاعت السير. وكلما اقتربت من ساروف كانت النوبات تقوى عليها ، وعندما صارت بمواجهة الدير، تمددت على الأرض ولم ترد أن تتقدَّم. وبصعوبة كبيرة استطعن أن يصلنَ بها إلى هناك، فأقمنَ صلاة ابتهالية للسيِّدة العذراء وذكرانية للبار، ثم توجهْنَ نحو البئر، عند ذلك ضربتها نوبة غير عاديَّة.

لماذا تخنقني؟ أخذت تصرخ. إنني قوي. لماذا تخنقني. اذهب، اذهب. وبعد أن خبطها الروح الشرير بعض المرات على الأرض بشكل مميت تركها مدَّة ساعتين لا ترى ولا تتكلَّم وفي النهاية أخذت تصرخ.

لقد خرج ثلاثة، منهم، لكن واحداً ما زال باقياً !.

تناولت المريضة الأسرار المقدّسة في دير ساروف ورحلت إلى دير ديفاييفو. في الطريق أخذ الروح الشرير يدور بها كالزوبعة، وعلى بعد نصف فرسخ من الدير رماها أرضاً.

وبصعوبة كبيرة أتيْنَ بها إلى بيت الضيافة. خلال الليل كله كانت مضطربة ولو لم يمسكْنَ بها لهربت. وفي الصباح قدْنَها إلى كنيسة التجلي حيث يوجد منسك الأب سيرافيم في الهيكل المقدَّس وفيه كل ثيابه.

أمسكها الكثيرون في الكنيسة ولكن قوة غير طبيعيَّة كانت تقف أمام قوة كل هؤلاء الناس. والروح الشرير يصرخ إنني راحل. إنني راحل. سأتكسَّر.

أتيْنَ بها إلى صخرة الأب سيرافيم ويداها ورجلاها ممدودتان وجسدها مشدود ووضعنها فوقها وغطينها بمنتيَّته ووضعوا فوقها بطرشيل القديس، وحالما أعطوها أكمامه صارت كالمائتة. شيئاً فشيئاً عادت أعضاؤها إلى وضعها الطبيعي، وعادت صحيحة تماماً بعد أن قضت نصف ساعة فاقدة الوعي. فصلت بدموع وشكرت البار على الشفاء. لكنها كانت ضعيفة ولا تستطيع التحدّث بطلاقة. وقالت: إنها لم تعرف شعوراً بالارتياح والهدوء كحالتها الآن.

أعطتها رئيسة الدير بركة، عبارة عن صورة للبار وقطعة صغيرة من صخرته. وفي اليوم التالي بعد أن حضرت القداس الإلهي والصلاة الابتهالية وصلاة الذكرانية رحلت إلى موسكو.

قصَّت افذوكيا أوتسكين من بينز ما يلي:

كنت أتمشى في الحديقة مع ابنتي أليصابات ذات الثلاثة الأعوام. وفجأة تعلَّق ثوبي ببعض الشوك. ولما شددته طار بعض منه وانغرس في عيني الصغيرة. صرخت الفتاة بذعر وأغلقت عينيها وبدأت تبكي ساكبة الدموع بغزارة. فطلبت بعض العجائز اللواتي كنَّ يعرفن بعض الحكمة الطبيّة لكي يرين ما بها. ففحصن بكلّ انتباه عينيها ونظفنها ولكن

الصغيرة كانت قد خسرت نظرها.

بعد مرور عام جاء إلى بينز طبيب من بطرسبرغ ولكنه لم يستطع أن يساعدها. في أحد الأيام ،بعدمرور عام آخر وبينما كانت الصغيرة جالسة بالقرب مني على الأرض تلعب بلعبها التي وضعتها لها في حضنها. وكلما تأملتها كنت أبكي. فقلت في فكري:

يا أبانا سيرافيم تشفّع إلى الرب أن تفْتَحَ عينا ابنتي العمياء وسآتي إلى ساروف مشياً على الأقدام لأجلك.

في اللحظة نفسها نهضت الصغيرة وبدأت تركض في الغرفة. كان نظرها قد عاد، ولكن بعد عامين توفيت أليصابات.

كنت قد نسيت تماماً نذري للقديس ولهذا عاقبني مرَّة ثانية. فقد كانت ابنتي الثانية ماريا تعاني من ألم في عينيها. وعمرها ثلاث سنوات. لم ترحها الأدوية فتذكرت أنني قد وعدت بالمجيء إلى ساروف. رحلت في اليوم ذاته مباشرة ولما أقمت صلاة الذكرانية للبار شفيت الطفلة ولكن، بقي في إحدى عينيها علامة صغيرة لا تعيق الرؤية بكل تأكيد ولكنها تذكرُ أن نسيانَ الأمِّ أحزن رجلَ الله.

سنة ١٨٥٩م أخذت زوجة مدير البريد في مدينة تيمنيكوف، صورة للبار مرسومة على قطعة حجر من الصخرة التي كان البار يقف عليها ويصلي فأرادت أن ترسلها هدّية لأحد المحسنين إليها من مدينة تامبوف. ولما تفكرت بهذا نامت. رأت في حلمها الأب سيرافيم يخاطبها بلهجة قاسية:

لماذا لا تريدين أن تحتفظي بصورتي؟ وإذ قال هذا خبطها على كتفها.

استفاقت المرأة وتملكها الرعب، وكانت كتفها ويدها قد فقدتا كل إحساس كما لو أصابهما شلل. فتوجهت مباشرة إلى ساروف، حيث أقامت صلاة ذكرا نية، وصلّت بحرارة على قبر القديس الذي شفاها حالاً.

في كل مرَّة كانت A تحبل كان الخوف يتملكها لأن ولادتها كانت

صعبة وخطيرة. في هذه المرَّة صادف أن أعطاها أحد الزوار كتاباً محتوياً على حياة البار سيرافيم.

قرأت السيِّدة الكتاب ووضعت أملها على البار وطلبت معونته، وللحال شعرت بحالة أفضل. وغاب عنها كلّ خوف، ودخل الفرح إلى نفسها، ولما حان وقت ولادتها طلبت معونة السيِّدة وشفاعته، ودون أية مساعدة بشريَّة ولدت بكل ارتياح صبيّاً ودعت اسم الطفل سيرافيم. سجلت بذاتها هذا الحدث العجيب وأرسلته إلى رئيس دير ساروف.

السنوات الثلاثون الثانية

في الفترة الواقعة بين ١٨٦٠م و ١٨٩٠م. سجِّلت ثمانون حادثة عجائبية، دوَّنها أشخاص شفاهم البار. وقد تحققت لجنة كنسيَّة مسؤولة من صحة هذه الحوادث. ننقل منها أربع عشرة حادثة تستحق التسجيل.

« أوردت السيدة زوكوفسكي بإحدى رسائلها إلى رئيسة دير ديفاييفو ماريًا، أنه قد ظهر على ابنتها ذات خمسة الأعوام أعراض في دماغها: فقالت لزوجها أن يذهب إلى الأب نزاريوس، كاهن كنيسة المشفى في ساروف، وأن يطلب منه قطعة من صخرة الأب سيرافيم. لكي يغطساها بالماء الذي سيعطى للصغيرة لتشرب منه.

أعطاه الأب نزاريوس قطعة وقال له: عندما تضعونها في الماء قولوا ثلاث مرّات: أبانا... وافرحي يا والدة الإله العذراء.

وعندما عاد زوجي، أعطاني القطعة، وشرح لي كيف عليَّ أن أستعملها، فقبلّتها بتقوى. وبعد أن هيأت الماء أعطيت الفتاة منه مقداراً صغيراً لتشرب. وللحال خرجت الصغيرة من سريرها وطلبت لعباً. ولما جاء الطبيب كان يتوقع أن يجدها في حالة الخطر. ولكنه فوجيء لما رآها قد شفيت ».

سجَّل التاجر ايفان لاتكن ما يلي:

«في حزيران ١٨٦٠م كنت مريضاً في كراسنويارسك لمدة شهرين، ولم يكن باستطاعتي أن أمشي. قال لي الطبيب الذي كان يعالجني: إنني

إذا لم أبدِّل الضمادات على الجروح أربع مرات في اليوم سأموت.

لكن ربَّ العمل الذي كنت أعمل عنده أصرَّ علي لأرافقه إلى تومسك. جلسنا في العربة جنباً إلى جنب، وسرنا على الطريق السيئ ثلاثة أيام حتى وصلنا. ولم أستطعْ أن أكلّمه عن مرضي ولم أبدِّل ضماداً طوال الطريق. توقفنا في بيت في مدينة تومسك حيث استلقيت في الليل على فراش بعد مضي هذه الأيام. ولما أخذني النوم رأيت شيخاً لابساً زناراً ورداءً أبيض قد ضربَ رجليَّ بكفه وقال لي:

حتى الآن لم تبدأ العلاج و ها قد عوفيت.

استفقت للحال وأشعلت الضوء وتفقدت جراحي. آنئذ رأيت بدهشة أنه لا توجد علامة واحدة. ومن شدة فرحي ركضتُ مرات عديدة في الليل إلى كنيسة الافيرون لكي أشتري كتابا عن حياة القديسين ولكنها كانت مغلقة.

ولما طلع الفجر. ذهبت ثانية فوجدت راهباً ينظف الثلج. طلبت منه كتاباً عن حياة القديسين. ولما فتحته رأيت الستارتس الذي زارني في نومي. كان الأب سيرافيم من ساروف الذي كنت أجهل سيرته حتى ذلك الوقت.

كتب الكاهن غفرائيل لرئيسة دير ديفاييفو ماريا ما يلي:

«في آب من عام ١٨٦١م أصبت بالتفوئيد بسبب الزكام، بل الأصح بسبب خطاياي الثقيلة. تعالجت في مدينة أورلوف من منطقة سفياتسكي ولكن حالتي تأخرت. وأصابني الأرق والقيء. ولم يكن باستطاعتي أن آخذ حتى الدواء فيئست من شفائي.

في إحدى الليالي طلبت السماح من زوجتي لأنني شعرت بالموت يقترب.

قالت لي: إذا لم يكن لك أمل بالشفاء فعلى الأقل يجب أن تموت بحسب الأوامر المسيحيَّة.

فقلت لها اني أشعر بضجر وحزن وليس لدي رغبة بتنقية ضميري

بالتوبة ولا أن أتناول الأسرار المقدَّسة.

– أرجوك، قالت لي بدموع، لندعُ المتقدِّم في الكهنة.

– فقلت لها: أعطني لأطالع كتاباً لعلَّ الضجر يفارقني.

– فأعطتني حياة المتوحد سيرافيم ،بدأت نفسيتي تتغيَّر وأنا أقرأ وشعرت بالندم وطلبت منهم أن يدعوا المتقدِّم في الكهنة الذي جاء على الفور. فعرَّفني وناولني. وبعد أربعة أيام من المناولة الإلهية، ذهبت إلى بياتكا للمعالجة، وفي صباح اليوم التالي طلبت مني إحدى العجائز أن أشتري صورة الستارتس سيرافيم. فاشتريت صورتين، ثم قالت لي العجوز وهي ذاهبة:

يا أبتِ، لا تنسَ أغاثي عندما تأتي الساعة. اعتبرت الحدثين كإشارة من الله. فصليت للبار ونذرت أن أذهب إلى ساروف لكي أقيم الذكرانية على قبره. منذ ذلك الوقت تحسنتُ بحيث أن الطبيب سمح لي بالذهاب إلى الدير. للأسف ندمت على نذري وكانت النتيجة أن عاد المرض أشدَّ من الأول ويئس الجراحون. حتى أن أحد الجراحين قال لي:

سآتي لكيْ أعاينك. ولكن ،لا أعطيك وعداً بالشفاء. اطلب طبيباً روحياً. فنذرت أن أذهب ثانية إلى ساروف وبصلوات البار سيرافيم شفيت فاشتريت في بريّة ساروف كتاباً «حياة الستارتس سيرافيم» طبعة ١٨٦٣م. ولما قرأته علمت أن أول رئيسة على دير ديفاييفو كانت تدعى أغاتي. تذكرت في تلك الساعة كلام العجوز «تذكرْ أغاتي عندما تأتي الساعة» فصلَّيت لها بما أنها هي أيضاً موجودة قرب الرب.

حدَّثَ متى كاربوف من كراسنوسلوبود بما يلي:

– عانيت مدة عامين من ألم في أسناني ولم تنفعني الأدوية. سنة ١٨٦٦م شعرت بالرغبة أن أذهب إلى ساروف لأطلب شفاعة البار لعلاجي. وفي عيد ميلاد العذراء بعد القداس الإلهي، طلبت من الكاهن صاحب الخدمة. أن يقيم لي ذكرانية على قبر البار. في النهاية قبَّلت القبر ثلاث مرات ماساً إياه بوجنتيّ. فشعرت في اللحظة ذاتها بارتياح تلاه

بعد ذلك شفاء تام.

كتبت امرأة الأب الكسندروس بينو غرادوف ما يلي:

في عام ١٨٦٥م، بسبب خطاياي الثقيلة، بدأ ابني ذو السنوات الثلاث يتلعثم . واشتدَّ المرض عليه بمرور الزمن ووصل إلى درجة لم يعد بإمكانه أن يقول كلمة صحيحة. كان يهجِّئ الكلمة مدّة خمس دقائق، وكان الاحمرار يعلو وجهه بالكامل فكان يغطيه بيديه، ثم يبتعد ويختفي في مكانٍ ما ويبكي لأنه لم يكن بإمكانه أن يقول ما يريد.

كنا متضايقين جداً. كيف سيذهب فيما بعد إلى المدرسة؟ وكنا نقول له: فكر أولاً ثم تكلّم.

أي أننا ظننا أن تلعثمه يعود إلى عجلته في الكلام وكنا نقول له بعض المرات. أسكت أفضل لك ،لا يمكننا سماعك متلعثماً.

في الصوم الكبير عام ١٨٦٦م أعطاني بعض معارفي كتاباً «حياة ناسك ساروف الأب سيرافيم ». فقرأته لابني. الذي سمعني بانتباه. ووثق بقداسة الستارتس وأحبَّه كثيراً. فهمنا ذلك من الطريقة التي كان يعانق بها صور الأب سيرافيم.

بعد الفصح أرسله زوجي ليقول لي شيئاً. فحاول أن يتكلم لكنه لم يستطع، عندئذٍ احمرَّ وجهه وضغط على وجنتيه، لأنه كان يتألم من التلعثم وأخذ يبكي. ولما رأيته في هذه الحالة مع خادمتنا بدأنا نبكي بدورنا. مرّرت يدي على الولد السيء الحظ وقلت له:

عندما تقرع أجراس الكنيسة في لحظة ترتيل « يامن هي أكرم من الشاروبيم... » صلِّ أو ارسم إشارة الصليب وتضرّع إلى الأب سيرافيم أن يشفيك.

سمعني الولد بفرح ووعد بأن يطيع. عند ذلك نذرت أنا أيضاً للستارتس أن نقيم له صلاة ذكرانية لأجل راحة نفسه. سمع زوجي النذر دون اهتمام، وفي اليوم ذاته توقف الولد عن التلعثم. أما نحن الخطأة فأعدنا السبب لمرور الزمن كما قال لنا آخرون ولم نصلِّ الذكرانية.

مرّت ثلاثة أسابيع وفجأة بدأ الصغير يتلعثم في كلامه من جديد. عند ذلك فهمنا أن شفاءه قد حدث بشفاعة البار. قرأ زوجي حياة الأب سيرافيم فتأثَّر وأسرع بإتمام النذر. بعد صلاة الذكرانية تعافى الولد ثانية. وطلب أيضاً في العام ذاته وله من العمر أربع سنوات أن نعلّمه القراءة ».

أرسل اندراوس باسيابيف إلى رئيس دير ساروف، سيرافيم الرسالة التالية:

في آذار عام ١٨٦٦م بينما كانت زوجتي الكسندرا نيقولا يفنا عائدة من ساروف، رأت في حلمها المغبوط الستارتس سيرافيم قائلاً لها: إنها ستتألم من جنبها وهو وحده باستطاعته أن يساعدها. بالواقع شعرت في شهر نيسان بألم شديد في جنبها الأيمن، وقوي الألم عليها إلى درجة لا تطاق. فزرنا أطباء في بينز وفي سرانسك، فلم يستطيعوا أن يقدموا لها مساعدة إيجابية، وشخصوا المرض بأنه مرض غير قابل للشفاء.

في أيلول، انطلقنا بإيمان إلى ساروف. بقينا هناك حتى الثامن عشر منه وتناولنا الأسرار الإلهية، ثمَّ صلينا صلاة الابتهال أمام أيقونة الينبوع المحيي وذكرانية على قبر الأب سيرافيم وفي قلايته.

بعد ذلك ذهبنا إلى ديفاييفو. وصلينا البراكليسي أمام أيقونة العذراء «فرح كل المحزونين» وذكرانية في قلاية الستارتس وهناك استأهلنا أن نتبرَّك بثيابه المقدَّسة.

في بيت الضيافة، ليلاً، اعترت امرأتي نوبة ألم حادة لدرجة أنها أخرجت من فمها قطعاً من المرارة وبعد ذلك أخرجت سائلاً رمادياً. ثم ضعفت قوتها لدرجة خِفتُ فيها أن تموت. فصليت بإيمان للبار وطلبت صلوات أخوات الدير.

جاءت رئيسة الدير ماريا إلى المريضة وألبستها قلنسوة وزنار الأب سيرافيم. بعد ذلك ارتاحت امرأتي. ولم تعاني فيما بعد من أيّ ألم. وفي

نومها شاهدت الستارتس يقول لها:

هكذا إذن يا فرحي لن يعود المرض من جديد وستبقين دائماً معافاةً.

في ٦ كانون الأول ١٨٦٦م كتب القيروف ما يلي:

شعرت ابنتي صوفيا ذات الأربعة عشر عاماً بألم في رجلها اليسرى، وفجأة لم يعد بإمكانها أن تحركها.كانت آلامها لا تطاق. ولم يستطع الأطباء تشخيص السبب بشكل دقيق. وإذ لم يكن بإمكاننا أن نريحها بطريقة أخرى، طلبنا مساعدة والدة الإله. وأقمنا ابتهالاً لعذراء قازان. وبينما كانت امرأتي جالسة عند رأس الصغيرة نامت فجأة. وشاهدت البار سيرافيم بردائه الأبيض قائلاً لها:

لا تبكي ولا تتنهدي. إن ابنتك ستتعافى وستعيش. لقد أصيبت بشلل يجب أن يعيدوا لها قدمها. و بعد العشاء ذهبت للنوم. فرأيت في حلمي ،أنا أيضاً الستارتس قائلاً لي:

لا تضطربوا ستعيش ابنتكم.

فنهضت وذهبت إلى غرفة الطعام حيث رأيت امرأتي تتناقش مع سيدة مسنَّة، طلبت منها أن تستدعي قروياً مختصاً بالأعضاء المخلّعة.

أرسلت العربة وأتيت بالقروي الذي وجد أن القدم مخلّعة في ثلاثة مواضع. قال لنا: إنه علينا أن نأتي بالفتاة مرتين متتاليتين، وبعد كل معالجة كانت حالة الفتاة تتحسن. خلال ثلاثة أسابيع صارت الرجل معافاةً تماماً.

في ٨ تموز من عام ١٨٧٦م مرض ابني الكسندروس الذي كان عمره ثلاث سنوات. فرأيت في حلمي في إحدى الليالي البار قائلاً لي: إنَّ الولد سيموت. حدث الشيء نفسه لابنتي أولغا، لما كانت طفلة في شهرها الأول، وكنت نائماً بقربها. رأيت الستارتس داخلاً إلى غرفتي وقال لي:

لن تعيش عاماً واحداً.

بالفعل فقد توفيت قبل أن تكمل عامها الأول.

ولما كنت أخدم سنة ١٨٦٥ م في مدينة غلاسوف، شعرت بألم قوي في جنبي الأيسر. فشخَّص الأطباء مرضي على أنه غير قابل للشفاء. وفي سنة ١٨٧٦م أوقفت عملي، وجئت إلى زاندونسك في منطقة بورونيزن. وكنت أصلي باستمرار في أحد الأديار، وطلبت ذهنياً من البار سيرافيم أن يشفيني.

وإذ كنت في أحدى الليالي نائماً حلمت أن الأب سيرافيم قد اقترب من سريري. وعليه رداء وبطرشيل وأكمام البدلة الكهنوتية. وبعيداً عنه وقف شماس ببدلته الشموسية، وراهب أيضاً.

سند الستارتس ركبته اليسرى في مكان الألم، وشدّ على كليتيَّ بشدّة لدرجة أنني عاينت المنطقة ورأيت شرايينَ معلّقة كعقد الإصبع. ولما استيقظت شعرت بأنني عدت صحيحاً.

في صيف ١٨٨٤م كتبت زوجة الفيروف. عانيت من ضعف عام منعني مرّات عديدة من السير إلا بصعوبة. لذلك كنت أصلي دائماً لوالدة الإله وللبار لكي يهباني الشفاء.

فرأيته في إحدى الليالي في الحلم لابساً منتيَّة سوداء وبطرشيلاً وأكمام البدلة الكهنوتية. أمسكني من كتفيَّ وقادني إلى غرفة كبيرة وقال لي:

لا تخافي يا ابنتي. ستجربين فرحاً عظيماً وسترين أيقونة والدة الإله في الحلم.

في اللحظة ذاتها سمعت ضجة قوية. فصار رأسي يرتعش من الخوف والضعف، ولكن يد الستارتس هدأتني وقال لي الاّ أخاف. وفجأة هدأت الضجة وفتح الباب ودخلت راهبة حاملة أيقونة والدة الإله، يرافقها جمع من الراهبات اللواتي وقفن عند الباب.

إن جمال وعظمة ولطف الراهبة الإلهي، خلقوا عندي شعوراً بالمهابة لدرجة أنني بصعوبة استطعت الوقوف على رجليَّ. ولكن الستارتس أمسكني بثبات وقال لي ثانية لا تخافي، وقادني قريباً من الأيقونة.

باركتني الراهبة بالأيقونة ثلاث مرات، ثمَّ جلست على مقعد خشبي. عند ذلك قَبَّلْتُ الأيقونة وجلستُ إلى جانبها بمساعدة البار. شجعني مظهر الراهبة الوديع والإلهي أن أتضرع إليها لأجل شفائي. قبل ذلك رغبت أن أقبِّل يدها ولكنّي لم أتجرأ أن أفعل ذلك لوقت طويل، أخيراً مدَّت يدها بابتسامة قائلة: «ها هي إذا كنت ترغبين بذلك».

قَبَّلْتُ اليد بتقوى ولم أتوقف ذهنياً عن طلب شفائي. وحالما اقتربت شفتايَ بملامسة يدها المقدسة امتلأت نفسي بحبور لا يوصف. وفجأة أعادني صوت الأب سيرافيم إلى رشدي.

كان هذا كافياً لكِ. اذهبي الآن. سيقودك الشماس.

عندئذٍ رأيت شماساً لم أكن قد انتبهت إليه من قبل، وتبعته من غير أن أشعر بأيَّة علامة ضعف. فمررنا بعدة غرف، ودخلنا في النهاية إلى غرفة صغيرة مليئة بالأيقونات التي أوقِدَت القناديل أمامَها.

سألني الشماس. هل تعرفين أين أنتِ الآن ؟.

أجبته: لا.

إنكِ موجودة في كوستروم.

هنا استفقت وكنت أرتعش من شدة فرحي وخوفي. فهدأت بعد قليل وشعرتُ بارتياح. وشعرتُ النهار كلّه بتحسن. وفي عيد التجلي مشينا كلنا عائلياً ثلاثة فراسخ من غير أن أتعب. لقد شفتني تماماً والدة الإله والبار.

أرسل باتابيوس مكسيموف لسيرافيم رئيس دير ساروف الرسالة التالية:

«سنة ١٨٦٨م في عيد الثالوث القدوس أخذت أولادي إلى القداس الإلهي. وذهبت امرأتي إلى كنيستها لأنها كانت كاثوليكية، ولما عدت إلى البيت لم تكن امرأتي قد عادت فانتظرتها مغتاظاً. ولما عادت عنفتها على تأخرها. أجابتني أنها انتظرت حتى انتهاء القداس. عند ذلك أجبتها بطريقة تجديفية على طريقة عبادتها. ولما رأت ابنتي ذاريًا أمَّها حزينة، وأنا خارج عن طوري اقتربت مني وقالت لي: لا تعنفها بهذه الطريقة.

صرخت في وجهها، اذهبي عني.

اضطربت الفتاة. وفي اليوم نفسه مرضت بشدّة. فحصها عشرة أطباء، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقدموا لها أيّ عون. وبقيتْ أحدَ عشرَ شهراً ضعيفةً لدرجة أنها لم تستطع أن ترفع رأسها.

اعتبرت أن مرض ابنتي عقوبة من الله. وإذ ندمت من كلّ قلبي صليتُ وبكيتُ. وأثناء مرضها قرأت كتاب حياة الأب سيرافيم، وعاينت حمايته العجائبية للمؤمنين الحقيقيين. فأقمتُ له ذكرانية بحسب نصيحة أبي الروحي. وكانت ابنتي قد شارفت على الموت فاعترفت وتناولت. وفي اليوم التالي نهضت وتَمَشَّتْ في الغرفة بحريَّة.

سألتها كيف حدث هذا؟.

أجابت رأيتُ في الحلم، كاهناً يقول لي انهضي يا ذاريَّتي. «لقد أمرت سيدتنا الكليَّة القداسة بأن تنهضي».

يشهد بولس ايفانوف بايكوف من نيزينكورد بما يلي:

كنت « سنة ١٨٦٨م ناظراً للتاجر ستوروزيف في أرزاماس. وفي

المرضى في ساحة دير ساروف

إحدى الليالي لما كنت في مخزن النبيذ داهمني خوف، ثم ألم في عيني، ومع تقدم الأيام ساءت حالتها. وخلال عام واحد لم يعد باستطاعتي أن أرى أيَّ شيء تقريباً وخاصة لدى تعرضي للضوء.

لم يستطع الأطباء أن يفعلوا لي شيئاً. عند ذلك قالت لي عجوز كانت قد سمعت بالشفاءات العجائبية التي حدثت بصلوات البار سيرافيم، وطلبت مني أن أطلب شفاعته، وأن أذهب إلى سارُوف مشياً على الأقدام لكي أقيم له ذكرانية هناك.

وهكذا حدث، طلبت بإلحاح في صلاتي من البار أن يشفيني وذهبت إلى ساروف مشياً على الأقدام، وأقمت الذكرانية، ومن هناك توجهتُ إلى قرية إيفانيتسوفو. بعد أسبوعين سرَّ الله وصنع العجيبة بصلوات قديسه.

في منتصف نهار أحد الأيام نمتُ خمس دقائق بالرغم من عدم اعتيادي ذلك. فحلمتُ أنني موجود في ساروف بالقرب من قبر القديس طالباً شفائي. في اللحظة ذاتها خرجت من عينيَّ نثرات عديدة. ولما استفقتُ اعتراني رجفان شديد، ولكنني لم أتألم إطلاقاً وعاد نظري صحيحاً ».

كتبت آنا سيمينوفا رويتسوف لرئيس دير ساروفس.

«الله عجيب في قديسيه». لقد منحني الله رحمته أنا غير المستحقة بصلوات الستارتس العظيم سيرافيم. ليكن اسمه ممجداً في كلِّ أرض روسيا.

هنا خارج روسيا، في بولونيا سأرنّم له ذكرانية. وأرجوكم أنتم أيضاً أيّها الكليّ البر، أن تقيموا أنتم أيضاً ذكرانية على قبره، وأن ترتلوا ابتهالاً شكرياً عند أيقونة والدة الإله «فرح جميع المحزونين».

عندما كنت طفلة كنت أذهب دائماً إلى أحد الأديار، حيث كانت عمتي راهبة. وهناك رأيتُ أيقونة بديعة الصنع مرسومة على قماش مع عنوان رقاد القديس سيرافيم. تكلّمت عمتي كثيراً عن حياته السامية وجهاداته العظيمة.

مرّت سنوات عديدة وعيِّن زوجي في كوفنو في بولونيا، أما أنا فلم افهم سبب تفكيري الدائم بالأيقونة المذكورة. وبعد عام نقلوا زوجي إلى بيلي، وهناك بقيت أربعة أعوام أعاني كثيراً من أمراض عديدة.

في النهاية ظهرت حبة مؤلمة في أنفي. فقمت بالمعالجة لمدة ثمانية أشهر ولكن من غير فائدة، ثم قررت أنه إذا لم تتراجع سأقوم بعمليَّة جراحية وهي شيء خطير بالنسبة لي، لأنني كنت مصابة بفقر الدم.

في أحد الأيام بعد أن بكيت كثيراً نمتُ، فرأيت في الحلم الأيقونة التي ذكرتها سابقاً، تنضح بالحياة. إلى درجة كان بإمكاني أن أرسمها. وظهر فيها شيخ أصفر الوجه كشمعةٍ، ذو شعر داكن، كان ساجداً ويداه مصلبتان على صدره، ومعه سبحته يلبس رداءه الأبيض وعيناه مطبقتان كما لو كان في حالة صلاة عقليَّة، والذي لم يظهر عليه إطلاقا أنه مائت.

ولما استفقت شعرت بسعادة حقيقيَّة، حتى أنني لم أرغب بالنهوض من فراشي لوقت طويل. في الوقت نفسه كنت حزينة لأنني لم أعرف من أخذ الأيقونة بعد وفاة عمتي.

عند ذلك طلبت من الرئيسة فلافياني أن ترسل لي كتابا عن الستارتس. فرحت كثيراً لدى تسلّمي كتاب الأب سيرافيم الذي يحتوي على ست أيقونات، إحداها تظهرُ منسكه بالقرب من البئر. وبعد أن قرأت كل عجائبه التي صنعها قبل وفاته وبعدها قرّبت أيقونة القديس من وجهي وبدأت أبكي.

قلت: أيّها البار مغبوطون هم الناس الذين رأوك وحصلوا بصلاتك على الشفاء بمياه هذه البئر، وأنا لا يمكنني إطلاقاً أن أذهب إلى هناك، لأنني أقطن على مسافة بعيدة جداً منها.

ثم قربت أنفي من الأيقونة. حينئذٍ رأيتُ، بدهشة، أن الدمَ بدأ يسيل. وشيئاً فشيئاً أخذت أستنشق الهواء بحريَّة. وقمت بالشيء ذاته للجهة

اليمنى، وأخذ الدم يسيل أيضاً. وفي كلّ مرة كنت أقبّل فيها الأيقونة كان الدم يسيل من أنفي. في النهاية تراجع الورم وعاد أنفي إلى حالته الطبيعيَّة.

شفاء إيفان زاسوخين، تاجر من بورم، وكذلك شفاء ابنته وابنه كما هي واردة في جريدة غرازدانين (تشرين الأول ١٨٨٤م).

جاء « التاجر ايفان ايفانوف زاسوخين من بورم في ٢١ آذار سنة ١٨٨٢م من قرية أوريوبن إلى بورم في حالة مرض شديد. اذ كان يعاني من مرض حمى المعدة، فنصحه الطبيب أن يعود إلى بلدته للمعالجة.

تضايق في الطريق ووصل إلى بورم في حالة وهن. هناك نجح الطبيب في تشخيص المرض وحدد العلاج. فتراجع المرض وتراجعت الحرارة من ٤١،٣٠ إلى ٣٧،٣٠ درجة مئويَّة، وخلال أيام قليلة بدأ المريض يستعيد قواه.

خلال فترة المرض تشكل وراء أذن المريض وفي الجهة اليسرى من فخذه ورم. قام الطبيب بمحاولةٍ لينظف الورم ولكن السائل لم يخرج واستمر الورم بالازدياد. وزار عدداً من الأطباء فلم يستطيعوا مساعدته، ونصحوه بالذهاب إلى بطرسبرغ لكي يجري العملية. فأشار عليه الأستاذان الطبيبان في بطرسبرغ بوغدانوف ومولتلانوف أن لا يجري العملية بل أن يعود إلى بيته.

كان المرض في ذلك الوقت قد أظهر تعقيدات جديدة. ورماً في الرئة، واضطرابات مَعِديّة، وكان المريض منهك القوى. قال له الأطباء: إنه سيموت وحدّدوا أيضاً يوم وفاته.

اعترف زاسوخن وتناول، ثم عاد الكاهن بعد أيام قليلة وصلى له صلاة الروح المتعثرة الخروج. وفي اليوم الثالث تعافى المريض قليلاً. عند ذلك جلبت له أم المرأة التقيّة بيتسكوف ماء من بئر الأب سيرافيم، ولكنه لم يستطع أن يفتح فمه. استطاعت امرأته أن تنقط له في فمه قليلاً من الماء بملعقة الشاي. ثم سكبت الباقي فوق رأسه. غرق المريض بعدها

في نوم هادئ لبضعَ ساعات. ولما استفاق طلب شيئاً ليشرب. وبسبب فرح امرأته نسيت أن الحليب ممنوع عليه شرْبه، فأعطته إياه ليشرب وحالما شرب شعر بتحسن. وفي اليوم التالي استمع له الطبيب ووجده في حالة أفضل. ولكن فخذه بقيت عليلة ومنتفخة.

أراد السيد زاسوخن أن يذهب إلى ساروف لكي يزور البار بالرغم من ضعفه الشديد، فذهب مع عائلته. وإذ خشيت امرأته من موته على الطريق، أخذت كل ما هو ضروري للدفن. عانى المريض كثيراً في العربة؛ لأن رجله كانت مطوية، فكان يعاني من ألم شديد لأي اهتزاز تتعرض له العربة، وفي كل محطة كانوا ينزلونه من العربة واقفاً.

توقف في دير سيرافيم ديفاييفو لمدة ٢٤ ساعة ليرتاح، كان ذلك في ٥ حزيران عيد الثالوث القدوس. وبالرغم من الآلام القويَّة أصرَّ على حضور السهرانية. فحمله خدامه إلى الكنيسة على محمل ووضعوه في الداخل، ممسكين به بأيديهم. و بعد قطعة الأكسابوستيلاري قبّل الجميع الأيقونة ودهنوا أنفسهم بالزيت، وبينما كان المريض يقترب وقعت عيناه على أيقونة العذراء الموجودة في الأيقونسطاس. إنها ذات الأيقونة التي كان البار يصلي أمامها في قلايته.

في تلك اللحظة شعر زاسوخن أنه يرتكز على رجله بقوة ودون ألم. فترك عكازه ووسط دهشة الجميع عاد إلى مكانه دون مساعدةٍ.هكذا خرج المشلول من الكنيسة ماشياً بارتياح. وفي الخارج كان خدامه ينتظرونه مع المحمل. أما هو فمشى عشرين متراً حتى بيت الضيافة لوحده.

تناول في القداس الإلهي الأسرار الطاهرة وانطلق نحو ساروف، حيث أقام صلاة الذكرانية على قبر البار. وذهب في الصباح بعد صلاة السحر إلى البئر التي بمائها أنقذ من الموت بشكل عجائبي. كانت المسافة من الدير إلى البئر فرسخين، ولكنها لم تتعبه.

ينبع ماء البئر من الجبل. ولكي يدخل شخص ما إلى الداخل يجد صعوبة بسبب وضع الأرض. وبالرغم من هذه الصعوبة كلها يدخل

المؤمنون الى هناك شبه عراة . صنع زاسوخن الشيء نفسه. وحالما لامس الماء البارد شعر بارتياح وقوة. ولما خرج وجد أن أحد ضماداته غير موجود، وحلَّ هو الضماد الآخر بذاته. ولم يعد للورم أثر. وفي اليوم التالي تناول .ومنذ ذلك الوقت صار بصحة تامة. وحدثت العجيبة التالية لابن زاسوخن

لما كان في سنِّ الثامنة أصابت رأسَهُ قروح آلمته كثيراً. قال له طبيب الجلديَّة المعروف بولوتومبوي إنه قبل مرور عامين لا يمكن السيطرة على المرض.

توجه الأب مع الصغير وكل العائلة إلى ساروف. توقفوا في دير ديفاييفو للراحة، وهنا رأوا خندقاً حَفَرَتْه الراهبات ببركة البار. ومن المعروف أن القديس سيرافيم أعطى وصية، أنه عندما يمر أحد ما في الخندق عليه أن يقول الصلاة، لأنه من هذا الخندق قد مرّت والدة الإله ذاتها كما كان الستارتس يقول.

تحركت العائلة كلها للمرور من الخندق برفقة إحدى الراهبات، وكلما تقدموا بعض الشيء كان الطفل يحفر ويقطع زهوراً وأعشاباً ويضعها على رأسه المتألم.

ولما وصلوا إلى ساروف استحمَّ الصغير في بئر سيرافيم. ولما عادوا في ١٣ حزيران إلى موروم، لم يكن رأس الطفل قد تنقى تماماً فقط بل تغطى بشعرٍ جميل وكثيف.

حدثت عجيبة ثالثة مع ابنة زاسوخن. دهنت الصغيرة إصبعها المضروب بزيت من القنديل الموجود على قبر البار فشفيت تماماً.

أصيبت ثيوذوسيا بلاسوفا من مدينة تسيليامبن بالتهاب حاد، غطى جسدها بالكامل، وذلك في ٧ كانون الثاني ١٨٨٥م. بقي الالتهاب ثلاثة أسابيع وفي النهاية اعوجَّت كفها. وفي الليل كانت تتألم وتصرخ حتى تفقد إحساسها. فعالجتها عجائز من القرية ببعض الوصفات الشعبية. وعاينها أطباء، لكنهم لم ينفعوها بشيء بل قالوا: إنها ستعيش أياماً قليلة.

وضع الوالدان رجاءهما على الله. وفي النهاية احدودبت الصغيرة لدرجة أنها كانت في سيرها تضع يديها على ركبتيها.

كانت أختها الكبيرة قد غادرت البيت لتصبح راهبة في دير العذراء القائدة في تسيليامبين. ففكّر والداها بأن تلتحق ثيوذوسيا بها لكي تتعلم. وهناك قبلتها رئيسة الدير وسلمتها للراهبة افبراكسيّا. كانت الصغيرة تتابع الدرس في القلاية؛ لأنه لم يكن بإمكانها السير إلى المدرسة.

مرَّت ثلاثة أشهر تفاقم أثناءها مرضها كثيراً لدرجة أنها فقدت إمكانية السير تماماً. فكانت الراهبات يأتين بها إلى الكنيسة على الأيدي. قَصَّتْ رئيسة الدير للوالدين عجائب البار. فطلبا حينئذٍ من دير ساروف أن يقيموا ذكرانية وصلاة ابتهالية على قبره، وأن يرسلوا لهم من هناك قليلاً من التراب.

ولما تسلموا التراب أقاموا له ذكرانية وصلاة ابتهالية، وخلطوا التراب بالماء في قارورة وأعطوها للمريضة. وحالما شربته شعرت بتحسن تام. وخلال أسبوع واحد تمكنت من السير وحدها.

في ٢٦ آذار سنة ١٨٩٠م كتب القروي ايفان خاريطونوف سازكون من زابلافني في مقاطعة إستراخان محافظة تساريف لرئيس دير ساروف روفائيل ما يلي:

في العام الماضي وقبل عيد الميلاد بأسبوع واحد شلَّت أطرافي فجأة من غير أن أشعر بألم. ولم يكن باستطاعتي الإحساس بيديّ حتى المرفق، ورجليَّ حتى الركبتين، وتورمَ حلقي، ولصقت أصابع يديّ بكفيّ. وعندما كنت أجلس للأكل كانوا يثبّتون لي الملعقة بين الإبهام والسبابة. ولم يكن بإمكاني أن أرتدي ثيابي، ولا أن أضع زناري، وإذا نهضت بمساعدة الآخرين كنت أسقط إما للوراء أو للأمام. بقيت على هذه الحال ثلاثة أسابيع. ولكنني لم استعمل الدواء.

نصحتني والدة زوجتي التي كانت قد زارت ساروف أن أنذر زيارة

لقبر البار. فنذرت بإيمان. في اليوم ذاته شعرت أن رجليَّ تتعافيان والورم يتراجع عن فمي. وفي يوم الأربعاء من الأسبوع العظيم انطلقت لأتمم النذر. واختفى فجأة الضعف الذي كان يعتريني، وبالرغم من أنني مشيت ألف فرسخ حتى ساروف، لم أشعر بأي سوء. ولما وصلت إلى الدير اعترفت وتناولت الأسرار الطاهرة وبعد أيام قليلة ذهبت إلى البئر وهناك اغتسلت عدة مرّات فشفيت تماماً.

عجيبة مدهشة

استمر K . A. E نيلوس، الذي حمته يد الله بشكل خاص، عائشاً في أملاك أصدقائه حتى بعد ثورة ١٩١٧ م في مزرعة كبيرة وراء موقع ظليل. في الطابق الأعلى كانت الكنيسة وغرفة الأرشمندريت لابس الأسكيم الكبير. N. كان الأرشمندريت هذا رئيساً لأحد الأديار القريبة قبل أن يدمّره البلاشفة. وفي الطابق الأرضي مكث .S نيلوس مع زوجته وفي ذلك الوقت كانت تعيش هناك أخت صاحب المزرعة.

تظهر كتابات .S نيلوس وزوجته كيف قضوا تلك الفترة. كتب في ٢٣ / ٩ / ١٩٢١ م إلى ابنة أخيه:

«... لكم عانينا في فترة فراقنا! يمكنك أن تتصوري بكل سهولة وتعرفين جيداً أنه من ذلك الموقع الذي كنا نسكن فيه، مرّت موجة هجمات الغرباء والحرب الشعبية.

لم تحفظنا إرادة الله وحماية الكلية القداسة والدته فقط دون مضرَّة، ولكننا كنا مسرورين أيضاً. تأملي أن الأرشمندريت .N يسكن معنا للسنة الثانية ويقدس مع الأب .S والأب.S ليتورجي متحمِّس، وهو صاحب فضيلة. وقد جاء من دير الأب.N وكان يسكن معهما ولد متميِّز اسمه غريغوريوس وكان يأتي إلى الحديقة عدد من الزوار. وفي بعض الأحيان ينام ٣٠ – ٤٠ شخصاً ولم نفتقر لشيء أبداً».

كتبت زوجته هيلانة في إحدى رسائلها في التاريخ نفسه.

«كنا نقدِّس أربع مرّات في اليوم وكثيرون يتناولون باستمرار

وكثيرون يتميرنون. وبكلام مختصر: إن حياتنا الليتورجية تامة ولهذا نشعر بفرح كبير. ويصدف من حين لآخر أن يوجد عندنا كثيرون من الكهنة. وفي ١٩ تموز جاءنا أربعة كهنة من غير إعلام وسبعة مرتلين وشعب كثير. لقد جهَّزَ الستارتس هذا الاحتفال في يوم تذكاره.

كم هو ظاهر بكلٍّ وضوح ليس فقط عطف الله، ولكن قدرته الكلية أيضاً، التي تصبح أمامها كل حبائل الشيطان ومؤامراته هشة.

لقد عاش .S نيلوس ستة أعوام في الحديقة بعد الثورة تقريباً حيث حفظه الله بشكل عجائبي من كل شر، كان عمله الرئيسي المراسلة. تراسل مع أصدقائه في الخارج بواسطة ثلاثة أشخاص.

كانت الحديقة موجودة خلف الموقف، ولم تكن معروفة من كثيرين. لم يكن عند السكان أقل سبب ليبتعدوا، لأنهم كانوا يملكون كل شيء ضروري للطعام، طيوراً ومحاصيل الحديقة، وأشجاراً مثمرة، لكن الشرير لم ينم، فقد أغاظ شخصيات الإدارة المحليَّة أن أصحاب الحديقة لا يزالون مقيمين فيها. فعقدوا جلسة وقرروا قتلهم.

في إحدى ليالي تشرين الثاني المظلمة من سنة ١٩٢١م دخل عشرة رجال منهم إلى الحديقة مع قائد المجلس المحلي، مسلَّحين بالبنادق والسكاكين. وتقدموا من غير أن يشاهدوا بين الشجيرات فاحصين المنطقة المحيطة. وأول من خططوا لقتله من سكان المزرعة، الأرشمندريت الطاعن في السن ولابس الأسكيم الكبير. N

وكلما اقتربوا من البيت كانوا يسمعون صوتاً كصوت الناقوس. وكأنَّ أحد حراس البيت الليليين كان يمسك ناقوساً يدوياً ويضرب عليه بشدة متمشيّاً حول المزرعة.

لم يكن الأشرار يعرفون أن الحديقة محروسة، فقرروا أن ينتظروا إلى أن يرحل الحارس. فاختبؤوا بين الأهراء، وشربوا الفودكا ليستدفئوا لأن الطقس كان بارداً والريح تعصف.

مرّت ساعتان ولكن الحارس الذي كان عبارة عن شيخ مسن لم

يرحل. بل صار يضرب الناقوس بشكل أقوى متمشياً حول البيت. وإذ شرب اللصوص كثيراً. ناموا واستفاقوا عند بزوغ الفجر. فرأوا أنَّ العملية ستكون خطيرة جداً في ذلك الوقت. فأجَّلوها إلى الليل القادم. وفي المساء التالي

ظهر الجو العام مساعداً لهم. كان الوقت رائعاً والهدوء سائداً والليل دافئاً والقمر مضيئاً. وكل شيء من حولهم غارقاً في نوم عميق. ولكن الشيخ العجوز، الحارس استمرّ في هذه الليلة أيضاً يتمشى دون خوف حول البيت ويضرب الناقوس بقوَّة كما لو كان يستدعي معونة، أو يلاعب فاعلي الشر.

لماذا نحن جالسون نعاين؟ صرخ فجأة القائد فاقداً صبره! إننا عشرة وهو واحد. هيا. بهذه الإشارة، تشجعوا قليلاً، فأخذوا بنادقهم وهجموا نحو الحارس، ولما صاروا على بعد خطوات رأوا شيخاً محدودباً ضعيفاً بذقنٍ بيضاء. ولكنه كان يمشي بثبات من غير أن يخشى شيئاً من اقترابهم.

اخطفوه، أمر قائد العصابة. وإذ رفع فراغته هجم أولاً وضربه على رأسه ولكن الفراغة مرّت في الهواء لأن الشيخ كان قد اختفى، بينما سقط الشرير على الأرض مغمياً عليه. فاقترب منه رفاقه مرتعبين. لم يبدِ قائدهم دليلاً على أنه حي. عندئذٍ رفعوه وجاؤوا به إلى بيته.

ولزمن طويل لم يكن أحد من سكان الحديقة قد شعر بتجاتهم العجيبة. إلى أن تقدمت امرأة قائد اللصوص إلى الأرشمندريت ووقعت على ركبتيها ساجدة وقصَّت عليه الحدث بتنهدات.

قالت المرأة التعيسة الحق على الشيطان، هو السبب، هو الذي أغوى زوجي. إنه الآن مشلول في فراشه، صلّوا لله لكي يسامحه. لو لم يكن الحارس لقتلكم جميعاً. لقد أنقذكم الحارس من الموت الجسدي وأنقذ اللصوص من الموت الروحي.

من كان الحارس ؟ سأل الأرشمندريت مستغرباً.

إنه ذاك الذي كان يضرب ناقوسه اليدوي متمشياً حول البيت طوال الليل.

صرخ الأرشمندريت يا ربّ استر، ماذا حدث لكِ. عن أي حارس تتكلمين. إننا مختبئون من الناس، وأنت تتحدثين عن حارسٍ كان يضرب الناقوس اليدوي طوال الليل. اننا لا نملك حارساً ولم يكن عندنا حارس قط.

أكملت المرأة قائلة: من الساعة التي تاب فيها زوجي، يتذكّر الحارس ويتكلّم عنه فقط. اسأله يا أبتِ أنتَ بنفسكَ.

كيف أسأله ؟ هل يستطيع التكلم؟

أجابت المرأة نعم إنه يستطيع. إنه يرى، ويسمع، ويتكلم، ويفهم كلَّ شيء. ولكنه لا يستطيع أن يحرك يديه أو رجليه. إنه متمدد كجذع شجرة ولا يريدنا أن نبتعد عنه ولا يتركنا نذهب لعملنا.

هكذا تكلّمت الزوجة التعيسة القريبةَ السقوط في اليأس.

قال الأرشمندريت احضروه إلى هنا ليعترف ويتناول وليسجد لأيقونة البار سيرافيم والرب يشفيه.

في اليوم نفسه جلبوا المخلّع على حمالة إلى كنيسة الحديقة. اقترب الأرشمندريت منه ممسكاً بأيقونة القديس سيرافيم وطلب منه أن يقبلّها، وحالما تقابلت عينا فاعل الشر مع عيني الستارتس الجميلتين. سمِعَتْ صرخة جنونية.

إنه هو! إنه هو، صرخ الشرير البائس.

لقد تَعَرَّفَ مِنْ الأيقونة على الشيخ الحارس الذي كان يتمشى حول الحديقة، حاملاً الناقوس اليدوي. وبدأت دموع التوبة تنهمر من عينيه.

لم تشفه محبة اللهّ فقط بل غيَّرته كليّاً. وبعد أن تناول في نهاية القداس الإلهي الأسرار الطاهرة بَقي في الكنيسة يقص على كل المؤمنين عجيبة البار سيرافيم.

وأخيراً رتلوا صلاةَ ابتهالية شاكرين البار على خلاص سكان الحديقة من الموت بعجيبة.

الفصل الثالث عشر

تعاليم مختصرة

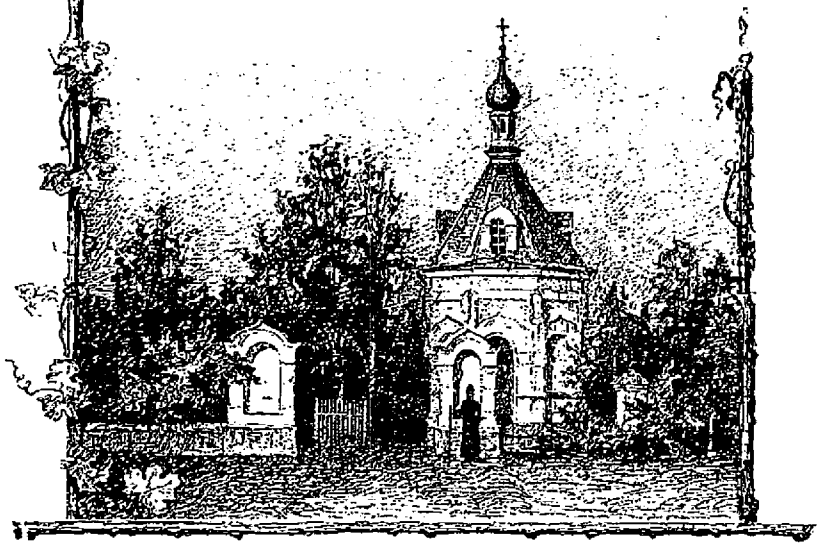

حول الله

الله نار يدفئ ويلهب القلب. وإذا شعرنا ببرودة في قلبنا. لنستدعِ الرب لكي يدفئنا ويلهمنا المحبة له وللقريب. قال الآباء: اطلبوا الرب ولا تبحثوا بفضول عنه أين يوجد. حيث يوجد الله لا يوجد الشر. كل ما يأتي من الله هو سِلْميّ ونافع، ويقود الإنسان إلى التواضع ومعرفة الذات. لا يظهر الله محبته للبشر فقط عندما نصنع الصلاح بل أيضاً عندما نخطئ إليه ونغضبه بخطايانا. كم يصبر على سقطاتنا بطول أناة؛ وعندما يعاقب بكم من الحب يعاقب.

إنَّ الله بكلٍّ تأكيد عادل ولكنه عادة لا يظهر عدله في حياتنا. لقد سماه داود الحاكم العادل. ولكن ابنه أظهر لنا أن الله صالح أكثر ورحوم. وبالرغم من كوننا خطأة جاء وصلب لأجلنا.

على قدر ما يتقدّم الإنسان في الفضيلة، يسير على أثار الرب الذي سيظهر له شخصه في الدهر الآتي. إن الصديقين مهما عاشوا على هذه الأرض يرونه كما في مرآة، ولكن في الحياة الأخرى سيرونه كما هو بالتمام. إذا لم تعرف الله لا يمكنك أن تحبه لأن معرفته تسبق محبّته.

عندما تكون شبعانَ، لا تتأمل بأعمال الله. كيف يمكن لبطن مليء أن يدقق الأسرار الإلهيَّة.

الإيمان

قبل كل شيء يجب أن تؤمن بالله «لأنه يجب أن يكون الآتي إلى الله مؤمناً بوجوده، وأنه يجازي الذين يطلبونه» /عب ١١: ٦/.

الإيمان بحسب تعليم البار أنطيوخوس هو بداية اتحادنا بالله والمؤمن الحقيقي هو صخرة منحوتة بكف الروح القدس لهيكل الله الذي يشيَّد بقوة المسيح ونعمة الروح القدس.

«الإيمان دون أعمال ميت»/ يع ٢: ٢٦ / إن أعمال الإيمان هي المحبة والسلام والصبر، والوداعة، والتواضع، وأن تحمل صليبك، وبشكل عام، أن تعيش بالروح القدس. مثل هذا الإيمان فقط هو حقيقي. الإيمان دون أعمال لا يكون حقيقياً. وكل من يؤمن حقيقة عنده أعمال صالحة.

الرجاء

كل الذين عندهم الرجاء الوطيد بالله يقتربون منه ويستنيرون ببهاء نوره الأبدي.

والإنسان الذي لأجل محبة الله لا يهتم بنفسه، عنده رجاء حقيقي، ويؤمن أنَّ الله يهتم به. ولكنه إذا وضع رجاءه على أعماله، والتجأ إلى الله فقط عندما تصادفه صعوبات غير متوقعة ،لا يستطيع أن يجابهها بقواه الذاتية. ومثل هذا الرجاء يكون رجاءً باطلاً وكاذباً. والذي عنده الرجاء الحقيقي يطلب ملكوت الله فقط. وفيما يخص حاجات الحياة الوقتيّة ستعطى له بكلِّ تأكيد.

إذا لم يكن في القلب مثل هذا الرجاء، لا يمكن أن يوجد فيه سلام. فالرجاء هو الشيء الذي يعطي الفرح والسلام في القلب. وعن هذا السلام قال الرب «تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم» / مت ١١: ٢٨ / ضعوا رجاءكم عليَّ وأنا أريحكم من أتعابكم وضيقاتكم.

في البشارة بحسب الانجيلي لوقا ورد عن القديس سمعان حامل الإله ما يلي: «كان قد أوحي إليه بالروح القدس أنه لا يرى الموتَ قبل أن يرى مسيح الرب»/ لو ٢: ٢٦ /. وحافظ البار سمعان على رجائه حتى اللحظة المشتهاة التي تقبَّل فيها المخلِّص بفرح على يديه وقال «الآن أطلق عبدك أيّها السيد بحسب قولك بسلام لأن عينيَّ قد أبصرتا خلاصك» / لو ٢٩ – ٣٠ /.

محبة الله

من امتلك محبة كاملة لله يَعِشْ في هذه الحياة وكأنه غير موجود. إنه غريب عن الأرضيات وينتظر الأبديات بفارغ الصبر. إنه متغيِّر بكامله من محبة الله ولا يرتبط بأية محبة أخرى. كل من يحب ذاته لا يستطيع أن يحب الله. وكل من لأجل محبة الله لا يحب نفسه فذاك يحب الله. إن الذي يحب الله حقيقة يعتبر نفسه غريباً وراحلاً في هذه الأرض، لأنه إذ يحاول أن يوحِّد الذهن والقلب بالله يتكرّس له فقط.

النفس التي أحبت الله بشكل كامل حتى وقت انفصالها عن الجسد، لا تخاف القوى التي في الهواء. ستطير مع الملائكة كما من أرض غربة إلى وطنها السماوي.

خوف اللّه

إن الذي يقرر أن يعيش حياته الروحيَّة، يجب أولاً وقبل كل شيء أن يمتلك خوف الله الذي هو بداية الحكمة. ولتكن الأقوال النبوية مطبوعة في ذهنه على الدوام «اعبدوا الرب بخوف وهللوا له برعدة» / مز ٢: ١١ /.

هذا الإنسان يجب أن يواجه بكلِّ انتباه وتقوى كل شيء مقدَّس. ولكن إذا كان يعيش بلا اهتمام، عند ذلك يتحقق القول النبوي:

«ملعون كل من يعمل أعمال الرب بتهاون»/ أرمياء ٣١: ١٠ /.

هنا نحتاج لانتباه عظيم، لأن البحر (القلب بالأفكار والشهوات) الذي يجب أن يتنقى كبير وواسع. «هناك الدابّات التي لا عدد لها، حيوانات صغار مع كبار» / مز ١٠٣: ٢٥ /. أي فيها تعشش الأفكار الباطلة. كاذبة وغير نقيَّة. مواليد الأرواح الشريرة.

يقول الحكيم « ارهب من الله واحفظ وصاياه » / الجامعة ١٢:١٣/. عندما تحفظ وصاياه في كلِّ عمل لك ستكون قوياً وكل أعمالك تنجح. وستقوم بها جيداً من خشيتك لله ومحبتك له. لا تخف من الشيطان. كل من يخشى الله ينتصر على الشرير ولهذا فالشيطان عديم القوَّة.

هناك نوعان من مخافة الله: بحسب النوع الأول، حين تخشى الله لا تصنع الشر وبحسب النوع الثاني لأنك تخشى الله تقوم بالعمل الصالح.

ولكن لا يستطيع أحد أن يمتلك الخوف الإلهي إذا لم يتحرر من الاهتمامات الحياتية كلها. عند ذلك يتحرك الذهن من خشية الله وينجذب إلى محبة صلاحه.

رفض العالم

يمتلك خوف الله فقط عندما يرفض الإنسان كل شيء دنيوي، ويستجمع أفكاره وأحاسيسه ويغرق كليّاً. في رؤية الله وشعور الغبطة الذي وعد به الرب القديسين.

إنه من غير الممكن أن يرفض الإنسان العالم ثم يتقدَّم إلى حالة معاينة روحية مادام باقٍ فيه. إن لم تهدأ الآلام فمن المستحيل أن يمتلك السلام النفسي. والآلام لا تهدأ ما دامت الأسباب التي تهيجها محيطةً بنا. ولكي تصل إلى انعدام الألم الكامل والهدوء النفسي يجب أن تمارس اليقظة والصلاة الحارة. ولكن كيف يمكنك أن تسلِّم ذاتك لمعاينة الله كلياً؟ يجب أن تتتلمذ في ناموسه وترتفع إليه بكلَ نفسك بالصلاة الحارّة،

طالما أنت موجد ضمن اضطرابات الأهواء التي تتوفَّرُ بكثرة في العالم «العالم في الشر يمكث ». وإذا لم تتحرَّرِ النفس من العالم لا يمكنها أن تحب الله بصدق. لأن الاهتمامات المعاشيَّة كما قال البار انطيوخوس تغطيها كالمنديل.

يكتب الأب ذاته: لماذا نتلهى في مدينة غريبة ما دمنا نعرف مدينتنا جيداً؟ لماذا نهيئ هناك حقولاً وبيوتاً؟ «كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة» إن هذا العالم ملك لآخر، لرئيس هذا الدهر.

الهدوء

يعلِّم القديس برصنوفيوس «ما دام المركب في البحر، فالشدة وثورات الرياح متوقعة. ولكن عندما يصل إلى مرفأ هادئ ويسوده السلام لا يعود يخشى المخاطر ولا الريح بل يطمئن». «هكذا أنت أيها الراهب ما دمت ماكثاً في هذا العالم انتظر الأحزان والصعوبات وثورات الرياح العقليَّة. ولكن عندما تتخذ حياة الهدوء المطلق لن يوجدَ عندك شيء تخشاه من هذه الحروب».

إن الهدوء التام صليب يجب على الإنسان أن يصلب ذاته عليه مع كلِّ أهوائه. تذكَّر أن سيّدنا يسوع المسيح ارتفع على الصليب وذلك بعد أن احتمل قبلاً الاتهامات والأحزان. ونحن لا يمكننا أيضاً أن نرجو الوصول إلى الكمال إذا لم نتألَّم مع المسيح «الذي نتألم معه، كما يقول الرسول بولس، لكي نتمجد معه» / رو ٨: ١٧/. ولا يوجد طريق آخر.

كل من يجاهد لأجل الهدوء المطلق يجب أن يتذكر دائماً الهدف الذي لأجله يجاهد حتى لا يتحول قلبه إلى شيء آخر.

الصلاة

كل الذين قرروا أن يخدموا الرب بصدق يجب أن يتكرسوا لذكر الله ولاستدعاء اسمه ذهنياً بشكل لا ينقطع «أيها الرب يسوع المسيح يا بن الله ارحمني أنا الخاطئ» وفي أوقات بعد الطعام يمكن للإنسان أن يصلي بالشكل التالي «أيها الرب يسوع المسيح

بشفاعات والدة الإله خلصني أنا الخاطئ». ويمكنه بالتحديد أن يتوجه إلى والدة الإله مصلياً: «أيتها الفائق قدسها والدة الإله خلصينا». أو أن يتلو السلام الملائكي: «افرحي يا والدة الإله العذراء الممتلئة نعمة مريم ...» وبهذا الإنشغال لا نحافظ على ضميرنا سلامياً فقط بل ويمكننا الاقتراب من الله ونتحد معه. إذ إنهِ بحسب تعليم القديس اسحق السوري لا يمكننا أن نقترب من الله بأية طريقة أخرى، إلا بالصلاة الدائمة.

يصف القديس سمعان اللاهوتي الحديث بشكلٍ واضح أنواع الصلاة. وفيما يخص قيمتها يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «عظيم سلاح الصلاة، كنز لا يثمَّن، غنى لا ينضب، ميناء لا تثور فيه الأنواء، جالبة الهدوء وأساس أعمال صالحة كثيرة. إنها نبع ووالدة».

عندما تصلي في الكنيسة. قف في حالة صلاة وستساعد كثيراً إذا أغلقت عينيك. افتحهما فقط إذا هاجمك النعاس أو الضجر. عند ذلك ثبت نظرك على أيقونة وشمعة تشتعل أمامها.

وإذا أسرت في ساعة الصلاة من أفكار ما فتواضع واطلب الصفح من الله قائلاً: «خطئت يا رب بالذهن والكلام والعمل وبكلّ أحاسيسي».

جاهد دائماً ضد تشتت الفكر، وإلا فإن نفسك بفعل الشيطان ستهرب من ذكر ومحبة الله كما يقول القديس مرقص. «كل اهتمام معاندنا يتركّز على إبعاد أفكارنا عن ذكر الله وعن خشيتنا ومحبّتنا له».

عندما يتحد الفكر والقلب في الصلاة والأفكار لا تتشتت، عند ذلك تضيء النعمة الإلهية النفس وتدفئها. ويملأ كلّ الإنسان الداخلي فرح وسلام سرّيان. يتوجب أن نشكر الله على كلّ شيء، وأن نسلّم أنفسنا لإرادته. والأنفع أن نقدّم له كل أفكارنا وأعمالنا وكلامنا، وأن نحاول خدمة إرادتهِ فقط.

اليقظة

كل من يسير في طريق اليقظة يجب أن لا يثق بقلبه فقط. يجب أن يوافق بين حركات القلب وحياته بالإجمال بما ينسجم مع ناموس الله وحياة الآباء القديسين العمليَّة. أولئك جاهدوا

وسلكوا في الطريق ذاته. وهكذا يتمكن بسهولة أن يتحرر من الشرير ومن جهة ثانية أن يرى الحقيقة بوضوحٍ أكثر.

إن عقل الذي يمارس اليقظة هو كالحكيم في محرس أو كحارس لا ينام في أورشليم الداخلية. يرى بعين نقيَّة من سموِّ الرؤية الروحية القوى المضادة التي تحاصره وتحارب نفسه «وإلى أعدائي نظرت عيناي» / مز ٥٣: ٩ /.

لا يغيب الشيطان عن عينيه فهو «كأسد زائرٍ يجول ملتمساً شيئاً ليأكله» /بط ٥: ٨/. «ولا ينجوا حتى هؤلاء ، الذين هيأوا السهم في الوتر ليرموا في الدجى مستقيمي القلوب »/ مز ١٠: ٢ /.

بحسب تعليم آباء الكنيسة، إلى جانب كل إنسان يقف ملاكان. واحد صالح والآخر شرير. أما الملاك الصالح فهو هادئ، متواضع، وصامت. عندما يدخل إلى قلب الإنسان، يتناقش معه عن الحقيقة والطهارة، عن الصلاح والوداعة، وحول كل عملٍ جيِّد وكل فضيلة. أما روح الشر فهو مرّ بلا رحمة وصعب. عندما يدخل إلى قلبك ستفهم من أعماله.

ينصح القديس اسحق، «انتبه من الأدوية الكثيرة. وفَرِّق بين ما يرسله لك الطبيب الحقيقي لأجل صحتك الروحيَّة وما ترسله الشياطين. فأتعاب الجسد والأفكار التي ترعب النفس والخوف مما سيحدث بعد الموت، أشياء تختلف عن الدفء الموهوب، والدموع الحلوة، والفرح الروحي وما شابه.

وبعد كل هذا الذي يحدث معك تفحَّص ! هل تتعافى نفسك المليئة بالجراح؟ أي هل بدأت أهواؤك تضعف؟ ضع إشارة وادخل دائماً إلى داخلك ولاحظ أيّ الأهواء ضعفت ؟ وأيّها تركك؟ وأيّها بدأ يهدأ مع معالجة النفس التدريجيّة؟ وأي الأهواء تعلمتَ الانتصار عليها بمعرفة وليس لأن أسبابها قد رحلت عنك؟ انتبه أيضاً إذا كان قد بدأ جسد ما ينمو في جرحك النتن؟ أيُّ سلامٍ تتبع النفس؟ أيضاً، أيُّ الآلام تطاردك باستمرار وبشدة ولكم من الزمن؟ ما هذه الآلام؟ جسديَّة؟ روحية؟ معقدة؟ أو غير واضحة؟

هل تأتي إلى النفس ضعيفة أم أنها تثير النفس بعنف؟ هل تثور بسلطة أم كلص؟ وكيف يجابهها الذهن الرئاسي أيضاً؟ هذا الذي يسود على الأهواء. هل يحاربها حالما تظهر حتى تضعف؟ أو يعمل وكأنه لا يراها ولا يهتم إطلاقاً بها؟ وما هي الأهواء القديمة الباقية؟ وما هي المتشكلة حديثاً؟ كيف تظهر؟ كصورٍ حيَّة أو بالشعور فقط والذاكرة دون أية حركة شهوانية ودون أفكار وتهيجات؟ من كل هذه يمكننا أن نعرف موقع صحتنا الروحية.

كل من يسهر على نفسه، بحسب تعليم الرسول بولس، « يأخذ عدَّة سلاح الله الكاملة لكي يقوى على المواجهة في يوم شرير... » / أف ٦: ١٣ /. بهذه العدة الكاملة ومعاضدة النعمة الإلهية توقف الهجمات المنظورة وننتصر على الأعداء غير المنظورين.

كل من يسير في طريق اليقظة الروحيّة يجب أن لا يعطي انتباهاً للحوارات العالمية، لأنها من الممكن أن تملأ الذهن بأفكار وذكريات باطلة ومربكة. من يسلك هذا الطريق يجب أن لا ينشغل بأعمال الآخرين ولا أن يفكر ويتحاور بها على حسب قول المزامير «كما لا يتكلّم فمي بأعمال الناس» / مز ١٦: ٤ /. بل بالعكس يجب أن يتضرع إلى الرب قائلاً «نقّني من الخطايا المستترة واحفظ عبدك من المتكبرين فلا يتسلطون عليَّ» / مز ١٨: ١٣ – ١٤ /.

ولكي تحافظ على اليقظة يجب أن تنعزل مع نفسك حسب قول الرب «ولا تسلموا على أحد في الطريق»/ لو ١٠: ٤ /. أي لا تتكلّم دون ضرورة إلا إذا كان شخص ما يتبعك ليسمع شيئاً نافعاً.

وعندما تلتقي بشيوخ أو أخوة فقدم لهم الاحترام بأن تنحنيَ أمامهم وعيناك مغلقتان.

النفس والجسد

إنَّ جسد الإنسان يشبه شمعة، الشمعة تحترق والإنسان يموت. أما روحنا فخالدة ولهذا يجب أن نعتني بها أكثر من الجسد «ماذا ينتفع الإنسان إذا ربح العالم كله وخسر نفسه؟

أو ماذا يعطي الإنسان بدلاً عن روحه؟» / مت ١٦: ٢٦ /. كل نفس هي أثمن من كلِّ العالم، لأنه، كما يقول مكاريوس العظيم: لم يسرالله أن يتصل ويتحد بأي مخلوق منظور بحسب طبيعته الروحية إلا مع الإنسان الذي أحبه أكثر من كل خلائقه.

إن رؤساء الكهنة العظام باسيليوس الكبير، غريغوريوس اللاهوتي – يوحنا الذهبي الفم، كيرلس الإسكندري وامبروسيوس أسقف ميلان وآخرين كانوا قد وجهوا اهتمامهم منذ سني شبابهم إلى نفوسهم وليس إلى أجسادهم، أما الجسد فيجب أن نقويه لكي يستطيع أن يسند الروح فقط.

إذا قسونا على الجسدَ إلى درجة نضعفُ معها الروح. فهذا من عدم التمييز حتى ولو صار لامتلاك الفضيلة. ولكن إذا كان مرضياً عند الله أن يجرَّبَ الإنسانُ بالمرض فسيعطيه هو نفسه القوة ليصبر عليها. لتأت الأمراض من الله وليس منّا.

غذاء النفس

تتغذى النفس بكلمة الله وعلى الأخص بمطالعة العهد الجديد والمزامير. يجب أن نقرأ الإنجيل ورسائل الرسل واقفين أمام الأيقونات المقدسة، بينما يمكننا أن نقرأ المزامير جالسين. إنَّ الذهن يبتهج ويستنير من دراسة الكتاب المقدس.

يجب أنَ نمرِّن الذهن على الهذيذ بناموس الرب حتى نرتب حياتنا بإرشاده. مفيدٌ جداً أن ندرس كلمة الله بانتباه وفي الهدوء. بانشغالٍ كهذا مرتبطٍ بالأعمال الصالحة لن يحرمنا الله رحمته. عندما تلهج النفس بناموس الرب تمتلئ من موهبة تمييز الخير من الشر.

عندما تتمُّ دراسة كلمة الله في الهدوء يغرق الذهن في حقائق الكتاب المقدّس، ويتقبَّلُ القلب دفئاً إلهياً. الشيء الذي إذا تم في الوحدة يجلب الدموع. هذه الأشياء تدفئ الإنسان كله وتملؤه بمواهب روحيّة تبهج الذهن والقلب بما لا يعَبَّرُ عنه. وبشكل خاص يجب أن يشدَّدَ على

الدراسة لكي يمتلك سلام النفس بحسب قول المزامير «سلام عظيم للذين يحبون ناموسك» / مز ١١٨: ١٦٥ /.

يعلّم القديس اسحق السوري. «قبل أن يتقبل المؤمن المعزي يحتاج للنصوص المقدّسة حتى يتجدد داخله لكثرة الدرس وينجذب للعمل الصالح وتحفظ نفسه من طرق الخطيئة. إنه يحتاج للنصوص المقدسة لأنه لم يحصل بعد على قوة الروح القدس وعندما تنزل قوة الروح القدس في النفسَ تتربى النفس سرياً من الروح، ولا تحتاج لمساعدة من أي شيء محسوس».

تساعد النفسَ أيضاً دراسةُ تاريخِ الكنيسة كما ابتدأت، وبقيت حتى اليوم وكم عانت في كل عصرٍ. هذه المطالعة يجب أن لا تكون مصحوبة بحب المجد لنُظْهرَ أمام الآخرين معارفنا، فهدفها هو أن تثبِّت وتعزي فكرك، وعندما يطرحُ عليك سؤال أن تكون مستعداً للجواب ».

سلام النفس لا يوجد شيء أرفع من سلام المسيح الذي يصدُّ كل هجمة من الأرواح الأرضية والتي في الجو. يمتلك سلام النفس بالصبر على الشدائد، يقول الكتاب المقدس «دخلنا في النار والماء ثم أخرجتنا إلى الراحة » / مز ٦٥: ١٢ /. إن درب أولئك الذين يرغبون أن يسِرّوا الله يمرُّ من شدائد كثيرة. كيف نكرِّم القديسين الشهداء بسبب ما عانوه حباً بالمسيح. عندما لا نستطيع نحن أن نصبر على شدةٍ صغيرة ؟

لا يساعد شيء على امتلاك السلام الداخلي، كالصمت .وحاور نفسك على قدر الاستطاعة وأقل ما يمكن الآخرين.

الانتباه الداخلي وعمل القلب السرّي هما ميزة الحياة الروحية. إن نعمة الله تغطي الإنسان الذي يجاهد ليصبح إنساناً سلامياً ويفعلها تقوده إلى السلام المطلق. في الشكل الأولي للسلام تكون النفس هادئة. بينما في شكلها الأخير تُظَلَّلُ بنعمة الروح القدس على حسب قول المزامير. «كانت في السلام مظلّته» / مز ٧٥: ٣ /.

كل من يسير في حالة السلام من غير أن يحيد يغرق بغزارة النعم الروحيَّة. إن الآباء القديسين الذين وصلوا إلى حالة السلام وتظللهم نعمة الله، عاشوا سنوات طويلة.

عندما يصل الإنسان إلى حالة السلام يستطيع عندئذٍ أن ينقل للآخرين النور الذي ينير فكره ولكن عليه قبلاً أن يكرر أقوال النبيَّة حنة «لا يخرج من فمكم قول تكبّرٍ»/ ١ملوك ٢: ٣ /.

هذا السلام تركه ربنا يسوع المسيح كنزاً جزيل الثمن لتلاميذه قبل معاناته الإلهية «سلامي أترك لكم، السلام الذي لي أعطيكم إياه» / يو ١٤: ٢٧ /. عن هذا السلام يقول الرسول «سلام الله هذا الذي يفوق كل ذهن يحرس قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع» / فيل ٤: ٧ /. «اتبعوا السلام مع الجميع والقداسة التي دونها لن يرى أحد الرب» / عب ١٢:١٤/.

لهذا يجب علينا أن نهدف بكل فكرنا ورغبتنا وعملنا كيف نمتلك سلام الله وأن نهلل مع الجماعة دائماً «أيّها الرب إلهنا أعطنا سلاماً » /اشعيا ٢٦: ١٢ /.

الحفاظ على السلام حاول بكل وسيلة أن تحافظ على سلام النفس وأن لاتضطرب من تهجمات الآخرين. سيمكنك امتلاكه إذا ضبطت ذاتك بكل الوسائل من الغضب. احرس ذهنك باليقظة وقلبك من الوثبات غير اللائقة. لنقبل تهجمات الآخرين دون اضطراب كما لو لم تكن موجهة لنا. تصرف مثل هذا يمكن أن يجلب إلى نفوسنا الهدوء وأن يجعلها مسكناً لله ذاته.

مثلُ عَدَمِ الشرِّ هذا نلاحظه في حياة القديس غريغوريوس العجائبي. فقد طلبت إحدى النساء الساقطات منه أجرة كما لو كان قد صنع معها الخطيئة. أما ذاك فلم يغضب إطلاقاً بل قال لأحد أصدقائه أن يعطيها ما تطلبه. وحالما أخذت المرأة الأجرة أصيبت بمسّ شيطاني. لكن

رئيس الكهنة صلى وحررها من الشيطان.

إذا كان من غير الممكن أن لا نضطرب. يجب على الأقل أن نضبط لساننا كما يقول المرنّم «اضطربت ولم أتكلم» / مز ٧٦: ٥ /.

نصادف أمثلة على عدم الغضب في حياة القديس اسبيريدون اسقف تريميثوس والبار إفرام السوري. لقد صبر الأول على تحقيره كما يروى في الحادثة التالية: ذهب مرَّة إلى القصر لكي يقابل الامبراطور الذي كان قد طلبه ولكن أحد الخدم اعتقد أنه شحاذ فلم يسمح له بالدخول بل سخر منه وصفعه. عندئذٍ، تصرف القديس العادم الشر بكل وداعة، فأدار وجهه الآخر بحسب وصيَّة الرب.

لما كان البار افرام صائماً في البريَّة حدث معه الحادث التالي:

بينما كان أحد تلامذته جالباً له الطعام سقط منه في الطريق وانكسر الوعاء «قال البار لتلميذه إذ رآه منزعجاً لا تحزن يا أخي. إذا لم يرِد الطعام أن يأتي إلينا، سنذهب نحن إليه ».

فذهب إلى مكان الوعاء المكسور وجلس بقربه. فجمع الطعام عن الأرض وأكله. إلى هذه الدرجة كان قد تجاوز هوى الغضب.

من حياة القديس باسيليوس الكبير يمكننا أن نتعلم كيف نصرِّف هوى الغضب. ظهر الرب مرَّة للقديس باسيليوس فطلب منه القديس أن يحرره من هذا الهوى.

«قال المسيح إذا أردت أن تنتصر على الغضب والحزن معاً فلا تشتهِ شيئاً، ولا تكره أحداً، ولا تحط من قدر أيٍّ كان».

ولكي نحافظ على السلام النفسي يجب أن نطرد بعيداً الانزعاج، وأن نحاول أن نكون فرحين بحسب قول الحكيم سيراخ «لقد أهْلَكَ الحزنُ كثيرين ولا يوجد شيء مفيد فيه» / حكمة سيراخ ٣٠: ٢٥ /.

إذا أردت الحفاظ على السلام النفسي فتجنب بكل الطرق الحكم على الآخرين. إنَّ مسامحة الأخوة والصمت يحرسان النفس. عندما يوجد الإنسان في هذه الحالة يتقبل إعلانات إلهيَّة.

لكي لا تسقط في الدينونة، انتبه أن لا تقبل شيئاً سيِّئاً على أحد وكن للجميع كميت.

لكي تحافظ على سلامك النفسي، يجب أن تنفرد دائماً مع نفسك وتتساءل: بأية حال أنا موجود، يجب أن تكون منتبهاً أيضاً حتى تخدمَ أحاسيسُ الجسدِ –وخاصةً النظرُ– الإنسانَ الداخليَّ فقط، ولكي لا تشتتَ المحسوساتُ النفسَ. إن الذين يعملون العمل الداخلي ويسهرون على نفوسهم هم فقط الذين يملكون المواهب البهيجة.

الفضائل الرهبانية

إن محبة الله الكاملة توحد المحبين مع الله ومع بعضهم في الوقت ذاته. إن ذهن الذي امتلك المحبة لا يعتبر شيئاً لا يتوافق معها. إنَّ الهدوء، والصلاة، والمحبة، والعفة، تشكلّ عربة ذات أربع عجلات تصعِدُ الروح نحو السماء.

رَوِّضْ جسدك بالصوم والسهر حينئذٍ تستطيع أن تصدَّ فكر الشهوة القاسي.

كما أن عملَ الله هو العناية بالعالم هكذا هو عمل النفس أن توجه الجسد.

يباد الهوس الجنسي بالألم والحزن الصائرين طوعياً أو تسمح بهما العناية الإلهية.

بالكيل نفسه الذي به تدفع تعبك الجسدي ستنال من الرب الخيرات الموعودة عندما تصنع المقابل العادل.

عندما يعد الله بالخيرات المستقبلة فهو أمين وصادق في تحقيقها. والمجاهد الذي يثق به يشتهي المستقبلات كما لو كانت موجودة فعلاً. إن وعد الخيرات المستقبلة تربط ذهنه بالموعد، وبالنتيجة ينسى ويتجاوز الحاضر.

إذا نسي الذهن بالكامل ما هو هنا، وحاول أن يتعرَّف بازدياد على المستقبلات، فهذا دليل أنه يأمل بالهبات كثيراً.

إن عدم الانفعال فضيلة عظيمة، والرب نفسه يمنح ويثبّتُ هذه الحالة في النفوس المحبة لله.

لا تكن غير مهتم في الحياة العمليَّة وسيستنير ذهنك. الوحدة والصلاة وسيلتان هامتان للفضيلة. تنظفان الذهن وتجعلانه رؤيوياً.

حياة النسك تحتاج لصبر وطول آناة. لأن روح محبة العالم يخلَعُ من جذوره فقط بالأتعابِ الطويلةِ الأمد.

كل من يصبر بالصلاة على هجماتِ التجارب اللاإرادية. هذا يصبح متواضعاً وموثوقاً، ومجرَّباً.

جهادات نسكية

إن الصبر ينقي النفس وبهذا يجابه الإنسان الأتعاب المباشرة والتجارب غير المباشرة.

يجب أن لا تتحمَّل أتعاباً فوق طاقتك، ولكن حاول أن يكون رفيقنا الجسد موثوقاً وقادراً على عيش الفضيلة.

سر في الطريق الوسط «لا تمل لليمين ولا إلى الشمال» / أمثال ٤: ٢٧ /. وأعط للروح الروحانيات بينما أعط للجسد الجسديّات. يعني الضروريات لأجل الحفاظ على هذه الحياة الوقتيّة بحسب قول الرب «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله »/ متى ٢٢: ٢١/.

لتكن رحيماً مع ذاتك، ولا تطلب منها أكثر مما تستطيع. اصبر على زلاتك كما تصبر على زلات القريب، ولكن لا تصبر كسلاً بل توجه دائماً نحو الأفضل.

إذا أكلت كثيراً أو تراجعت أمام ضعف آخر فلا تضطرب ولا تضف جرحاً على جرح. اسلك برجولةِ الطريقَ نحو الإصلاح وحاول أن تحافظ على السلام النفسي.

إذا ضعف الجسم من المرض أو التعب أسنده بالنوم المناسب والماء والغذاء.

وكل نجاح نحققه في الجهاد يجب أن نعيد سببه لله، وأن نقول مع النبي «لا لنا لا لنا يا رب بل لاسمك أعطِ مجداً»/ مز ١١٣: ٩ /. عندما

يصل الإنسان إلى سن الخامسة والثلاثين أي إلى نصف الحياة على الأرض تقريباً، يحتاج لجهاد عظيم لكي يبقى في الطريق السليم. وكثيرون في هذه السن يتهربون ويعودون إلى أهوائهم الخاطئة «كثيرون جمعوا الكثير في شبابهم، كما يشهد القديس باسيليوس، ولكن في منتصف حياتهم لم يصبروا على العاصفة التي هيجتها ضدهم أرواح الشر فخسروا كلَّ شيء».

ولكي لا نقع في دمار كهذا فلنراقب بانتباه ذواتنا بحسب قول البار اسحق السوري: «يجب أن نزن حياتنا كما لو بميزان».

نور المسيح

لكي تتقبَّل وتشعر في قلبك بنور المسيح يجب أن تبتعد بقدر الإمكان عن الأشياء العالميَّة. نظف نفسك أولاً بالتوبة والأعمال الصالحة والإيمان الصادق بالمصلوب، أغلق عينيك الجسديّتين وأدخل ذهنك إلى قلبك وناد دائماً اسم ربنا يسوع المسيح. وستجد عزاءً بمقدار حماسك وحرارتك تجاه الحبيب الذي تنادي وسيشجعك هذا العزاء لتطلب استنارة أسمى.

إذا استمرَّ الذهن زمناً في هذا العمل سيقترب من القلب وعند ذلك سيضيءُ نور المسيح وينير مسكن النفس بإشعاع إلهي. كما يقول الله بفم النبي ملاخيا. « وتشرق لكم يا خائفيْ اسمي، شمسُ العدل» / ملا ٤: ٢ / وبحسب قول الإنجيل، هذا النور هو بالوقت نفسه حياة. «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس »/ يو ١: ٤ /.

عندما يرى الإنسان داخلياً النور الأبدي يتنقى ذهنه من كل تخيلٍ أرضيٍّ باطل. وينسى المحسوسات ولا يريد أن يرى حتى ولا نفسه إذ يكون غارقاً بكامله بمعاينة النور غير المخلوق. ويفضِّل أن يختفي في أعماق الأرض، يكفيه أن لا يخسر الصلاح الحقيقي، الله.

في الدموع

كل القديسين والرهبان الذين أنكروا العالم كانوا يندبون خطاياهم طيلة حياتهم، ويرجون التعزية الأبديَّة بحسب تأكيد المخلّص «طوبى للحزانى لأنهم يعزون »

/ متى ٥: ٤ /. ويجب أن نحزن نحن من أجل مسامحة خطايانا. يؤكد لنا ذلك قول النبي داود: لقد ذهبوا وهم يبكون إذ كانوا يلقون بذارهم. «لكنهم سيرجعون أدراجهم فرحين حاملين أغمارهم »/ مز ١٢٥: ٦ /. وكذلك قول البار اسحق السوري«بللْ وجهك بالدموع لكي يخيِّم الروح القدس في داخلك وليغسلك من أدران الخطيئة. اجعل الرب بدموعك يشفق عليك ويأتي إلى قربك. بينما نكون في ساعة الصلاة باكين يتطفَّلُ الضحك. ويعود هذا لخبث الشيطان. إنه لمن الصعب أن نميِّز أعمال عدوِّنا الصغيرة والخفيَّة».

عندما تسكب دموع التخشعُ يضاء قلبك بإشعاعات شمس العدل المسيح إلهنا.

التوبة

إن الذي يريد أن يخلص يجب أن يكون قلبه متخشعاً وجاهزاً للتوبة «الذبيحة لله روح منسحق. القلب الخاشع المتواضع لا يرذله الله» /مز ٥٠: ١٧/.

بانسحاق قلب كهذا يمكن للإنسان بسهولة أن يتجاوز كمائن الشيطان الخبيثة من غير أن يتأذى. كل محاولات الشرير تهدف لإزعاج روح الإنسان وزرع الزوان في وسط هذا الهيجان كما يقول الإنجيل: «يا سيد ألم تبذر بذاراً جيداً في حقلك فكيف إذا يوجد فيه زوان». أما هو فقال لهم: «إنسان عدو فعل هذا» / مت ١٣: ٢٧ – ٢٨ /.

عندما يحاول الإنسان أن يبقي قلبه متواضعاً، وأن يحافظ على فكره سلامياً، تصبح كل كمائن العدو بلا فاعلية. بالحقيقة إنَّ الله يستريح حيث توجد أفكار سلمية « وفي السلام مقامه ... » / مز ٧٥: ٣ /.

إن بدء التوبة يولد من خوف الله ومن اليقظة على نفوسنا. خوف الله يلد التيقظ، والتيقظ يلد الهدوء الداخلي. خوف الله يوقظ الضمير النائم ويجعل النفس تنظر إلى قبحها كما في ماء نظيف وهادئ هكذا تتولد بدايات التوبة وتتثبَّت جذورها.

في فترة حياتنا نهين بسقطاتنا عظمة الله، ولهذا علينا أن نطلب دائماً بتواضع من الرب مغفرة خطايانا.

يمكن لإنسان أخذَ النعمةَ وسقطَ أن ينهضَ بالتوبة بحسب قول المرنم «دفعوني لكي أسقط وكدت أهوي لكن الرب عضدني» / مز ١١٧: ١٣ /. وعندما وبخ النبي ناثان داودَ الملك على خطيئته، تاب مباشرة وحصل على المغفرة.

إلى المستوى نفسه يعود حدث الناسك الذي كان ذاهباً ليجلب الماء فوقع في الخطيئة بالقرب من البئر، ولكن عندما عاد إلى القلاية، تاب عن خطيئته وبدأ حياته كما كانت سابقاً، فخلق له العدو مشاكلَ مظهراً له ثقل خطيئته. وقال له إنه من غير الممكن أن يسامح. محاولاً بهذه الطريقة أن يثنيه عن عزمه ويبعده من الجهاد. ولكن ذاك بقي ثابتاً. لقد كشف الله هذا الحدث لأحد الشيوخ وطلب منه أن يمدح الراهب لانتصاره على الشيطان.

يفرح المسيح عندما نتوب بصدقٍ عن خطايانا، ونعود إليه بكل قلوبنا، ويصنع عيداً، ويدعو كل الملائكة لكي يريهم الدرهم الضائع أي صورته الملكيَّة، ويأخذ على كتفه الخروف الضال ويعود به إلى أبيه. ويسكن الله نفس التائب في مساكن المبتهجين مع أولئكَ الذين لم يبتعدوا عنه أبداً.

إذاً دعنا لا نهمل العودة سريعاً إلى السيد الرحيم. ولا نيأس بسبب خطايانا الكثيرة والثقيلة. إن اليأس فرح عظيم للشيطان ، إنه خطيئة مميتة بحسب الكتاب المقدس وقال القديس برصنوفيوس «إذا لم يقف كَسَلكَ وعدمُ انتباهك عثرة ستندهش وتمجد الله لأجل الكيفية التي حولك بها من خاطئ إلى بار».

من بين ما تعنيه التوبة هي أن لا تكرر الخطيئة. وكما يوجد علاج لكل مرض هكذا لكل خطيئة توجد توبة.

اسلك إذاً طريق التوبة دون تردد وهي ستتوسط لك أمام الله.

الصوم

لا يعني الصوم فقط أن نتناول الطعام في فترات متباعدة ولكن أن نأكل قليلاً. وليس أن نأكل مرة واحدة ولكن أن لا نأكل كثيراً. إن الصائم الذي ينتظر الطعام في ساعة محددة ولكنه على المائدة يستسلم بجسده ونفسه لإرضاء شهوته التي لا تشبع هو غير حكيم.

عندما نأكل علينا أن لا ننتقي الأطعمة الشهيَّة لأن هذه، ميزة الحيوانات. وعندما نرفض أن نأكل نقوم بذلك لكي نكبح جماح الأعضاء الجسديَّة الثائرة ولنعطِ حريَّةً لحركاتِ الروح.

ليس الصوم الحقيقي لإضعافِ الجسد فقط. بل أن تعطي للجائع الخبز الذي كنت ستأكله.

إن مخلصنا يسوع المسيح قبل أن يبدأ عمله لخلاص جنس البشر تقوّى بصوم طويل. وكل النساك عندما كانوا يبدؤون بخدمة الرب كانوا يتسلحون بالصوم. لم يبدؤوا طريق الصليب إلا بالصوم، وكانوا يقيسون تقدمهم بالجهاد بتقدمهم في الصوم.

إن رجال الله القديسين لم يبدؤوا بصومٍ قاسٍ ومفاجئ. بل شيئاً فشيئاً وبالتدريج كانوا يصبحون قادرين على الاكتفاء بطعام بسيط جداً. لقد دَرَّبَ القديس دوروثيوس تلميذه ذوسيثيوس على الصوم تاركاً على المائدة قليلاً من الخبز كل مرَّة حتى توصل من ٢كغ كان يأكلها في اليوم إلى ربع كغ.

وإنه لمن المثير للعجب أن القديسين الصوّامين لم يعانوا من الضعف، بل كانوا دائماً نشيطين، أقوياء ومستعدين للعمل. وكانت أمراضهم قليلة وحياتهم طويلة.

بقدر ما يضعف جسد الصائم وينحف، بقدر ما تكمل حياته الروحية وتتلقى ظواهر عجائبيَّة. عندئذ يتصرف الروح كجسم غير هيولي. وتختم الأحاسيس الخارجية، ويتخلص الذهن من الأرض، ويصَعدَ إلى السماء، ويتعمَّق بمعاينة العالم الروحاني بالكامل.

هكذا لا يستطيع كل شخص أن يفرض على نفسه قانون الصوم الصعب المطلق أو أن يحرم ذاته من كل شيء يمكن أن يريح ضعفه الجسدي. / مت ١٩: ١٢ / « من استطاع أن يفهم فليفهم».

تغذَّ كل يوم بمقدار، حتى يتقوى الجسد ويصبح صديقاً وعوناً للنفس في تحقيق الفضيلة. وإلا فإن مرض الجسد يمكن أن يجلب ضعفاً للنفس. كُلْ مرَّة واحدة وبشكل خاص في يوم الأربعاء والجمعة والأصوام الأربعة الكبيرة في السنة على مثال الآباء، وستحميك ملائكة الله.

صون القلب

يجب أن نصون قلبنا نقياً من كل فكر وانطباع غير صالح بحسب قول كاتب الأمثال. «احفظ قلبك بكل انتباه ». من حِفْظِ القلب الدائم يأتي النقاء الذي هو ضروري جداً لنرى الرب. كما تؤكد الحقيقة الأبديَّة. «طوبى لأنقياء القلوب لأنهم يعاينون لله».

حافظ في قلبك على كل شيء خيِّر ككنزٍ ثمين ولا تظهره من غير حاجة وإلا فإنه يصبح في خطرٍ من الأعداء المنظورين وغير المنظورين. ولا تظهر لكلِّ ءانسانٍ أسرار قلبك.

الثرثرة

تكفي الثرثرة لتشتيت السلام النفسي لدى الإنسان الروحاني. والأكثر حزناً من كل شيء، أن الثرثرة يمكن أن تطفئ النار التي جاء الرب ليشعلها في أرض القلب البشريَّة. يقول القديس اسحق السوري «لا شيء يطفئ النار التي يشعلها الروح القدس في قلب الراهب لتقديس النفس بمقدار معاشرة الناس والثرثرة والحوار إلا إذا تحاوروا مع إخوة روحيين، وكان فحوى الحوار معرفة الله والاقتراب منه».

يجب أن تتحفظ خاصة من الكلام مع النساء. إن وجود شمعة منطفئة بين شموع مشتعلة، يذيبها، حتى ولو كانت غير مشتعلة. الشيء

نفسه يحدث لقلب الراهب الذي يمرض من الحوار مع النساء من غير أن ينتبه هو الآخر.

ينبهُ القديس ايسيذوروس بيلوسيوتس قائلاً: إن الكتاب المقدس يقول«المحادثات الشريرة تفسد الأخلاق الصالحة. فالحوار مع النساء ولو كان يحتوي على فحوى بنّاء يمكن أن يبذر في قلب الراهب أفكاراً شريرة. ومن الممكن أن يبقى الجسد نظيفاً ولكن النفس تخسر نقاءها. أي شيء أصلب من الصخرة ؟ وأي شيء ألين من الماء؟ لكن الحت المستمر يقوى على الطبيعة. فإذا كانت الطبيعة القاسية التي لا تكسر معرضةً للكسر من ألين الأشياء، فكيف يمكن ألا تكسرَ و تتبدلَ الإرادةُ الإنسانيةُ السريعةُ التحولِ، بالمعاشرة الطويلةِ الأمد».

ابتعد إذاً عن الثرثرة لكي تحفظ قلبك «الإنسان الحكيم يطلب الصمت»/ أمثال ١٣: ٣ /.

أحوال القلب

عندما يتقبّل الإنسان شيئاً إلهياً يبتهج القلب، وعندما يتقبل شيئاً شيطانياً يضطرب. عندما يتقبل قلب المسيحي شيئاً من الله لا يطلب تأكيداً خارجياً على أن هذا هو من الله. بل يقنع من العمل ذاته أنه حصل على شيء سماوي. « محبة، فرح، سلام، طول أناة، صلاح. لطف، إيمان، وداعة، عفة » / غلا ٥: ٢٢ – ٢٣/.

إنه ولو تحوَّل الشيطان إلى ملاك نور أو أوصى بأفكارٍ تبدو صالحة إلا أن القلب سيشعر بشيء غير واضح، باضطراب أفكارٍ وتشوشِ مشاعر. إن القديس مكاريوس القبطي يقول موضحاً:

« ولو استطاع الشيطان أن يري أحلاماً منيرة لا يمكن أن يظهرَ في القلب أية حالة سلميَّة ».

إذن من فرق حالات القلب يمكن للإنسان أن يفهم ما هو من الشيطان .يقول القديس غريغوريوس السينائي: «من الحالة النفسيَّة يمكنك أن تعرف إذا كان النور الذي ظهر في نفسك من الله أم من الشيطان».

الأمراض

إن الجسد عبد النفس. والنفس هي الملكة. ودائماً يسمح حنان الله أن يعذب الجسد بالأمراض. وبهذه الطريقة تضعف الأهواء ويعود الإنسان إلى رشده. في بعض المرات يأتي مرض الجسد نفسه من الأهواء.

بحسب القديس باسيليوس، إذا أبعدنا الخطيئة ستختفي الأمراض «من أين تأتي الأمراض، من أين يأتي فساد الجسد، إن الرب قد جبل الجسد، لا المرض. النفسَ ولكن لا الخطيئة. ما هو الأكثر نفعاً. ما هو الأكثر ضرورة؟ الاتحاد مع الله والشركة معه بالمحبة !. أم خسارة هذه المحبة والابتعاد عنه؟ وبالتالي السقوط بأمراض عديدة».

إذا احتملت المرض بشكر يصبح هذا لك سبباً لنيل الإكليل.

عانى أحد الآباء من مرض الاستسقاء. وكان يقول للأخوة الذين كانوا يأخذونه للعلاج أيّها الآباء صلوا كي لا يصيب نفسي مرض مثل هذا. أما بالنسبة لمرض الجسد فأطلب إلى الله أن لا يشفيني منه حالاً لأنه كتب في / ٢ كو ٤: ١٦ /. «وإن كان إنساننا الخارجي يفنى فالداخل يتجدد يوماً فيوماً ».

الشفقة

يجب أن نكون عطوفين على الفقراء والبائسين. إن الآباء، أنوار الكنيسة العظيمين، كانوا يهتمون بهؤلاء جداً. ولنجاهد بكلِّ قوانا لكي نتمم هذه الوصيَّة الإلهيَّة«كونوا رحماء كما أن أباكم رحوم »/ لو٦: ٣٦ / «أريد رحمة لا ذبيحة» / مت ٩: ١٣ /.

إن الحكماء يعطون اهتماماً لهذه الأقوال الخلاصيّة بينما غير الواعين لا يهتمون. ولهذا ستكون المكافأة بالمقدار ذاته كما قيل «الذي يزرع شحيحاً فشحيحاً يحصد، والذي يبذر بالبركات فبالبركات يحصد». / ٢كو ٩: ٦ /.

إن مثل القديس بطرس العشار يحركنا لنكون عطوفين على الفقراء. إذ أنه لأجل قطعة خبز أعطاها لفقير ما، حصل على مغفرة خطاياه كلها

كما ظهر له في الحلم. وأصغر رحمة تفعل كثيراً للحصول على ملكوت السموات.

لكن يجب أن نصنع الحسنة من كلِّ قلوبنا كما يعلِّم القديس اسحق السوري «قبل أن تعطي الحسنة لشخصٍ يطلب، تطلَّع إليه بوجه بشوش، وبكلمات طيِّبة عز تعاستَهُ».

الأفكار غير النقية

يجب أن نحاول أن نكون أنقياء من الأفكار الشريرة وعلى الأخص عندما نصلي لله؛ لأنه لا يوجد شركة بين الطيب والرائحة الكريهة.

لهذا السبب يجب أن نصدَّ أول هجمة للأفكار الشريرة والرغبات البطالة، وأن نبعدها عن منطقة قلبنا. وطالما أن أبناء بابل أي الشهوات الجسديَّة والأفكار الشريرة في حالة الزغب، يجب أن نخبطها ونقتلها فوق الصخرة التي هي المسيح. يجب أن نحارب على وجه الخصوص الأهواء التالية: الشراهة، محبة المال، ومحبة المجد. بهذه الأهواء تسلَّح الشيطان ليحارب حتى المسيح، عندما أنهى جهاده في البريَّة.

إن الشيطان «كأسدٍ رابضٍ مختفٍ في عرينه» / مز ٩: ٣٠ /. ينصب لنا مصائد الأفكار غير الصالحة لا النقيَّة. فعلينا نحن أن نغنيَها مباشرة بالأفكار المفيدة.

والصلاة تحتاج لجهاد كبير وسرعة فائقة في وقت الترتيل حتى ينسجم ذهننا مع قلبنا وشفاهنا، وأن لا تمتزج رائحة الخطيئة الكريهة مع بخور الصلاة. إن الربَّ ينفرُ من القلب الذي فيه أفكار غير نقيَّة. إن ناموس الرب يقول « لا تفلح على الثور والحمار معاً »/ تثنية الإشتراع ٢٢: ١٠ /. أي لا تصلِّي عندما يكون ذهنك مأسوراً إما بأفكار نقيَّة أو بأفكارٍ غير نقيَّة. فلنقلِّد داود القائل «باكراً كنت أقتل كل خطأة الأرض لأبيد من مدينة الرب كلَّ فاعلي الإثم »/ مز ١٠٠: ٨ /. وقد منع الناموس دخول الخاطئ إلى مدينة الرب. هذه المدينة هي نحن، إن أورشليم في داخلنا. وخطأة الأرض هي الأفكار الباقية التي تريد أن تدخل في قلبنا.

لنصرخ مع النبي داود نحو الرب «خلص نفسي من شرِّهم»/ مز ٣٤: ١٧ / وَفَرِّقْ الأمم الراغبة بالحروب / مز ٦٧: ٣١ /. لنسمع نحن أيضاً «في الضيق دعوتَ فنجيتك. ومن ستر الرعد أستجيبك»/ مز ٨٠: ٨/.

لنسجد أمام صلاح الرب بلا توقف ليلاً ونهاراً لكي ينقي قلوبنا من كل فكرٍ شريرٍ. هكذا سنتمكن من السير باستحقاق في طريق دعوتنا وأن نقدم لله بأيدٍ نقية هدايا خدمتنا.

يمتلك الروح غير النقي تأثيراً قوياً على الأشرار فقط. أما الأنقياء من الهوى فهو يهاجمهم ظاهرياً .

لا يمكن أن تكف هجمات الأفكار الجسديّة عن الإنسان طالما هو في مرحلة الشباب « ولكن ينفعه أن يصلي للرب»، حتى تنطفئ شرارة الهوى حالما تظهر، قبل أن تصبح ناراً كبيرة.

الصبر والتواضع

إننا مجبورون أن نصبر حباً بالله على كل شيء وبسرور. إن حياتنا بالمقارنة مع الأبديّة هي لحظة، لهذا كما يقول الرسول«ليس لآلام هذا الدهر من قيمة أمام المجد المستقبلي الذي سيعلن لناس »/ رو ٨: ١٨ /.

عندما يحزنك الشرير اصبر صامتاً وافتح قلبك للرب.

عندما يهينك شخص ما، أو لا ينصفك، حاول أن تسامحه بكل الطرق، بحسب القول الإنجيلي «الذي أخذ مالك لا تطالبه».

عندما يشتمنا الآخرون يجب أن نعتبر ذواتنا غير مستحقين المديح، لأننا لو كنا مستحقين لكانوا مدحونا.

من النافع أن نهين ذاتنا دائماً وأمام الجميع كما يعلِّم البار اسحق السوري «تواضع وسترى مجد الله في داخلك».

لنحب التواضع وسنرى مجداً إلهياً. حيث ينبع التواضع هناك يفيض مجد الله. وحيث لا يوجد نور فكلّ شيءٍ يكون مظلماً. عندما لا يكون الإنسان ممتلكاً للتواضع لا يوجد شيء في داخله، بل يسود الظلام.

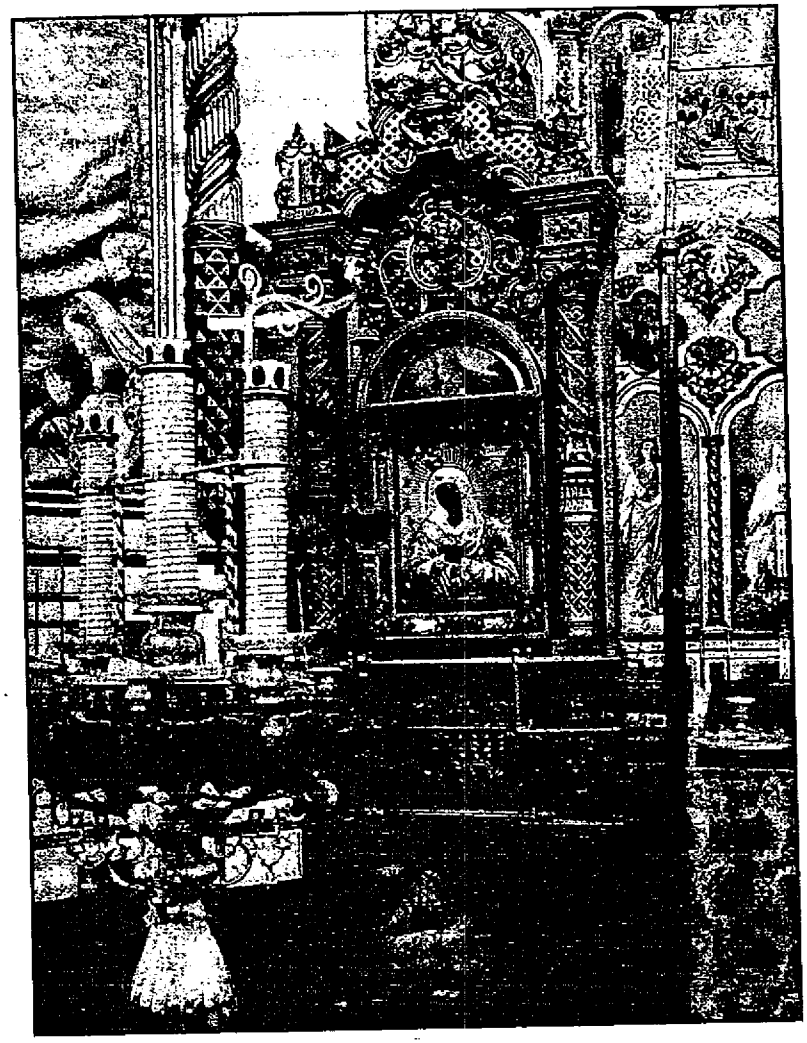

صورة العذراء «فرح كل المحزونين»
في كاتدرائية دير ديفاييو سنة ١٩٠٣

إن الشمع، إذا لم يسخَّن ويليَّن لا يمكن أن يقبل الختم. هكذا النفس إذا لم تجرَّب بالتعب والأمراض لا يمكن أن تتقبَّل ختم الفضيلة.

عندما ترك الشيطان الرب أتت الملائكة وخدمته. إن الملائكة ولو ابتعدت عنا ساعة التجربة ولكنها لا توجد بعيدة عنا. وتأتي بسرعة وتخدمنا بأفكار إلهيّة وخشوع وتعزيَة.

إن النفس بجهاد الصبر تحصل على بقية الفضائل ولهذا يقول النبي أشعياء «أما الراجون الرب فتتجدد قواهم ويرتفعون بأجنحة كالعقبان، يَعْدون ولا يَعْيَون، يسيرون ولا يتعبون »/ أشعياء ٤٠: ٣١ /.

هكذا صبر الملك المتواضع داود ولم يغضب عندما شتمه شمعي ورشقه بالحجارة قائلاً «اخرج، اخرج يا رجل الدماء. ويا رجل الغش». فحميَ غضب أبيشاي وقال: «إلى متى يشتم ابن الكلب الميت هذا، سيدي الملك ؟ إنني سأعبر لأقطع رأسه» لكن داود منعه قائلاً: «دعوه لأن الرب قال له العن داود ... لعلَّ الرب ينظر في محنتي ويجزيني خيراً عن لعن هذا لي اليوم» /٢ ملوك ١٦: ١٢ – ١٧/.

وبعد ذلك رنَّمَ «صبراً صبرت للرب فمال إليَّ وسمع تضرعي» /مز ٣٩: ٢/.

«آنية الفخار تعبر في الأتون والتجربة من عقل الإنسان» /سيراخ ٢٧: ٥/.

«الويل لكم أيُها الفاقدون الصبر، ماذا تفعلون عندما يأتي الرب» /سيراخ ٢: ١٤/.

عندما يرى أب محب أن ابنه يقوم بأعمال غير مرضية يعاقبه. وعندما يراه أيضاً وقد أهين وأحزن وبالجهد يتقبل العقوبة عند ذلك يهدئ باله ويرضيه. هكذا يفعل معنا أبونا الرب الصالح. يستعمل كل الأشياء لأجل خلاصنا، التعزية والعقوبة بالمقدار نفسه وبحسب محبته للبشر.

ونحن عندما نجرَّب بحزن ما يجب أن نشكر الله كأبناء مطيعين وصالحين. إذا كنا نشكره فقط على المفرحات سنشابه اليهود الجاحدين.

فهؤلاء عندما «شبعوا في الصحراء» بالمائدة العجيبة قالوا بالحقيقة أن الرب نبي وأرادوا أن يقيموه ملكاً. ولكن عندما قال لهم: «اعملوا لا للطعام البائد ولكن للطعام الباقي إلى الأبد» قال له أولئك «إذا ما العلامة التي تصنعها؟ إن آباءنا أكلوا المنَّ في البريّة» / يو ٦: ٢٧، ٣٠ – ٣١ /. وينطبق على الجاحد قول المرنم «لأنه يعترف لك حين تحسن إلى نفسه ولن يعاين النور إلى الأبد» /مز ٤٨: ١٩ –٢٠/ «الإنسان في الترف لا يفهم بل يشبه البهائم العجماء».

لهذا يعلمنا الرسول يعقوب في رسالته «احسبوا كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة. عالمين أن امتحان إيمانكم ينشئ صبراً. وأما الصبر فليكن له عمل تام لكي تكونوا تامين وكاملين غير ناقصين في شيء» ويضيف قائلاً: «طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة لأنه إذا تزكى ينال إكليل الحياة الذي وعد به الرب الذين يحبونه» /يع ١: ٢–٤، ١٢/.

محبة القريب

يجب أن نتصرّف مع قريبنا بكل دقة. كي لا نهينه حتى ولا بالنظرة.

عندما نعرض عن شخص أو نهينه عندئذٍ نشعر وكأن صخرة تثقل قلبنا.

عندما يكون الآخر مضطرباً أو يائساً، من الأفضل أن نشجعه بأقوال المحبة. ينصح القديس اسحق السوري «إذا كان أخوك يخطئ، فارم له بثوبك وغطّه». على أيّة حال، كلّنا نحتاج لرحمة الله كما ترنم الكنيسة «لو لم يكن الرب معنا فمن كان كفيّاً أن يحفظ سالماً من العدو قاتل الإنسان» (أنديفونات اللحن الثاني سحريّة).

في علاقتنا مع الآخرين يجب أن نكون شرفاء وصادقين بالأقوال والأفعال. وإلا فإنّ حياتنا تكون بلا نفع لنا. واجب أن نحب الآخرين لا أقل من ذواتنا بحسب وصيّة الرب «أحبب قريبك كنفسك». /لو ١٠: ٢٧/.

ولكن، يجب أن لا تتجاوز محبة القريب الحدود فتلهينا عن حفظ

الوصيّة الأولى والأهم أي محبة الله «كل من يحب أباً أو أماً أكثر مني لا يستحقني» /متى ١٠: ٣٧/. هكذا يعلّم الرب.

حول هذا الموضوع يقول القديس ديمتريوس روستوف بدقة: إن محبة مؤمن لله تكون خاطئة عندما تكون على مستوى محبة القريب نفسها. لأنه هكذا يتساوى الخالق مع الخليقة وتكون محبة الله صحيحة عندما يحبُّ الخالقُ ويكرَّمُ فوق كل خليقة ».

الإدانة وعدم الشر

لا تدن أحداً حتى ولو رأيته بعينيك يخطئ. قال الرب «لا تدينوا كي لا تدانوا» /متى ٧: ١/ ويقول الرسول بولس: «من أنت الذي تدين عبدَ غيرك؟ هو لمولاه يَثْبت أو يسقط ولكنه سيثبَّتْ، لأن الله قادر أن يثبتهُ» /رو ١٤: ٤/. لماذا ندين أخوتنا؟ لماذا لا نحاول أن نعرف أنفسنا؟ كل من ينشغل بمعرفة ذاته لا يستطيع أن يراقب الآخرين. احكم على ذاتك وستتوقف عن دينونة الآخرين.

احكم على العمل الشرير وليس على الذي عمله. يجب أن نعتبر نفوسنا أخطأ من الآخرين. يجب أن نغفر كل خطأ للقريب وأن نبغض الشيطان الذي أغواه.

يحدث في وقت ما أن يبدو لنا الآخر صانعاً عملاً شريراً. ولكن في الحقيقة يمكن أن يكون عملاً جيداً لأنه يقام برغبة صالحة. إن باب التوبة مفتوح للجميع ولا نعرف من سيجتازها أولاً، أنت أم هذا الذي تدينه؟

يعلّم القديس أنطيوخوس «عندما تحكم على قريبك، تدين نفسك بالشيء الذي تدينه. إن الدينونة والحكم لا يعودان لنا ولكن فقط لله القاضي العظيم الذي يعرف قلوبنا وخفايا طبيعتنا».

إن الإدانة تجلب تخلّي الله، وعندما يترك الله الإنسانَ لقواه فقط، يكون الشيطان جاهزاً لسحقه كما يطحن حجر الطاحون القمح.

لتكن أقوال الرسول بولس في أذهاننا دائماً «من يظن أنه قائم فلينظر أن لا يسقط»/١ كو ١٠: ١٢/. لأنه غير معروف الوقت الذي سنعيش فيه الفضيلة. إن النبي داود الذي عرف هذا من الخبرة يقول ما يلي: «يارب برضاك ثَبّت لجبلي عزاً، حجبت وجهك فصرت مرتاعاً. إليك يارب أصرخ وإلى الأبد أتضرع»/مز ٢٩: ٧ – ٨/. عندما يهينك شخص بأي شكل يجب أن لا تنتقم منه بل بالعكس، سامحه من كل قلبك. إذا رفض قلبك، فليُنْه بالثقة، ويقول الرب: «إذا لم تتركوا للناس زلاتهم. ولا أبوكم يترك لكم خطاياكم» /مت ٥: ٤٤/. لا يجب أن نحتفظ في قلوبنا بشرٍّ أو كرهٍ للآخر حتى ولو كان يعادينا. الأحسن أن نحبه، وبقدر ما يمكننا أن نحسن إليه بحسب تعليم الرب: «أحبوا أعداءَكم أحسنوا إلى مبغضيكم» /متى ٦: ١٥/.

إذا جاهدنا بقدر الاستطاعة لنتمم هذه الوصيَّة، عند ذلك يمكننا أن نأمل أن يضيء في قلوبنا النور الإلهي الذي سينير الطريق إلى أورشليم العلويَّة.

لنرغب بمشابهة أبناء الله المحبوبين، ولْنَغَر من وداعة داود الذي قال عنه الرب الكلي الصلاح ومحب الصلاح أنه وجد إنساناً يرضيه ويصنع كل وصاياه.

هكذا يعبّر عن داود، غير الحاقد والصالح نحو أعدائه. وهكذا نحن أيضاً يجب أن لا ننتقم من أخينا بأي شكل إذا أردنا أن لا نجد عائقاً في ساعة الصلاة بحسب ما يقول القديس أنطيوخوس.

يأمرنا الناموس أن نهتمّ بضعفات العدو. الله نفسه أعطى لأيوب شهادة بأنه كان إنساناً غير شرير. لم ينتقم يوسف من أخوته الذين حاولوا أن يقتلوه. لقد ذهب هابيل إلى أخيه قايين ببساطة ودون شكوك.

وكما يشهد قول الله. عاش كل القديسين دون شرٍّ. فيقول: قال أرمياء للشعب الإسرائيلي وهو يتكلّم مع الله « لماذا تعطون الفاسدات بدل الصالحات ... » / أرمياء ١٨: ٢٠ /.

لقد أعطانا ربنا وصيّة أن يكون لنا عداء فقط ضد الثعبان. الذي خدع الإنسان منذ البدء وأخرجه من الفردوس، أي ضد الشيطان قاتل الإنسان. وأعطانا الرب وصية أن يكون عندنا عداء ضد الذين يبذرون في القلب الأفكار المضادَّة.

إن حدَّ الفضيلة والحكمة أن نعمل دائماً بتمييز وعدم شر وبدون لؤم ولا مواربة.

الاهتمامات المعيشية

إن الاهتمام المفرط بالأمور المعاشيَّة هو من صفات الإنسان غير المؤمن والإنسان الصغير النفس.

الويل لنا إذا كنا نهتم نحن بأنفسنا ولا نضع رجاءَنا على الله الذي يهتم بنا.

وإذا كنا لا نرجع سبب كل الخيرات التي نتمتع بها في هذه الحياة إلى الله، فكيف يمكننا أن نأمل بالخيرات التي وعدنا بها للحياة الثانية. فلا نكن قليلي الإيمان بهذا المقدار ولكن لنطبق وصيَّة المخلص. «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرَّه.. وهذه كلها تزاد لكم »/ مت ٦: ٣٣ /.

يناسبنا أن نبغض الشيء الذي ليس لنا، أي الوقتي والزائل وأن نشتهي ما هو لنا أي غير الفاسد وغير المائت. عندما نصبح غير بالين وغير مائتين سنتمتع بمجد الله كالرسل في وقت التجلي، وسنستحق أن نتحد معه بشكلٍ غير طبيعي كالقوات السماوية العقلية كما يقول الكتاب «إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضاً لأنهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة» /لو ٢٠: ٣٦/.

قال الجامعة: «التقيت إنساناً مأخوذاً بالاهتمام بالخيرات الماديَّة وقد نتج عن هذا الشيء شرّ، لأن غناه قد ضاع بين الاهتمامات والضيقات. هكذا قضى حياته بحزن وعدم الرجاء واضطراب كثير، مع أمراضٍ وغضب» /الجامعة ٥: ١٢ – ١٣، ١٦/.

الضجر

إن الضجر، كما يقول الآباء يهاجم الراهب عند الظهيرة على وجه الخصوص. ويخلق له اضطرابات قوية لدرجة أنه لا يستطيع معه أن يحتمل لا المكان ولا الأخوة، فيتبرَّم من الطعام، ويتثاءب بشكل دائم ويجرَّب من نعاس شديد.

إن شيطان الضجر يوشوش في أذن الراهب بعد شبع المعدة لكي يخرج من قلايته ويتحادث مع شخص ما لأنه بهذه الطريقة يمكن أن يتخلص من الملل. وعندما يهزم الراهب يصبح كورقة خفيفة تهدأ قليلاً ثم تبدأ بالطيران هنا وهناك.

وإذا لم يستطع هذا الشيطان أن يخرج الراهب من قلايته، يحاول أن يشتت ذهنه في ساعة الصلاة والمطالعة. «يقول له هذا ليس بوضعيته الصحيحة، وذاك لا يوجد في مكانه، يجب أن ترتب المكان». ويعرض له كل هذه الأشياء لكي يؤخذ ذهنه بأشياء غير نافعة.

وكما أعرف من خبرتي الشخصية أن هذا المرض يأتي من صغر النفس والبطالة، والكلام البطال، ويشفى بالصلاة والمثابرة على عمل اليد ودراسة كلام الله والصبر والهروب من الكلام غير النافع.

لا يمكن للراهب المبتدئ أن يهرب من الحرب ويقفَ ضدها لأنها تسبقه وتقف ضده. ولكي يدركها الإنسان مسبقاً يجب أن يتمم الخدماتِ التي أوكلت إليه بدقة ودون احتجاج. وعندما تترتب أعماله بنظام عندئذٍ ذلك لن يجد الضجر له مكاناً في قلبه. إن الخدمة هي الدواء الأنجح لهذا المرض.

عندما يهاجمك الضجر قائلاً لك: «لماذا تشقى بهذا المقدار؟ إنه لخطيئة أن تقتل نفسك؟» أجبه «أقتل نفسي لأنني لا أستطيع أن أعيش في الوسخ! أفضل موت الجسد لكي أتجنب موت النفس. من الأفضل أن أموت نظيفاً من أن أعيش في الخطيئة. أقتل أهوائي الجسدية لكي لا أغضب الله. أصبر على التجربة لكي لا أحرم من الرجاء بملكوت السموات. ماذا تستحق نفسي بعيداً عن الله؟ وكيف سيوجد الله في حياتي طالما أنني أغضبه؟».

إن الضجر يقود إلى حالة لا تطاق وصعبة جداً، حتى إنَّ الإنسان يتمنى أن يفقد وعيه أو أن يموت. احترس من روح الضجر. لأن الشرور جميعاً تنطلق منه.

يقول القديس برصنوفيوس: يوجد نوعان من الضجر: الأول طبيعي وينتج من الضعف بينما الثاني يأتي من الشياطين، وإذا أردت أن تميز الضجر الشيطاني سترى أنه يأتي قبل أن يرتاح الإنسان بساعة وبشكل عام إذا أردت أن تعمل عملاً سيجعلك الضجر تترك العمل قبل أن تبدأ. لذلك جاهد أنت بالصلاة وداوم على عملك بصبر وعندما يرى العدو أنك تصلي خاصةً بسببه فيبتعد عنك لأنه لا يريد أن يعطي سبباً للصلاة.

كتب القديس اسحق السوري: عندما يسمح الله أن يحدث للإنسانِ تجربة كبيرة يسمح بأن يقع في يدي صغر النفس. لأن صغر النفس يولد ضجراً شديداً، والضجر من حالات الظلام النفسي التي تعتبر تذوقاً مسبقاً لجهنم. ثم يأتي فكر التعظم الذي يلد تجارب كثيرة: اضطراب، غضب، اتهام، تذمر، أفكار زنائية، الانتقال من مكان إلى آخر وما شابه ذلك. إذا سألت ما سبب ذلك ؟ سأجيبك: إنَّ السبب كَسَلكَ لأنك لا تهتم بإيجاد طريقة للشفاء. إن العلاج الذي يؤمن بسرعة التعزية النفسية هو واحد، وهو التواضع. ولا يمكن لإنسان أن يكسر هذا المرض بأي وسيلة أخرى.

الحزن

عندما يسود الحزن النفس يملؤها من الألم والضيق. ولا يتركها تصلي بحرارة ولا تدرس الكتب بانتباه. ويحرمها من الوداعة والانفتاح بالعيش مع الأخوة ويجعل النفس ترفض كلَ حوار. والحزن يجعل الإنسان بائساً وبلا فائدة.

عندما تمتلئ النفس من الكآبة تبدأ بالتصرف بلا تروٍ، عندئذٍ لا يستطيع الإنسان أن يقبل بسلام وصيّةً جيّدة ولا أن يجيب بهدوء على الأسئلة التي توجه إليه. يهرب من الآخرين كما لو كانوا هم المسؤولين عن حالته. ولا يستطيع أن يفهم أن سبب العلة موجود في داخله. الحزن دودة القلب تأكل الوالدة التي ولدتها.

إن الراهب الحزين لا يمكن أن يحرك ذهنه نحو المشاهدة ولا يمكنه أن يقوم بصلاة نقية.

كلُّ من انتصر على الآلام، قد انتصر على الحزن. وكل من يهزم من الأهواء لا يمكنه أن يهرب من قيود الحزن. وكما يعرف المريض من لون بشرته هكذا من سيطرت عليه الأهواء يميِّز من الحزن. كلّ من يحب العالم من المستحيل أن لا يحزن وكلّ من ينبذه يكون دائماً فرحاً.

اليأس

يقول القديس يوحنا السلمي: «توجد حالتان لفقدان الأمل، الأولى تنتج عن كثرة الخطايا، وثقل الضمير والحزن غير المحتمل. فعندما تكون النفس مليئة بالجراح ومجربة بحزن لا يطاق تغرق في عمق عدم الرجاء».

ويوجد يأس آخر ناتج عن الكبرياء وتعظيم الذات، أي عندما يخطئ إنسان يعتبر نفسه شيئاً عظيماً، يظن أنه ما كان من الممكن أن يسقط هو في مثل هذه الخطيئة. اليأس بشكله الأول يرمي الإنسان في الشرور كلّها بلا تمييز، بينما بشكله الثاني يدفعه إلى جهادات عظيمة وهذا شيء مضر. الأول يشفى بالعفة والأمل الصالح، بينما الثاني بالتواضع والهروب من الدينونة.

الرب يهتم بخلاصنا، بينما الشيطان قاتل الإنسان يجتهد لجرِّ الإنسان إلى اليأس. إن النفس القوية والثابتة لا تفقد الأمل في الصعوبات أيّاً كانت. كان يهوذا صغير النفس وغير مجرَّب في الحرب وإذ رأى الشيطان يأسه حاربه وقاده ليشنق نفسه. أما بطرس فقد كان مجرّباً في الحرب لهذا عندما سقط في الخطيئة لم يخب أمله بل سكب دموعاً مرَّة وغزيرة من قلب مجروح، كما لو دخل دخان في عينيه.

يقول البار أنطيوخوس: أيّها الأخوة عندما يهاجمنا اليأس علينا ألا نخضعَ له وبما أننا متقوون ومحروسون بنور الإيمان نقول بكل شجاعة للروح الشرير: ما هي العلاقة بيننا؟ أيّها المبعد عن الله، أيّها الساقط من السماء، أيّها العبد الشرير لا يمكنك أن تفعل لنا شيئاً. إن المسيح ابن الله يملك سلطة علينا وعلى كلّ الخلائق، لقد خطئنا أمامه وأمامه سنحاكم، وأنت أيّها المفسد ابتعد عنا بقوة الصليب الكريم. انسحق أنت ورأسك الذي يشبه الأفعى. ولنصلِّ لله بتقوى.

أيّها الربّ، يا سيّد السماء والأرض، يا ملك السموات، ارتضِ أن يفتح لي أنا أيضاً باب التوبة حتى أصلي لك بقلبٍ متوجع أنت الإله الحقيقي وحدك أبو ربنا يسوع المسيح نور العالم. تقبل أيّها الرحوم طلبتي ولاترفضها واصفح عن كثرة خطاياي. اسمع طلبتي واصفح وامح كلّ شرِ فعلته منتصراً عليَّ من إرادتي. إنني أطلب الراحة ولا أجدها لأن ضميري يؤنِّبني. أرجو السلام وسلاماً لا أملك بسبب كثرة خطاياي.

استمع يارب لقلبٍ يدعوك، ولا تنظر إلى أعمالي الشريرة، واطلع على مرضِ نفسي، وأسرع لتشفيني من جروحي الثقيلة، وأعطني وقت توبة بحنان محبتك للبشر. حررني من شهواتي، ولا تحكم عليّ بعدلك ولا تعاملني بحسب أعمالي لكي لا أضيعَ حتى النهاية.

استمع لي يارب لأنني في حالة من اليأس، بعد أن فقدت كل رجاءٍ وفكرٍ لإصلاحي، أسجد لتحنناتك. ارحمني أنا الساقط والمحكوم عليه بسبب خطاياي. ارأف بي، يا سيد، لأنني محاط بفاعلي شرٍ كثيرين وكأنني قيِّدت بهم. وأنت وحدك تعرف أن تحرر وتشفي.

لهذا، في أمراضي المخيفة أدعوك أنت. وحدك أنت طبيب المرضى وقائد الضالين ونور الموجودين في الظلام ومحرر الأسرى. أدعوكَ وحدكَ، أنت وحدكَ الطويل الأناة والممسك غضبه والمعطي للخاطئ زمن توبةٍ.

عندما تمتلئ النفس من الكآبة تبدأ بالتصرف بلا تروٍ، عندئذٍ أنرني يا سيّد بنور وجهكَ أنا الخاطئ لأنك سريع الرحمة وبطيء العقوبة. أنت أيّها الحنون مرِّرْ ساعدك وأنهضني من جبِ مساوئي. لأنك لا تسرُّ بهلاك الخاطئ ولا تعرض بوجهك عن المتضرع لك بدموع.

استمع يارب صوت عبدك الذي يدعوك وأظهر نورك لي أنا الفاقد له. هبني نعمتك لأنه لا رجاء لي وآمل دائماً بمعونتك وقوتك. بدل يارب شقائي إلى فرح. «انزع يارب مسوحي وبالسرور زنرني»/ مز ٢٩: ١٢ /. ارتض يارب أن أتوقف عن أعمالي الليليَّة لكي أجد راحة قياميَّة كما هم

مختاروك يارب، الذين لا يدنو منهم أيُّ وجع وحزن وتنهد. افتح لي أنا أيضاً باب ملكوتك حتى أدخل وأحسب بين المسرورين من نور وجهكَ ولكي أرثَ الحياة الأبديّة.

وسيستمع الله لصلاتنا لأنه محبة كاملة. محبته هذه هي السبب الرئيس الذي جعله يأتي إلى العالم لأجل خلاص العالم «هكذا أحب الله العالم حتى أنه بذل ابنه الوحيد ... لم يرسل الله ابنه الوحيد إلى العالم ليدين العالم بل ليخلِّص العالم به »/ يو ٣: ١٦ – ١٧/.

وأكثر من ذلك أن الله بتجسده أراد أن يعيد ترتيب مثاله وصورته الساقطة والمشوهة في الإنسان الخاطئ كما ترتل ذلك كنيستنا المقدَّسة.

الحياة العملية وحياة الثيوريا

الإنسان مركب من نفس وجسد، ولهذا يجب أن تتألف حياته من أعمال جسديَّة وروحيَّة، من عمل وثيوريًا.

إن دلالات الحياة العمليَّة هي الصوم، العفة والسهرانية. والسجدات والصلاة وكل الجهادات التي تشكل معاً الطريق الضيقة والكربة «المؤدية إلى الحياة» / متى ٧: ١٤/.

ميِّزة حياة المعاينة الإلهيَّة رفع الذهن إلى الله ويقظة القلب والصلاة العقلية ومعاينة الأشياء الروحانية.

كل من يرغب أن يتقدَّم في الحياة الروحيَّة يجب أن يبدأ بالحياة العمليَّة، وبعد ذلك سيصل إلى المعاينة ولا يمكن أن تصل إلى حياة المعاينة إذا لم تتقدَّم في الحياة العمليَّة.

إن الحياة العمليَّة تنقينا من الأهواء وترفعنا إلى درجة الكمال العملي. في الوقت نفسه تهيِّئنا لحياة المشاهدة الإلهيَّة. فقط الخالين من الآلام والكاملين يمكنهم أن يسلكوا في هذا الطريق كما هو واضح من المكتوب «طوبى لأنقياء القلوب لأنهم يعاينون الله»/ متى ٥: ٨ /. وكذلك في عظة الفصح للقديس غريغوريوس اللاهوتي: يمكن فقط لأولئك الذين كملوا بالخبرة أن يدخلوا في الثيوريًا من غير خطر.

لحياة المعاينة، يجب أن تتحرّك بخوف ورهبة وانسحاق قلب وتواضع وبمعرفة عميقة للكتاب المقدس. وإذا كان ممكناً فليرشدك أحد الشيوخ المجرَّبين. ولا تتحرك معتمداً على الثقة بالنفس والتقدير الذاتي.

يقول القديس غريغوريوس السينائي «إذا كنت تطلب بوقاحة وكبرياء شيئاً يفوق استحقاقك، فالكبرياء تجعلك تطلبه قبل آوانه. وإذا كنت تتخيّل بخيلاء أنك ستصل وحدك إلى مكانٍ سامٍ فرغبتك هذه شيطانيّة، ومن غير أن تمتلك الحقيقة سيقبض عليك الشيطان كعبدٍ له بشباكه بسهولة ».

يجب أن تدرس أيضاً باهتمام الكتابات الآبائية، وأن تطبق تعاليمهم على قدر استطاعتك. وهكذا ستصعد قليلاً قليلاً من الحياة العمليَّة إلى كمال حياة المعاينة الإلهيَّة.

يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي: إن أسمى عمل هو أن نصل كلنا إلى الكمال، وأن نقدِّم ذواتنا لله الذي دعانا ذبيحة حيَّة ومقدَّسة في كلِّ شيء.

يجب أن لا نترك الحياة العمليَّة حتى ولو كنا قد نضجنا فيها ووصلنا إلى حياة المعاينة الإلهيَّة، لأن هذه تتَساعد مع حياة المعاينة وتزيدها بهاءً.

في حال سيرنا في طريق حياة المعاينة الداخلية والإلهيَّة يجب أن لا نفتر ولا نترك الجهاد. لأنه في حال التراخي من الممكن أن يجذبنا كل ما هو ملتصق بنا مما حولنا من أمورِ المحسوسات الخارجيَّة. هذه بالرأي المضاد تجرح الموضع الأكثر حساسية في القلب. فيحاول بشتى الطرق أن يحوِّلنا عن الحياة الداخليَّة واضعاً العوائق. ولكن بحسب رأيِّ الآباء «إن معاينة الروحانيات أفضل من معرفة المحسوسات».

ولهذا مهما اعترض طريقنا من عوائق يجب أن لا نتضعضعَ، بل فلنأخذ قوة من الترنيمة في «صلاة النوم الكبرى». أما خوفكم فلا نتقيه ولا نتزعزع له. أما الرب إلهنا فهو الذي نقدسه – بذكر اسمه القدوس في قلوبنا – ويكون لنا خوفاً /أنظر أشعياء ٨: ١٢ – ١٣/.

الفصل الرابع عشر

تعليمه عن الروح القدس

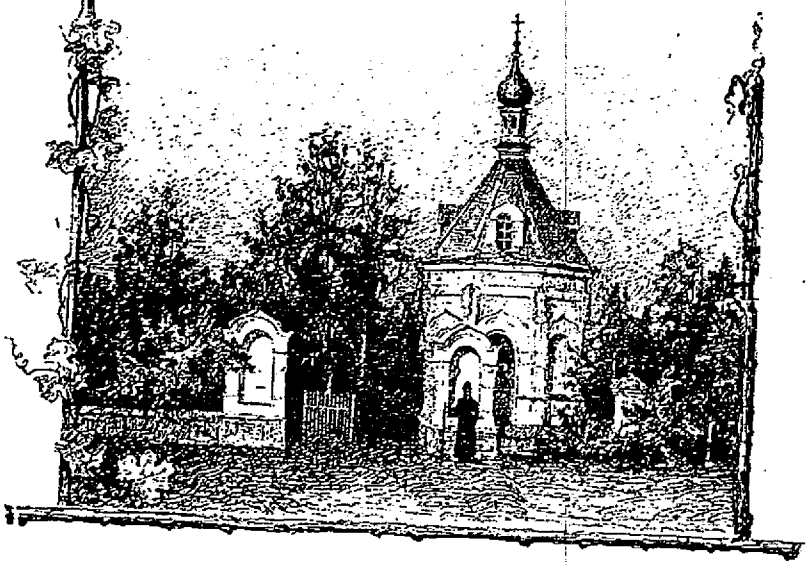

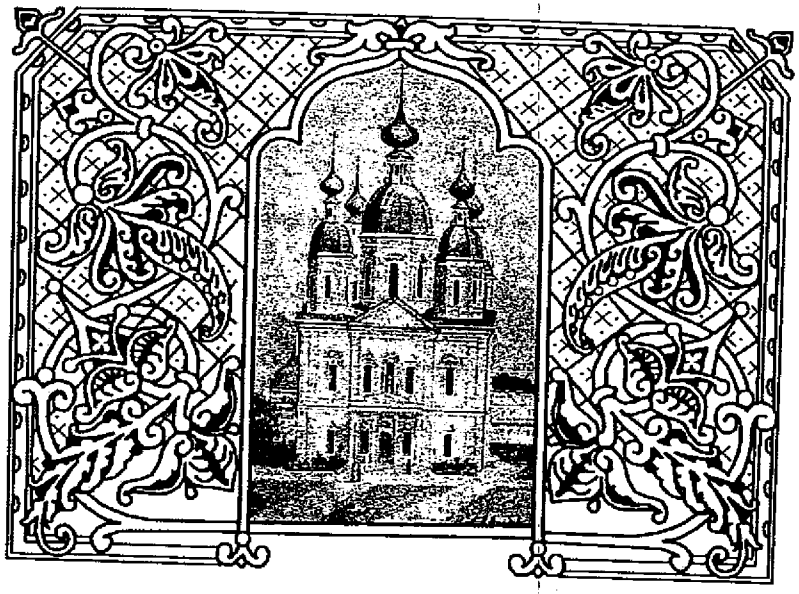

سنة ١٨٣١م شفي الإقطاعي نيقولاوس موتوبيلوف من مرض خطير وذلك بصلاة البار سيرافيم، وحصل على رضاه واستحق أن يتحاور معه كثيراً حول الروح القدس. وقد دوّن هذا الحوار على شكل ملاحظات، بقيت في دير ديفاييفو أكثر من ستين عاماً قبل أن ترى نور النشر. وعام ١٩٠٢م استلمها S.A نيلوس من الرئيسة الأم هيلانة نيكولايفنا، أرملة موتوبيلوف وببركة رئيسة الدير مارينا قدمها للنشر في الصحافة سنة ١٩٠٣ م في«حوليات مسكوبية» في شهر تموز تحت عنوان «الروح القدس كان مستريحاً عياناً في الأب سيرافيم ساروف أثناء حواره حول هدف الحياة المسيحيَّة».

فيما بعد نشرت هذه الملاحظات من قبل .ا دينيسوف في كتابه «حياة البار سيرافيم ساروف» ومن الأب فلورينسكي ضمن عمله«عمود الحق وقاعدته».

هدف حياتنا

كتب موتوبيلوف: كان ذاك اليوم يوم الخميس، والجو غائم، وقد صارت سماكة الثلج على الأرض بمقدار ٢٥سم، وبينما تتابع تساقطه قطعاً كبيرة وكثيفة بدأ الأب سيرافيم يحدثني. جعلني أجلس إلى جانبه على قطعة من جذع شجرة، كان قد قطعها للتو. وجلس مقابلي وكنا بالقرب من منسكه فوق التلة المنتهية أطرافها عند ضفة نهر ساروف.

قال الستارتس الكبير: قد كشف لي الرب أنك منذ أعوام حداثتك كنتَ ترغب أن تعرف ما هو هدف الحياة المسيحيّة، وقد سألت الكثيرين ومرات عديدة شخصيات روحية عظيمة.

أجبتُ: بالحقيقة منذ أن كان عمري اثني عشر عاماً كان هذا الفكر يشغلني بشكل لا ينقطع، وكنت قد توجهت إلى أناس روحانين كثيرين ولم تكن إجابتهم ترضيني تماماً.

نعم، أكمل الأب سيرافيم. لم يعطك أحد جواباً قاطعاً. كانوا يقولون لك: انتبه إن هدف الحياة المسيحيّة هو أن تذهب إلى الكنيسة، وأن تصلي لله، وأن تحفظ وصاياه، وأن تصنع الخير. البعض تضجروا منك وكانوا يقولون: إنك منشغل بفضول لا يرضي الله ثم يكملون. «لا تطلب أشياءً فوق طاقتك». ولكن لم يعطك الجوابَ الصحيح أيّ منهم. هأنذا إذاً الفقير سيرافيم، سأفسّر لك ما هو بالحقيقة هدف الحياة المسيحيَّة؟

إن الصلاة، والصوم، والسهر وكل عمل مسيحيّ صالح مهما كان جيداً بحد ذاته لا يشكل هدف الحياة المسيحيَّة، ولكنه ينفع كأداة لتحقيقه. إنَّ الهدف الحقيقي للحياة المسيحيَّة هو امتلاك الروح القدس.

الأعمال الصالحة

يجب أن تعرفوا، يا عزيزي، أنَّ العمل الصالح يجلب ثمار الروح القدس فقط عندما يتمّ لأجل المسيح.

نعم إن العمل الصالح حتى ولو لم يحدث لأجل المسيح لا يفقد كونه صالحاً. يقول الكتاب: « بل في كلِّ أمَّةٍ الذي يتقيه ويصنع البر

مقبول عنده » / أع ١٠: ٣٥ /. كم يرضي الله، الإنسان الذي يصنع العدل، ويظهر هذا من قصة كورنيليوس قائد المئة في الرواية الإنجيليَّة. كان كورنيليوس خائفاً لله وكثير الإحسان. لهذا بينما كان يصلي ظهر ملاك الرب وقال له «أرسل إلى يافا واستدعِ سمعان المدعو بطرس، إنه مضاف في بيت سمعان الدبّاغ ... فهو متى جاء يكلمك» / أع ١٠: ٣٢ / تكلَّم بطرس مع كورنيليوس عن الحياة الأبديَّة وآمن مع كل بيته.

يستعمل الرب كل وسائله الإلهية ليتيح فرصةً لإنسانٍ كهذا أن لا يحرم من الغبطة الأبديَّة كأجرةٍ على أعماله الصالحة.

نستنتج من هذا المقطع الإنجيلي أن الرب، فيما يخص الأعمال الصالحة غير الصائرة لأجله، يحدد موقفه بأن يعطينا الوسائل لكي نحسِّنها. وعلينا نحن يتوقف تحسينها أم لا. انتبه ماذا قال الرب لليهود؟ قال لهم يسوع «لو كنتم عمياناً لما كانت لكم خطيئة. ولكن الآن تقولون إننا نبصر فخطيئتكم باقية » / يو ٩: ٤١ /.

إذن عندما يعمل شخص ما الصلاح لا لأجل المسيح كما فعل كورنيليوس في البدء، وبعد ذلك يؤمن به، عندئذٍ أعماله الصالحة تصبح كما لو صارت لأجل المسيح ولكن إذا لم يؤمن بالمسيح لا يكون عنده الحق بأن يحتج لأن أعماله لا تثمر. لأن العمل الصالح يصبح نافعاً فقط عندما يصير لأجل المسيح، وعندئذٍ يؤمِّن لنا في الحياة الآتية إكليل العدل، وفي الحياة الحاضرة يملؤنا بنعمة الروح القدس. وكما كتب «لأن الله لا يعطي الروح بمكيالٍ» / يو ٣: ٣٤ /.

هكذا إذن يا محب الله. إن هدف الحياة المسيحية هو امتلاك روح الله: الصلاة والسهرانية والصوم والرحمة والأعمال الصالحة التي تتمّ لأجل المسيح هي فقط وسائط لامتلاك الروح القدس.

ماذا يعني امتلاك؟ سألت الستارتس. لأنني لم أستطع أن أفهم.

أجاب ذاك: امتلك يعني، اجمع، احشد. هل تعلم ماذا تعني امتلك مالاً. الشيء نفسه يصح في امتلاك روح الله. هل تفهم أهميَّة كلمة

«أمتلك» بمعناها الدنيوي. إن هدف الناس العاديين، هو امتلاك المال بينما يعني للنبلاء – إضافة للمال – امتلاك الوجاهة والإكرام والألقاب وأجور أخرى لأجل خدمتهم في الدولة.

إن امتلاك الروح القدس هو الشيء نفسه. والفرق الوحيد أنه مبارك وأبدي يمتلك بالوسائل نفسها تقريباً كما رأس المال أو السلطات المتنوعة.

إنّ كلمة الله، يسوع المسيح، الإله الإنسان قد شبَّه حياتنا بالسوق، وشبَّه أعمالنا بالبضائع المتاجر بها، وقال لنا «تاجروا حتى آتي» /لو ١٩: ١٣/. «افتدوا الوقت لأنّ الأيام شريرة» /أف ٥: ١٦/ أي استغلوا زمانكم حتى تمتلكوا السماويات بالخيرات الأرضيَّة. المتاجرات الأرضيَّة هي الأعمال الصالحة التي تصنع لأجل المسيح وتؤمِّن نعمة الروح القدس، وبدون هذا لا يوجد خلاص.

الروح القدس يسكن وحده في نفوسنا ولكن لكي يسكن ويبقى مع روحنا يجب أولاً أن نجاهد بكلّ قوانا لكي نمتلكه، عندئذٍ سيجهِّز مسكنه في نفوسنا وفي جسدنا بحسب قول الرب الذي لا يحنث «وأجعل مسكني في وسطكم، ولا تسأم نفسي منكم، وأسير في وسطكم، وأكون لكم إلهاً وأنتم تكونون لي شعباً» /لاويين ٢٦: ١٢/.

الصلاة

كلّ فضيلة تتمُّ لأجل المسيح تعطينا نعمة الروح القدس بازدياد. لكنَّ الصلاة تعطينا هذه النعمة أكثر من كلّ الفضائل لأنَّ هذه موجودة دائماً بين أيدينا كسلاح روحي سهل الاستعمال. على سبيل المثال هل تريدون الذهاب إلى الكنيسة، ولكن الكنيسة لا توجد أو من الممكن أن تكون الصلاة قد انتهت. هل تريدون أن تعطوا شيئاً لطالبٍ يمكن أن لا يكون معكم شيء لتعطوه. من الممكن أنكم تريدون الحفاظ على العفة، ولكن إما بسبب تكوينكم أو بسبب ضغوطات حيل العدو التي بالتطابق مع ضعفكم لا تترككم تقاومون لتتموا رغبتكم. هل تريدون أيضاً أن تعملوا فضيلة أخرى لأجل المسيح، ولكنكم لا تملكون

قوَّة أو لا تمنحون الفرص المناسبة؟

أما مع الصلاة فلا يحدث هذا، فالفرصة متوفرة لها دائماً، وإمكانية إقامتها متاحة لكل واحد. للغني والفقير، للقوي والضعيف، للمهم وغير المهم، للمعافى وللمريض. للصدِّيق والخاطئ. إن قوة الصلاة عظيمة. هذه تمنحنا موهبة الروح القدس أكثر من كل شيء. ويمكن لأي شخص أن يتمِّمها بشكلٍ أسهل من الفضائل كلّها، وبالصلاة نصبح مستحقين أن نتحاور مع الله الكلي الصلاح ومخلِّصنا. ولكن يجب أن نصلي فقط حتى يزورنا الله، والروح القدس بنعمته بالمستوى الذي يعرفه هو. وعندما يسرُّ هو بزيارتنا آنئذ يجب أن نوقفَ الصلاة، فلماذا نقول له « تعال واسكن فينا» طالما أنه صار موجوداً داخل نفوسنا؟.

الفضائل الأخرى

حتى الآن يا أبتِ تكلمتم فقط عن الصلاة، ماذا تقولون في الفضائل التي تعمل لأجل المسيح والحصول على الروح القدس؟

يمكنكم أن تحصلوا على نعمة الروح القدس بكلّ الفضائل الأخرى التي تعمل لأجل يسوع المسيح. تاجروا بالفضائل تلك التي تعطيكم ربحاً أكثر. جمِّعوا رؤوس أموال من أرباح النعمة المباركة واكنزوها في صندوق المال الأبدي والذي سيقدِّمُ لك أرباحاً على كل رويل روحي ليس فقط ٤٪ أو ٦٪ بل ١٠٠٪وأضعافاً ليس لها حصر.

على سبيل المثال، إذا كانت الصلاة والسهرانية تعطيكم أكثر، فصلّوا واسهروا. وإذا كان الصوم يعطيكم أكثر فصوموا. وإذا كانت الحسنة تعطيكم أكثر أعطوا الحسنات. بالشيء ذاته فكروا في كل فضيلة تتمُّ لأجل المسيح.

هكذا تاجروا بالفضائل روحياً وبعد أن تمتلكوا بهذه الطريقة نعمة الروح القدس وزعوها على كل الذين يحتاجونها وتمثَّلوا بمثل الشمعة

الموقدة. فهي بالرغم من أنها منارة بنور أرضي تشعلُ شمعاتٍ أخرى وتضيء أماكنَ أخرى من غير أن ينقص نورها. إذا كان هذا ما يحدث بالنور الأرضي فماذا تقول عن نور نعمة روح الله الكلي قدسه؟

التعرف بالحواس

يا أبت تكلمتم مطوّلاً عن امتلاك نعمة الروح القدس كهدف الحياة المسيحيَّة.

ولكن كيف وأين يمكنني أن أراه؟ إن الأعمال الصالحة ظاهرة. ترى هل يمكنني أن أرى نعمة الروح القدس؟ كيف يمكنني أن أعرف إذا ما كان الروح القدس معي أم لا؟

أجاب الستارتس: في أيامنا تعمّ برودة روحيَّة نحو الإيمان المقدَّس بيسوع المسيح، ولا مبالاة بما تفعله النعمة الإلهية لكي تقرِّبنا منه. إن البرودة واللامبالاة قد أبعدتانا غالباً عن الحياة المسيحيَّة الحقة. إن قول الكتاب يبدو لنا الآن مستغرباً. على سبيل المثال الشيء الذي ذكره النبي موسى عن الأبوين الأولين «سمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنَّة... » /تك ٣: ٨ /. أو أقوال الرسول بولس «فلم يدعهم الروح أن يتكلموا في آسيا وللوقت طلبنا أن نخرج إلى مكدونية، متحققين أن الرب قد دعانا لنبشرهم»/ أع ١٦: ٧ – ١٠ /.

باستمرار يذكر ظهورُ الربِّ لأناسٍ في أماكن أخرى من الكتاب المقدّس. هذا هو السبب الذي بناءً عليه يؤكد بعض الناس فيقولون: «إن هذه المقاطع غير مفهومة. كيف يمكن للناس أن يروا الله بعيونهم؟» لا يوجد شيء مفهوم هنا. إن الصعوبة تتأتى من أننّا قد ابتعدنا عن بساطة المعرفة المسيحية الأولى. وبحجة المعرفة العلمية الواهية دخلنا في مثل ظلام الجهل هذا، لدرجة أن هذه المقاطع تبدو لنا غير مفهومة بينما كانت بالنسبة للقدماء سهلة الفهم جداً وحتى في حواراتهم اليوميَّة لم يكن معنى ظهور الله لهم شيئاً مستغرباً. هؤلاء الناس لم يعاينوا الله ونعمة الروح القدس في نومهم ولا في خيالاتهم ولا في حالة من الدهش

المرضي والخيالي، ولكن عياناً وحقيقة. وللأسف لقد أصبحنا الآن غير مبالين كثيراً بخلاصنا. نتج عن ذلك أن نعطي شرحاً غير صحيح للكثير من المقاطع الكتابيَّة. هذا الشيء يحدث لأننا لا نطلب نعمة الله ولا نسمح لها بسبب كبريائنا أن تسكن في نفوسنا. هذا هو الشيء الذي بسببه لا نملك استنارة حقيقيَّة. إن الرب يرسل نوره فقط إلى القلوب التي بكلِّ قوَّتها تشتهي وتعطش للحقيقة.

النعمة الإلهية في الأســـرار

يحصل المسيحيون على نعمة الروح القدس بواسطة سرّ المسحة، عندما يمسحون في المواضع المهمة من الجسد كما تحدد كنيستنا المقدَّسة الحارس الأبدي لهذه النعمة.

يرد في سرِّ المسحة «ختمُ موهبة الروح القدس» ونحن الترابيين _ يا محبَّ الله _ نضع ختمنا بأوعية تخبئ شيئاً ثميناً جداً. لكن ما هو الأثمن من مواهب الروح القدس التي تعطى لنا من العلى من خلال سرّ المعموديَّة؟

لو لم نكن قد أخطأنا كلياً بعد معموديَّتنا لكنا بقينا قديسين إلى الأبد. طاهرين وأنقياء من كل دنس جسدي وروحي ولكنّا مرضيِّن لله. ولكن للأسف إذ نزداد في السن لا نزداد بالنعمة والحكمة كما يسوع المسيح بل بالعكس لأننا نفسد شيئاً فشيئاً ونخسر النعمة ونخطئ بخطايا متنوعة وثقيلة.

إذا حرِّك شخص بحكمة الله وقرَّر أن يكرِّس حياته له، يجب أن يتوب حقيقة عن كل خطاياه وأن يتوجه إلى الفضائل. وبإتمامه لهذه الفضائل سيحصل على الروح القدس الذي يعمل فينا ويثبِّتُ ملكوت الله.

إن نعمة الروح القدس التي تعطى في سرِّ المعموديَّة على اسم الثالوث القدوس تضيء في قلوبنا كضوء المسيح الذي لا يغرب. تضيء فينا بالرغم من كلِّ خطايانا وسقطاتنا. تضيء بالرغم من كل الظلام

الذي يحيط بأنفسنا. عندما يتبع الخاطئ طريق التوبة يبيدُ الروحُ القدس آثارَ خطاياه، ويلبسُ المذنبَ سابقاً البدلةَ التي لا تبلى المنسوجة بنعمته، التي لأجل امتلاكها كهدف للحياة المسيحية أكلّمك كل هذا الوقت.

النور غير المخلوق

كما قلنا سابقاً، إن نعمة الروح القدس نور يضيء للإنسان. كان الرب يظهر باستمرار وأمام شهود كثيرين عمل نعمة الروح القدس في الناس الذين كان قد أنارهم وقدَّسهم. تذكَّر موسى بعد الحوار الذي كان له مع الله على جبل سيناء. لم يكن باستطاعة الناس أن يواجهوه لأنه كان يشع بنور غير اعتيادي، كان قد جلبه. فاضطرَّ أن يظهر للشعب بوجه مغطى.

تذكر أيضاً التجلي الإلهي للمخلص على جبل ثابور «وصارت ثيابه بيضاء براقة كالثلج» / مر ٩: ٣ / «ولما سَمِعَ التلاميذ سقطوا على وجوههم وارتاعوا جداً» / مت ١٧: ٦ /. ولما ظهر إلى جانبه موسى وإيليا «غطتهم سحابة منيرة » إذاً، نعمة الروح القدس تظهر «بنور لا يوصف ».

كيف يمكن – سألت الأب – أن أدرك أنني موجود في نعمة الروح القدس.

أجابني: إنه لشيء سهل. يقول الرب إنَّ هذه الأشياء كلها بسيطة لأولئك الذين عندهم المعرفة. كان الرسل يملكون هذه المعرفة. ولهذا كانوا دائماً يفهمون إذا ما كان الروح القدس معهم أم لا. مملوئين بالنعمة إذاً ومعاينين لحضور الروح القدس في داخلهم. كانوا يقولون بثقة إن عملهم مقدس ومرضٍ لله من كل جهة. وهكذا يفهم لماذا كتبوا في رسائلهم «لأنه قد رأى الروح القدس ونحن»/ أع ١٥: ٢٨ / وبهذه الشروط كانوا يعرضون رسائلهم كحقيقة لا غشَّ فيها لمنفعة كل المؤمنين. إن الرسل القديسين شعروا حسّياً في داخلهم بحضور روح الله. انتبه إذاً، يا حبيبي إنَّ الشيء بسيط.

موتوبيلوف: مع كل هذا لا أفهم كيف يمكنني أن أكون متأكداً كلياً أنَّني موجود في نعمة الروح القدس؟ كيف يمكنني أن أدرك حلوله الحقيقي ؟.

لقد قلت لكَ من قبل، يا محبَّ الله، إنه شيء بسيط وقصصت عليك بالتفصيل كيف يوجد الناس في الروح القدس، وكيف يجب أن نفهم حضوره في داخلنا، إذاً أيَّ شيءٍ تريد؟

أجبت:أريد أن أفهمه بشكل حسن جداً.

عند ذلك أمسكني الأب سيرافيم بقوة من كتفيّ وقال لي:

الآن كلانا موجودان في الروح القدس. ألا تراني؟

لا أستطيع أن أنظر إليكم لأن اشعاعاتٍ تخرج من عينيكم. لقد صار وجهكم أشدَّ بريقاً من الشمس وعيناي تؤلمانني.

لا تضطرب. إنك أنت الآن نيِّر كما أنا، وأنت أيضاً موجود في ملء الروح الإلهي. وإلا لما كان بإمكانكَ أن تراني في هذه الحالة. وانحنى ببطء وهمس في أذني.

اشكرِ اللهَ على رحمته لك، التي لا يعبَّرُ عنها. من الممكن أن تكون قد انتبهت أنني لم أرسم إشارة الصليب، صليت فقط عقلياً بقلبي وقلت:

«يارب، أهِّله أن يرى عياناً بعينيه الجسديَّتين انحدار روحكَ الذي به تجعل عبيدك مستحقين. عندما تسرُّ أن تَظْهَرَ لهم بنور مجدك العظيم ». وها أن الرب يا عزيزي قد استجاب طلبة البار سيرافيم، الوضيعة. كيف لا نكون ممتنِّين له كلانا لهذه الموهبة المجّانية التي لا يعبَّرُ عنها. نادراً ما يُظهرُ الربُّ رحمته بهذا الشكل حتى للنساك الكبار. هذه النعمة كأمٍّ حنون ارتضت أن تعزي قلبك بعد وساطة والدة الإله ذاتها. ولكن لماذا يا حبيبي لا تحدِّق في عينيَّ؟ تطلعَّ إليَّ ولا تخف. إن الرب معنا.

بعد هذه الأقوال ألقيت نظرةً على وجهه فأصابني وجل أشد. تخيل أنك تتحاور مع إنسان عند الظهيرة، معرضاً لأشدّ إشعاعات الشمس حرارة. وتنظر إليه بعينيك. ترى شفتيه تتحركان وتنظر تعبير عينيه

المتبدِّل. تسمع صوته وتشعر بأن شخصاً ما يمسك بك من كتفيك ولكن لا تعاين يديه ولا شكله حتى ولا نفسك. ترى فقط نوراً مبهراً ينسكب من حولك على بعد خطوات، ويهب بريقه لطرحة الثلج التي تغطي الأرض التي لا شجر فيها، ولندفات الثلج المتساقطة عليَّ وعلى الستارتس العظيم. من غير الممكن لأيٍ كانٍ أن يتخيَّلُ تلك الحالة التي كنت فيها آنذاك.

ثمار الروح

كيف تشعر الآن ؟ سألني الأب سيرافيم

بسرور عظيم !

قل لي بتحديد أكبر بماذا تشعر ؟

أشعر بهدوء وسلام في نفسي، لا يمكنني أن أعبِّر عنهما بأي وصف.

هذا، يا محبَّ الله، إنه ذلك السلام الذي تحدَّثَ عنه الرب لتلاميذه «سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم» / يو ١٤: ٢٧ /. «لأنكم لستم من العالم ولكن أنا اخترتكم من العالم ولهذا يبغضكم العالم » / يو ١٥: ١٩ /. « لكن ثقوا، فقد غلبت العالم» / يو ١٦: ٢٣ /. لهؤلاء الناس المبغوضين من العالم، ولكنهم مختارون من الله. يعطي المسيح الرب هذا السلام الذي تشعر أنت به الآن في داخلك، هذا هو «سلام الله الذي يفوق كلَّ عقل» / فيليبي ٤: ٧ / بحسب قول الرسول.

بأيِّ شيءٍ آخر تشعر ؟

أجبت، بحلاوة غير اعتياديَّة.

المقصود الحلاوة التي يتحدَّث عنها المرنّم « يروَوْنَ من دسم بيتك ومن نهر نعمك تسقيهم» / مز ٣٥: ٨ /. هذه العذوبة تملأ الآن شراييننا بسرور لا يوصف. إن قلوبنا تكاد تنحلّ من هذه العذوبة.إننا معاً نشعر بسعادة كبيرة لا يمكن لأي لسان أن يعبِّرَ عنها.

بماذا تشعر أيضاً ؟

بفرح غير اعتيادي يملأ قلبي.

أكمل الأب. عندما ينحدر الروح القدس على الإنسان و يحيطه بكمال فاعليته، عندئذٍ تمتلئ نفس الإنسان بفرح لا يوصف. لأن الروح القدس حيثما يحلُّ يجعل الأشياء مبهجة. «عندما تتمخض المرأة، تحزن لأن ساعتها قد أتت، ولكنها عندما تلد الطفل لا تعود تتذكّر شدتها بسبب الفرح، إذ أن طفلاً قد جاء إلى العالم. وأنتم الآن تحزنون وستروننني ثانية و تبتهج قلوبكم، و لا يمكن لأحد أن ينتزع فرحكم ». / يوحنا ١٦: ٢١– ٢٢ /. ومهما كان الفرح الذي تشعر به الآن في قلبك معزياً لايعتبر شيئاً بالمقارنة مع الفرح الذي أعده الله «للذين يحبونه» مع كل تلك التي «لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم تخطر على قلب بشر» / ١ كو ٢: ٩ /. الآن يوهَبُ لنا عربون هذا الفرح. وإذا كنا الآن نشعر بحلاوة كهذه وسعادة في قلوبنا. فماذا سنقول في ذلك الوقت عن ذلك الفرح الذي أعدَّ في السموات لكلِّ الذين يتعبون على هذه الأرض ؟ وأنت يا حبيبي يكفيك ما احتملته على هذه الأرض. لكن أنظر الآن بأي فرح يعزيك الرب حتى في هذه الحياة ! بماذا تشعر أيضاً ؟

أجبت: بحرارة غير اعتيادية.

لكن كيف يا حبيبي ؟ إننا جالسون في زمن الشتاء في حديقة القلاية ضمن الغابة، نقف على الثلج. وندفاته تتساقط باستمرار من السماء وقد علتنا ب ٥ سم فما هو الدفء الذي تشعر به؟.

أشعر بدفء كالذي يسود داخل حمامٍ عندما يرمون ماءً بارداً على خزان الماء الساخن ويبدأ البخار بالتصاعد .

لربما شعرت برائحته – سأل الستارتس

أجبت. لا يوجد فوق الأرض رائحة مشابهة. حتى عندما كانت والدتي على قيد الحياة إذ كنت أحب الرقص و كنت أذهب إلى النوادي الليليَّة، كانت تنضحني بالطيوب التي كانت تشتريها من أفضل محال الموضة في مدينة قازان. ولكنها لم تكن تعطيني مثل هذه الرائحة.

أعرف ذلك، إنه هكذا، بالضبط كما تقول، و سألتك عن قصد لكي

أرى إن كنت أنت أيضاً تشعر بالشيء نفسه. بالحقيقة إن أطيب العطور فوق سطح الأرض لا يمكن أن تقارن بهذه الرائحة التي نشعر بها الآن لأن طيب روح الله يملؤنا، فأي عطرٍ أرضي يمكن أن يقارن بها؟

لقد قلتَ لي: إن دفئاً موجوداً حولنا كما في الحمام. ولكن انظر. فالثلج الذي فوقنا لا يذوب بينما يستمر بالتساقط من السماء. وهذا يعني أن الدفء غير موجود في الهواء ولكن في داخلنا. إنه الدفء الذي يحمسنا به الروح القدس أن نبتهل إلى الرب لأجله «بدفء روحك القدوس أدفئني» بهذه يستدفئ النساك، ولم يهتموا رجالاً ونساءً لجليد الشتاء. إذ كانوا يشعرون وكأنهم لابسين فروات دافئة. و هذا ما يحدث لنا الآن، لأنّ النعمة الإلهيّة ترتاح فينا كما يقول الرب «إن ملكوت الله في داخلكم » / لو ١٧: ٢١ / ويعني الرب بقوله «ملكوت» نعمة الروح القدس.

ملكوت الله

إن ملكوت الله موجود في داخلنا الآن وينيرنا خارجياً ويدفئنا ويملأ الهواء المحيط بنا بكل أنواع الطيوب. ويسعد حواسَّنا بالسرور السماوي، و يملأ قلوبَنا بفرح لا يعبَّرُ عنه. وعن الحالة التي نحن فيها الآن يقول الرسول بولس «إن ملكوت الله ليس طعاماً أو شراباً و لكن براً و سلاماً و فرحاً بالروح » /رو ١٤: ١٧/ إن إيماننا يتشكّل «لا بإقناع حكمة الأقوال العالميّة و لكن ببرهان الروح و القوة » /١ كو ٢: ٤ /.

في هذه الحالة بالضبط نحن موجودون الآن و عنها قال المسيح بشكل خاص «إنّ بعضاً من الواقفين هنا لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله آتياً بقوّة »/ مر ٩: ١ /.

انتبه إذاً يا عزيزي للفرح العظيم الذي أهلنا الرب أن نختبر الآن، ما يعني أن نوجد في ملءِ الروح القدس. كتب القديس مرقص المصري في مكانٍ ما، مايلي « كنت موجوداً أنا نفسي في ملء الروح القدس» بكمال الروح القدس. بهذا الكمال ملأنا الرب نحن الفقراء أيضاً. أعتقد أنه لا يوجد سبب آخر لتسأل، كيف يوجد الناس في نعمة الروح القدس؟ هل

ستذكر رحمة الله التي ظهرت لنا اليوم؟

لا أعرف يا أبت إذا جعلني الله مستحقاً لأتذكَّرَه بهذه الحيويّة والنقاء كما أشعر به الآن؟

قال الستارتس: أنا أعتقد أن الرب سيساعدك لتحتفظ إلى الأبد بهذا الظهور في ذاكرتك وإلا فما كان صلاحه ليستجيب لطلبة الفقير سيرافيم المتواضعة بهذه السرعة. لأن هذه المعرفة لم تعط لك وحدك و لكن لكل العالم حتى تثبت أنت أيضاً في طريق الله و تنفع الآخرين.

يجب أن لا تفكّر كيف حدث هذا لكلينا، أنا الراهب وأنت العلماني. إن الرب يطلب إيماناً مستقيماً به و بابنه. ويقدّم من السماء نعمة روحه القدوس بغزارة. إن الروح القدس يطلب قلباً مفعماً بالحب لله و للقريب. هذا هو المكان الذي فيه يستريح و يظهر الرب بملء مجده السماوي.

«يا بنيّ أعطني قلبك» / أمثال ٢٣: ٢٦ /. يقول لنا الرب و هو يعد بأن يعطينا كلّ شيء. يطلب الرب قلوبنا لأنه يريد أن يجعل فيها عرش مملكته «إن الرب قريب من كلّ الذين يدعونه بالحق »/ مز ١٤٤: ١٨ /.

إن الرب يسمع بالمستوى نفسه للراهب و للعلماني، ويكفي أن يكون الاثنان مستقيمي الرأي و يحبان الله من أعماق نفسِهما و أن يملكا الإيمان به و لو بمقدار حبة الخردل. و إذا ما تحققت هذه الأشياء عندئذٍ كلّ واحد منهما يحرّك الجبال «الواحد يطرد الآلاف و الاثنان يهزمان عشرات الآلاف»/ تثنية الاشتراع ٣٢: ٣٠ /.

يقول الرب ذاته «كل شيء ممكن للمؤمن»/ مر ٩: ٢٣ /. بينما الرسول بولس يصرخ «أستطيع كلّ شيء في المسيح الذي يقوّيني»/ فيلبي ٤: ١٢ /. يقول الرب لكل المؤمنين به «إن المؤمن بي يعمل الأعمال التي أعملها ويعمل أعظم منها» /يوحنا ١٤: ١٢/. «حتى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي اطلبوا تأخذوا، لكي يكمل فرحكم» /يوحنا ١٦: ٢٤/.

إذن يا محب الله كل ما تطلبه من الرب ستناله. يكفي أن يكون ما تطلبه لمجد الله أو لمنفعة القريب، لأن الرب يقبل منفعة القريب كما

لمجده. و لهذا يقول «بما أنكم فعلتم هذا لأحد أخوتي الصغار هؤلاء البسطاء فبي قد فعلتم»/ مت ٢٥: ٤٠ / لا تشك إطلاقاً إذا ما كان الرب سيكمل طلباتك، يكفي كما قلنا أن تقام لمجد الله و منفعة القريب.

ولكن حتى لو طلبت شيئاً لمنفعتك الشخصيّة أو لحاجتك فسيعطيك الله إيّاها بسرعة، و يكفي أن يكون الشيء ضرورياً لك. لأن الربَّ يحبُّ الذين يحبّونه و هو صالح للكل «يحقق رغبة خائفيه و يستمع لطلبتهم» / مز ١٤٤: ١٩ /.

الفصل الخامس عشر

احتفلات إعلانم قديسا

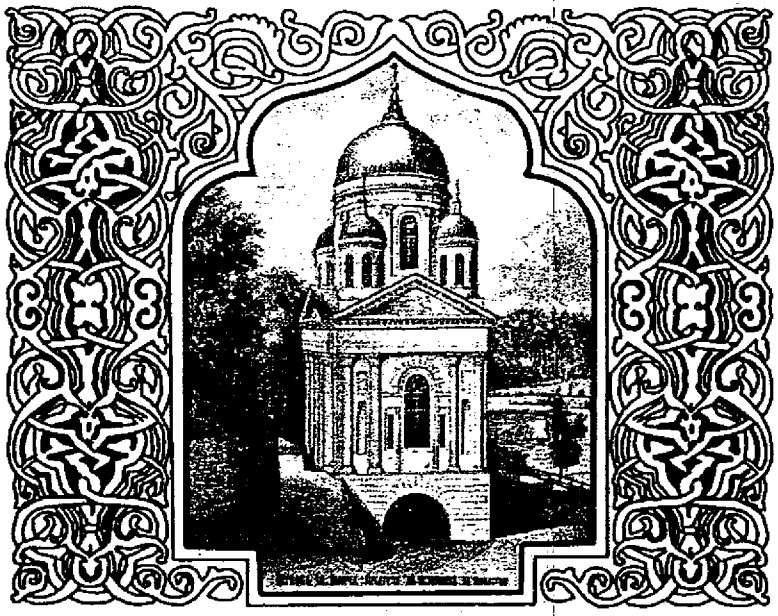

تاريخ نقل الرفات

في ٣ تموز ١٩٠٣ م وصل إلى بريَّة ساروف متروبوليت بطرسبرغ أنطونيوس يرافقه كلٌّ من أسقف نيزنكورد نزاريوس، وأسقف تامبوف الجديد إينوكنديوس. وهناك تهيؤوا دون تأخير لنبش القبر ونقل رفات البار سيرافيم المقدَّسة من مكان دفنه الأوّل إلى كنيسة القديسين زوسيما وسفاتيوس.

في صباح اليوم ذاته أقيم في كاتدرائية الدير قداس إلهي لأجل راحة نفس المتوحد المغبوط سيرافيم. وكانت الكاتدرائية غاصة بالناس.

في الوقت نفسه وببركة المتربوليت أنطونيوس ومتابعة الأسقفين نزاريوس واينوكنديوس بدأت الأعمال الأولية في الكنيسة الصغيرة

المبنيّة فوق قبر البار. وبعد أن رفعوا الغطاء المنسوج بالفضة والبلاطات من مرمر سحبوا النعش برفات البار المكرّمة، إلى وجه الأرض.

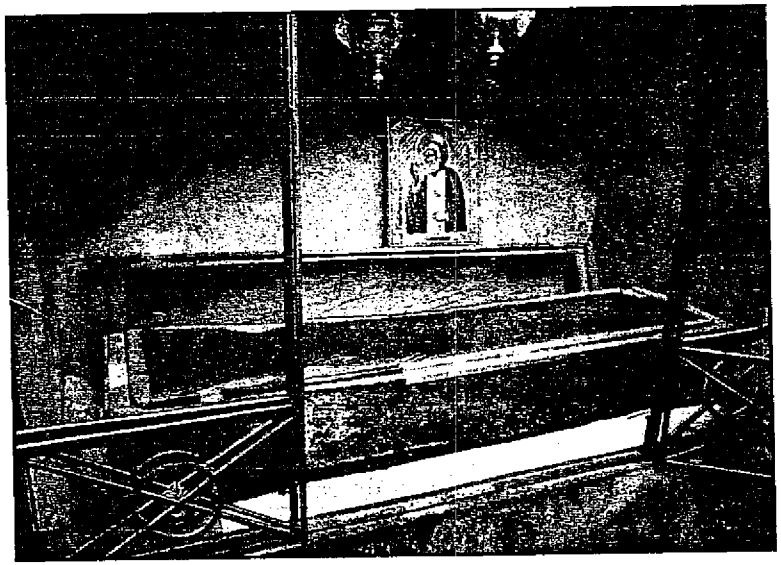

نعش البار من خشب السنديان

بعد القداس الإلهي توجه المتروبوليت بموكب إلى القبر حيث أقام ذكرانية لأجل راحة نفس البار، وبعد ذلك رفع الكهنة النعش على أكتافهم وتوجهوا نحو كنيسة القديسين زوسيما وسفاتيوس والموجودة ضمن أسوار الدير. تبعهم المتروبوليت والأسقفان وجمهور كثيف، بِوَرَعٍ عميق.

وضع النعش في منتصف الكنيسة. وبعد ترجيات قلبية وإصرار استطاع الزوار أن ينتزعوا من المتروبوليت البركة ليقتربوا قليلاً من البقايا المقدّسة. ولفترة طويلة استمرَّ تدفقهم إلى الكنيسة، يزحمُ بعضهم بعضاً محتشدين حول النعش ليروا ويسجدوا لرفات البار الجزيلة الإكرام.

عندما خرج الناس من الكنيسة رفع الآباء المتوحدون النعش على أكتافهم ودخلوا إلى الهيكل من الباب الشمالي. هنا وضع المتروبوليت والأسقفان الرفات في صندوق مصنوع من خشب السرو بمساعدة بعض

الإكليريكيين.

شعر كل الذين كانوا في ذلك الوقت برائحة طيب قويَّة تفوح من

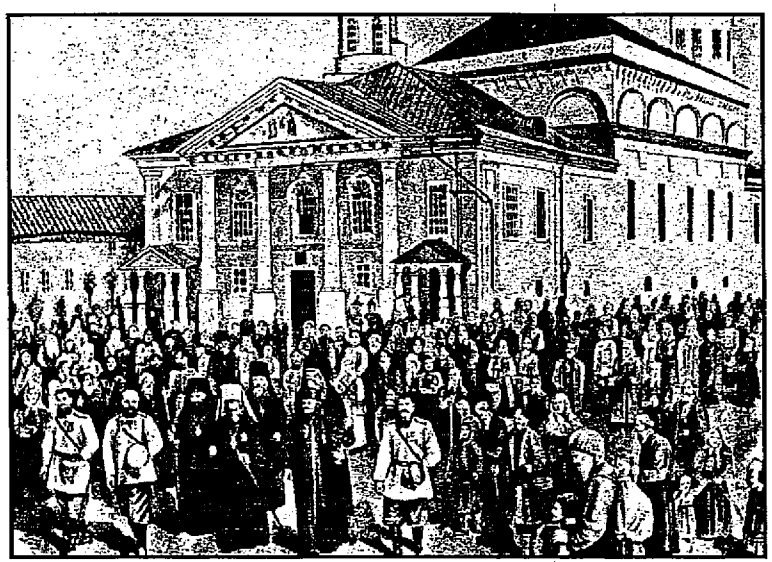

قدوم مطران بطرسبورغ أنطونيوس
مع الرسميين الآخرين للاحتفال بالأعياد

الرفات، لا تقارن بالروائح العطريَّة المعروفة. ووضعوا الصندوق في علبة خشبية مغطاة بالجلد كانت قد أعدت لهذا السبب ونقلوها إلى وسط الكنيسة.

بقي الهيكل من تلك الساعة مغلقاً أمام الزوّار حتى يوم احتفالات نقل الرفات وإعلان الستارتس قديساً بشكل رسمي.

كان تقاطر المؤمنين إلى دير ساروف يزداد يومياً وبتصاعد عظيم. كانوا يفدون من كل حدب وصوب، من سيبيريا والقوقاز ومن مناطق روسيَّة بعيدة وقريبة. كلهم عطاش للسجود للقديس الجديد لكي يتحننَ عليهم ويتعزوا به.

في الأيام الأخيرة قدَّم البار سيرافيم بغزارة مساعدته للذين كانوا

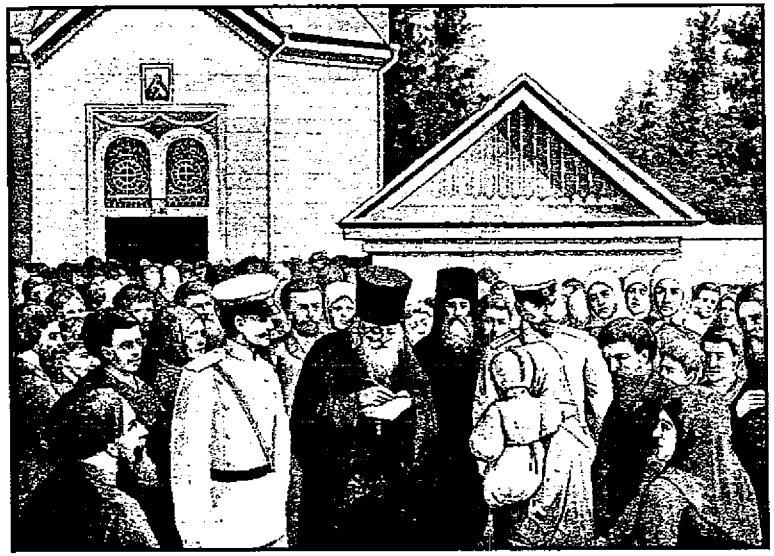

إحصاء عجائب البار

يتضرّعون إليه بالإيمان. وفي الأسبوعين الأخيرين ثبتت في دير ساروف صحة أكثر من عشرين إقراراً لمرضى، نالوا الشفاء بشفاعات البار. وإقرارات لحالات شفاء مماثلة مسجلة في دير سيرافيم ديفاييفو.

احتفالات التهيئة

بعد نقل رفاة البار سيرافيم المقدّسة إلى الصندوق الجديد غادر المتربوليت أنطونيوس دير ساروف لبعض الوقت.

في هذه الفترة كانت الأعمال المتنوعة تنجز بسرعة كبيرة. فقد بنيت لخدمة الزوّار مدينة كاملة، تبعد فرسخين عن سور الدير، حوت أكثر من مائة قاعة واسعة وأعدّ أيضاً سوقٌ ، صفاً كاملاً من حوانيت الطعام.

على الرغم من أن الأعياد كانت ستتأخر لأكثر من أسبوع فقد كانت المدينة الصغيرة غاصّة بالمؤمنين، وكثيرون من الزوّار قطنوا في المهاجع. الرجال مفصولون عن النساء. فقد أضفى هؤلاء الأتقياء

المرضى عند البئر

البسطاء الذين قدموا إلى ساروف ليتمتعوا بالاحتفالات الروحيّة، جواً من المهابة و الروعة.

قدمت وفود تمثلُ كل الشعوب في روسيا العظيمة، و أغلبهم من الروس القاطنين في وسط روسيا حول موسكو. وجاء أيضاً روس من سكان جنوب غرب روسيا وغالبيتهم من الأوكرانيين. وقد وفد أيضاً كثيرون من شمال غرب روسيا من الروس البيض، ومن القبائل الهنغارية القاطنة في شرق فنلندا (كاريليا)، وآخرون قدموا من جبال الأورال، والبقية من قبائل أخرى مختلفة.

كل هؤلاء الناس الذين كانوا سيعيشون في بيوتهم، بعيدين عن بعضهم البعض، وبحالات مختلفة، بدوا هنا وكأنهم يعيشون كعائلة واحدة، يدفعهم شوق مشترك وهو أن يسجدوا لرفات البار سيرافيم المقدّسة، ثم ليصلّوا أمامه صلاة قصيرة حارة لتجد نفوسهم راحة وتعزية.

لقد قدم الكثيرون من الزوار ليطلبوا من البار شفاءهم الجسدي. في كل خطوة كنت تلتقي بمشلولين ومرضى آخرين. وكثيرون من هؤلاء قد شفوا بإيمانهم. ودائماً كنت تسمع بحدوث شفاءات، ولم تكن تسمع فقط وإنما كنت ترى الذين تعافوا ممجدين الله وشاكرين البار.

جرت العجائب بلا انقطاع عند بئر البار سيرافيم. ففي يوم واحد شفي أكثر من عشرة مخلّعين، والذين لتأكيد شفائهم العجائبي حرقوا أدواتهم أمام جمهور من الناس على ضفة نهر ساروفكا.

كانت الحادثة التالية مؤثرة. كان صبي أعمى، أتى به والداه من بعيد، قد اغتسل في بئر البار وصار يبصر. ومن شدة فرحه أخذ يجري في كلّ مكان وتبعه جمهور من الزوار راكضين. ومتأثرين بعمق من العجيبة المدهشة.

تبعت ذلك حادثة ثانية: كانت امرأة محاطة بالناس وكان معها ابنها ذو عشر السنوات. كانت قد قدمت من منطقة إينيسن وبيدها شهادة أن الولد أخرس منذ مولده. وبعد الاغتسال في بئر البار سيرافيم تكلّم الولد فجأة. وكان الناس من حوله يطرحون عليه الأسئلة أما هو فكان يجيب كطفل بدأ الكلام حديثاً. وكانوا يرسمون عليه علامة الصليب وهم يكلمونه متأثرين بهذه العجيبة الشديدة الوضوح.

إضافة إلى وجود الناس عند البئر تلتقي بالكثيرين في الساحة الواسعة ضمن أسوار الدير حيث توجد الكنائس و القلالي الرهبانيّة. وكانت كنيسة القديسين زوسيما وسفاتيوس الحجرية ذات الطابقين تجذب الزوار أكثر من أي شيء آخر. وأمام هذه الكنيسة كنت تجد دائماً زواراً راكعين. كانوا يعرفون جيداً أن كنزهم الجزيل الثمن مخبأ في الداخل، أي رفات الأب سيرافيم المقدّسة.

في ١٠ تموز امتلأت المساكن التي شيّدت لخدمة الزوار الكثيري العدد. وكانت هذه الأماكن قد حجزت مسبقاً. وكل من ذهبوا دون اتصال مسبق كانوا يؤمّنون بصعوبة كبيرة زاوية ما في المباني الملحقة بالدير.

في اليوم ذاته وصل إلى ساروف ديمتريوس رئيس أساقفة قازان لكي يشترك بالاحتفالات. وفي اليوم التالي وصل مدعي المجمع المقدّس العام الشيخ .B.K شامبلر بينما وصل في اليوم الذي تلاه في الساعة السادسة مساءً أنطونيوس متربوليت بطرسبرغ.

يوم الأحد في ١٣ تموز، بعد رجاءٍ خاص من راهبات ديفاييفو اللواتي كان البار سيرافيم يبدي تجاههنّ محبة واهتماماً خاصين، أقام

في ساحة ساروف

المتروبوليت أنطونيوس قداساً إلهياً في كاتدرائية الدير التي على اسم الثالوث القدوس، يساعده الأسقفان نزاريوس واينوكنديوس.

من الكنائس الأربع الصغرى الموجودة في كاتدرائية الثالوث القدوس كانت واحدة منها دون تدشين منذ عام ١٨٧٥م. لقد تركتها راهبات ديفاييفو هكذا لأنهنّ كنّ واثقات أن زمن إعلان قداسة البار آتية، آجلاً أم عاجلاً، عندئذٍ يكرّسن الكنيسة على اسمه.

في ١٥ تموز أقيم عيد مبشر الروس، الأمير الكبير معادل الرسل القديس فلاديمير بما يليق بالعيد من عظمة. ترأس صلاة القداس الإلهي

من العرش رئيس أساقفة قازان ديمتريوس وأقيمت الصلاة في كنيسة الينبوع الحي. بعد ذلك احتفل رئيس الأساقفة مع المتروبوليت أنطونيوس، والأسقفين نزاريوس و اينوكنديوس بإقامة صلاة ابتهالية لإكرام القديس ومعادل الرسل فلاديمير.

خلال القداس الإلهي ألقى العظة الأب A.B روزديستفينسكي. الذي جاء مع المتقدّم في الكهنة F.N أورنادسكي بناء على أمر المتروبوليت انطونيوس لكي يعظا بالكلمة الإلهيّة في كنائس الدير المقدّسة خلال فترة الاحتفالات. وكان قد جاء أيضاً للوعظ محرر «الأوراق الثلاث» الأرشمندريت نيكن، وكذلك المسؤول عن الجماعات الرسولية في قازان، الأرشمندريت اندراوس. وهكذا كانت الكلمة الإلهيّة تسمع في الكنائس كل يوم.

بدء الاحتفالات

حدد اليوم السادس عشر من تموز للبدء بالاحتفالات في ساروف. وفي الساعة ١٢ ظهراً دعت الأجراس الشعب إلى كاتدرائية الرقاد لإقامة التريصاجيون الرسمي: أقام الذكرانية المتروبوليت أنطونيوس والأسقفان نزاريوس واينوكنديوس، في هذه الصلاة اشترك أيضاً ١٢ أرشمندريتاً و ١٩ متقدّماً في الكهنة وكهنة و كهنة متوحدون.

كانت الكنيسة غاصة بالشعب، وكانت ألحان جوقة مطرانية بطرسبرغ المتميّزة بقيادة الأستاذ تيرنوف قد أثرت في كل المصلين. في مكان الجوقة اليسرى رتلت جوقة أسقفية تامبوف. وفي الطلبة الابتهالية، إضافة إلى ذكرانية الدائم الذكر المتوحد سيرافيم أقيمت ذكرانية الملوك والملكات من الإمبراطورة أليصابات حتى ألكسندروس الثالث. و ذكر أيضاً السابق رقادهم من رؤساء كهنة تامبوف، وكذلك الذين بنوا دير ساروف ورؤساؤه ووالدي الستارتس ايسيذوروس وأغاثي.

دامت الذكرانية ساعة و نصف. لم يستطع الزوّار أن يدخلوا إلى الكنيسة فتابعوا الصلاة من الخارج. في الساعة نفسها كانت الذكرانية

تقام في كنيسة الينبوع الحي. وكذلك في بقيّة كنائس الدير.

في اليوم ذاته وفي الساعة السادسة بعد الظهر أقيمت صلاة غروب كبرى وذكرانية ثانية لأجل راحة نفس البار في الكنائس التي كانت تستعمل آنئذٍ لإقامة سر الاعتراف للمؤمنين القادمين.

ترأس الصلاة في كنيسة الرقاد المتروبوليت انطونيوس يعاونه الأسقف إينوكنديوس. وفي كنيسة الينبوع الحي ترأس الصلاة رئيس الأساقفة ديمتريوس يعاونه الأسقف نزاريوس. وفي طلبة الإكتاني ذكر اسم الدائم الذكر المتوحد سيرافيم.

كل الذين كانوا في كاتدرائية الرقاد وجدوا فرصة للاستمتاع بألحان جوقة كاتدرائية بطرسبرج، فقد كانت ترنيمة «باركي يا نفسي للرب» (مزمور الغروب) من نظم كاستالسكي و«طوبى للرجل» من ألحان كييف. وأدى أداء الجوقة الرائع إلى خلق شعور بالابتهاج الديني لدى الجميع.

في اليوم السابع عشر من شهر تموز لوحظت حركة غير اعتياديّة في الدير بين الزوّار. كانوا ينتظرون موكبين من الديرين السيرافيميين، دير ديفاييفو و دير بونيتايف.

في الساعة السابعة صباحاً تحرك موكب من دير ساروف لكي يستقبل الراهبات، اشترك في هذا الموكب ممثلون عن جمعيات. كانوا قد جاءوا للمشاركة بالاحتفالات من مدن عديدة. وكانوا يحملون صلباناً وأيقونات وأعلام. رافق الموكب الأسقف اينوكنديوس مع عدد كبير من الكهنة والرهبان فعبروا دير ساتس وتوقفوا في مكان يدعى « كرانيوّن» وانتظروا. هناك كانت قد شيدت كنيسة خشبية صغيرة مفتوحة من جهاتها الأربع.

في الساعة الثامنة ظَهَرَ في الغابة موكبا الديرين النسائيين اللذين اتحدا بموكب واحد مهيب وتوجه نحو بوابات الدير.

الموكب متوجهاً نحو أبواب دير ساروف

تجمّع على طول الطريق عددٌ لا يحصى من الزوّار. وكان ممثلو الجمعيات والأخويات قد أحضروا معهم أعلاماً مزركشة بدقةكهدايا لدير ساروف. والواهبون هم حملة الأعلام من المدن التالية: نيزنكورد، اليكسندروف، كوفروف، ياروسلاف، تولسف، فلاديمير، موسكو، روستوف. وكان كلّ مندوب منهم قد أحضر علمين. وكان كلّ واحد من حملة الأعلام من مدن كلين، بافلوف، مورين، سوندال، بوغورود، كولومين، سودوغور، غيوروييف وريازان، قد أحضر علماً واحداً.

في التاسعة صباحاً سمع قرع الأجراس للقداس الثاني الذي أقيم لأجل راحة نفس البار سيرافيم في كاتدرائية رقاد العذراء، ترأس الصلاة المتربوليت أنطونيوس والأسقف نزاريوس. في نهاية القداس تكلّم الأسقف بخصوص ذكرى البار.

وترأس الصلاة في كنيسة الينبوع الحي رئيس الأساقفة ديمتريوس، وألقى العظة المتقدم في الكهنة N. F. اورنادسكي. وأقيمت ذكرانية لأجل

الموكب متوجهاً نحو أبواب دير ساروف

راحة نفس المتوحد سيرافيم.

في الأيام الماضية كان الشعب بعد الصلوات ينسحب إلى مهاجعه. وأما الآن فقد بقي في الدير لأنه علم أن العائلة المالكة وصلت إلى مدينة أرزا ماس وتتوجه نحو ساروف.

اصطف آلاف الزوار يميناً وشمالاً كسورين لا يخترقان على طول الطريق الذي كان سيعبرّ عليه الوفد الملكي. خلف أسوار الدير وقبل الشعب وقفت الراهبات من ديري ديفاييفو وبونيتايف بصفّ واحد.

كانت أبصار الجميع شاخصة نحو غابة ساروف المهيبة حيث كانت العربات الملكيّة ستظهر في الساعة الرابعة بعد الظهر بدأ جرس الدير الكبير يقرع احتفاءً بمجيء الملوك. وفي الساعة الخامسة بدأت الجرسيّات الثلاث بكل أجراسها توزع نغمة خاصة على بريّة ساروف.

في الساعة الخامسة والنصف ظهرت العربة الأولى تجرها أربع أحصنة حاملة القيصر نيقولاوس و الأمبراطورة أليكسندرا ثيوذوروفنا

نقل الرفات المقدسة إلى كنيسة الرقاد

وفجأة خرج من حناجر آلاف الشعب «يعيش» وكانت بهجتهم لا توصف.

في هذا الوقت ظهرت العربة الثانية حاملة الملكة الأم ماريا ثيوذورفنا وتبعت عربات الرسميين. عربة الأمير سرجيوس أليكسندروفتش مع امرأته أليصابات ثيوذورفنا والأميرة أليكسندرثيوذورفنا مع زوجها بطرس أليكسندروفتش من أولدمبرغ، وعربات الأمراء نيقولا نيكولايفتش وبطرس نيكولايفتش مع زوجته ميليتسي نيكولايفنا، وفي النهاية الأمير جورج ماكسيميليانوفتش مع زوجته أناستاسيًا نيكولايفنا من لِخْتِنْبِرْ.

عندما وصلوا إلى أبواب الدير ترجّلوا من العربات حيث استقبلهم المتروبوليت أنطونيوس مع الأساقفة الآخرين ومصفّ الاكليروس، وتوجه نحو القيصر بكلمة الترحيب التالية:

« أيها السيد الكلّي الاحترام. إن دير ساروف يستقبلكم بفرح عظيم لأنكم أتيتم لتشتركوا في عيد إعلان ناسكه العظيم الدائم الذكر المتوحد سيرافيم قديساً. والشعب الأرثوذكسي الذي تجمّع هنا، مبتهج لرؤيته

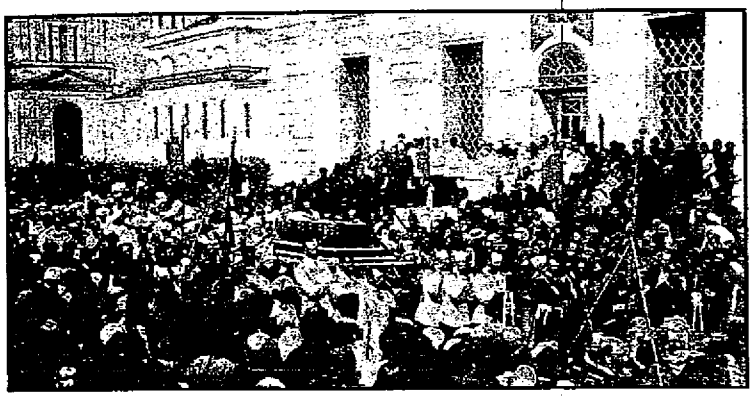

مرحلة أخرى من نقل الرفات المقدسة

القيصر مصلياً ومشتركاً معه بهذا الاحتفال الرائع. ادخلوا أيها المظفر إلى الدير بسلام. ليكن دخولكم مباركاً من الرب بصلوات عبده المتقدّس.»

توجه الملكان نحو كنيسة رقاد السيدة العذراء مشياً على الأقدام فوق سجادة حمراء يتقدّمهم المتروبوليت ومصفُّ الاكليروس كلّه. وبعد أن رتلوا هناك صلاة شكريّة قصيرة توجهوا نحو كنيسة القديسين زوسيما و سفاتيوس، حيث كانت رفات البار المقدّسة موضوعة.

دخلت العائلة المالكة ومرافقوها إلى الكنيسة مع الأساقفة فسجدوا وبعد ذلك اقتيدوا إلى الجناح الرئاسي. في الطابق الأعلى جناح للقيصر وزوجته. وفي الطابق الأسفل جهِّزَ مكان للأمير سرجيوس وزوجته أليصابات.

وأثناء دخول الملوك إلى الجناح المخصص لهم كان رهبان الدير يتقدمونهم وذلك بحسب العادة الروسيّة.

وجهِّزَ جناح في مقرّ رؤساء الكهنة للملكة الأم وكذلك مكان للأميرة أولفا وزوجها. وأنزل بقية الرسميين في مقرّ خارج سور الدير بالقرب من الغابة إلى جانب نهر ساتيس.

بعد الاستقبال توجه المتروبوليت وكل مصف الاكليروس إلى

كنيسة الرقاد حيث قدموا صلاة شكر للرب لوصول العائلة المالكة بالسلامة. في الساعة السابعة مساءً صار غروب كبير وذكرانية في كل كنائس الدير.

في ١٨ تموز الساعة ٥ صباحاً بدأت أجراس الدير تقرع معلنة بدء القداس الصباحي الذي أقيم في جميع كنائس الدير. صلى القيصر وزوجته ووالدته في كنيسة القديس انطونيوس الصغيرة وتناولوا الأسرار المقدّسة بعد أن كانوا قد اعترفوا في اليوم السابق عند المتوحد سمعان. في اليوم نفسه اعترف وتناول جمع كبير من الزوّار.

الذكرانية الأخيرة

في الساعة الثامنة والنصف صباحاً بدأت الأجراس تقرع إعلاناً ببدء القداس الإلهي الأخير لأجل راحة الستارتس الدائم الذكر في كنيسة الرقاد. وبعد نهاية السحرية صدح صوت الجرس نغمةَ الحزن، داعياً المؤمنين إلى الكنيسة لكي يصلوا للمرّة الأخيرة لأجل راحة نفس الستارتس. حضر هذه الذكرانيات القيصر والقيصرة والأمراء. وقبل بدء الذكرانية صعد المتروبوليت انطونيوس إلى المنبر وألقى العظة التالية.

«عجيب الله في قديسيه. لقد وهبنا الله نحنُ الموجودين هنا والمصلّين، بركة خاصة بأن نشارك في هذه الاحتفالات البهيجة في عيدِ إعلان الدائم الذكر المتنسك سيرافيم، رسمياً، قديساً. المجد والشكر يليقان بالرب الذي يهتم بنا إلى هذا الحد. افرحي وابتهجي يا بريَّة ساروف لأنك بمجد ربِّكِ ستمجَّدين وتمجِّدين.

سنقيم الآن التضرّع الأخير لأجله كما لأجل كلِّ مسيحي. وبعد ذلك سيصلي المسيحيون الأرثوذكس متوجهين إليه كما يصلون للقديسين جميعاً. ورفاته المقدّسة التي بقيت سبعين عاماً مرتاحة تحت الأرض ستوضع الآن في هذا الصندوق لكي يسجد لها بتقوى المؤمنون الذين يلجؤون إليه بالصلاة ويطلبون المساعدة والتعزية والشفاء».

في الواقع إن ضوء القيامة يشع في هذه الاحتفالات بشكل دائم.

ويرد على ذهني بشكل مستمر القول الرسولي « يزرعُ بهوانٍ ويقومُ بمجدٍ. يزرع بضعف ويقوم بقوَّة» /١ كو ١٥: ٤٣ /. وبواسطة رفاة القديسين يمنح الله الناس الشفاء من الأمراض والضعفات. وفي رفات الأبرار المقدّسة توجد قوَّة الحياة بنعمة الله.

وفي هذه الشفاءات المدهشة يليق المديح بالأب سيرافيم، الذي عندما كان لا يزال على قيد الحياة كان فعلُ صلاته المؤثّرة أمام الله يجمعُ عدداً كبيراً من المؤمنين في بريَّة ساروف. والآن يمجده الله أمام عشرات آلاف المؤمنين القادمين من كل روسيا وسيبريا البعيدة من الغرب والشرق من الشمال والجنوب وعلى رأس هذه الاحتفالات الشعبية الملك الأرثوذكسي الموجود مع الكثيرين من أعضاء البيت الملكي.

والزائرون الكثيرون المجتمعون هنا بالقرب من الرفات المقدسة بقلب واحد وفكرٍ واحد يؤكدون ثانية ميِّزة قديمة جداً من ميِّزات الشعب الروسي. إنّ هذا الشعب يعرف البلاد وتاريخها ليس من الحوادث العسكريّة السياسية بقدر ما يعرفها من مجاهدي الإيمان والحقيقة والمحبّة.يعرف كيف بالقديسين انطونيوس وثيوذوسيوس رئيسَيْ الكهوف ويعرف موسكو بلافرا الثالوث القدوس القريبة منها وبالقديس سرجيوس وبرؤساء كهنة المدينة. يعرف الشعب الروسي الشمالَ ومنطقة سلوفسكي من خلال القديسين سفاتيوس وزوسيماس. ويعرف سيبيريا من خلال القديس سمعان فيرخوتورسكي والأسقف اينوكنديوس اركوتسك. ولأجيال يزور الروس الأماكن التي تقدست بجهاداتهم حيث يتعلمون قوانين الحياة المقدسة ويتقوون بالإيمان والبر والصلاح والمحبة.

والآن يظهر الرب شخص البار سيرافيم منيراً ومعلماً جديداً وحصناً روحياً للشعب الروسي، عجيب هو الله في قديسيه.

وتحدث هنا يومياً بصلاة البار عجائب كثيرة. وإذا سَأَلنا إنسان ما عنها سنجيبه بثقة وصدق كاملين. العمي يبصرون والمشلولون يمشون

والصم يسمعون ... والفقراء يبشرون. / لوقا ٧: ٢٢ /.

فلنصلِّ بحرارة وتقوى للمرّة الأخيرة لأجل راحة الدائم الذكر الستارتس سيرافيم ولنمجِّد الله العجيب في قديسيه آمين.

بعد عظة المتروبوليت بدأت صلاة الذكرانية بمشاركة جميع المؤمنين. وكان ترتيل جوقة كنيسة بطرسبرج رائعاً. وفي النهاية ذهب كل الاكليريكيين مع المرتلين إلى مدفن البار حيث رتلوا التريصاجيون أمام ضريحه القديم.

وبينما كان المتروبوليت عائداً إلى الكاتدرائية توقف عند الصندوق المصنوع بشكل فني، حيث صلى صلاة تقديس الأيقونات ونَضَحَ الصندوق بماء مقدَّس والأيقونات المرسومة عليه.

ذروة الأعياد

ـ في الساعة السادسة مساءً قرعت الأجراس للغروب العظيم والسحر، إنها الصلاة الأولى التي سيتم فيها تكريم البار سيرافيم وسيغبَّط من الكنيسة كقديس. أما رفاته فستعرض أمام الشعب المحتشد للسجود لها. هذا ما عَلِمَ به الشعب ولهذا قدم إلى الدير ما يقارب مائة ألف نسمة ولم تتسع ساحة الدير لأكثر من ربع الموجودين ولهذا كانوا يدخلون إلى الدير بناءً على بطاقة دخول.

دخل المتروبوليت بحفاوة إلى كنيسة الرقاد وتبعه الملك والملكة والأمراء الذين وقفوا في الجهة اليمنى. وأقيمت الصلاة بالترتيب المعتاد.

عند الليتين، أضاء الجميع شموعهم التي كانوا يحملونها. والجوقة ترتل وقد تشكلَّ صفٌ يبدأ من الباب الجنوبي ويصل حتى كنيسة القديسين زوسيما وسفاتيوس.

مشى في الموكب الملكة والملك والأمراء وفيما بعد وزير الخارجيَّة K. B فون بليسيه وبارون الامبراطوريَّة فريدريك ووزير المواصلات M.M خليكوف والأمير I.I فوروندسوف داسكوف والنائب الشيخ B شامبلر وشخصيات رسميّة أخرى.

فتحت أبواب الكنيسة ودخلها المتربوليت مع مصفٌ الاكليروس والرسميين، وسجدوا في الوسط أمام الرفات المقدَّسة وبعد ذلك بَخَّرَ

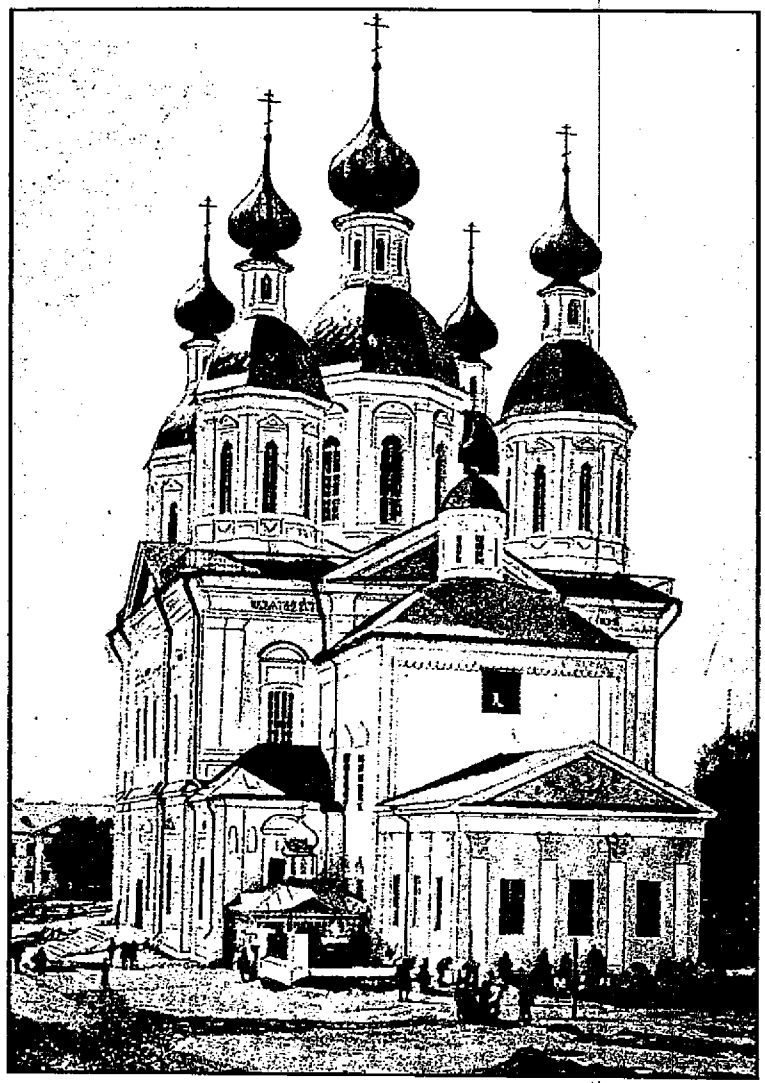

كنيسة الرقاد حيث وضعت رفاة القديس سيرافيم المقدسة

المتروبوليت حول صندوق الرفاة الذي أخرج محمولاً على الأكتاف من قبل الملك والأمراء وبعض الكهنة ثم وضعوه في خارج الكنيسة على محملٍ ورفعوه عالياً، فوق رؤوسهم، لكي يَظْهَرَ من كلِّ الجهات. أثَّرَ المنظر بالمؤمنين حتى دمعت عيونهم وفي الطريق من حيث سيمرُ الموكب فرشوا أقمشة صوفيَّة ومحارم وأقمشة مزركشة. وعلى جانبي الطريق كان مضَّجعاً كلُّ صاحب عاهة.

خلال مرور موكب الرفات المقدَّسة حدثت بعض العجائب. كانت إحدى القرويات تدعى فيراتسيرنيسيفا عمرها ٢٩ عاماً من بروميسلوف من محافظة استراخان. مقعدة منذ خمس سنوات وقفت وصارت تمشي وحدها. وقروية أخرى تدعى ثيوذورا سليزيفا عمرها ٢٦ عاماً، شفيت من مرضٍ عضال.

عند باب كنيسة الرقاد الغربي سمعت الطلبة الأولى من صلاة الليتين وتبعتها أربع محطات أيضاً حول الكنيسة من جهة إلى أخرى بالطلبات الأربعة ثم دخل الموكب الكنيسة ووضع صندوق الذخائر في الوسط على موضع مرتفع واستمرت صلاة السحر.

وعند قراءة الكاثسماطات ألقى الأسقف اينوكنديوس عظة قبل ترتيل البوليئيليون /سبحوا اسم الرب. سبحوا يا عبيد الرب. هللوييا/. وتقدم كل الأكليريكيين المشتركين في الخدمة إلى وسط الكنيسة ثمَّ نزل المتروبوليت انطونيوس عن العرش واقترب من صندوق رفاة القديس، وفتح القفل ثم رفع الغطاء.

سجد الجميع بينما كان الاكليروس يرتلون تعظيمة القديس. وبعد قراءة الإنجيل سجد المتروبوليت وبقيّة رؤساء الكهنة للرفات المقدّسة، ثم سجدت العائلة المالكة، وبعد ذلك الكهنة ثم الشعب.

لما انتهت الخدمة لم تغلق أبواب الكنيسة بل بقيت مفتوحة طوال الليل، لكي يتمكن المؤمنون من الدخول والسجود للرفات المقدّسة. دام دخول الناس وسجودهم حتى الصباح. الواحد خلف الآخر يَسْجدُ ثم يُدْهَنُ بالزيت المقدس من الكهنة.

في اليوم التالي بدأت الليتورجيا الثانية في كنيسة رقاد السيّدة

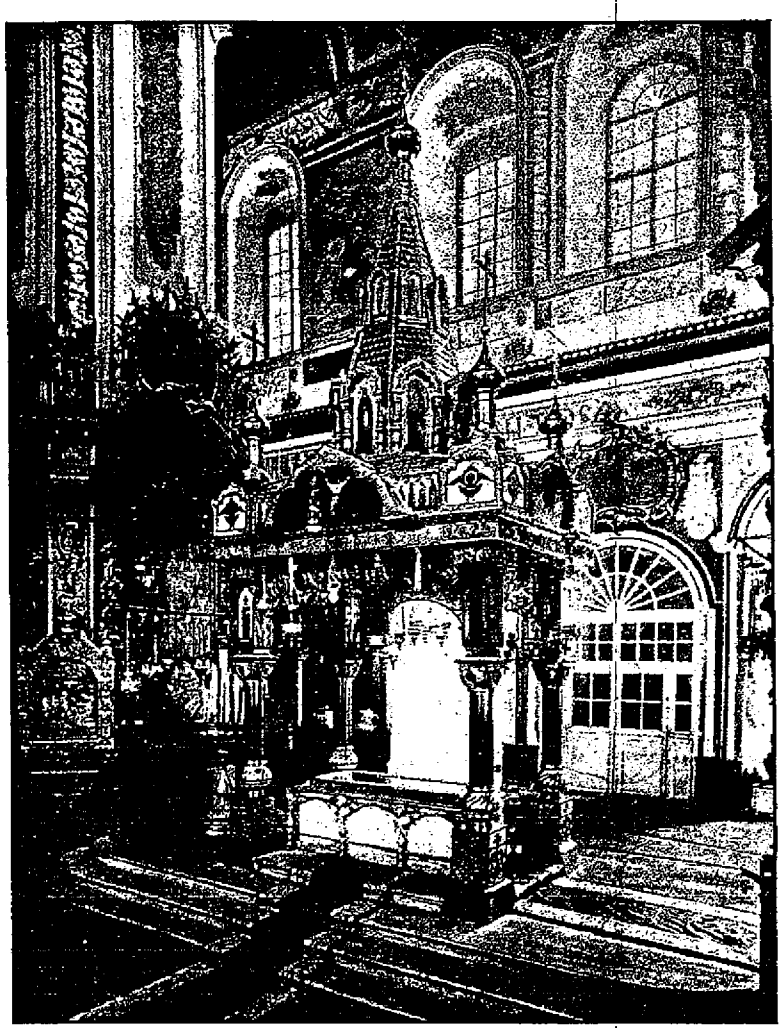

الصندوق في كنيسة الرقاد حيث وضعت رفاة البار المقدسة

الساعة الثامنة صباحاً. لقد قدّس المتروبوليت مع الأساقفة الآخرين. وكانت العائلة المالكة حاضرة وفي الوقت الذي رتلوا فيه «هلموا لنسجد ... » رفع الأرشمندريتية الرفات المقدّسة التي كانت في منتصف الكنيسة وبعد أن زيّحوها حول المائدة المقدّسة. وضعوها في صندوق جميل جداً كان القيصر قد هيأه وأهداه للدير.

في تلك اللحظة حدثت العجيبة التالية: كانت السيّدة ماسيلينوكوفا والتي تنتمي لطبقة تجار موسكو قد جاءت مع ابنتها ذات الإثني عشر عاماً والتي كانت تعاني من التأتأة ولم تستطع خلال سنتين أن تلفظ كلمة واحدة ولم يستطع الأطباء ولا الأدويّة أن ينفعوها بشيء.

ففي الساعة التي كان صندوق الرفات يمر من أمام المريضة وضعت أمّها عليه منديلاً ومسحت بالمنديل وجه الصبيّة. عند ذلك نادت أمها واستمرّت بالحديث أمام دهشة الجميع وفي النهاية استحقت أن تتناول الأسرار المقدّسة.

بعد القداس الإلهي ألقى رئيس الأساقفة ديمتريوس عظة وفي النهاية بدأ ابتهالاً موجهاً للبار. وفي ساعة الترتيل رنموا طروباريّته، واقترب الأرشمندريتية من صندوق الرفات، وأخرجوا منه العلبة مع الرفاة المقدّسة، فرفعها القيصر مع الأمراء على أيديهم يعاونهم الأرشمندريتية، وخرجوا إلى خارج الكنيسة وزيحوها حول كل كنائس الدير.

كان الشعب قد اصطفّ على امتداد الدير كسورٍ حي مفعم بشعور الابتهاج والسرور، كان صوت بكاء النساء يسمع من كل مكان. ولما عاد الموكب إلى الكاتدرائية تلا المتروبوليت صلاة موجهة للقديس الجديد، بينما كان الجميع يصلّون راكعين، استمرّ رفع الابتهال وفي النهاية رتّل البوليخرونيون. الدعاء الأسقفي .

هكذا انتهت صلاة اليوم الرئيسي في احتفالات ساروف. ومن الآن وصاعداً سيغبط اسم البار سيراقيم من جيل إلى جيل، وسيمجّد في الكنيسة الأرثوذكسيّة مع أسماء القديسين العظماء الآخرين.

المراجع

1. *Βίος τοῦ ὁσίου πατρός ἡμῶν Σεραφείμ, τοῦ θαυματουργοῦ τοῦ Σάρωφ*, ἔκδ. Ἱ. Μονῆς τοῦ Σάρωφ, Μόσχα 1903.

2. *Ἡ ζωή καί τά θαύματα τοῦ ὁσίου Σεραφείμ τοῦ Σάρωφ*, ἔκδ. Ι. Δ. Σίτινα, Μόσχα 1903.

3. Λ. Ι. Ντενίσωφ, *Βίος θαύματα, διδασκαλία καί ἀνακομιδή τῶν λειψάνων τοῦ ὁσίου πατρός ἡμῶν Σεραφείμ, τοῦ θαυματουργοῦ τοῦ Σάρωφ*, Μόσχα 1904.

4. Σεργίου Νείλου, *Ἐπί θύραις ὁ ἀντίχριστος*, Μόσχα 1911.

5. Ν. Δ. Ζεβάχωφ, *Σέργιος Ἀλεξάνδροβιτς Νεῖλος*, ἔκδ. «Νέος κῆπος», Γιουγκοσλαβία 1936.

6. Φέλιξ Γιουσούπωφ, *Πρίν τήν ἐξορία*, ἔκδ. PLON 1952.

7. Β. Ν. Ἰλίν, *Ὁ ὅσιος Σεραφείμ τοῦ Σάρωφ*, ἔκδ. 3η, Νέα Ὑόρκη 1971.

8. Περιοδικό: «ΤΣΕΡΚΟΒΝΙΓΙΑ ΒΕΝΤΟΜΟΣΤΙ» (Ἐκκλησιαστικά χρονικά), ὄργανο τῆς Ἱερᾶς Συνόδου τῆς Ἐκκλησίας τῆς Ρωσίας, τεῦχος 5 (1ης Φεβρουαρίου 1903) καί τεῦχος 29 (19ης Ἰουλίου 1903).

9. Περιοδικό: «NIBA» (Ἀγρός), τεῦχος 29 (Ἰούλιος 1903).

10. Πολιτικοφιλολογική ἐφημερίδα: «ΓΡΑΖΝΤΑΝΙΝ» (Πολίτης), τεῦχος 57 (17ης Ἰουλίου 1903) καί τεῦχος 58 (20ῆς Ἰουλίου 1903).

11. Ἀπολογητικό περιοδικό: «ΜΙΣΙΟΝΕΡΣΚΟΓΙΕ ΟΜΠΟΖΡΕΝΙ-ΓΙΕ» (Ἱεραποστολική ἐπιθεώρησις), τεῦχος 11 (Ἰούλιος 1903).

انتهت الترجمة
فيً الساعة ١١ مساءً
من يوم الأربعاء في ١٩٩٩/١١/١٧

﴿للآب الحمد والشكر والسجود مع الابن والروح القدس﴾

﴿آمين﴾

الفهرس

– مقدمة الطبعة العربية ٧
– مقدمة الطبعة الأولى باللغة اليونانية ٩
– منشور مجمع الكنيسة الروسية المقدس ١٥

الفصل الأول: سنوات شبابه ٢٣
– والداه التقيان ٢٥
– دعوته الرهبانية ٢٧
– في لافرا الكهوف ٢٩

الفصل الثاني: الراهب المبتدئ ٣٥
– في دير ساروف ٣٧
– البرنامج اليومي ٣٩
– جهادات روحية ٤٢
– ظهور العذراء ٤٤

الفصل الثالث: سرافيم في دير الشركة ٤٩
– شرطونيته شماساً ٥٣
– ظهور السيد ٥٥
– شرطونيته كاهناً ٥٨

الفصل الرابع: متوحداً ٦١
– شوق الهدوء ٦٣
– بركة لأجل بناء منسك للتوحد والانقطاع ٦٥
– تعب الجهاد ٦٩
– سمو المعاينة ٧٠

- الإمساك في الطعام ٧٤
- زوار الناسك ٧٦
- هجمات الشيطان ٧٧
- الألف يوم ٧٨
- اللصوص الثلاثة ٨١
- المسترشد المستنير ٨٥
- موت رئيس الدير أشيعاء ٨٦
- الصمت ٨٨

الفصل الخامس: العودة إلى الدير ٩٣
- حياة الانقطاع ٩٥
- التخفيف من شدة الانقطاع ٩٩
- الانخطاف إلى السموات ٩٩
- نصائح للرهبان ١٠٢
- نصائح للعلمانيين ١٠٣
- مواهب خارقة ١٠٦

الفصل السادس: في البرية القريبة ١١١
- وضع نهاية لحياة العزلة ١١٣
- السكن في البرية ١١٥
- قوة التعليم ١١٩
- القيصر ألكسندروس الأول ١٢١
- قائد الجيش المستقيل ١٢٢
- شفاء ألكسندره ١٢٤

الفصل السابع: دير ديفاييوا ١٢٧
- تأسيس الدير ١٢٩

- دير الطاحونة ١٣٢
- الحياة في الدير الجديد ١٣٥
- اللقاء مع الدبة ١٣٧
- دعوات رهبانية ١٤١
- الراهبة آناسطاسيا بروتاسوفا ١٤٣
- القانون الرهباني الجديد ١٤٦
- الراهبة إفدوكيا ١٤٧
- الكنيسة الحجرية ١٤٨
- قانون دير الشركة ١٥٠
- كاتدرائية الدير ١٥٢

الفصل الثامن: أديار أرداتوف وزيلينونكورسك ١٥٧
- دير أرداتوف ١٥٩
- دير زيلينونكورسك ١٦٥

الفصل التاسع: مرشد روحي ١٦٧
- اضطراب الإخوة الرهبان ١٦٩
- نصائح للرهبان ١٧١
- تعاليم للعلمانيين ١٧٧

الفصل العاشر: مظاهر روحية ١٩١
- موهبة معرفة المستقبل ١٩٣
- موهبة الشفاء ٢٠٤
- شفاءات ونبوءات ٢١٦
- نبوءات مختلفة ٢٢٢
- نبوءات عن روسيا ٢٣٧
- ميزات حياته ٢٣٩

- علاقة البار مع شخصيات روحية ٢٤٤
- ظهور العذراء ٢٤٨

الفصل الحادي عشر: نحو الأخدار السماوية ٢٥٥
- لقاءاته الأخيرة ٢٥٧
- إعلانات رقاده ٢٧١
- الرقاد المقدس ٢٨٢
- الحفاظ على ذكراه ٢٨٨

الفصل الثاني عشر: كرامات بعد الموت ٢٩٧
- الثلاثون سنة الأولى ٢٩٩
- السنوات الثلاثون الثانية ٣١٣
- عجيبة مدهشة ٣٢٨

الفصل الثالث عشر: تعاليم مختصرة ٣٣٣
- حول الله ٣٣٥
- الإيمان ٣٣٦
- الرجاء ٣٣٦
- محبة الله ٣٣٧
- خوف الله ٣٣٧
- رفض العالم ٣٣٨
- الهدوء ٣٣٩
- الصلاة ٣٣٩
- اليقظة ٣٤٠
- النفس والجسد ٣٤٢
- غذاء النفس ٣٤٣
- سلام النفس ٣٤٤

- الحفاظ على السلام ٣٤٥
- الفضائل الرهبانية ٣٤٧
- جهادات نسكية ٣٤٨
- نور المسيح ٣٤٩
- في الدموع ٣٤٩
- التوبة ٣٥٠
- الصوم ٣٥٢
- صون القلب ٣٥٣
- الثرثرة ٣٥٣
- أحوال القلب ٣٥٤
- الأمراض ٣٥٥
- الشفقة ٣٥٥
- الأفكار غير النقية ٣٥٦
- الصبر والتواضع ٣٥٧
- محبة القريب ٣٦٠
- الإدانة وعدم الشر ٣٦١
- الاهتمامات المعيشية ٣٦٣
- الضجر ٣٦٤
- الحزن ٣٦٥
- اليأس ٣٦٦
- الحياة العملية وحياة الثيوريا ٣٦٨

الفصل الرابع عشر: تعليمه عن الروح القدس ٣٧١
- هدف حياتنا ٣٧٤
- الأعمال الصالحة ٣٧٤
- الصلاة ٣٧٦

– الفضائل الأخرى ٣٧٧
– التعرف بالحواس ٣٧٨
– النعمة الإلهية في الأسرار ٣٧٩
– النور غير المخلوق ٣٨٠
– ثمار الروح ٣٨٢
– ملكوت الله ٣٨٤

الفصل الخامس عشر: احتفالات إعلانه قديساً ٣٨٧
– تاريخ نقل الرفات ٣٨٩
– احتفالات التهيئة ٣٩٢
– بدء الاحتفالات ٣٩٦
– الذكرانية الأخيرة ٤٠٢
– ذروة الأعياد ٤٠٤
– المراجع ٤١٠
– الفهرس ٤١١